باب ما جاء في الاستسقاء بالأنواء

الاستسقاء : طلب السقيا كالاستغفار : طلب المغفرة ، والاستعانة : طلب المعونة ، والاستعاذة : طلب العوز ، والاستهداء : طلب الهداية ، لأن مادة استفعل في الغالب تدل على الطلب، وقد لا تدل على الطلب ، بل تدل على المبالغة في الفعل ، مثل : استكبر ، أي بلغ في الكبر غايته، وليس المعنى طلب الكبر، والاستسقاء بالأنواء ، أي : أن تطلب منها أن تسقيك .

والاستسقاء بالأنواء ينقسم إلى قسمين :

القسم الأول : شرك أكبر ، وله صورتان :

الأولى : أن يدعو الأنواء بالسقيا ، كأن يقول : يا نوء كذا ! اسقنا أو أغثنا ، وما أشبه ذلك ، فهذا شرك أكبر ، لأنه دعي غير الله ، ودعاء غير الله من الشرك الأكبر ، قال تعالى (وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لا بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِنْدَ رَبِّهِ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ)(المؤمنون:117) وقال تعالى (وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلا تَدْعُو مَعَ اللَّهِ أَحَداً)(الجن:18) وقال تعالى (وَلا تَدْعُ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَنْفَعُكَ وَلا يَضُرُّكَ فَإِنْ فَعَلْتَ فَإِنَّكَ إِذاً مِنَ الظَّالِمِينَ)(يونس:106) .إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة الدالة على النهي عن دعاء غير الله وأنه من الشرك الأكبر .

الثانية : أن ينسب حصول الأمطار إلى هذه الأنواء على أنها هي الفاعلة بنفسها دون الله ولو لم يدعها ، فهذا شرك أكبر في الربوبية ، والأول في العبادة ، لأن الدعاء من العبادة ، وهو متضمن للشرك في الربوبية ، لأنه لم يدعها إلا وهو يعتقد أنها تفعل وتقضي الحاجة .

القسم الثاني : شرك أصغر ، وهو أن يجعل هذه الأنواء سببا مع اعتقاده أن الله هو الخالق الفاعل ، لأن كل من

جعل سببا لأن كل من جعل سببا لم يجعله الله سببا لا بوحيه ولا بقدره ، فهو مشرك شركا أصغر .

وقول الله تعالى (وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ) (الواقعة:82)

****

قوله تعالى:(وتجعلون) . أي : تصيرون ، وهي تنصب مفعولين : الأول (رزق) ، والثاني : (أن) ، وما دخلت عليه في تأويل مصدر مفعول ثان ، والتقدير : وتجعلون رزقكم كونكم تكذبون أو تكذيبكم .

والمعنى : تكذبون أنه من عند الله ، حيث تضيفون حصوله إلى غيره .

قوله:(رزقكم).الرزق هو العطاء، والمراد به هنا: ما هو أعم من المطر ، فيشمل معنيين :

الأول : أن المراد به رزق العلم ، لأن الله قال : (فَلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إنه لقرآن كريم * في كتاب مكنون* لا يمسه آلا المطهرون* تنزيل من رب العالمين * أفبهذا الحديث أنتم مدهنون *وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون * وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ)(الواقعة: 75 -83) أي تخافونهم فتداهنوهم ، وتجعلون شكر ما رزقكم الله به من العلم والوحي أنكم تكذبون به وهذا هو ظاهر سياق الآية.

الثاني : أن المراد بالرزق المطر ، وقد روى في ذلك حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم لكنه ضعيف [1]إلا أنه صح عن ابن عباس رضى الله عنهما في تفسير الآية : أن المراد بالرزق المطر ، وأن التكذيب به ونسبته إلى

---

(1) الإمام أحمد في المسند (1/ـ 89،108) والترمذي (كتاب التفسير ، سورة الواقعة ، وقال احمد بن شاكر : (إسناده ضعيف) المسند (_677)

(2) يأتي (609)

الأنواء[2] ، وعليه يكون ما ساق المؤلف الآيـة من أجلـه مناسبا للباب تماما .
والقاعدة في التفسير أن الآية إذا كانت تحتمل المعنيين جميعـا بـدون منافـاة تحمـل عليهمـا جميعـا، وإن حصـل بينهما منافاة طلب المرجح .
ومعنى الآية : أن اللـه يـوبخ هـؤلاء الـذين يجعلـون شـكر الرزق التكذيب والاستكبار والبعد ، لأن شكر الرزق يكون بالتصـديق والقبـول والعمـل بطاعـة المنعم ، والفطـرة كــذلك لا تقبــل أن تكفــر بمن ينعم عليهــا، فــالفطرة والعقل والشرع كل منها يوجب أن تشكر من ينعم عليك ، سواء قلنا: المراد بالرزق المطر الذي به حيـاة الأرض ، أو قلنا أن المراد به القرآن الذي به حيـاة القلـوب، فـإن هذا من أعظم الرزق ، فكيـف يليـق بالإنسـان أن يقابـل هذه النعمة بالتكذيب ؟!
واعلم أن التكذيب نوعان :
أحـدهما : التكـذيب بلسـان المقـال ، بـأن يقـول : هـذا كذب ، أو المطر من النوء ، ونحو ذلك .
والثـاني : التكـذيب بلسـان الحـال ، بـأن يعظم الأنـواء والنجوم معتقدا أنها السبب ، ولهـذا وعـظ عمـر بن عبـد العزيز الناس يومـا ، فقـال : (يـا أيهـا النـاس ! إن كنت مصــدقين ، فــأنتم حمقى ، وإن كنتم مكــذبين ، فــأنتم هلكى) وهذا صحيح ، فالذي يصدق ولا يعمل أحمق ، والمكذب هالك ، فكـل إنسـان عـاص نقـول لـه الآن أنت بين أمرين : إما أنك بين مصدق بما رتب هذه المعصــية ، أو مكـذب ، فـإن كنت مصـدقا ، فـأنت أحمـق ، كيـف لا تخاف فتستقيم ؟! وإن كنت غير مصدق ، فـالبلاء أكـبر ، فأنت هالك كافر .

وعن أبي مالك الأشـعري رضـي اللـه عنـه ، أن رسـول صلى الله عليـه وسـلم قـال : (أربـع في أمـتي من أمـر الجاهلية لا يـتركونهن : الفخـر بالأحسـاب ، والطعن في الأنساب ، والاستسقاء بالنجوم ، والنياحة) .

(

---

* * *

قوله في حديث أبي مالك : (أربع في أمـتي) . الفائـدة من قولــه : (أربــع) ليس الحصــر ، لأن هنــاك أشــياء تشاركها في المعنى ، وإنما يقول النبي صلى الله عليـه وسلم ذلك من حصر العلوم وجمعهـا بالتقسـيم والعـدد ، لأنه يقرب الفهم ، ويثبت الحفظ .

قوله:(من أمر الجاهلية) . أمـر هنـا بمعـنى شـأن ، أي : من شأن الجاهلية وهو واحد الأمور ، وليس واحد الأوامر ، لأن واحد الأوامر طلب الفعل على وجه الاستعلاء .

وقوله:(من أمر الجاهلية) إضافتها إلى الجاهلية الغرض منها التقبيح والتنفير ، لأن كل إنسان يقال:فعلـك فعـل الجاهليـة لا شـك أنـه يغضـب ، إذ إنـه لا أحـد يرضـى أن يوصـف بالجهـل ، ولا بـأن فعلـه من أفعـال الجاهليـة ، فالغرض من الإضافة هنا أمران :

1. التنفير

2. بيان أن هذه الأمـور كلهـا جهـل وحمـق بالإنسـان ، إذ ليست أهلا

بأن يراعيها الإنسـان أو يعتـني بهـا ، فالـذي يعتـني بهـا فهو جاهل ,

والمراد بالجاهلية هنا : ما قبل البعثة ، لأنهم كــانوا على جهـل وضـلال عظيم حـتى إن العـرب كـانوا أجهـل خلـق الله ، ولهذا يسمون بالأميين ، والأمي هـو الـذي لا يقـرأ ولا يكتب ، نسبة إلى الأم ، كأن أمه ولدته الآن . لكن لما بعث فيهم هذا النـبي الكـريم ، قـال تعـالى : (لَقَـدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُـؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُـولاً مِنْ أَنْفُسِـهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَـةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلالٍ مُبِينٍ)(آل عمران:164) . فهذه منة عظيمـة أن بعث فيهم النـبي عليـه الصـلاة والسـلام لهذه الأمور السامية :

1 – يتلو عليهم آيات الله .

2 – ويـــزكيهم ، فيطهـــر أخلاقهم وعبـــادتهم وينميها .
3 – ويعلمهم كتاب الله .
4 – والحكمة .
هـذه فوائـد أربـع عظيمـة لـو وزنت الـدنيا بواحـدة منهـا لوزنتها عند من يعرف قدرها ، ثم يـبين الحـال من قبـل (وَإِنْ كَـانُوا مِنْ قَبْــلُ لَفِي ضَــلالٍ مُبِينٍ)(آل عمــران: 164) . فهــذه منــة عظيمــة أن بعث فيهم النــبي عليــه الصلاة والسـلام لهـذه(وَإِنْ كَـانُوا مِنْ قَبْـلُ لَفِي ضَـلالٍ مُبِين)،و(إن)هذه ليست نافية، بل مؤكـدة، فهي مخففـة من الثقيلـة ، يعـني : وإنهم كـانوا من قبـل لفي ضـلال مبين .
إذا المـراد بالجاهليـة مـا قبـل البعثـة ، لأن النـاس كـانوا على جهـل عظيم . فجهلهم شـامل للجهـل في حقـوق الله وحقوق عبـاده ، فمن جهلهم أنهم ينصـبون النصـب ويعبدونها من دون الله ، ويقتل أحدهم ابنته لكي لا يعير بها ، ويقتل أولاده من ذكور وإناث خشية الفقر .
قوله:(لا يـتركونهن) . المـراد لا يـتركون كـل واحـد منها باعتبار المجموع

بـالمجموع ، بـأن يكـون كـل واحـد منهـا عنـد جماعـة ، والثاني عند آخرين ، والثالث عنـد آخـرين ، والرابـع عنـد آخرين ، وقد تجتمع هذه الأقسام في قبيلة ، وقـد تخلـو بعض القبائل منها جميعا ، إنمـا الأمـة كمجمـوع لا بـد أن يوجد فيها شي من ذلك ، لأن خبر من الصادق المصـدوق صلى الله عليه وسلم ، والمراد بهذا الخبر التنفير ، لأنــه صلى الله عليه وسلم قد يخبر بأشياء تقـع وليس غرضـه أن يؤخذ بها ، كما قال صلى الله عليه وسلم : (لــتركبن ســنن من كــان قبلكم اليهــود والنصــارى) (1) أي : فاحذروا ، فـأخبر صـلى اللـه عليـه وسـلم (أن الظعينـة تخرج من صنعاء إلى حضر موت لا تخشى اللـه) (2) ، أي بلا محرم ، وهذا خبر واقع وليس إقرارا له شرعا .
قوله : (أمتي) . أي : أمة الإجابة .

قولــه (الفخــر بالأحســاب) . الفخــر : التعــالي ، والتعاظم ، والباء للسببية ، أي : يفخر بسبب الحسب الذي هو عليه .

والحسب : ما يحتسبه الإنسان من شرف وسؤدد ، كأنه يكون من بني هاشم فيفتخر بذلك أو من آباء وأجداد مشهورين بالشجاعة ، فيفتخر بذلك ، وهذا من أمر الجاهلية ، لأن الفخر في الحقيقة يكون بتقوى الله الذي يمنع الإنسان من التعالي والتعاظم ، والمتقي حقيقة هو الذي كلما ازدادت نعم الله عليه ازداد تواضعا للحق والخلق .

وإذا كان الفخر بالحسب من فعل الجاهلية ، فلا يجوز لنا أن نفعله ، ولهذا قال تعالى لنساء نبيه صلى الله عليه وسلم (وَلا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجَاهِلِيَّةِ الْأُولَى َ)(الأحزاب: الآية33) وأعلم أن كل ما ينسب للجاهلية ، فهو مذموم ومنهي عنه .

قوله : (الطعن في الأنساب) الطعن : العيب ، لأنه وخز معنوي كوخز([1]1) الطاعون في الجسد ، ولهذا سمي العيب طعنا .

والأنساب : جمع نسب ، وهو أصل الإنسان وقرابته ، فيطعن في نسبه كأن يقول : أنت ابن الدباغ،أو أنت ابن مقطعة البظور وهي شي في فرج المرأة يقطع عند ختان النساء.

قوله : (والاستسقاء بالنجوم) . أي : نسبة المطر إلى النجوم ، مع اعتقاد أن الفاعل هو الله – عز وجل - ، أما أن اعتقد أن النجوم هي التي تخلق المطر والسحاب أو دعاها من دون الله لتنزل المطر فهذا شرك أكبر مخرج من الملة .

قوله (النياحة على الميت) هذا هو الرابع ، والنياحة : هي رفع الصوت بالبكاء على الميت قصدا ، وينبغي أن يضاف إليه على سبيل النوح ، كنوح الحمام .

والندب : تعداد محاسن الميت .

1[1])) الإمام احمد في (المسند) (5/218) والترمذي : كتاب الفتن / باب ما جاء (لتركبن ...) وقال : (حسن الصحيح) ، وابن حبان(1835) والطبراني في (الكبير) (3290) والبيهقي (108/1)

(2) البخاري (كتاب المناقب ، باب علامة النبوة)

والنياحة من أمر الجاهلية ، ولابد أن تكون في هذه الأمة ، وإنما كانت من أمر الجاهلية :
إما من الجهل الذي هو ضد العلم .
أو من الجهالة التي هي السفه ، وهي ضد الحكمة .
وإنما كانت كذلك لأمور ، هي :
1 – أنها لا تزيد النائح إلا شدة وحزنا وعذابا .
2 – أنها تسخط من قضاء الله وقدره واعتراض عليه .
3 – أنها تهيج أحزان غيره .

وقد ذكر عن ابن عقيل رحمه الله ــ وهو من علمائنا الحنابلة ــ أنه خرج في جنازة ابنه عقيل وكان أكبر أولاده وطالب علم ، فلما كانوا في المقبرة صرخ رجل وقال : (يا أيها العزيز إن له أبا شيخا كبيرا فخذ أحدنا مكانه إنا نراك من المحسنين) (يوسف :78) ، فقال له ابن عقيل رحمه الله : إن القرآن إنما نزل لتسكين الأحزان ، وليس لتهييج الأحزان .
4 - أنه مع هذه المفاسد لا يرد القضاء ، ولا يرفع ما نزل .
والنياحة تشمل ما إذا كانت من رجل أو امرأة ، لكن الغالب وقوعها من النساء ، ولهذا قال : (النائحة إذا لم تتب قبل موتها) ، أي : إن تابت قبل الموت ، تاب الله عليها ، وظاهر الحديث أن هذا الذنب لا تكفره إلا التوبة ، وأن الحسنات لا تمحوه ، لأن من كبائر الذنوب ، والكبائر لا تمحى بالحسنات ، فلا يمحوها إلا التوبة .

وقال : (النائحة إذا لم تتب قبل موتها ، تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب) رواه مسلم[1].

---

[1]) مسلم كتاب الجنائز / باب التشديد في النياحة

____

****

قولة : (تقوم يوم القيامة) . أي تقام من قبرها .
قوله : (وعليها سربال من قطـران) السـربال : الثـوب السـابغ كالـدرع ، والقطـران معـروف ، ويسـمى (الزفت) ، وقيل : إنه النحاس المذاب .
قوله : (ودرع من جرب) الجرب : مـرض معـروف يكـون في الجلـد ، يـؤرق الإنسـان ، وربمـا يقتـل الحيـوان ، والمعنى أن جلدها يكون جربا بمنزلة الدرع ، وإذا اجتمـع القطران وجـرب زاد البلاء ، لأن الجـرب أي شـي يمسـه يتأثر به ، فكيف ومعه قطران ؟

والحكمة أنها لم تغـط المصـيبة بالصـبر غطيت بهـذا الغطـاء سـربال من قطـران ودرع من جـرب ، فكـانت العقوبة من جنس العمل .

ويستفاد من الحديث :

1 – ثبوت رسالته صلى الله عليه وسلم ، لأنـه أخـبر عن أمر من أمور الغيب فوقع كما أخبر.

2 – التنفير من هذه الأشياء الأربعة : الفخـر بالأحسـاب ، والطعن في الأنساب والاستسقاء بـالنجوم ، والنياحـة على الميت .

3 – أن النياحة من كبائر الذنوب لوجود الوعيد عليهـا في الآخـرة ، وكـل ذنب عليـه الوعيـد في الآخـرة ، فهـو من الكبائر .

4 – أن كبائر الذنوب لا تكفر بالعمل الصالح ، لقولـه (إذا لم تتب قبل موتها)

5 – أن من شروط التوبة أن تكون قبـل المـوت ، لقولـه (إذا لم تتب قبل موتها) ولقوله (ولَيْسَـتِ التَّوْبَـةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ حَتَّى إِذَا حَضَرَ أَحَـدَهُمُ الْمَـوْتُ قَـالَ إِنِّي تُبْتُ الْآنَ) (النساء: من الآية18) .

6 – أن الشـرك الأصـغر لا يخـرج من الملـة ، فمن أهـل العلم من قـال إنـه داخـل تحت المشـيئة : إن شـاء اللـه عذبه ، وإن شاء غفر له .

ومن أهـل العلم من قـال : إنـه ليس بـداخل تحت المشـيئة ، وإنـه لا بـد أن يعـاقب ، وإلى هـذا ذهب شـيخ

الإسلام ابن تيمية لإطلاق قوله تعـالى (إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِـرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ)(النساء: من الآية48) ، فقال : والشـرك لا يغفره اللـه ولـو كـان أصـغر ، وبهـذا نعـرف عظم سـيئة الشرك ، فقال ابن مسعود رضـى اللـه عنـه:(لأن أحلـف بالله كاذبا أحب إلي من أن أحلـف بغـيره صـادقا[1] . لأن الحلف بغـير اللـه من الشـرك ، والحلـف باللـه كاذبـا من كبائر الذنوب وسيئة الشرك أعظم من سيئة الذنب .

7 – ثبوت الجزاء والبعث .

8 – أن الجزاء من جنس العمل .

ولهما عن زيد بن خالد رضى الله عنه ، قال: (صـلى لنـا رسول الله صلى الله عليه وسلم صلاة الصـبح الحديبيـة على إثر سـماء كـانت من الليـل ، فلمـا انصـرف ، أقبـل على الناس ، فقال : (هل تدرون ماذا قال ربكم ؟)

****

قوله في حـديث زيـد بن خالـد(صـلي لنـا.أي:إمامـا ، لأن الإمام يصلي لنفسه ولغيره ، ولهذا يتبعه المأموم، وقيل إن اللام بمعـنى البـاء، وهـذا قـريب ، وقيـل : إن اللام للتعليل ، أي صلي لأجلنا .

قولـه : (صـلاة الصـبح بالحديبيـة) . أي صـلاة الفجـر ، والحديبية فيها لغتان : التخفيف ، وهو أكثر ، والتشديد ، وهي اسـم بـئر سـمي بهـا المكـان ، وقيـل : إن أصـلها شجرة حدباء تسمى حديبية ، والأكثر على أنه بئر ، وهـذا المكـان قـريب من مكـة بعضـه في الحـل وبعضـه في الحرم، نزل به الرسول صلى الله عليه وسلم في السـنة السادسـة من الهجـرة عنـدما قـدم معتمـرا، فصـده المشركون عن البيت ، وما كـانوا أوليـاؤه إلا المتقـون ، ويسمى الآن الشميسي .

([1]) عبد الرزاق (8/469)، والطبراني في الكبير (8902). ، والهيثمي في مجمع الزوائد

قوله : (على إثر سماء كـانت من الليـل) . الإثـر معنـاه العقب ، والأثر : ما ينتج عن السير .
قوله : (سماء) . المراد به المطر .
قوله : (كانت من الليل) . (من) لابتداء الغاية ، هذا هــو الظاهر – والله أعلم – ويحتمل أن تكون بمعنى الظرفيـة .
قولــه : (فلمــا انصــرف) . أي : من صــلاته وليس من مكانه بدليل قوله : (أقبل على الناس)
قوله:(هل تدرون ماذا قـال ربكم؟).الاسـتفهام يـراد بـه التنبيـه والتشـويق لمـا سـيلقى عليهم ، وإلا فالرسـول صلى الله عليه وسلم يعلم أنهم لا يعلمون ماذا قال الله ، لأن الوحي لا ينزل عليهم .
ومعنى قولة (هل تدرون) . أي : هل تعلمون .
والمراد بالربوبية هنا الربوبية الخاصـة ، لأن ربوبيـة اللـه خاصة كما أن عبودية المؤمن لـه خاصـة،ولكن الخاصـة لا تنافي العامـة ،لأن العامـة تشـمل هـذا وهـذا ، والخاصـة تختص بالمؤمن.

قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر ، فأما من قال مُطرنـا بفضـل اللـه ورحمتـه ، فذلك مؤمن بي كـافر بـالكوكب ، وأمـا من قـال مُطرنـا بنوء كذا وكذا ، فذلك كافر بي مؤمن بالكوكب)[1]
ـــــــســـ
قوله : (قالوا : الله ورسوله أعلم) فيه إشكال نحــوي ، لأن (أعلم) خــبر عن اثــنين ، وهي مفــرد ، فيقــال إن اسم التفضيل إذا نوى به معنى (من) وكـان مجـردا من ال والإضافة لزم فيه الإفراد والتذكير .
وفيـه أيضـا إشـكال معنـوي ، وهـو أنـه جمـع بين اللـه ورسوله بالواو ، مع أن الرسول صـلى اللـه عليـه وسـلم لمـا قـال لـه الرجـل : (مـا شـاء اللـه وشـئت . قـال :

---

(1) تقدم تخريجه ص 519

أجعلتني لله ندا !)[2] فيقال : إن هذا أمر شـرعي ، وقـد نزل على الرسول صلى الله عليه وسلم .
وأما إنكـاره على من قـال مـا شـاء وشـئت ، فلأنـه أمـر كوني ، والرسول صلى اللـه عليـه وسـلم ليس لـه شـأن في الأمور الكونية .
والمراد بقـولهم : (اللـه ورسـوله اعلم) تفـويض العلم إلى الله ورسوله ، وأنهم لا يعلمون .
قولــه : (أصــبح من عبــادي مــؤمن بي وكــافر) .
(مؤمن) صفة لموصوف محذوف ، أي عبد مؤمن ، وعبد كافر .
و(أصــبح) : من أخــوات كــان ، واســمها : (مــؤمن) وخبرها : (من عبادي) ويجوز أن يكـون (أصـبح) فعـل ماضــي ناقصــا ، وأســمها ضــمير الشــأن ، أي : أصــبح الشأن ، ف (من عبادي)خـبر مقـدم،و(مـؤمن) : مبتـدأ مؤخر ، أي أصبح شأن الناس منهم مؤمن ومنهم كافر .
قوله : (فأمـا من قـال مُطرنـا بفضـل اللـه ورحمتـه) . أي : قـال بلسـانه وقلبـه ، والبـاء للسـببية ، والفضـل : العطاء والزيادة .
والرحمـة : صـفة من صـفات اللـه . يكـون بهـا الإنعـام والإحسان إلى الخلق .
وقوله : (فذلك مؤمن بي وكـافر بـالكوكب). لأنـه نسـب المطـر إلى اللـه ولم ينسـبه إلى الكـوكب ، ولم يـر لـه تأثيرا في نزوله ، بل نزل بفضل الله .
قولـه:(وأمـا من قـال مُطرنـا بنـوء كـذا وكـذا) . البـاء للسببية ، فذلك كافر بي مؤمن بـالكوكب ، وصـار كـافرا بالله ، لأنه أنكر نعمـة اللـه ونسـبها إلى سـبب لم يجعلـه الله سـببا ، فتعلقت نفسـه بهـذا السـبب ، ونسـى نعمـة الله ، وهذا الكفر لا يخـرج من الملـة ، لأن المـراد نسـبة المطـر إلى النـوء على أنـه سـبب وليس النـوء على أنـه فاعل .

---

[2] الإمام أحمد في المسند (1/214) والبخاري في الأــدب المفـرد (783) وابن ماجه كتاب الكفـارات ، بـاب النهي أن يقـال : ما شـاء الله وشـئت) قـال أحمد شاكر : إسناده صحيح (المسند 1839)

لأنه قال (مطرنا بنوء كذا) ولم يقل : أنزل علينا المطر نوء كذا ، لأنه لو قال ذلك ، لكان نسبة المطـر إلى النـوء نسبة إيجاد ، وبه نعرف خطأ من قال : إن المراد بقوله (مُطرنا بنوء كذا) نسـبة المطـر إلى النـوء نسـبة إيجـاد ، لأنه لو كان هذا هو المراد ، لقال : أنزل علينا المطر نوء كذا ولم يقل مُطرنا به .

فعلم أن المراد أن من أقر بأن الذي خلق المطـر وأنزلـه هو الله ، وذلـك النـوء هـو السـبب ، فهـو كـافر ، وعليـه يكون من باب الكفر الأصغر الذي لا يخرج من الملة .

والمراد بـالكوكب النجم ، وكـانوا ينسـبون المطـر إليـه ، ويقولون : إذا سقط النجم الفلاني جاء المطـر ، وليسـو ينسبونه إلى هذا نسبة وقت ، وإنما نسبة سبب ، المطـر إلى النوء تنقسم إلى ثلاثة أقسام :

1 – نسبة إيجاد ، وهذه شرك أكبر .

2 – نسبة سبب ، وهذا شرك أصغر .

3 – نسبة وقت ، وهذه جائزة بأن يريد بقوله: مُطرنا بنوء كذا ، أي : جاءنا المطر في هذا النوء أي وقته .

ولهذا قال علمـاء العلمـاء:يحـرم أن يقـول: مطرنـا بنـوء كذا، ويجوز مطرنا في نوء كذا ، وفرقوا بينهمـا أن البـاء للسببية،و(في) للظرفيه،ومن ثم قال أهل العلم:إنــه إذا قــال مطرنــا بنــوء كــذا وجعــل البــاء للظرفيــة فهــذا جائز،وهذا وإن كان له من حيث المعنى ، لكن لا وجه لــه من حيث اللفــظ ، لأن اللفــظ الحــديث :(مطرنــا بنــوء كذا) ، والباء للسـببية أظهـر منهـا للظرفيـة ، وهي وإن جـاءت للظرفيـة كمـا في قولـه تعـالى (وَإِنَّكُمْ لَتَمُـرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ) (الصافات:137)

لكن كونـه للسـببية أظهـر منهـا ، والعكس بـالعكس ، ف (في) للظرفيـة أظهـر منهـا للسـببية ، كمـا في قولـه صلى الله عليه وسلم (دخلت امرأة النار في هرة)[1].

والحاصل أن الأقرب المنع ولـو قصـد الظرفيـة ، لكن إذا كان المتكلم لا يعرف من الباء إلا الظرفيــة مطلقــا ، ولا يظن أنها تأتي سببية، فهذا جائز ، ومع ولهما من حـديث

---

(1) البخاري كتاب المساقاة / باب فضل سقي الماء ، ومسـلم : كتـاب السـلام / باب تحريم قتل الهرة

ابن عباس معناه ، وفيه : (قال بعضهم :لقد صدق نوء كذا وكذا ، فأنزل الله هذه الآيات [1]: (َلا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ*وَإِنَّهُ لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيمٌ * إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ* فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ* فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ*لا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ* تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ* أَفَبِهَذَا الْحَدِيثِ أَنْتُمْ مُدْهِنُونَ*وَتَجْعَلُونَ رِزْقَكُمْ أَنَّكُمْ تُكَذِّبُونَ)(الواقعة:75 - 82) .

ذلك فالأولى لهم: قولوا : في نوء كذا .

****

قوله:(ولهما). الظاهر أنه سبق قلم، وإلا، فلا، فالحديث في(مسلم) وليس في (الصحيحين) .

ومعنى الحديث : أنه لما نزل المطر نسبه بعضهم إلى رحمة الله وبعضهم قال : لقد صدق نوء كذا وكذا ، فكأنه جعل النوء هو الذي أنزل المطر أو نزل بسببه .

ومنه ما يذكر في بعض كتب التوقيت (وقل أن يخلف نوؤه) أو : (هذا نوؤه صادق) ، وهذا لا يجوز ، وهو الذي أنكره الله - عز وجل – على عباده وهذا شرك أصغر ، ولو قال بإذن الله ، فإنه لا يجوز لأن كل الأسباب من الله ، والنوء لم يجعله الله سببا .

قوله:(فلا أقسم بمواقع النجوم) . اختلف في (لا) فقيل نافية ، والمنفي محذوف ، والتقدير : لا صحة لما تزعمون من أن القرآن كذب أو سحر وشعر وكهانة ، أقسم بمواقع النجوم إنه لقرآن كريم .

فأقسم لا علاقة ب (لا) إطلاقا ، وهذا له بعض الوجه ، وقيل : إن المنفي القسم ، فهي داخلة على أقسم ، أي : لا أقسم ولن أقسم على أن القرآن قرآن كريم ، لأن الأمر أبين من أن يحتاج إلى قسم ، وهذا ضعيف جدا .

وقيل : إن (لا) للتنبيه ، والجملة بعدها مثبتة ، لأن (لا) بمعنى انتبه ، أقسم بمواقع النجوم ... وهذا هو الصحيح .

فإن قيل : ما الفائدة من إقسامه سبحانه مع أنه صادق بلا قسم ، لأن القسم إن كان لقوم يؤمنون به

---

[1] مسلم كتاب الإيمان / باب بيان كفر من قال مطر بالنوء .

ويصـدقون كلامـه ، فلا حاجـة إليـه ، وإن كـان لقـوم لا يؤمنون بـه ، فلا فائـدة منـه ، قـال تعـالى : (وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتَـكَ)(البقـرة: من الآية145) .
أُجيب : أن فائدة القسم من وجوه :
الأول : أن هذا أسلوب عـربي لتأكيـد الأشـياء بالقسـم ، وإن كـانت معلومـة عنـد الجميـع ، أو كـانت منكـرة عنـد المخاطب ، والقرآن نزل بلسان عربي مبين .
الثاني : أن المؤمن يـزداد يقينـا من ذلـك ، ولا مـانع من زيادة المؤكدات التي تزيد في يقين العبـد ، قـال تعـالى عن إبـراهيم (رَبِّ أَرِنِي كَيْـفَ تُحْيِي الْمَـوْتَى قَـالَ أَوَلَمْ تُـؤْمِنْ قَـالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي)(البقـرة: من الآية 260) .
الثالث : أن الله يقسـم بـأمور عظيمـة دالـة على كمـال قدرته وعظمته وعلمه ، فكأنه يقيم في هذا المقسم بـه على البراهين على صحة ما أقسـم عليـه بواسـطة عظم ما أقسم به .
الرابع : التنويه بحال المقسم به ، لأنه لا يقسم إلا بشي عظيم ، وهذان

الوجهـان لا يعـودان إلى تصـديق الخـبر ، بـل إلى ذكـر الآيـات الـتي أقسـم بهـا تنويهـا لـه بهـا وتنبيهـا على عظمها .
الخامس : الاهتمام بالمقسم عليه ، وأنـه جـدير بالعنايـة والإثبات .
وقوله : (فلا أُقسم بمواقـع النجـوم). اللـه .- سـبحانه – يتحدث عن نفسه بضمير المفرد ، لأنه يدل على الانفراد والتوحيد، فهو سـبحانه واحـد لا شـريك لـه ، يتحـدث عن نفسـه بضـمير الجمـع ، لأنـه يـدل على العظمـة، كقولـه تعالى(إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَـافِظُونَ)(الحجـر:9) وقوله : (إِنَّا نَحْنُ نُحْيِ الْمَوْتَى وَنَكْتُبُ مَا قَدَّمُوا وَآثَارَهُمْ ...) (يس:12) ، ولا يتحــدث عن نفســه بــالمثنى ، لأن المثنى محصـور بـاثنين .والبـاء حـرف قسـم ، والمواقـع جمع موقع .

واختلف في النجـوم ، فقيـل : إنهـا النجـوم المعروفـة ، فيكون المراد بمواقعها مطالعها ومغاربها.
وأقسم الله بها ، لما فيها من الدلالة على كمال القـدرة في هذا الانتظام البديع لما فيها من مناسبة المقسم به والمقسم عليه ، وهو القرآن المحفوظ بواسطة الشهب ، فـإن السـماء عنـد نـزول الـوحى ملئت حرسـا شـديدا وشهبا .
وقيل : إن المـراد آجـال نـزول القـرآن ، ومنـه قـولهم : (نزل القـرآن مُنجّمـا) وقـول الفقهـاء : يجب أن يكـون دين المكاتب مؤجلا بنجمين فأكثر ، فيكـون اللـه أقسـم بمواقع نزول القرآن ، وقـد سـبقت لنـا قاعـدة مفيـدة ، وهي أنه إذا كان المعنيـان لا يتنافيـان تحمـل الآيـة على كل منهما ، وإلا ، طلب المرجح .
قوله : (وإنه لقسم لو تعلمون عظيم) . (قسم) : خبر إن ، وهـذا القسـم أكـد اللـه عظمتـه بـإن واللام تنويهـا بالمقسم عليه وتعظيمه .

وقوله : (لو تعلمون) . مؤكد ثالث كأنه قـال : ينبغي أن تعلموا هذا الأمـر ولا تجهلـوه ، فهـو أعظم من أن يكـون مجهولا ، فإنه يحتاج إلى علم وانتباه ، فلو تعلمـون حـق العلم لعرفتم عظمته ، فانتبهوا.
قوله : (لقرآن) مصدر مثل الغفران والشـكران بمعـنى أسـم الفاعـل ، وبمعـنى اسـم المفعـول ، فعلى الأول يكـون المـراد أنـه جـامع للمعـاني الـتي تضـمنتها الكتب السـابقة من المصـالح والمنـافع ، قـال تعـالى (وَأَنْزَلْنَـا إِلَيْـكَ الْكِتَـابَ بِـالْحَقِّ مُصَـدِّقاً لِمَـا بَيْنَ يَدَيْـهِ مِنَ الْكِتَـابِ وَمُهَيْمِنـاً عَلَيْـهِ)(المائـدة: من الآية48) ، وعلى الثـاني يكون بمعنى المجموع ، لأنه مجموع مكتوب .
قوله : (كريم) يطلـق على كثـير العطـاء ، وهـذا كمـال في العطــاء متعــد للغــير ، ويطلــق على الشــي البهي الحسن ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسـلم (إيـاك وكرائم أموالهم)[1] ، أي : البهي منهـا والحسـن ، وهـذا

---

[1] البخاري كتاب الزكاة / باب أخذ الصدقة من الأغنياء ، ومسلم : كتاب الإيمان / باب الدعاء إلى الشهادتين وشرائع الإسلام .

كمال في الذات وهذان المعنيان موجودان في القــرآن ، فالقرآن لا أحسن منه بذاته، قال تعـالى : (وتمت كلمـة ربك صدقا وعدلا) (الأنعام :115) .
والقــرآن يعطى أهلــه من الخــيرات الدينيــة والدنيويــة والجسـمية والقلبيـة ، قـال تعـالى (فَلا تُطِـعِ الْكَـافِرِينَ وَجَاهِدْهُمْ بِهِ جِهَاداً كَبِيراً)(الفرقان:52) . فهو سلاح لمن تمســك بــه ، ولكن يحتــاج إلى أن نتمســك بــه بــالقول والعمل والعقيـدة ، فلا بـد أن يصـدق العقيـدة والعمـل ، قال صلى الله عليه وسلم : (ألا إن في الجسـد مضـغة ، إذا صلحت صلح الجسـد كلـه ، وإذا فسـدت فسـد الجسـد كله ، ألا وهى القلب) [1]، ووصـف اللـه القـرآن في آيـة أخرى بأنه مجيد ، والمجد صفة العظمة والعـزة والقـوة ، والقرآن جـامع بين الأمـرين : فيـه قـوة وعظمـة ، وكـذا خيرات كثيرة وإحسان لمن تمسك به .
قوله : (في كتاب مكنون) كتاب فعال بمعنى مفعــول ، مثل : فراش بمعنى مفروش ، وغراس بمعنى مغروس ، وكتاب بمعنى مكتوب .
والمكنــون : المحفــوظ ، قــال تعــالى (كــأنهن بيض مكنون) (الصافات : 49) واختلف المفسـرون في هـذا الكتاب على قولين :
الأول : أنه اللوح المحفوظ الذي كتب الله فيه كل شي .
الثاني : وإليه ذهب ابن القيم أنه الصحف التي في أيدي الملائكة ، قال تعالى (كلا إنها تذكرة * فمن شاء ذكره * في صحف مكرمة *مرفوعة مطهـرة * بأيـدي سـفرة ..) (عبس:11-15) فقوله : (بأيدي سفرة) يرجح أن المراد الكتب التي في أيدي الملائكـة ، لأن قولـه (لا يمسـه إلا المطهرون) أي : الملائكة ، يوازن قوله (بأيدي سفرة) ، وعلى هذا يكون المراد بالكتاب الجنس لا الواحد .
قولـه : (لا يمســه إلا المطهـرون) . الضـمير يعـود إلى الكتـاب المكنـون ، لأنــه أقــرب شــي ، وهــو بــالرفع (لا يمسه) باتفاق القراء ، وإنما نبهنا على ذلك ، لدفع قول من يقول : إنه خبر

---

(1) البخـاري كتـاب الغيمـان / بـاب فضل من اسـتبرا لدينه ، ومسـلم : كتـاب المساقاة / باب أخذ الحلال .

بمعنى النهي ، والضمير يعود على القرآن ، أي ، نهى أن يمس القرآن إلا طاهر ، والآيـة ليس فيهـا مـا يـدل على ذلك ، بل هي ظاهرة في أن المراد به اللوح المحفـوظ ، لأنه أقـرب مـذكور ، ولأنـه خـبر ، والأصـل في الخـبر أن يبقى على ظـاهره خـبرا لا أمـرا ولا نهيـا حـتى يقـوم الـدليل على خلاف ذلـك ، ولم يـرد مـا يـدل على خلاف ذلك ، بل الدليل على أنه لا يراد بـه إلا ذلـك ، وأنـه يعـود إلى الكتـــاب المكنـــون ، ولهـــذا قـــال تعـــالى (إلا المطهرون) باس المفعول ، ولم يقل : إلا المطّهرون ، ولـو كـان المـراد المطّهّـرون لقـال ذلـك ، أو قـال : إلا المتطهـرون ، كمـا قـال تعـالى (إن اللـه يحب التـوابين المتطهرين) .
والمطهـرون : هم الـذين طهـرهم اللـه تعـالى ، وهم الملائكة ، طهروا من الذنوب وأدناسها ، قـال تعـالى (لا يعصـون اللـه مـا أمـرهم) (التحـريم : 6) . وقـال اللـه تعالى (يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لا يَفْتُـرُونَ) (الانبيـاء:20) وقال تعالى (بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ لا يَسْبِقُونَهُ بِـالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِهِ يَعْمَلُونَ)(الانبياء:26 –ـ 27) ، وفرق بين المطهـر الذي يريد أن يفعل الكمال بنفسه ، وبين المطهـر الـذي كمله غيره وهم الملائكة ، وهذا ممـا يؤيـد مـا ذهب إليـه ابن القيم أن المـــراد بالكتـــاب الكتب الـــتي في أيـــدي الملائكة ، وفي الآية إشـارة على أن من طهـر قلبـه من المعاصـــي كـــان أفهم للقـــرآن ، وأن من تنجس قلبـــه بالمعاصي كـان أبعـد فهمـا عن القـرآن ، لأنـه إذا كـانت الصحف التي في أيدي الملائكة لم يمكن اللـه من مسـها إلا هؤلاء المطهرين ، فكذلك معني القران .   فاستنبط شيخ الإسلام من هذه الآيـة : أن المعاصـي سـبب لفهم القرآن ، كما قال تعـالى (كَلَّا بَـلْ رَانَ عَلَى قُلُـوبِهِمْ مَـا كَـانُوا يَكْسِـبُونَ)(المطففين:14) وهم الـذين قـال اللـه فيهم : (إِذَا تُتْلَى عَلَيْـــهِ آيَاتُنَـــا قَـــالَ أَسَـــاطِيرُ الْأَوَّلِينَ) (القلم:15) فهم لا يصلون إلى معانيها وأسـرارها ، لأنـه ران على قلوبهم ما كانوا يكسبون .

وقد ذكـر بعض أهـل العلم : أنـه ينبغي لمن اسـتُفتي أن يقدم بين يدي الفتـوى الاسـتغفار لمحـو أثـر الـذنب من قلبه حتى يتبين لـه الحـق ، واسـتنبطه من قولـه تعـالى (إِنَّا أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُنْ لِلْخَائِنِينَ خَصِيماً)(النساء:105) .
قوله:(تنزيل من رب العـالمين) خـبر ثـان لقولـه:(وإنـه) وهـو كقولـه:(وإنـه لتنزيـل رب العـالمين) (الشـعراء : 192) وكقولـه : (تنزيـل من الـرحمن الـرحيم * كتـاب فصلت آياته) (فصلت : 2-3) فهو خبر مكرر مع قولــه : (لقرآن) .
و(تنزيل) أي : منزل ، فهي مصدر بمعنى اسم المفعول منزل من رب العالمين ، أنزله الله على قلب النبي صلى عليه وسلم، لأنه محل الوعي والحفظ بواسـطة جبريـل، قال تعالى(وإنـه لتنزيـل رب العـالمين * نـزل بـه الـروح الأمين * على قلبك لتكون من المنذرين)
وقوله : (من رب العالمين) . أي خالقهم ، ويسـتفد من الآية ما يلي :
1 – أن القـرآن نـازل لجميـع الخلـق ، ففيـه دليـل على عموم رسالة النبي صلى الله عليه وسلم .
2 – أنــه نـازل من ربهم ، وإذا كـان كـذلك ، فهـو الحكم بينهم الحاكم عليهم .
3 – أن نزول القرآن من كمال ربوبية الله ، فـإذا أضـيف إلى هذه الآية قوله تعالى : (تنزيل من الـرحمن الـرحيم * كتـاب فصـلت آياتـه) ، علم أن القـرآن رحمـة للعبـاد أيضا ، وربوبية الله
مبنية على الرحمة ، قال تعالى (الحمد لله رب العالمين * الرحمن الرحيم) (الفاتحة: 2-3)
وكل ما أمر اللـه بـه عبـاده أو نهـاهم عنـه ، فهـو رحمـة بهم .
4 – أن القـرآن كلام اللـه،لأنـه إذا كـان اللـه أنزلـه،فهـو كلامه لا كلام غيره كما قاله السـلف رحمهم اللـه ، وهـو غير مخلوق ، لأن جميع صفات الله حتى الصفات الفعلية ليست مخلوقة .
والقرآن كلام الله منزل غير مخلوق .

فإن قيل : هل كل منزل غير مخلوق ؟
قلنا لا ، لكن كـل مـنزل يكـون وصـفا مضـافا إلى اللـه ، فهـو غـير مخلـوق ، كـالكلام ، وإلا فـإن اللـه أنـزل من السماء ماء فهو مخلوق،وقـال تعـالى:(وأنزلنـا الحديـد) (الحديد : 25) ، وقـال تعـالى (وَأَنْـزَلَ لَكُمْ مِنَ الْأَنْعَـامِ ثَمَانِيَةَ أَزْوَاجٍ)(الزمر: من الآية6) والأنعام مخلوقة ، فـإذا كان المنزل من عنـد اللـه صـفة لا تقـوم بـذاتها ، وإنمـا تقوم بغيرها ، لزم أن يكون غير مخلوق ، لأنه من صفات الله .
قولـه : (أفبهـذا الحـديث أنتم مـدهنون) ، الاسـتفهام للإنكـار والتـوبيخ ، والحـديث : القـرآن ، والمـدهن : الخائف من غيره الذي يحابيه بقوله وفعله .
والمعنى : أتدهنون بهذا الحديث وتخافون وتستخفون ؟! لا ينبغي لكم هذا ، بل ينبغي لمن معه القـرآن أن يصـدع به وأن يبينه ويجتهد به ، قال تعالى(وجاهدهم بـه جهـادا كبيرا)(الفرقان :52)
قولـه:(وتجعلـون رزقكم أنكم تكـذبون) . أكـثر المفسـرين على أنـه على حـذف مضـاف ، أي :أتجعلـون شكر رزقكم ، أي : ما أعطاكم اللـه من شـي من المطـر ومن إنـزال القـرآن ، أي تجعلـون شـكر هـذه النعمـة العظيمة أن تكذبوا بها ، والنبي صـلى اللـه عليـه وسـلم وإن كان ذكرها في المطر ، فأنه تشمل المطر وغيره .
وقيـل : إنـه ليس في الآيـة حـذف ، والمعـنى : تجعلـوا شكركم تكذيبا ، وقال : إن الشكر رزق، وهذا هو الصحيح ، بل هو من أكبر الأرزاق ، قال الشاعر :

إذا كان شكري نعمة الله نعمة علىّ له في مثلها يجب الشكر
فكيف بلوغ الشكر إلا بفضله وإن طالت الأيام واتصل العمر

فالنعمـة تحتـاج إلى شـكر ، ثم إذا شـكرتها ، فهي نعمـة أخـرى تحتـاج إلى شـكر ثـان ، وإن شـكرت في الثانيـة ، فهي نعمـة تحتـاج إلى شـكر ثـالث ، وهكـذا أبـدا ، قـال

تعالى (وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لا تُحْصُوهَا إِنَّ اللَّهَ لَغَفُورٌ رَحِيمٌ)(النحل:18) .

قوله : (أنكم تكذبون) . (أن) وما دخلت عليه في تأويل مصدر مفعول تجعلون الثاني ، أي : تصيرون شكركم تكذيبا ، ولا شك أن هذا من السفه أن يقابل الإنسان نعمة ربه بالتكذيب ،إن كانت وحيا كذب خبره ولم يمتثل أمره ولم يجتنب نهيه ، وإن كانت عطاء تنمو به الأجسام نسبة إلى غير الله ، قال : هذا من النوء أو هذا من عملي ، كما قال قارون :(إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)(القصص: من الآية78) .

****

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية الواقعة . الثانية : ذكر الأربع التي من أمر الجاهلية . الثالثة : ذكر الكفر في بعضها . الرابعة : أن من الكفر ما لا يخرج من الملة . الخامسة : قوله : (أصبح من عبادي مؤمن بي وكافر) بسبب نزور النعمة .

الأولى : تفسير آية الواقعة ، وهي قوله تعالى (وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون) وقد مر تفسيرها .

الثانية ذكر الأربع التي من أمر الجاهلية . وهي الطعن في الأنساب ، والفخر بالأحساب ، والاستسقاء بالأنواء ، والنياحة على الميت .

ذكر الكفر في بعضها . وهي الاستسقاء بالأنواء ، وكذلك الطعن في النسب ، والنياحة على الميت ، كما في حديث (اثنتان في الناس هما بهم كفر : الطعن في النسب ، والنياحة على الميت)[1].

الرابعة : أن من الكفر ما لا يخرج من الملة . وهي أن الاستسقاء بالأنواء بعضه كفر مخرج من الملة وبعضه كفر دون ذلك ، وقد سبق بيان ذلك .

---

(1) مسلم كتاب الإيمان / باب إطلاق اسم الكافر على الطعن في النسب والنياحة

الخامسة : قوله : (أصبح من عبـادي مـؤمن بي وكـافر) بسبب نزول النعمة . أي : إن الناس ينقسمون عند نزول النعمة إلى مؤمن بالله وكافر به ، وقـد سـبق بيـان حكم إضافة نزول المطر إلى النوء .، والـواجب على الإنسـان إذا جاءته النعمـة أن لا يضـيفها إلى أسـبابها مجـردة عن الله . بل يعتقد أن هذا سـبب محض إن كـان هـذا سـببا ، مثال ذلك : رجل غرق في ماء ، وكان عنده رجـل قـوي ، فنزل وأنقذه ، فإنه يجب على هـذا الـذي نجـا أن يعـرف نعمة اللـه عليـه ، ولـولا أن اللـه أمـر أمـرا قـدريا وأمـرا شرعيا أن ينقذك هذا الرجل ما حصل إنقاذ ، فأنت تعتقد أن هذا سبب محض .

أما إن غرق ويسـر اللـه لـه ، فخـرج ، فقـال : إن الـولي الفلاني أنقذني ، فهذا شرك أكبر ، لأنه سبب غير صحيح ، ثم إن إضافته إليه لا يظهر منها أنه يريد أنه سبب، بـــل يريد أنه منقـذ بنفسـه ، لأن اعتقـاد أنـه سـبب وهـو في قبره غـير وارد ، ولـذلك كـان أصـحاب الأوليـاء إذا نـزلت بهم شدة يسألون الأولياء دون الله تعالى ، فيقعـون في الشـــــرك الأكـــــبر من حيث لا يعلمـــــون أو من حيث يعلمون ،ثم قد يفتنـون ، فيحصـل لهم مـا يريـدون عنـد دعاء الأولياء لا به ، لأننا نعلم أن هؤلاء لا يستجيبون لهم ، لقولـه تعـالى (إِنْ تَـدْعُوهُمْ لا يَسْـمَعُوا دُعَـاءَكُمْ وَلَـوْ سَمِعُوا مَـا اسْـتَجَابُوا لَكُمْ َ)(فـاطر: من الآية14) وقولـه تعـــالى (وَمَنْ أَضَـــلُّ مِمَّنْ يَـــدْعُو مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)(الاحقاف: من الآية5) .

السادسة : التفطن للإيمان في هذا الموضع . وهو نسبة المطر إلى فضل الله ورحمته .

السابعة : التفطن للكفر في هـذا الموضـع . وهـو نسـبة المطر إلى النوء .

الثامنة : التفطن لقوله : (لقد صدق نوء كذا وكذا) . فيقال هذا بسبب النوء الفلاني وما أشبه بذلك .

الثامنة : التفطن لقوله:(لقد صدق نوء كذا وكـذا) وهـذا قريب من قوله : (مطرنا بنوء كذا) لأن الثنـاء بالصـدق

على النـوء مقتضـاه أن هـذا المطـر بوعـده ، ثم بتنفيـذ وعده .
التاسـعة : إخـراج العـالم للمتعلم المسـألة بالاسـتفهام عنها لقوله : (أتدرون مـاذا قـال ربكم) وذلـك أن يلقي العـالم على المتعلم السـؤال لأجـل أن ينتبـه لـه ، وإلا ، فالرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم يعلم أن الصـحابة لا يعلمون ماذا قال الله ، لكن أراد أن ينبههم لهـذا الأمـر ، فقــال : (أتــدرون مــاذا قــال ربكم ؟) وهــذا يــوجب استحضار قلوبهم .
العاشرة : وعيد النائحة . وذلك بقوله : (إذا لم تتب قبل موتها تقام يوم القيامة وعليها سربال من قطران ودرع من جرب) وهذا وعيد عظيم .

باب قوله تعالى :
(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّه)(البقرة: من الآية165) ـــــــــــــــــ
قوله : باب قول الله تعـالى : (ومن يتخـذ من دون اللـه أنـدادا ...) . جعـل المؤلـف رحمـه اللـه تعـالى الآيـة هي الترجمة ، ويمكن أن يعنى بهذه الترجمة باب المحبة.
وأصل الأعمال كلها هـو المحبـة ، فالإنسـان لا يعمـل ألا لما يحب ، إما لجلب منفعة ، أو لدفع مضرة ، فـإذا عمـل شيئا ، فلأنه يحبه إما لذاته كالطعام ، أو لغيره كالدواء .
وعبـادة اللـه مبنيـة على المحبـة ، بـل هي حقيقـة العبادة ، إذ لو تعبدت بدون محبة صارت عبادتك قشــرا لا روح فيهــا ، فــإذا كــان الإنســان في قلبــه محبــة اللــه وللوصول إلى جنتـه ، فسـوف يسـلك الطريـق الموصـل إلى ذلك . ولهذا لما أحب المشركون آلهتهم توصلت بهم هذه المحبة إلى أن عبدوها من دون الله أو مع الله .
والمحبة تنقسم إلى قسمين :
القسم الأول : محبـة عبـادة ، وهي الـتي تـوجب التـذلل والتعظيم ، وأن يقوم بقلب الإنسان من إجلال المحبوب وتعظيمه ما يقتضي أن يمتثل أمره ويجتنب نهيه ، وهذه خاصة بالله ، فمن أحب مع الله غيره محبـة عبـادة، فهـو مشرك شركا أكبر ، ويعبر العلماء عنها بالمحبة الخاصة.

القسم الثـاني : محبـة ليسـت بعبـادة في ذاتهـا ، وهـذه أنواع :

النـوع الأول : المحبـة للـه وفي اللـه ، وذلـك بـأن يكـون الجالب لها محبة الله ، أي : كون الشي محبوبا لله تعالى من أشـــخاص ، كالأنبيـــاء ، والرســـل ، والصـــديقين ، والشهداء ، والصالحين .
أو أعمال ، كالصلاة ، والزكـاة ، وأعمـال الخـير ، أو غـير ذلك .
وهذا النوع تابع للقسم الأول الذي هو محبة الله .
النوع الثاني : محبة إشفاق ورحمة ، وذلك كمحبة الولد ، والصغار ، والضعفاء ، والمرضى.
النـوع الثـالث : محبـة إجلال وتعظيم لا عبـادة ، كمحبـة الإنسان لوالده ، ولمعلمه ، ولكبير من أهل الخير .
النوع الرابع : محبة طبيعية ، كمحبة الطعام ، والشراب ، والملبس ، والمركب ، والمسكن .
وأشرف هذه الأنواع النوع الأول ، والبقية من قسـم المباح ، إلا إذا اقترن بها ما يقتضي التعبد صارت عبادة ، فالإنسان يحب والـده محبـة إجلال وتعظيم ، وإذا اقـترن بها أن يتعبد لله بهذا الحب من أجل أن يقـوم بـبر والـده صـارت عبـادة ، وكـذلك يحب ولـده محبـة شـفقة ، وإذا اقترن بها ما يقتضي أن يقوم بأمر الله بإصلاح هذا الولد صارت عبادة .
وكـذلك المحبـة الطبيعيـة ، كالأكـل والشـرب والملبس والمسكن إذا قصد بها الاستعانة على عبادة صارت عبادة ، ولهذا (ولهذا حبب للنبي صلى الله عليه وسلم النسـاء والطيب) [2] .

من هذه الـدنيا ، فحبب إليـه النسـاء ، لأن ذلـك مقتضـى الطبيعية ولما يترتب عليه من المصالح العظيمـة ، وحبب إليه الطيب ، لأنه ينشط النفس ويريحها ويشرح الصـدر، ولأن الطيبات للطيبين ، والله طيب لا يقبل إلا طيبا .

---

(2) الإمام أحمد في (المسند) (3/ 128) . قال الحاكم في (المستدرك) (2/147) : حديث

فهذه الأشياء إذا اتخذها الإنسان بقصد العبادة صارت عبادة ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : (إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امري ما نوى) [1] ، وقال العلماء : إن ما لا يتم الواجب إلا به ، فهو واجب ، وقالوا : الوسائل لها أحكام المقاصد ، وهذا أمر متفق عليه .

****

وقد ذكر المؤلف رحمه الله في هذا الباب آيتين :

الأولى التي ترجم بها وهي قوله (ومن الناس)

(من) تبعيضية ، وهي و مجرورها خبر مقدم ، و (من يتخذ) مبتدأ مؤخر .

قوله : (أندادا) جمع ند ، وهو الشبيه والنظير .

قوله:(يحبونهم كحب الله) . أي : في كيفيته ونوعه ، فالنوع أن يحب غير الله محبة عبادة .

والكيفية : أن يحبه كمحبة الله أو أشد ، حتى أن بعضهم يعظم محبوبه ويغار له أكثر مما يعظم الله ويغار له ، فلو قيل : احلف بالله ، لحلف ، وهو كاذب ولم يبال ، ولو قيل : احلف بالند ، لم يحلف ، وهو كاذب ، وهذا شرك أكبر .

وقوله : (كحب الله) للمفسرين فيها قولان :

الأول : أنها على ظاهرها ، وأنها مضافة إلى مفعولها ، أي : يحبونهم كحبهم لله ، والمعنى يحبون هذه الأنداد كمحبة الله ، فيجعلونه شركاء لله في المحبة ، لكن الذين آمنوا أشد حبا لله من هؤلاء لله ، وهذا هو الصواب .

الثاني : أن المعنى كحب الله الصادر من المؤمنين .

أي : كحب المؤمنين لله ، فيحبون هذه الأنداد كما يحب المؤمنون الله – عز وجل – وهذا وإن احتمله اللفظ ، لكن السياق يأباه ، لأنه لو كان المعنى ذلك ، لكان مناقضا لقوله تعالى فيما بعد (والذين آمنوا أشد حبا لله) . وكانت محبة المؤمنين لله أشد ، لأنها محبة خالصة

---

[1] البخاري : كتاب بدء الوحي/ باب كيف كان بدء الوحي ، ومسلم : كتاب الإمارة / باب قوله صلى الله عليه وسلم (إنما الأعمال بالنيات)

ليس فيها شرك فمحبة المؤمنين اشد من حب هؤلاء لله .

فـإن قيـل:قـد ينقـدح في ذهن الإنسـان أن المؤمـنين يحبـون هـذه الأنـداد نظـرا لقولـه:(أشـد حبـا للـه) فمـا الجواب ؟

أجيب : أن اللغــة العربيــة يجــري فيهــا التفضــيل بين شـيئين وأحـدهما خـال منـه تمامـا ، ومنـه قولـه تعـالى (أَصْــحَابُ الْجَنَّةِ يَوْمَئِذٍ خَيْــرٌ مُسْــتَقَرّاً وَأَحْسَــنُ مَقِيلاً) (الفرقان:24) . مع أن مستقر أهل النار ليس فيه خـير ، وقال تعالى (الله خـير أمـا يشـركون) (النمـل :59)ـ ، والطرف الآخر ليس فيه شي من هذه الموازنة ، ولكنهـا من باب مخاطبة الخصم بحسب اعتقاده .

مناسبة الآية لباب المحبة :

منـع الإنسـان أن يحب أحـدا كمحبـة اللـه ، لأن هـذا من الشرك الأكبر المخرج عن الملـة ، وهـذا يوجـد في بعض العُبّـاد وبعض الخـدم ، فبعض العبـاد يعظمـون ويحبـون بعض القبور أو الأولياء كمحبة الله أو أشد ، وكذلك بعض

الخدم تجدهم يحبون هؤلاء الرؤساء أكثر مما يحبون اللـه ويعظمـونهم أكـثر ممـا يعظمـون اللـه ، قـال تعـالى : (وَقَالُوا رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّـبِيلا* رَبَّنَــا آتِهِمْ ضِــعْفَيْنِ مِنَ الْعَــذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْنــاً كَبِــيراً) (الأحزاب : 67 - 68) .

وقولــه : (قُــلْ إِنْ كَـانَ آبَـاؤُكُمْ وَأَبْنَـاؤُكُمْ وَإِخْـوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِــيرَتُكُمْ وَأَمْــوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَــا وَتِجَــارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَـادَهَا وَمَسَـاكِنُ تَرْضَـوْنَهَا أَحَبَّ إِلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِ فَتَرَبَّصُوا حَتَّى يَأْتِيَ اللَّهُ بِأَمْرِهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ) (التوبة:24) .

***

الآيــة الثانيــة قولــه تعــالى (قُــلْ إِنْ كَــانَ آبَــاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ) .

(آباؤكم).اسم كان،وباقي الآية مرفوع معطوف عليه، وخبر كان(أحب إليكم من الله ورسوله)، والخطاب في قوله:(قل) للرسول صلى الله عليه وسلم والمخاطب في قوله:(آباؤكم) الأمة .
والأمر في قوله(فتربصوا) يراد به التهديد ، أي : انتظروا عقاب الله ، ولهذا قال : (حتى يأتي الله بأمره) بإهلاك هؤلاء المؤثرين لمحبة هؤلاء الأصناف الثمانية على محبة الله ورسوله وجهاد في سبيله .فدلت الآية على أن محبة هؤلاء وإن كانت غير محبة العبادة إذا فضلت على محبة الله صارت سببا للعقوبة .
ومن هنا نعرف أن الإنسان إذا كان يهمل أوامر الله لأوامر والده، فهو يحب أباه أكثر من ربه.
وما في القلوب وإن كان لا يعلمه إلا الله ، لكن له شاهد في الجوارح ، ولذا يروى عن الحسن رحمه الله أنه قال : (ما أسر أحد سريرة إلا أظهرها الله تعالى على صفحات وجهه وفلتات لسانه) فالجوارح مرآة القلب .
فإن قيل : المحبة في القلب و لا يستطيع الإنسان أن يملكها ، ولهذا يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه قال (اللهم هذا قسمي فيما أملك ، فلا تلمني فيما لا أملك) [1] وكيف للإنسان أن يحب شيئا وهو يبغضه ، وهل هذا إلا من محاولات جعل الممتنع ممكنا ؟
أجيب : أن هذا إيراد ليس بوارد ، فالإنسان قد تنقلب محبته لشي كراهة وبالعكس ، إما لسبب ظاهر أو لإرادة صادقة ، فمثلا : لك صديق تحبه فيسرق منك وينتهك حرمتك ، فتكرهه لهذا السبب ، أو لإرادة كرجل يحب شرب الدخان ، فصار عنده إرادة صادقة وعزيمة ثابتة ، فكره الدخان ، فأقلع عنه .
وقال عمر رضى الله عنه للنبي صلى الله عليه وسلم (إنك لأحب إلى من كل شي إلا من نفسي. قال النبي صلى الله عليه وسلم : لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك . قال:الآن والله لأنت أحب إلي من

---

[1] الإمام احمد في (المسند) (6/ 144) ، وأبو داود : كتاب النكاح / باب في القسم بين النساء ، والترمذي : كتاب النكاح / باب التسوية بين الضرائر ، والنسائي : كتاب عشرة النساء / باب ميل الرجل إلى بعض نسائه دون بعض ، وابن ماجه : كتاب النكاح / باب القسمة بين النساء ، والحاكم (2/204) – صححه ووافقه الذهبي - .

نفسي . فقال النبي صلى الله عليه وسلم:الآن يا عمر)[2] ،
فقد ازدادت محبة عمر رضى الله عنه للنبي صلى اللــه ، وأقره النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم على أن الحب قـد يتغير .
وربما تسمع عن شـخص كلامـا وأنت تحبـه فتكرهـه ، ثم يتبين لك أن هذا الكلام كذب ، فتعود محبتك إياه .

عن أنس ، أن رسول الله صلى اللـه عليـه وسـلم قـال : (لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليـه من ولـده ووالـده والناس أجمعين) . أخرجاه [1]

****
قوله في حديث أنس : (لا يؤمن) . هـذا نفي للإيمـان ، ونفي الإيمان تارة يراد به نفي الكمـال الـواجب ، وتـارة يراد به نفى الوجود ، أي : نفي الأصل .
والمنفي في هذا الحديث هو كمال الإيمان الــواجب ، إلا إذا خلا القلب من محبة الرسول صلى اللـه عليـه وسـلم إطلاقا ، فلا شك أن هذا نفي لأصل الإيمـان .قولـه:(من ولده). يشمل الذكر والأنثى، وبدأ بمحبة الولد، لأن تعلـق القلب به أشد من تعلقه بأبيه غالبا .
قوله : (ووالـده) يشـمل أبـاه ، وجـده وإن علا ، وأمـه ، وجدته وإن علت .
قولــه:(والنــاس أجمعين) . يشــمل اخوتــه وأعمامــه وأبنـاءهم وأصـحابه ونفسـه ، لأنـه من النـاس ، فلا يتم الإيمـان حـتى يكـون حب الرسـول أحب إليـه من جميـع المخلوقين .
وإذا كـان هـذا في محبـة الرسـول صـلى اللـه وسـلم ، فكيف بمحبة الله تعالى ؟
ومحبة الرسول صلى الله عليه وسلم تكون لأمور :

---

(2) البخاري كتاب الأيمان والنذور / باب كيف كانت يمين النبي صلى الله عليه وسلم .

(1) البخاري : كتاب الإيمان / باب حب رسول الله صلى الله عليه وسلم من الإيمان ، ومسلم : كتاب الإيمـان / بـاب وجوب محبة الرسول صلى الله عليه وسلم أكثر من الأهل .

الأول:أنه رسول الله، وإذا كـان اللـه أحب إليـك من كـل شي،فرسوله أحب إليك من كل مخلوق .
الثاني : لما قام به من عبادة الله وتبليغ رسالته .
الثـالث : لمـا آتـاه اللــه من مكـارم الأخلاق ومحاســن الأعمال .
الرابع : أنه سبب هدايتك وتعليمك وتوجيهك .
الخامس لصبره على الأذى في تبليغ الرسالة .
الخامس : لبذل جهده بالمال والنفس لإعلاء كلمة الله .
***
ويستفاد من هذا الحديث :
1. وجوب تقديم محبة الرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم على محبة النفس .
2. فــداء الرســول صــلى اللــه عليــه وســلم بــالنفس والمال،لأنه يجب أن تقدم محبته على نفسك ومالك .
3. أنه يجب على الإنسان أن ينصر سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ويبذل لذلك نفسه و ماله وكـل طاقتـه ، لأن ذلـك من كمـال محبـة رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسـلم ، ولـذلك قـال بعض أهـل العلم في قولـه : (إن شانئك هو الأبتر) (الكوثر : 3) ، أي : مبغضك ، قــالوا : وكذلك من أبغض شريعته صلى اللـه عليـه وسـلم ، فهـو مقطوع لا خير فيه .
4. جــواز المحبــة الــتي للشــفقة والإكــرام والتعظيم ، لقولـه صـلى اللـه عليـه وسـلم : (أحب إليـه من ولـده ووالده ...) فـأثبت أصـل المحبـة ، وهـذا أمـر طـبيعي لا ينكره أحد .
5. وجوب تقديم قـول الرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم على قول كـل النـاس ، لأن من لازم كونـه أحب من كـل أحد أن يكون قوله مقدما على كل أحد من الناس ،

حــتى على نفســك ، فمثلا : أنت تقــول شــيئا وتهــواه وتفعله ، فيأتي إليك رجلا ويقول لك : هذا يخـالف قـول الرسول صلى الله عليه وسلم ، فإذا كـان الرسـول أحب إليك من نفسك فأنت تنتصـر للرسـول أكـثر ممـا تنصـر

لنفسك ، وتـرد على نفسـك بقـول الرسـول صـلى اللـه عليه وسـلم ، فتـدع مـا تهـواه من أجـل طاعـة الرسـول صلى الله عليه وسلم ، وهـذا عنـوان تقـديم محبتـه على محبة النفس،ولهذا قال بعضهم :

تعصي الإله وأنت تزعم حبه هذا لعمري في القياس بديع

لو كان حبك صادق لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

إذا يؤخذ من هـذا الحـديث وجـوب تقـديم قـول الرسـول صلى الله عليه وسـلم على قـول كـل النـاس حـتى على قول أبي بكر وعمر وعثمان، وعلي قـول الأئمـة الأربعـة ومن بعدهم، وقال تعالى : (وَمَا كَانَ لِمُـؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَـةٍ إِذَا قَضَـى اللَّهُ وَرَسُـولُهُ أَمْـراً أَنْ يَكُـونَ لَهُمُ الْخِيَـرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ)(الأحزاب: من الآية36) .

لكن إذا وجدنا حديثا يخالف الأحاديث الأخرى الصحيحة أو مخالفا لقول أهل العلم وجمهور الأمة ، فالواجب التثبت والتأني في الأمر ، لأن اتباع الشذوذ يؤدي إلى الشذوذ . ولهذا إذا رأيت حديثا يخالف ما عليه أكثر الأمة أو يخالف الأحاديث الصحيحة التي كالجبال في رسوها ، فلا تتعجل في قبوله ، بل يجب عليك أن تراجـع وتطـالع في سـنده حتى يتبين لك الأمر ، فإذا تبين ، فإنه لا بأس أن يخصص الأقوى بأضعف منـه إذا كـان حجـة ، فـالمهم التثبت في الأمر ، وهذه القاعدة تنفعك في كثير من الأقـوال الـتي ظهرت أخيرا ، وتركهـا الأقـدمون وصـارت محـل نقـاش بين الناس ، فإنه يجب اتباع هذه القاعدة ، ويقال : أين

الناس من هذه الأحاديث ؟ ولو كـانت هـذه الأحـاديث من شريعة الله ،لكانت منقولة باقية معلومة مثل ما ذكــر أن الإنسـان إذا لم يطـف طـواف الإفاضـة قبـل أن تغـرب الشـمس يـوم العيـد، فإنـه يعـود محرمـا، فـأن هـذا الحديث[1] وإن كـان ظـاهر سـنده الصـحة، لكنـه ضـعيف وشاذ، ولهذا لم يذكر أن عمـل بـه إلا رجـل أو رجلان من التابعين، وإلا، فلأمة على خلافـه، فمثـل هـذه الأحـاديث

---

[1] أبو داود في (السنن) : كتاب المناسك / باب الإفاضة في الحج .

يجب أن يتحرى الإنسان فيه ويتثبت ، ولا نقول : إنهـا لا يمكن أن تكون صحيحة .
مناسبة الحديث للباب :
مناسبة هذا الحديث ظاهرة ، إذ محبة الرسول صلى اللـه عليه وسلم من محبة الله ، ولأنه إذا كان لا يكمل الإيمان حتى يكون الرسـول صـلى اللـه عليـه أحب إلى الإنسـان من نفسه والناس أجمعين ، فمحبة الله أولى وأعظم .

ولهما عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :(ثلاث من كن فيه ، وجد بهن حلاوة الإيمان : أن يكـون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب

****

قولـه في حـديث أنس الثـاني:(ثلاث من كن فيـه). أي: ثلاث خصال ، (كن) بمعنى وجدن فيه.
وإعراب (ثلاث) : مبتدأ ، وجاز الابتـداء بهـا لأنـه مفيـدة على حد قول ابن مالك :

المرء لا يحبه إلا الله ، وأن يكره أن يعود في الكفـر بعـد إذ أنقذه الله منه ، كما يكره أن يقذف في النار) [1].

ولا يجوز الابتداء بالنكرة ما لم تفد ... ...
وقولـه : (من كن فيـه) . (من) : شـرطيه ، (كن) : أصلها كان ، فتكون فعلا ماضيا ناسخا ، والنون اسـمها ، و(فيه) : خبرها .
قوله : (وجد بهن) . وجد : فعل ماضـي في محـل جـزم جواب الشـرط ، والجملـة من فعـل الشـرط وجوابـه في محل رفع خبر المبتدأ .

[**] البخاري : كتاب الإيمان / باب حلاوة الإيمان ، ومسلم : كتاب الإيمان / باب خصال من اتصف بهن وجد حلاوة الإيمان .

وقولــه : (وجــد بهن حلاوة الإيمــان).البــاء للســببية ، وحلاوة : مفعــول وجــد ، وحلاوة الإيمــان : مــا يجــده الإنســان في نفســه وقلبــه من الطمأنينــة والراحــة والانشراح ، وليست مدركة باللهـاب و الفم ، والمقصـود بالحلاوة هنا الحلاوة القلبية .

الخصلة الأولى من الخصال الواردة في الحديث :

قولـه : (أن يكـون اللـه ورسـوله أحب إليـه ممـا سواهما) الرسول محمـد صـلى اللـه عليـه وسـلم وكـذا جميع الرسل تجب محبتهم .

قولــه : (أحب إليــه ممــا ســواهما) . أي احب إليــه من الـدنيا كلهـا ونفسـه وولـده ووالـده وزوجتـه وكـل شـي سـواهما ، فـإن قيـل : لمـاذا جـاء الحـديث بـالواو (اللـه ورســوله) وجــاء الخــبر لهمــا جميعــا (أحب إليــه ممــا سواهما) ؟

وفي رواية : (لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى ...)[1] إلى آخره .

فالجواب : لأن محبة الرسول صلى الله عليــه وســلم من محبة الله ، ولهـذا جعـل قولـه : أشـهد أن لا إلـه إلا اللـه وأن محمدا رسول الله ركنــا واحــدا ، لأن الإخلاص لا يتم إلا بالمتابعة التي جاءت عن طريق النبي صلى الله عليــه وسلم .

الخصلة الثانية :

قوله : (وأن يحب المرء لا يحبه إلا الله)

قوله : (وأن يحب المرء) يشمل الرجل والمرأة . قولـه : (لا يحبه إلا الله) : اللام للتعليــل ، أي : من أجـل اللـه ، لأنه قائم بطاعة الله – عز وجل - .

وحب الإنســان للمــرء لــه أســباب كثـيرة : يحبـه للـدنيا ، ويحبــه للقرابــة ، ويحبــه للزمالــة ، ويحب المــرء زوجتــه

---

[1] البخاري : كتاب الأدب / باب الحب في الله

الاستمتاع ، ويحب من أحسن إليـه ، ولكن إذا أحببت هـذا المرء لله ، فإن ذلك من أسباب وجود حلاوة الإيمان .
الخصلة الثالثة :
قوله : (وأن يكره أن يعود في الكفر بعـد إذ أنقـذه اللـه منه كما يكره أن يقذف في النار) .
هذه الصورة في كـافر أسـلم ، فهـو يكـره أن يعـود في الكفر بعد إذ أنقـذه اللـه منـه ، كمـا يكـره أن يقـذف في النار ، وإنما ذكر هذه الصورة ، لأن الكافر يألف مـا كـان عليه أولا ، فربما يرجـع إليـه بخلاف من لا يعـرف الكفـر أصلا .

فمن كــره العــود في الكفــر كمــا يكــره القــذف في النار،فإن هذا من أسباب وجود حلاوة الإيمان .
قوله : (وفى رواية لا يجد أحد حلاوة الإيمان) .
أتى المؤلـف بهـذه الروايـة ، لأن انتفـاء وجـدان حلاوة الإيمـان بالنسـبة للروايـة الأولى عن طريـق المفهـوم ، وهـذه المفهـوم ، وهـذه عن طريـق المنطـوق ، ودلالـة المنطوق أقوى دلالة المفهوم .

وعن ابن عباس ، قال : " من أحبّ في الله ، وأبغض في الله ، ووالى في اللـه ، وعـادى في   اللـه ، فإنمـا تنـال ولاية الله بذلك ، ولن يجد عبدُ طعم الإيمان – وإن كـثرت صلاته وصومه –
حتى يكون كذلك ، وقد صارت عامة مُؤاخـاة النـاس على أمر الدنيا وذلك لا يُجدي على أهله
شيئا " رواه ابن جرير[1] .

****

---

[1] ابن المبارك في (الزهد (353) ، وأبو نعيم في (الحلية) (1/312) ، والطبراني في (الكبير)(13537) . قال الهيثمي في (مجمع الزوائد) (1/90) : (وفيه ليث بن أبي سليم ، والأكثر على ضعفه) .

قوله في أثر ابن عباس رضى الله عنهما : (من أحب في الله) . (من) شرطية ، وفعل الشرط أحب ، وجوابه جملة : (فإنما تنال ولاية الله بذلك) .

و(في) : يحتمل أن تكون للظرفية ، لأن الأصل فيها للظرفية ، ويحتمل أن تكون للسببية ، لأن في) تأتي أحيانا للسببية كما في قوله صلى الله عليه وسلم(دخلت امرأة النار في هرة)[1] أي : بسبب هرة .
وقوله:(في الله) . أي : من أجله ، إذا قلنا : إن في للسببية ، وأما إذا قلنا: إنها للظرفية ، فالمعنى : من أحب في ذات الله ، أي في دينه وشرعه لا عرض الدنيا .
قوله : (وأبغض في الله) . البغض الكره ، لأي : أبغض في ذات الله إذا رأى من يعصي الله كرهه . وفرق بين (في) التي للسببية و(في) التي للظرفية ، فالسببية الحامل له على المحبة أو البغضاء هو الله، والظرفية موضع الحب أو الكراهة هو في ذات الله –عز وجل - فيبغض من أبغضه الله ، ويحب من أحبه .
قوله : (ووالى في الله) . الموالاة : هي المحبة والنصرة وما أشبه ذلك .
قوله:(وعادى في الله). المعاداة ضد الموالاة ، أي : يبتعد عنهم ويبغضهم ويكرههم في الله .
قوله : (فإنما تنال ولاية الله بذلك) . هذا جواب الشرط ، أي : يدرك الإنسان ولاية الله ويصل إليها ، لأنه جعل محبته وبغضه وولايته ومعاداته لله .
وقوله:(ولاية). يجوز في الواو وجهان:الفتح والكسر،قيل:معناهما واحد ، وقيل : بالفتح بمعنى النصرة،قال تعالى:(ما لكم من ولايتهم من شي)،وبالكسر بمعنى الولاية على الشي.

قوله:(بذلك).الباء للسببية،والمشار إليه الحب في الله والبغض فيه،والموالاة فيه والمعاداة فيه .
وهذا الأثر موقوف ، لكنه بمعنى المرفوع ، لأن ترتيب الجزاء على العمل لا يكون إلا بتوقيف ، إلا أن الأثر

---

[1] مسلم : كتاب التوبة / باب في سعة رحمة الله .

ضـعيف . فمعــنى الحــديث : أن الإنســان لا يجــد طعم الإيمان وحلاوتـه ولذتـه حـتى يكـون كـذلك ، ولـو كـثرت صلاته وصومه ، وكيف يستطيع عاقلا فضلا عن مؤمن أن يوالي أعداء الله ، فيرى أعداء الله يشركون به ويكفرون به ويصفونه بالنقائص والعيوب ، ثم يواليهم ويحبهم ؟ ! فهذا لو صلى وقام الليل كلـه وصـام الـدهر كلـه ، فإنـه يكـون لا يمكن أن ينـال طعم الإيمـان ، فلا بـد أن يكـون قلبك مملوء بمحبة الله وموالاتـه ، ويكـون مملـوء ببغض أعــداء اللــه ومعــاداتهم ، وقــال ابن القيم رحمــه اللــه تعالى :

أتحب أعداء الحبيب وتدّعي حبا ما ذاك في إمكان

وقـال الإمـام احمـد رحمـه اللـه : (إذا رأيت النصـراني أغمض عيني ، كراهة أن أرى بعيني عدو الله) .

هذا الذي يجد طعم الإيمان ، أمـا – والعيـاذ باللـه – الـذي يرى أن اليهود أو النصارى على دين مرضي ومقبول عند الله بعد بعثت النبي صلى اللـه عليـه وسـلم، فهـو خـارج عن الإسلام ، مكذب بقول الله : (ورضـيت لكم الإسـلام دينــا) (المائــدة : 3) وقولــه (إن الــدين عنــد اللــه الإســلام) (آل عمــران : 19) وقولـه (ومن يبتـغ غـير الإســلام دينــا فلن يقبــل منــه وهــو في الآخــرة من الخاســرين) (آل عمــــران : 85) ، ولكـــثرة اليهـــود والنصـارى والوثـنين صـار في هـذه المسـالة خطـر على المجتمع ، وأصـبح كثـير من النـاس الآن لا يفرقـون بين مسلم وكافر ، ولا يدري أن غير المسلم عدو لله

–عز وجل – بل هو عدو له أيضا ، لقوله تعـالى : (يـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَـاءَ)(الممتحنـة: من الآية1) فهم أعداء لنا ولو تظاهروا بالصـداقة ، قـال اللـه تعـالى : (يَـا أَيُّهَـا الَّذِينَ آمَنُـوا لا تَتَّخِـذُوا الْيَهُـودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُـهُمْ أَوْلِيَـاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَـوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْـدِي الْقَـوْمَ الظـالمين)(المائـدة: من الآية51) .

فالآن أصبحنا في محنة وخطر عظيم ، لأنه يخشــى على أبنائنــا وأبنــاء قومنــا أن يركنــوا إلى هـؤلاء و يــوادوهم يحبوهم ، ولذلك يجب أن تخلص هذه البلاد بالذات منهم ، فهذه البلاد قال فيهـا الرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم (لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع إلا مسلما) [1] وقال : (أخرجـوا اليهـود والنصـارى من جزيرة العرب) [2] وقال (أخرجوا المشركين من جزيرة العرب) [3] ، وهذا كله من أجل أن لا يشـتبه الأمـر على الناس ويختلط الله بأعدائه .

قوله : (وقد صارت عامة مؤاخاة الناس على أمر الدنيا ، وذلك لا يجدي على أهله شيئا) .

قوله : (عامة) أي : أغلبية .

وقوله : (مؤاخاة الناس) . أي : مودتهم ومصاحبتهم .

أي : أكثر مودة الناس ومصاحبتهم على أمر الدنيا ، وهذا ما قاله ابن عباس ، وهو بعيد العهد منا قريب العهــد من النبوة ، فإذا كان الناس قد تغيروا في زمنه ،

فما بالك بالناس اليوم ؟

فقد صارت مؤاخاة الناس – إلا نادر- على أمر الدنيا ، بل صار أعظم من ذلك ، يبيعون دينهم بدنياهم ، قال تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَخُونُـوا اللَّهَ وَالرَّسُـولَ وَتَخُونُـوا أَمَانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ) (لأنفال:27) ، ولما كان غالب ما يحمل على الخيانة هو المال وحب الدنيا أعقبها بقولـه : (وَاعْلَمُوا أَنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ) (لأنفال:28)

ويستفاد من أثـر بن عبـاس رضـى اللـه عنهمـا : أن للـه تعـالى أوليـاء ، وهـو ثـابت بنص القـرآن ، قـال تعـالى : (الله ولي الذين آمنوا) (البقـرة: 257) وقـال تعـالى : (إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا) (المائدة : 55) فلله أولياء يتولون أمـره ويقيمـون دينـه ، وهـو يتـولاهم بالمعونة والتسديد والحفـظ والتوفيـق ، والمـيزان لهـذه

---

[1] مسلم : كتاب الجهاد / باب إخراج اليهود والنصارى من جزيرة العرب .

[2] الجامع الصغير (1/ 15) .

[3] البخارى : كتاب الجهاد / باب جوائز الوفد ، ومسلم : كتاب الوصية / باب ترك الوصية

الولاية قوله تعالى (أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ) (يونس:62) .
قال شيخ الإسلام : (من كان مؤمنا تقيا كان لله وليا) ، والولاية سبق أنها النصرة والتأييد والإعانة .
والولاية تنقسم إلى:ولاية من الله للعبد،وولاية من العبد لله،فمن الأولى قوله تعالى(الله ولى الذين آمنوا) (البقرة:257) ومن الثانية قوله تعالى (ومن يتولى الله ورسوله والذين آمنوا ...) (المائدة : 56) .
والولاية التي من الله للعبد تنقسم إلى عامة وخاصة ، فالولاية العامة هي الولاية على العباد بالتدبير والتصريف ، وهذه تشمل المؤمن والكافر وجميع الخلق ، فالله هو الذي يتولى عباده بالتدبير والتصريف والسلطان وغير ذلك ، ومنه قوله تعالى : (ثم ردوا إلى الله مولاهم الحق ألا له الحكم وهو أسرع

الحاسبين) (الأنعام : 62) .
والولاية الخاصة : أن يتولى الله العبد بعنايته وتوفيقه وهدايته ، وهذه خاصة بالمؤمنين ، وقال تعالى : (اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ)(البقرة: من الآية257) وقال : (أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ)(يونس:63) .

وقال ابن عباس في قوله تعالى:(وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ)(البقرة:من الآية166)قال:" المودة " .

***

قوله:(وقال أبن عباس رضى الله عنهما في قوله : (وتقطعت بهم الأسباب) ، قال : المودة). يشير إلى قوله تعالى (إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ) (البقرة:166)
الأسباب : جمع سبب ، وهو كل ما يتوصل به إلى شي .

وفي اصطلاح الأصوليين : ما يلزم من وجوده الوجود ومن عدمه العدم ، فكل ما يوصل إلى شي ، فهو سبب ، قال تعالى : (مَنْ كَانَ يَظُنُّ أَنْ لَنْ يَنْصُرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ)(الحج: من الآية15) ، وسمي الحبل سببا ، لأن الإنسان يتوصل به إلى استخراج الماء من البئر .

وقوله : (قال : المودة) . هذا الأثر ضعفه بعضهم ، لكن معناه صحيح ، فإن جمع الأسباب التي يتعلق بها المشركون لتنجيهم تتقطع بهم ، ومنها محبتهم لأصنامهم وتعظيمهم إياها ، فإنها لا تنفعهم ، ولعل ابن عباس رضى الله عنهما أخذ من سياق الآيات ، فقد قال الله تعالى (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ)(البقرة: من الآية165) ثم قال : (إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ) (البقرة:166) .

وبه تعرف أن مراده المودة الشركية ، فأما المودة الإيمانية كمودة الله تعالى ومودة ما يحبه من الأعمال والأشخاص ، فإنها نافعة موصلة للمراد ، وقال الله تعالى : (الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ) (الزخرف:67) .

****

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية البقرة . الثانية : تفسير آية براءة . الثالثة : وجوب محبته صلى الله عليه وسلم على النفس والأهل والمال . الرابعة : نفي الإيمان لا يدل على الخروج من الإسلام .

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية البقرة . وهي قوله تعالى (ومن الناس من يتخذ من دون الله أندادا يحبونهم كحب الله) ، وسبق ذلك .

الثانية : تفسير آية بـراءة . وهي قولـه تعـالى (قـل إن كان آباؤكم وأبناؤكم .....) الآية ، وسبق تفسيرها .
الثالثة : وجوب محبته صلى الله عليه وسلم على النفس والأهـل والمـال . وفي نسـخه (وتقـديمها على النفس والأهل والمال) .
ولعل الصواب : وجـوب تقـديم محبتـه كمـا هـو مقتضـى الحديث ، وأيضا قوله : (على النفس) يدل على أنها قد سقطت كلمة تقديم أو تقديمها ، وتؤخذ من حـديث أنس السابق ومن قوله تعالى : (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم .... أحب إليكم من اللـــه ورســـوله ، فـــذكر الأقـــارب والأموال .
الرابعـــة : أن نفي الإيمـــان لا يـــدل على الخـــروج من الإسلام . سبق أن المحبة كسبية ، وذكرنا في ذلك حديث عمر رضى الله لما قال : (والله إنـك لأحب إلى من كـل شي إلا نفسي ، فقال له ومن نفسك . فقال الآن ، أنت أحب إلى من نفســـي) ، وقولـــه : (الآن) يـــدل على حدوث هذه المحبة ، وهذا أمر ظاهر ، وفيه أيضا أن نفي الإيمان المذكور في قوله (لا يؤمن أحـدكم حـتى أكـون أحب إليه من ولده ...) لا يدل على الخروج من الإســلام لقولـه في الحـديث الآخـر (ثلاث من كن فيـه وجـد بهن حلاوة الإيمان) لأن حلاوة الإيمان أمر زائـد على أصـله ، أي إن الدليل مركب من الدليلين .
ونفي الشي له ثلاث حالات : فالأصل أنـه نفي للوجـود ، وذلك مثل : (لا إيمان لعابد صنم) ، فـإن منـع مـانع من نفي الوجود ، فهي نفي للصحة ، مثـل : (لا صـلاة بغـير وضـوء) فـإن منـع مـانع من نفي الصـحة ، فهـو نفي للكمال، مثل (لا صـلاة بحضـرة الطعـام) ، فقولـه : (لا يؤمن أحدكم) نفي للكمال الـواجب لا المسـتحب ، قـال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمـه اللـه (لا ينفى الشـي إلا لانتفاء واجب فيه ما لم يمنع من ذلك مانع)
الخامسـة أن للإيمـان حلاوة قـد يجـدها الإنسـان وقـد لا يجـدها . تؤخـذ من قولـه : (ثلاث من كن فيـه وجـد بهن حلاوة الإيمــان) ، وهــذا دليــل انتفــاء الحلاوة إذا انتفت هذه الأشياء .

السادسة : أعمال القلب الأربعة آلتي لا تنال ولاية اللــه إلا بها ، ولا يجد أحد طعم الإيمــان إلا بهــا . وهي : الحب في الله ، والبغض في اللـه ، والـولاء في اللـه ، والعـداء في الله .
لا تنــال ولايــة اللــه إلا بهــا ، فلــو صــلى الإنســان وصــام ووالى أعداء الله ، فإنه
السابعة : فهم الصحابي للواقع ، أن عامة المؤاخاة على أمر الدنيا.
الثامنة: تفسير(تقطعت بهم الأسـباب) . التاسـعة : أن من المشركين من يحب الله حبا شديدا .

لا ينال ولاية الله ، قال ابن القيم :
أتحب أعداء الحبيب وتدّعي   حبا له ما ذاك في إمكان
وهذا لا يقبله حتى الصبيان أن توالى من عاداهم .
وقوله : (ولا يجد أحد طعم الإيمان إلا بها) مــأخوذة من قول ابن عباس (ولن يجد عبد طعم الإيمان ....) الخ .
*** سابعة فهم الصـحابي للواقــع أن عامــة المؤاخــاة على أمــر الــدنيا . الصــحابي يعــني بــه ابن عبــاس رضــى اللــه عنهما ، وقولــه : (إن عامــة المؤاخــاة على أمــر الــدنيا) هذا زمنه ، فكيف بزمننا ؟!**
الثامنة : تفسير قولة : (تقطعت بهم الأسباب) فسرها بــالمودة ، وتفســير الصــحابي إذا كــانت الآيــة من صــيغ العموم تفسير بالمثال ، لأن العـبرة في نصـوص الكتـاب والسنة بعموماتها ، فإذا ذكر فرد من أفراد هذا العموم ، فإنما يقصد بـه التمثيـل ، أي : مثـل المـودة ، لكن حـتى الأسـباب الأخـرى الـتي يتقربـون بهـا إلى اللـه وليسـت بصحيحة ، فإنها تنقطع بهم ولا ينالون منها خيرا .
التاسعة : أن من المشـركين من يحب اللـه حبـا شـديدا . كحب . تؤخذ من قوله تعالى (ومن النـاس من يتخـذ من دون اللــه أنــدادا يحبــونهم كحب اللــه) ، وهم يحبــون الأصنام حبا شديدا ، وتؤخذ من قوله (والذين آمنوا أشـد حبـا للـه) ، فاشـد : اسـم تفضـيل يـدل على الاشـتراك

بالمعنى مع الزيادة ، فقد اشتركوا في شدة الحب ، وزاد المؤمنون بكونهم أشد حبا لله من هؤلاء لأصنامهم .
العاشرة : الوعيد على من كان الثمانية أحب إليه من دينه . الثمانية هي المذكورة في قوله تعالى (قُلْ إِنْ كَانَ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ وَإِخْوَانُكُمْ وَأَزْوَاجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَالٌ اقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَارَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَاكِنُ تَرْضَوْنَهَا) (التوبة: 24)
والوعيد في قوله : (فتربصوا) ، فأفاد المؤلف رحمه الله تعالى إن الأمر هنا للوعيد.
الحادية عشرة: أن من اتخذ ندا تساوى محبته محبة الله فهو الشرك الأكبر. لقوله تعالى: (يحبونهم كحب الله) ، ثم بين في سياق الآيات أنهم مشركون شركا أكبر ، بدليل ما لهم من عذاب .

****

باب قوله تعالى :
(إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)(آل عمران:175)

مناسبة الباب لما قبله :
أن المؤلف رحمه الله أعقب باب المحبة بباب الخوف،لأن العبادة ترتكز على شيئين : المحبة ، والخوف .
فالمحبة يكون امتثال الأمر ، وبالخوف يكون اجتناب النهي ، وإن كان تارك المعصية يطلب الوصول إلى الله ، ولكن هذا من لازم ترك المعصية ، وليس هو الأساس .
فلو سألت من لا يزني لماذا ، لقال : خوفا من الله .
ولو سألت الذي يصلي ، لقال : طمعا في ثواب الله ومحبه له .
كل منهما ملازم الآخرة، فالخائف والمطيع يريدان النجاة من عذاب الله والوصول إلى رحمته.
وهل الأفضل للإنسان أن يغلب جانب الخوف أو يغلب جانب الرجاء ؟
اختلف في ذلك :

فقيل : ينبغي أن يغلب جانب الخوف ، ليحمله ذلـك على اجتناب المعصية ثم فعل الطاعة.

وقيل:يغلب جانب الرجاء،ليكون متفائلا،والرسـول صـلى الله عليه وسلم كان يعجبه الفأل [1] .
وقيل في فعل الطاعة : يغلب جانب الرجاء ، فالـذي منّ بفعل هـذه الطاعـة سـيمن عليـه بـالقبول ، ولهـذا قـال بعض السلف : إذا وفقك الله للـدعاء ، فـانتظر الإجابـة ، لأن اللــه يقــول : (قــال ربكم ادعــوني أســتجب لكم) (غافر : 60) وفي فعل المعصية يغلب جـانب الخـوف ، لأجل أن يمنعه منها إذا خاف من العقوبة تاب .
وهذا أقرب شي ، ولكن ليس بذاك القـرب الكامـل ، لأن الله يقول : (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُـوبُهُمْ وَجِلَـةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ) (المؤمنون:60) ، أي : يخـافون أن لا يقبـل منهم ، لكن قـد يقـال بـأن هـذه الآيـة يعارضـها أحاديث أخرى ، كقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث القدسي عن ربه (أنا عند ظن عبدي بي ، وأنا معـه حين يذكرني) [2] .
وقيل : في حال المرض يغلب جانب الرجـاء ، وفي حـال الصحة يغلب جانب الخوف ، فهذه أربعة أقوال .
وقــال الإمــام احمــد : ينبغي أن يكــون خوفــه ورجــاؤه واحدا ، فأيهما غلب هلك صاحبه ، أي : يجعلهما كجناحي الطائر، والجناحان للطائر إذا لم يكونا متساويين سقط .
وخـوف اللـه تعـالى درجـات ، فمن النـاس من يغلـو في خوفه ، ومنهم من يفرط ، ومنهم من يعتدل في خوفه .
والخوف العدل هو الذي يرد عن محارم اللـه فقـط ، وإن زدت على هذا فإنه يوصلك إلى اليأس من روح الله .
ومن النـاس من يفـرط في خوفـه بحيث لا يردعـه عمـا نهى الله عنه .
والخوف أقسام :

---

[1] تقدم (ص 516)

[2] البخاري : كتاب التوحيد / باب (ويحذركم الله نفسه) ، ومسلم : كتاب الذكر والدعاء /بـاب الحث على ذكر الله .

الأول : خوف العبادة والتذلل والتعظيم والخضوع ، وهــو ما يسمى من خوف السر .
وهذا لا يصلح إلا لله – سبحانه وتعالى – فمن أشرك فيــه مع الله غيره ، فهو مشرك شركا أكبر ، وذلك مثــل : من يخاف من الأصنام أو الأموات ، أو من يزعمــونهم أوليــاء ويعتقــدون نفعهم وضــرهم ، كمــا يفعلــه بعض عبــاد القبور : يخاف من صاحب القبر أكثر مما يخاف الله .
الثــاني : الخــوف الطــبيعي والجبلّي ، فهــذا في الأصــل مباح ، لقولــه : تعــالى عن موســى (فخــرج منهــا خائفــا يترقب) وقوله عنــه أيضــا : (رب إنى قتلت منهم نفســا فأخاف أن يقتلون) ،
لكن إن حمل على ترك واجب أو فعل محرم، فهو محرم، وإن استلزم شيئا مباحا كان مباحــا ، فمثلا من خــاف من شي لا يــؤثر عليــه وحملــه هــذا الخــوف على تــرك صــلاة الجماعة مع وجوبها، فهذا الخوف محرم ، والواجب عليــه أن لا يتأثر به .
وإن هــدده إنســان على فعــل محــرم ، فخــاف وهــو لا يستطيع أن ينفذ ما هدده به ، فهــذا خــوف محــرم يــؤدي إلى فعــل محــرم بلا عــذر ، وإن رأى نــارا ثم هــرب منهــا ونجا بنفسه ، فهذا خوف مباح ، وقد يكون واجبا إذا كان يتوصل به إلى إنقاذ نفسه .

وهناك ما يسمى بالوهم وليس بخوف ، مثل أن يرى ظل شجرة تهتز ، فيظن أن هذا عــدو يهــدده ، فهــذا لا ينبغي للمؤمن أن يكون كذلك ، بل يطارد هــذه الأوهــام لأنــه لا حقيقــة لهــا ، وإذا لم تطاردهــا ،فإنــه تهلــك . مناســبة الخوف للتوحيد : أن من أقسام الخــوف مــا يكــون شــركا منافيا للتوحيد .

****

وقد ذكر المؤلف فيه ثلاث آيات :
أولها ما جعلها ترجمة للباب ، وهي قولــه تعــالى : (إنمــا ذلكم الشيطان يخوف أولياءه)
(إنمــا ذلكم) صــيغة حصــر والمشــار إليــه التخويــف من المشركين .

(ذلكم) : ذا : مبتـدأ ، و(الشـيطان) : يحتمـل أن يكـون خبر المبتدأ وجملة (يخوف) حال من الشيطان .
ويحتمــل أن يكــون (الشــيطان) صــفة ل (ذلكم) ، أو عطف بيان ، (ويخوف) خبر المبتدأ والمعـنى : مـا هـذا التخويف الذي حصل إلا من شيطان يخوف أولياه .
و(يخـوف) تنصـب مفعـولين ، الأول محـذوف تقـديره : يخوفكم ، والمفعول الثاني : (أولياه) .
ومعنى يخوفكم ، أي : يوقع الخـوف في قلـوبكم منهم ، (أولياه) أي : أنصاره الذين ينصرون الفحشاء والمنكــر ، لأن الشــيطان يــأمر بــذلك ، فكــل من نصــر الفحشــاء والمنكر ، فهو من أولياء الشيطان ، ثم يكون النصـر في الشرك وما ينافي التوحيـد ، فيكـون عظيمـا وقـد يكـون دون ذلك .
وقوله : (يخوف أولياه) من ذلك ما وقع في الآية الــتي قبلها ، حيث

قــالوا : (إن النــاس قــد جمعــوا لكم فأخشــوهم) (آل عمران : 173)، وذلك ليصـدوهم عن واجب من واجبـات الدين ، وهو الجهاد ، فيخوفهم بذلك ، وكذلك مـا يحصـل في نفس من أراد أن يـــــأمر بـــــالمعروف أو ينهى عن المنكـر ، فيخوفـه الشـيطان ليصـده عن هـذا العمـل ، وكذلك ما يقع في قلب الداعية .
والحاصـل : أن الشـيطان يخـوف كـل من أراد أن يقـوم بــواجب ، فــإذا ألقى الشــيطان نفســك في الخــوف ، فالواجب عليك أن تعلم أن الإقدام على كلمة الحق ليس هو الذي يدني الأجل ، فكم من داعية صدع بالحق ومــات على فراشه ؟ وكم من جبان قتل في بيته ؟
وانظر خالـد بن الوليـد،كـان شـجاعا مقـداما ومـات على فراشه ، ومادام الإنسان قائما بأمر الله ، فليثق بأن الله مع الذين اتقـوا والـذين هم محسـنون ، وحـزب اللـه هم الغالبون .
باب قول الله تعالى:(وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِــذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ)(البقرة:165). قوله: (فلَا تخــافوهم) . لا ناهيــة ، والضــمير يعــود على أوليــاء

الشيطان ، وهذا النهي للتحريم بلا شك ، أي : بل أمضوا فيما أمرتكم به وفيما أوجبته عليكم من الجهاد ، ولا تخافوا هؤلاء ، وإذا كان الله مع الإنسان ، فإنه لا يغلبه أحد ، لكن نحتاج في الحقيقة إلى صدق النية والإخلاص والتوكل التام ، ولهذا قال تعالى : (إن كنتم مؤمنين) ، وعلم من هذه الآية أن للشيطان وساوس يلقيها في قلب ابن آدم منها التخويف من أعدائه ، وهذا ما وقع فيه كثير من الناس ، وهو الخوف من أعداء الله فكانوا فريسة لهم ، وإلا تكلموا على الله وخافوه قبل كل شي ، ومن اتقى الله اتقاه كل شي ، ومن خاف غير الله خاف من كل شي .

ويفهم من الآية أن الخوف من الشيطان وأوليائه مناف للإيمان ، فإن كان الخوف يؤدي إلى الشرك ، فهو مناف لأصله ، وإلا , فهو مناف لكماله .

وقوله : (إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ) (التوبة:18)

****

*** الآية الثانية قوله تعالى (إنما يعمر) .**

(إنما) أداة حصر ، والمراد بالعمارة العمارة المعنوية ، وهي عمارتها بالصلاة والذكر وقراءة القرآن ونحوها ، وكذلك الحسية بالبناء الحسي ، فأن عمارتها به حقيقة لا تكون إلا ممن ذكرهم الله ، لأن من يعمرها وهو لم يؤمن بالله واليوم الآخر لم يعمرها حقيقة ، لعدم انتفاعه بهذه العمارة ، فالعمارة النافعة الحسية والمعنوية من الذين آمنوا بالله واليوم الآخر ، ولهذا لما افتخر المشركون بعمارة المسجد الحرام ، قال تعالى (إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ) ، وأضاف سبحانه المساجد إلى نفسه تشريفا ، لأنها موضوع عبادته .

قولـــه : (ومن آمن باللـــه) . (من) : فاعـــل يعمـــر ، والإيمان بالله يتضمن أربعة أمور هي :
الإيمان بوجوده ، وربوبيته ، وألوهيته ، وأسمائه وصفاته .
واليوم الآخر : هو يوم القيامة ، وسمي بذلك لأنه لا يـوم بعده .
وقال شيخ الإسـلام : ويـدخل في الأيمـان باللـه واليـوم الآخر كل ما أخبر به النـبي صـلى اللـه عليـه لأن حقيقـة الأمر أن الإنسان إذا مات قامت قيامتـه وارتحـل إلى دار الجزاء .
ويقرن الله الإيمان به بالإيمان باليوم الآخـر كثـيرا ، لأن الإيمان باليوم الآخر يحمل الإنسـان إلى الامتثـال ، فإنـه إذا آمن أن هنـاك بعثـا وجـزاء ، حملـه ذلـك على العمـل لذلك اليوم ، ولكن من لا يؤمن باليوم الآخر لا يعمـل ، إذ كيف يعمل لشي وهو لا يؤمن به ؟!
قوله : (وأقام الصلاة) . أي : أتى بها على وجه قويم لا نقص فيه ، والإقامة نوعان :
إقامة واجبة ، وهي التي يقتصر فيها على فعل الواجب من الشروط والأركان والواجبات.
و إقامة مسـتحبة : وهي الـتي يزيـد فيهـا على فعـل مـا يجب فيأتي بالواجب والمستحب .
و قولـه : (وآتي الزكـاة) . (آتي) تنصـب مفعـولين : الأول هنا الزكاة ، والثاني : محذوف تقديره مستحقها .
والزكـاة : هي المـال الـذي أوجبـه الشـارع في الأمـوال الزكوية وتختلف مقاديرها حسب ما تقتضيه حكمـة اللـه - عز وجل - .
وقولـه : (ولم يخش إلا اللـه) . في هـذه الآيـة حصـر طريقة الإثبات والنفي .
(لم يخش) نفي ، (إلا اللـــه) إثبـــات ، والمعـــنى : أن خشيته انحصرت في الله -عز وجل ، فلا يخشى غيره .
والخشـية نـوع من الخـوف ، لكنهـا أخص منـه والفـرق بينهما :

1. أن الخشية تكون مع العلم بالمخشي وحالـه ، لقولـه تعالى (إنما يخشى الله من عباده العلماء) (فاطر : 28) ، والخوف قد يكون من الجاهل .

2. أن الخشـية تكـون بسـبب عظمـة المخشـى ، بخلاف الخـوف ، فقـد يكـون من ضـعف الخـائف لا من قـوة المخّوف .

قوله : (فعسى أولئك أن يكونـوا من المهتـدين) . قـال ابن عباس : (عسى من الله واجبه)[1] وجـاءت بصـيغة الترجي، لئلا يأخذ الإنسان الغـرور بأنـه حصـل على هـذا الوصـف ، وهـذا كقولـه تعـالى: (إلا المستضـعفين من الرجــال والنســاء والولــدان لا يســتطيعون حيلــة ولا يهتـدون * فَأُولَئِكَ عَسَـى اللَّهُ أَنْ يَعْفُـوَ عَنْهُمْ وَكَـانَ اللَّهُ عَفُوّاً غَفُوراً) (النساء : 98- 99) فالله لا يكلـف نفسـا إلا وسعها ، فالذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا جديرون بالعفو . الشاهد من الآيـة: قولـه:(ولم يخش إلا اللـــه) ، ولهـــذا قـــال تعـــالى : (فلا تخشـــوا النـــاس واخشون) (المائدة : 44) ومن علامات صدق الإيمان أن لا يخشى إلا الله في كل ما يقول ويفعل .

ومن أراد أن يصحح هذا المسير ، فليتأمل قول الرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم : (واعلم أن الأمـة لـو اجتمعـوا على أن ينفعوك بشـيء لم ينفعـوك إلا بشـيء قـد كتبـه الله لك ، ولو اجتمعوا على أن يضروك بشيء لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك)[2] .

وقولـه : (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُـولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَـإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَـلَ فِتْنَـةَ النَّاسِ كَعَـذَابِ اللَّهِ) (العنكبـوت: من الآية10) .

---

[1] تفسير أبن كثير (2/ 130)

[2] الإمام احمد في (المسند) (1/ 293) ، والترمذي (كتاب صفة القيامة ، 2516) ، وابن أبي عاصم في (السنة)(216) ، والاجري في (الشريعة) ص 197 ، والطبراني في (الكبـير) (12988) وأبي نعيم في (الحلية) (1/314) .
قال ابن رجب :أصح الطـرق كلها طريق حنش الصـنعاني الـتي أخرجها الترمـذي) جـامع العلـوم والحكم (360) ، وقال احمد شاكر : (إسناده صحيح) (المسند) (2669) ، وصححه اللباني في تعليقه على (السنة لابن أبي عاصم) (316) .

____

الآية الثالثة قوله تعالى : (ومن الناس) . جـار ومجـرور خبر مقدم ، (ومن) تبعيضية.

وقوله : (من يقـول) . (من) : مبتـدأ مـؤخر ، والمـراد بهؤلاء : من لا يصل الإيمان إلى قـرارة قلبـه ، فيقـول : آمنا بالله ، لكنه إيمان متطـرف ، كقولـه تعـالى : (ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصـابته فتنـة انقلب على وجهـه) (الحج : 11)ـ ، (على حرف)،أي : على طرف .

فإذا امتحنه الله بما يقدر عليه من إيذاء الأعداء في اللـه جعل فتنة الناس كعذاب الله .

قولـه : (فـإذا أوذى في اللـه) (في) : للسـببية ، أي : بسبب الإيمان بالله وإقامة دينه .

ويجـوز أن تكـون (في) للظرفيـة على تقـدير : (فـإذا أوذى في شرع الله) ، أي : إيذاء في هـذا الشـرع الـذي تمسك به .

قوله : (جعل فتنة النـاس) . (جعـل) : صـيّر ، والمـراد بالفتنة هنا الإيذاء ، وسمي فتنة ، لأن الإنسان يفتن به ، فيصد عن سبيل الله ، كما قال تعالى :(إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُـوا الْمُـؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَـاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُـوا فَلَهُمْ)(الـبروج: من الآية10) ، وأضـاف الفتنـة إلى النـاس من بـاب إضـافة المصدر إلى فاعله .

قولـه : (كعـذاب اللـه) . ومعلـوم أن الإنسـان يفـر من عـذاب اللـه ، فيوافـق أمـره ، فهـذا يجعـل فتنـة النـاس كعـذاب اللـه ، فيفـر من إيـذائهم بموافقـة أهـوائهم وأمرهم جعلا

لهذه الفتنة كالعذاب ، فحينئذ يكون قـد خـاف من هـؤلاء كخوفه من الله ، لأنه جعـل إيـذاءهم كعـذاب اللـه ، ففـر منه بموافقة أمرهم ، فالآية موافقة للترجمة .

وفي هـذه الآيـة من الحكمـة العظيمـة ، وهي ابتلاء اللـه للعبد لأجل أن يمحص إيمانه ، وذلك على قسمين :

الأول : ما يقدره الله نفسه على العبـد ، كقولـه تعـالى: (ومن الناس من يعبد اللـه على حـرف فـإن أصـابه خـير

اطمأن قلبه وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة)(الحج : 11) وقوله تعالى: (وبشر الصابرين الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا إنا لله و إنا إليه راجعون) (البقرة : 155-156) .
الثاني : ما يقدره الله على أيدي الخلق من الإيذاء امتحانا واختبارا ، وذلك كالآية التي ذكر المؤلف . وبعض الناس إذا أصابته مصائب لا يصبر ، فيكفر ويرتد أحيانا – والعياذ بالله - ، وأحيانا يكفر بما خالف فيه أمر الله – عز وجل – في موقفه في تلك المصيبة ، وكثير من الناس ينقص إيمانه بسبب المصائب نقصا عظيما ، فليكن المسلم على حذر ، فالله حكيم يمتحن عباده بما يتبين به تحقق الإيمان ، قال تعالى : (وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَنَبْلُوَ أَخْبَارَكُمْ) (محمد:31)
قوله : (الآية) أي : إلى آخر الآية ، وهي قوله تعالى (ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم أو ليس الله بأعلم بما في صدور العالمين) .
كانوا يدعون أن ما يحصل لهم من الإيذاء بسبب الإيمان ، فإذا انتصر المسلمون قالوا : نحن معكم نريد أن يصيبنا مثل ما أصابكم من غنيمة وغيرها .
وقوله تعالى (أو ليس الله بأعلم بما في صدور العالمين) . قيل في مثل هذا السياق : إن الواو عاطفة على محذوف يقدر بحسب ما يقتضيه السياق .
وقيل : إنها عاطفة على ما سبقها على تقدير أن الهمزة بعده ، أي : وأليس الله .
قوله : (أعلم) مجرور بالفتحة ، لأنه ممنوع من الصرف للوصفية ووزن الفعل .
فالله أعلم بما في صدور العالمين ، أي بما في صدور الجميع ، فالله أعلم بما في نفسك منك ، وأعلم بما في نفس غيرك ، لأن علم الله عام .
وكلمة (أعلم) : اسم تفضيل ، وقال بعض المفسرين ولا سيما المتأخرون منهم : (أعلم) بمعنى عالم ، وذلك فرارا من أن يقع التفضيل بين الخالق والمخلوق ، وهذا التفسير الذي ذهبوا إليه كما أنه خلاف اللفظ ، ففيه فساد للمعنى ، لأنك إذا قلت : أعلم بمعنى

عالم ،فإن كلمة عـالم تكـون لإنسـان وتكـون للـه ، ولا تدل على التفاضل ، فالله عالم والإنسان عالم .
وأمـا تحـريم اللفـظ ، فهـو ظـاهر ، حيث حرفـوا اسـم التفضـيل الـدال على ثبـوت المعـنى وزيـادة إلى اسـم فاعل لا يدل على ذلك .
والصواب أن (أعلم) على بابهـا ، وأنهـا اسـم تفضـيل ، وإذا كانت اسـم تفضـيل ، فهي دالـة دلالـة واضحة على عدم تماثل علم الخالق وعلم المخلوق ، وأن علم الخالق أكمل .
وقوله : (بما في صدور العالمين) . المـراد بالعـالمين : كـل من سـوى اللـه ، لأنهم علم على خـالقهم ، فجميـع المخلوقات دالة على كمال الله وقدرته وربوبيته .
والله أعلم بنفسك منك ومن غيرك ، لعموم الآية .
وفي الآية تحذير من أن يقول الإنسان خلاف ما في قلبه ، ولهذا لما تخلف

كعب بن مالك في غزوة تبوك قـال للرسـول صـلى اللـه عليه وسلم حين رجع : إني قد أُوتيت جدلا ، ولو جلسـت إلى غيرك من ملوك الدنيا ، لخرجت منهم بعـذر ، لكن لا أقول شيئا تعذرني فيه فيفضحني الله فيه) [2] **.**
الشاهد من الآية : قوله : (فإذا أوذي في الله جعل فتنة النـاس كعـذاب اللـه) فحـذف النـاس مثـل خـوف اللـه تعالى .

عن أبي سـعيد رضـى اللـه عنـه مرفوعـا : (إن من ضـعف اليقين أن ترضـي النـاس بسـخط اللـه ، وأن تحمـدهم على رزق اللـه ، وأن تـذمهم على مـا لم يؤتـك الله، أن رزق الله لا يجره حرص حريص، ولا يرده كراهية كاره)[1]

****

---

[2] البخاري : كتاب المغازي / باب حديث كعب بن مالك ، ومسلم : كتاب التوبة / باب حديث توبة كعب .

[1] أبو نعيم في (الحلية) (5/106، 10/410) ، والبيهقى في (شعب الإيمان) رقم (203) .

قوله في حديث أبي سعيد : (إن من ضعف اليقين) . (من) للتبعيض ، والضـعف ضـد القـوة ، ويقـال : ضَـعف بفتح الضاد ، أو ضُعف بضم الضاد ، وكلاهما بمعني واحد ، أي من علامة ضعف اليقين .
قوله : (أن ترضى الناس) . (أن ترضى النـاس) : اسـم مؤخر ، و(من ضعف اليقين) خبرها مقدما ، والتقـدير : إن إرضاء الناس بسخط الله من ضعف اليقين .
قوله : (بسخط الله) . البـاء للعـوض، يعـني : أي تجعـل عوض إرضاء النـاس سـخط اللـه ، فتسـتبدل هـذا بهـذا ، فهذا من ضعف اليقين .

واليقين أعلى درجات الإيمان ، وقد يراد به العلم ، وكمـا تقـول : تيقنت هـذا الشـي ، أي علمتـه يقينـا لا يعتريـه الشـك ، فمن ضـعف اليقين أن ترضـى النـاس بسـخط الله ، إذ إنك خفت الناس أكثر مما تخاف الله ، وهذا مما ابتليت به الأمة الإسـلامية اليـوم ، فتجـد الإنسـان يجيء إلى شخص فيمدحه ، وقد يكون خاليا من هذا المدح ، ولا يـبين مـا فيـه من عيـوب ، وهـذا من النفـاق وليس من النصح والمحبة ، بل النصح أن تـبين لـه عيوبـه ليتلافاهـا ويحترز منها ، ولا بأس أن تـذكر لـه محامـده تشـجيعا إذا أمن في ذلك من الغرور.
قولـه:(وأن تحمـدهم على رزق اللـه) . الحمـد : وصـف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم .
ولكن هنـا ليس بشـرط المحبـة والتعظيم ، لأنـه يشـمل المدح .
و (رزق اللــه) : عطــاء اللــه ، أي : إذا أعطــوك شــيئا حمدتهم ونسيت المسبب وهو الله ، والمعنى : أن تجعل الحمد كله لهم متناسيا بذلك المسبب ، وهو الله ، ولهـذا قال النبي صلى الله عليه وسلم (إنما أنا قاسم ، واللــه يعطي) [1].
أما إن كان في قلبك أن الله هو الـذي من عليـك بسـياق هذا الرزق ، ثم شـكرت الـذي أعطـاك ، فليس هـذا داخلا في الحديث ، بل هو من الشرع ، لقوله صلى اللـه عليـه

---
(1) البخاري : كتاب العلم /باب من يرد الله به خيرا ، ومسلم : كتاب الزكاة / باب النهي عن المسألة .

وسـلم : (من صـنع إليكم معروفـا، فكـافئوه، فـإن لم تجـدوا مـا تكـافئوه بـه، فـادعوا لـه حـتى تـروا أنكم قـد كافأتموه)[1].

إذاً الحـديث ليس على ظـاهره من كـل وجـه ، فـالمراد بالحمد : أن تحمدهم الحمد المطلـق ناسـيا أن المسـبب هـو اللـه – عـز وجـل – وهـذا من ضـعف اليقين ، كأنـك نسيت المنعم الأصلي ، وهو الله – عـز وجـل – الـذي لـه النعمة الأولى ، وهـو سـفه أيضـا ، لأن حقيقـة الأمـر أن الذي أعطاك هو الله ، فالبشر الذي أعطـاك هـذا الـرزق لم يخلق ما أعطاك ، فالله هو الذي خلق مـا بيـده ، وهـو الذي عطف قلبه حتى أعطـاك ، أرأيت لـو أن إنسـانا لـه طفـل ، فـأعطى طفلـه ألـف درهم وقـال لـه : أعطهـا فلانـا ، فالـذي أخـذ الـدراهم يحمـد الأب، لأنـه لـو حمـد الطفل فقط لعد هذا سفها، لأن الطفل ليس إلا مرسـلا فقط ، وعلى هذا ، فنقول : إنك إذا حمدتهم ناسيا بذلك ما يجب لله من الحمد والثناء ، فهذا هو الـذي من ضـعف اليقين ، أما إذا حمدتهم على أنهم سـبب من الأسـباب ، وأن الحمد كله لله – عز وجـل - ، فهـذا حـق ، وليس من ضعف اليقين .

قوله : (وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله) . هـذه عكس الأولى ، فمثلا : لـو أن إنسـانا جـاء إلى شـخص يـوزع دراهم ، فلم يعطه ، فسبه وشتمه ، فهذا من الخطـأ لأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .

لكن من قصـر بـواجب عليـه ، فيـذم لأجـل أنـه قصـر بالواجب لا لأجل لأنه لم يعط ، فلا يذم من حيث القـدر ، لأن الله لو قدر ذلك لوجدت الأسباب التي يصل بها إليك هذا العطاء .

وقولـه : (مـا لم يؤتـك) . علامـة جزمـه حـذف اليـاء ، والمفعول الثاني محذوف ، لأنه فضلة، والتقدير : مـا لم يؤتك .

قولـه : (إن رزق اللـه لا يجـره حـرص حـريص ولا يـرده كراهية كاره)

---

[1] الإمام احمد (2/68 ، 99 ، 127) ، والبخاري في (الأدب المفرد) (216) ، وأبو داود كتاب الزكاة / باب عطية من سأل بالله ، والنسائي : كتاب الزكاة / باب من سال بالله ، والحاكم (1/412) – وصححه ووافقه الذهبي _

هذا تعليل ، لقوله : (أن تحمدهم وأن تذمهم) .
و(رزق الله) : عطاؤه ، لكن حرص الحريص من سببه بلا شك ، فإذا بحث عن الرزق وفعل الأسباب ، فإنه يكون فعل الأسباب الموجبة للرزق ، لكن ليس المعنى أن هذا السبب موجب مستحق ، وإنما الذي يرزق هو الله تعالى ، وكم من إنسان يفعل أسبابا كثيرة للرزق ولا يرزق ، وكم من إنسان يفعل أسباب قليلة فيرزق، وكم من إنسان يأتيه الرزق بدون سعي، كما لو وجد ركازا في الأرض أو مات له قريب غني يرثه ، أو ما أشبه ذلك .
وقوله : _ ولا يرده كراهية كاره) . أي : أن رزق الله إذا قدر للعبد ، فلن يمنعه عنه كراهية كاره ، فكم من إنسان حسده الناس ، وحاولوا منع رزق الله فلم يستطيعوا إلى ذلك سبيلا .

وعن عائشة رضى الله عنها ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (من التمس

****

قوله في حديث عائشة رضى الله عنها : (من التمس رضا الله بسخط الناس) .
(التمس) : طلب ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم في ليلة القدر:(التمسوها في العشر) [1]
رضا الله بسخط الناس، رضى الله عنه وأرضى عنه الناس، ومن التمس رضا الناس بسخط الله، سخط الله عليه وأسخط عليه الناس) رواه ابن حبان في (صحيحه)[1] .

قوله : (رضا الله) . أي : أسباب رضاه ، وقوله : (بسخط الناس) : الباء للعوض ، أي أنه طلب ما يرضي

---

[1] البخاري : كتاب التراويح / باب تحري ليلة القدر .

[1] ابن حبان (1- 248) ، والترمذي : كتاب الزهد / باب من التمس رضى الله بسخط الناس، (7/ 132)

الله ولو سخط الناس به بدلا من هذا الرضا ، وجواب الشرط : (رضى الله عنه وأرضى عنه الناس) .
وقوله : (رضى الله عنه وأرضى الناس) . هذا ظاهر ، فإذا التمس العبد رضا ربه بنية صادقة رضى الله عنه ، لأنه أكرم من عبده ، وأرضى عنه الناس ، وذلك بما يلقى في قلوبهم من الرضا عنه ومحبته ، لأن القلوب بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء .
قوله : (ومن التمس رضا الناس بسخط الله) . (التمس) : طلب ، أي: طلب ما يرضى الناس ، ولو كان يسخط الله ، فنتيجة ذلك أن يعامل بنقيض قصده ، ولهذا قال : (سخط الله عليه وأسخط عليه الناس) ، فألقى في قلوبهم سخط وكراهيته .
مناسبة الحديث للترجمة :
قوله : (من التمس رضا الناس بسخط الله) ، أي : خوفا منهم حتى يرضوا عنه ، فقدم خوفهم على مخافة الله تعالى .

فيستفاد من الحديث ما يلي :
1. وجوب طلب ما يرضي الله وإن سخط الناس ، لأن الله هو الذي ينفع ويضر .
2. أنه لا يجوز أن يلتمس ما يسخط الله من أجل إرضاء الناس كائنا من كان .
3. إثبات الرضا والسخط لله على وجه الحقيقة ، لكن بلا مماثلة للمخلوقين ، لقوله تعالى : (ليس كمثله شي) وهذا مذهب أهل السنة والجماعة، وأما أهل التعطيل، فأنكروا حقيقة ذلك ، قالوا : لأن الغضب غليان دم القلب لطلب الانتقام ، وهذا لا يليق بالله ، وهذا خطأ ، لأنهم قاسوا سخط الله أو غضبه بغضب المخلوق ، فنرد عليهم بأمرين : بالمنع ، ثم النقض :
فالمنع : أن تمنع أن يكون معنى الغضب المضاف إلى الله - عز وجل – كغضب المخلوقين .
والنقض : فنقول للأشاعرة : أنتم أثبتم لله – عز وجل – الإرادة ، وهي ميل النفس إلى جلب منفعة أو دفع مضرة ، والرب عز وجل لا يليق به ذلك ، فإذا قالوا : هذه

إرادة المخلوق . نقول : والغضب الذي ذكرتم هـو غضـب المخلوق .
وكـل إنسـان أبطـل ظـواهر النصـوص بأقيسـة عقليـة ، فهذه الأقيسة باطلة لوجوه :
الأول : أنها تبطل دلالة النصوص، وهذا يقتضي أن تكون هي الحق ومدلول النصوص باطل، وهذا ممتنع .
الثاني : أن تقول على الله بغـير علم ، لأن الـذي يبطـل ظاهر النص يؤوله إلى معنى آخر ، فيقال له : مـا الـذي أدراك أن الله أراد هذا المعنى دون ظـاهر النص ؟ ففيـه تقول على اللـه في النفي والإثبـات في نفي الظـاهر ، وفي إثبات ما لم يدل عليه دليل .
الثالث : أن فيه جنايـة على النصـوص ، حيث اعتقـد أنهـا دالـة على التشـبيه ، لأنـه لم يعطـل إلا لهـذا السـبب ، فيكون ما فهم من كتاب اللـه وسـنة رسـوله صـلى اللـه عليه وسلم كفرا أو ضلالا .
الرابع : أن فيه طعنا في الرسول صلى الله عليه وسـلم وخلفائـه الراشـدين ، لأننـا نقـول : هـذه المعـاني الـتي صـرفتم النصـوص إليهـا هـل الرسـول صـلى اللـه عليـه وسلم وخلفائه يعلمون بها أم لا ؟
فإن قالوا : لا يعلمون ، فقد اتهمـوهم بالقصـور ، وإن قالوا : يعلمون ولم يبينوها ، فقد اتهموهم بالتقصير .
فلا تستوحش من نص دل على صفة أن تثبتها. لكن يجب عليك أن تجتنب أمرين هما :
التمثيل والتكييف ، لقوله تعالى (فلا تضربوا لله الأمثال) (النحل :74) وقوله : (وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَـكَ بِـهِ عِلْمٌ) (الإسراء:36)
فإذا أثبت الله لنفسه وجها أو يـدين ، فلا تسـتوحش من إثبات ذلك ، لأن الذي أخبر به عن نفسه أعلم بنفسه من غـيره وأصـدق قيلا وأحسـن حـديثا ، وهـو يريـد لخلقـه الهدايـة ، وإذا أثبت رسـوله ذلـك لـه ، فلا تسـتوحش من إثباتـه ، لأنـه صـلى اللـه عليـه وسـلم : أصـدق الخلـق ، وأعلمهم بما يقول عن اللـه ، وأبلغهم نطقـا وفصـاحة ، وأنصح الخلق للخلق.

فمن أنكر صفة أثبتها الله لنفسه أو أثبتها له رسوله ، وقال : هذا تقشعر منه الجلود وتنكره القلوب ، فيقال : هذا لا ينكره ، فيقال : هذا لا ينكره إلا إنسان في قلبه مرض ، أما الذين آمنوا ، فلا تنكره قلوبهم ، بل تؤمن به وتطمئن إليه ، ونحن لم نكلف إلا بما بلغنا ، والله يريد لعباده البيان والهدى ، قال تعالى (يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ) (النساء:26) ، فهو لا يريد أن يعمى عليهم الأمر ، فيقول : إنه يغضب وهو لا يغضب ، وقول : إنه يهرول وهو لا يهرول ، هذا خلاف البيان .

فيه مسائل :
الأولى : تفسير آية آل عمران . وهي قوله تعالى (إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) ، وسبق .
الثانية : تفسير آية براءة . وهي قوله تعالى (إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَى أُولَئِكَ أَنْ يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ). وسبق .
الثالثة : تفسير آية العنكبوت . وهي قوله تعالى : (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ فَإِذَا أُوذِيَ فِي اللَّهِ جَعَلَ فِتْنَةَ النَّاسِ كَعَذَابِ اللَّه) . وقد تكلمنا على تفسيرها فيما سبق .
الرابعة:أن اليقين يضعف ويقوى . تؤخذ من الحديث : (إن من ضعف اليقين ...) الحديث .
الخامسة : علامة ضعفه ، ومن ذلك هذه الثلاث . وهي أن ترضى الناس بسخط الله ، وأن تحمدهم على رزق الله ، وأن تذمهم على ما لم يؤتك الله .
السادسة:أن إخلاص الخوف لله من الفرائض.وتؤخذ من قوله في الحديث:(من التمس) الحديث ، ووجهة ترتيب العقوبة على من قدم رضا الناس على رضا الله تعالى .
السابعة : ذكر ثواب من فعله . وهو رضا الله عنه ، وأن يرضى عنه الناس ، وهو العاقبة الحميدة .

الثامنة : ذكر عقاب من تركه . وهو أن يسخط الله عليـه ويسخط عليه الناس ، ولا ينال مقصوده .
وخلاصة الباب :
أنه يجب على المرء أن يجعل الخوف من اللـه فـوق كـل خوف ، وأن لا يبالي بأحـد في شـريعة اللـه تعـالى ، وأن يعلم أن من التمس رضـا اللـه تعـالى وإن سـخط النـاس عليه ، فالعاقبة له ، وإن التمس رضا النـاس وتعلـق بهم وأسخط الله ، انقلبت عليه الأحوال ، ولم ينل مقصوده ، بل حصل له عكس مقصوده ، وهو أ ن يسخط اللـه عليـه ويسخط عليه الناس .
***

باب قـول اللـه تعـالي :(وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُـوا إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ)(المائدة: من الآية23)

مناسبة هذا الباب لما قبله :
هي أن الإنسان إذا أفرد الله –سـبحانه – بالتوكـل ، فإنـه يعتمـد عليـه في حصـول مطلوبـه وزوال مكروهـه ، ولا يعتمد على غيره .
والتوكل : هو الاعتماد على الله – سـبحانه وتعـالى – في حصول المطلوب ، ودفع المكروه ، مـع الثقـة بـه وفعـل السباب المأذون فيها ، وهـذا أقـرب تعريـف لـه ، ولا بـد من أمرين :
الأول : أن يكـون الاعتمـاد على اللـه اعتمـادا صـادقا حقيقيا .
الثاني : فعل الأسباب المأذون فيها .
فمن جعل أكثر اعتماده على الأسباب ، نقص توكله على الله ، ويكون قادحا في كفاية الله ، فكأنـه جعـل السـبب وحده هو العمدة فيما يصـبو إليـه من حصـول المطلـوب وزال المكروه .
ومن جعل اعتماده على الله ملغيا للأسـباب ، فقـد طعن في حكمـة اللـه ، لأن اللـه جعـل لكـل شـي سـببا ، فمن اعتمد على الله اعتمـادا مجـردا ، كـان قادحـا في حكمـة

الله ، لأن الله حكيم ، يربط الأسباب بمسبباتها ، كمن يعتمد على الله في حصول الولد وهو لا يتزوج .
والنبي صلى الله عليه وسلم أعظم المتوكلين ، ومع ذلك كان يأخذ بالأسباب ، فكان يأخذ الزاد في السفر ، ولما خرج إلى أُحد ظاهر بين درعين ، أي : لبس درعين اثنين،[1] ولما خرج مهاجرا أخذ من يدله الطريق[2] ولم يقل سأذهب مهاجرا وأتوكل على الله ، ولن أصطحب معي من يدلني الطريق ، وكان صلى الله عليه وسلم يتقي الحر والبرد ، ولم ينقص ذلك من توكله .
ويذكر عن عمر رضى الله عنه أنه قدم ناس من أهل اليمن إلى الحج بلا زاد ، فجيء بهم إلى عمر ، فسألهم فقالوا : نحن المتوكلون على الله . فقال : لستم المتوكلين ، بل المتواكلون .
والتوكل نصف الدين ولهذا نقول في صلاتنا (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ) (الفاتحة:5)
فنطلب من الله العون اعتمادا عليه سبحانه بأنه سيعيننا على عبادته .
وقال تعالى : (فاعبده وتوكل عليه) (هود :123)
وقال تعالى : (عليه توكلت وإليه أنيب) (هود : 88) ، ولا يمكن تحقيق العبادة إلا بالتوكل ، لأن الإنسان لو ُوكل إلى نفسه وُكل إلى ضعف وعجز ، ولم يتمكن من القيام بالعبادة ، فهو حين يعبد الله يشعر أنه متوكل على الله ، فينال بذلك أجر العبادة وأجر التوكل ، ولكن الغالب عندنا ضعف التوكل ، وأننا لا نشعر حين نقوم بالعبادة أو العادة بالتوكل على الله والاعتماد عليه في أن ننال هذا الفعل ، بل نعتمد في الغالب على الأسباب الظاهرة وننسى ما وراء ذلك،فيفوتنا ثواب عظيم ، وهو ثواب التوكل ، كما أننا لا نوفق إلى الحصول المقصود كما هو الغالب سواء حصل لنا عوارض توجب انقطاعها أو عوارض توجب نقصها .
والتوكل ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

---

[1] الإمام أحمد في (المسند) (3/ 449)

[2] البخاري : / باب استئجار المشركين

الأول : توكل عبادة وخضوع ، وهو الاعتماد المطلق على من توكل عليه ، بحيث يعتقد أن بيـده جلب النفـع ودفـع الضر ، فيعتمد عليه اعتمادا كاملا ، مع شـعوره بافتقـاره إليه ، فهذا يجب إخلاصه لله تعالى ، ومن لغير الله ، فهو مشرك شركا أكبر ، كالذين يعتمدون على الصـالحين من الأمـوات والغـائبين ، وهـذا لا يكـون إلا ممن يعتقـد أن لهؤلاء تصرفا خفيا في الكون ، فيعتمـد عليهم في جلب المنافع ودفع المضار.

الثاني : الاعتماد على شـخص في رزقـه ومعاشـه وغـير ذلـك ، وهـذا من الشـرك الأصـغر ، وقـال بعضـهم:من الشرك الخفي، مثل اعتماد كثير من الناس على وظيفته في حصوله على رزقـه ، ولهـذا تجـد الإنسـان يشـعر من نفسـه أنـه معتمـد على هـذا اعتمـاد افتقـار ، فتجـد في نفسه من المحاباة لمن يكـون هـذا الـرزق عنـده مـا هـو ظاهر ، فهو لم يعتقد أنه مجـرد سـبب ، بـل جعلـه فـوق السبب .

الثالث : أن يعتمد على شخص فيما فوّض إليـه التصـرف فيه ، كما لو وكلت شخصا في بيع شي أو شرائه ، وهـذا لا شي فيه ، لأنه اعتمد عليه وهو يشعر أن المنزلة العليا له فوقه ، لأنه جعله نائبا عنه ، وقد وكل النبي صلى الله عليـه وسـلم علي ابن أبي طـالب أن يـذبح مـا بقى من هديه [2]، ووكل أبا هريرة على الصدقة [3]، ووكل عروة بن الجعد أن يشـتري لـه شـاه [4]، وهـذا بخلاف القسـم الثاني ، لأنه يشعر بالحاجة إلى ذلك ، ويرى اعتماده على المتوكل عليه اعتماد افتقار .

ومما سبق يتـبين أن التوكـل من أعلى المقامـات ، وأنـه يجب على الإنسـان أن يكـون مصـطحبا لـه في جميـع شؤونه ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه اللـه : (و لا يكـون للمعطلـة أن يتوكلـوا على اللـه ولا المعتزلـة للمعتزلة القدرية) لأن المعطلة يعتقدون انتفاء الصفات

---

(2) مسلم : كتاب الحج / باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم .

(3) البخاري : كتاب الوكالة / باب إذا وكل رجلا فترك الوكيل شيئا ...

(4) البخاري : كتاب المناقب / باب سؤال المشركين أن يريهم النبي صلى الله عليه وسلم آية .

عن اللــه تعــالى ، والإنســان لا يعتمــد إلا على من كــان كامل الصفات المستحقة لأنه يعتمد عليه .
وكذلك القدرية ، لأنهم يقولون : إن العبد مستقل بعمله ، والله ليس له تصرف في أعمال العباد.
ومن ثم نعرف أن طريق السلف هـو خـير الطـرق ، وبـه تكمل جميع العبادات وتتم به جميع أحوال العابدين .

****

وقد ذكر المؤلـف في هـذا البـاب أربـع آيـات ، أولهـا مـا جعله ترجمة للباب وهي :
قوله تعالى:(وعلى الله فتوكلوا) . (على الله) متعلقـة بقوله : (فتوكلوا) ، أي : اعتمدوا .
والفاء لتحسين اللفظ وليست عاطفـة ، لأن في الجملـة حـرف عطـف وهـو الـواو ، ولا يمكن أن نعطـف الجملـة بعاطفين ، فتكون لتحسين اللفـظ ، كقولـه تعـالى:(بـل الله فاعبد) و التقدير:(بل الله اعبد) .
قوله (إن كنتم مؤمنين) . (إن) : شرطية ، وفعــل الشرط (كنتم) ، وجوابه قيل إنه محـذوف دل عليـه مـا قبله ، وتقدير الكلام : إن كنتم مؤمنين فتوكلوا ، وقيل : إنه في مثل هذا التركيب لا يحتاج إلى جواب اكتفـاء بمـا سبق ، فيكون مـا سـبق كأنـه فعـل معلـق بهـذا الشـي ، وهذا أرجح ، لأن الأصل عدم الحذف .
وقول أصحاب موسى في هذه الآية يفيد أن التوكــل من الإيمـان ومن مقتضـياته ، كمـا لـو قلت : إن كنت كريمـا فأكرم الضيف . فيقتضي أن إكرام الضيف من الكرم .
وهذه الآية تقتضي انتفاء كمال الإيمـان بانتفـاء التوكـل على الله ، إلا إن حصل اعتماد كلى على غير الله ، فهــو شرك أكبر ينتفي له الإيمان كله .

وقولـه : (إِنَّمَـا الْمُؤْمِنُـونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِـرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُم) (لأنفال: من الآية2)

****

الآية الثانية : قوله تعالى : (إنما المؤمنون) . (إنمـا) : أداة حصر ، والحصر هو إثبات الحكم في المـذكور ونفيـه عما عداه ، والمعنى : ما المؤمنون إلا هؤلاء.
وذكـر اللـه تعـالى في هـذه الآيـة ومـا بعـدها خمسـة أوصاف :
أحدهما: قولـه : (الـذين إذا ذكـر اللـه وجلت قلـوبهم)، أي : خافت لما فيه من تعظيم الله تعـالى ، مثـال ذلـك : رجل هم بمعصية ، فذكر الله أو ذكر به ، وقيل لـه : اتـق الله . فإن كان مؤمنا ، فإنـه سـيخاف ، وهـذا هـو علامـة الإيمان .
الوصف الثـاني : قولـه : (وإذا تليت عليهم آياتـه زادتهم إيمانا) ، أي : تصديق وامتثـالا ، وفي هـذا دليـل على أن الإنسان قد ينتفع بقراءة غيره أكـثر ممـا ينتفـع بقـراءة نفسه كما أمر الرسول صلى الله عليـه وسـلم عبـد اللـه بن مسعود أن يقرأ عليه ، فقال :

كيـف أقـرأ عليـك وعليـك أُنـزل ؟ فقـال: (إني أُحب أن أسمعه من غيري) فقرأ عليـه سـورة النسـاء حـتى بلـغ قوله تعالى : (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُـلِّ أُمَّةٍ بِشَـهِيدٍ وَجِئْنَـا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَـهِيداً) (النسـاء:41) . قـال : (حسـبك) فنظرت ، فإذا عيناه تذرفان[1]
الوصف الثـالث : قولـه : (وعلى ربهم يتوكلـون) . أي : يعتمدون على الله لا على غيره ، وهم مـع ذلـك يعملـون الأسباب ، وهذا هو الشاهد .
الوصف الرابـع : قولـه : (الـذين يقيمـون الصـلاة) أي : يأتون بها مستقيمة كاملة ، والصلاة : اسم جنس تشـمل الفرائض والنوافل .
الوصف الخامس : قولـه : (وممـا رزقنـاهم ينفقـون) . (من) للتبعيض ، فيكون الله يمدح من أنفـق بعض مالـه لا كله، أو تكون لبيـان الجنس، فيشـمل الثنـاء من أنفـق البعض ومن أنفق الكل ، والصواب : أنها لبيــان الجنس ، وأن من أنفق الكل يدخل في الثنـاء إذا توكـل على اللـه

---

[1] البخاري : كتاب التفسير / باب (فكيف إذا جئنا من أمة بشهيد) ومسلم : كتاب صلاة المسافرين / باب فضل استماع القرآن .

تعالى في أن يرزقه وأهله كما فعل أبو بكر[2] ، أما إن كان أهله في حاجة أو كان المنفق عليه ليس بحاجة ماسة تستلزم إنفاق المال كله ، فلا ينبغي أن ينفق ماله عليه .

****

قوله : (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ ....) (لأنفال: 64) الآية .

الآية الثالثة قوله تعالى : (يا أيها النبي) . المراد به الرسول صلى الله عليه وسلم يخاطب الله رسوله بوصف النبوة أحيانا ، فحينما يأمره أن يبلغ يناديه بوصف الرسالة ، وأما في الأحكام الخاصة ، فالغالب أن يناديه بوصف النبوة ، قال تعالى : (يا أيها النبي لم تحرم ما أحل الله لك)(التحريم : 1) وقال تعالى : (يا أيها النبي إذا طلقتم النساء) (الطلاق : 1) .
و (النبي) فعيل بمعنى مفعل بفتح العين ومفعل بكسرها ، أي : منبأ ، ومنبئي ، فالرسول صلى الله عليه وسلم منبأ من قبل الله ، ومنبئ لعباد الله .
قوله : (حسبك الله) . أي : كافيك ، والحسب : الكافي ، ومنه قوله أعطى درهما فحسب ، وحسب خبر مقدم ، ولفظ الجلالة مبتدأ مؤخر، والمعنى: ما الله إلا حسبك ، ويجوز العكس ، أي : أن تكون حسب مبتدأ ولفظ الجلالة خبره ، ويكون المعنى : ما حسبك إلا الله وهذا هو الأرجح .
قوله : (ومن اتبعك من المؤمنين) . (من) : اسم موصول مبنية على السكون ، وفي عطفها رأيان لأهل العلم : قيل : حسبك الله ، وحسبك من اتبعك من المؤمنين ، ف (من) معطوفة على الله لأنه أقرب ، ولو كان العطف على الكاف في حسبك ، لوجب إعادة الجار ، وهذا كقوله تعالى (هو الذي أيدك بنصره والمؤمنين) (الأنفال :62) ، فالله أيد رسوله بالمؤمنين ، فيكونون حسبا له كما كان الله حسبا له .

---

[2] أبو داود : كتاب الزكاة / باب الرخصة في ذلك (أي : خروج الرجل من ماله)

وهذا ضعيف ، والجواب عنه من وجوه :
أولا : قولهم : عطف عليه لكونه أقرب ليس بصحيح ، فقد يكون العطف على شيء سابق ، حتى أن النحويين قالوا : إذا تعددت المعطوفات يكون العطف على الأول .
ثانيا : قولهم : لوعطف على الكاف لوجب إعادة الجار ، والصحيح أنه ليس بلازم ، كما قال ابن مالك :

ليس عندي لازما إذ قد أتى   في النثر والنظم الصحيح مثبتا

ثالثا : استدلالهم بقوله تعالى (هو الذي أيدك بنصره وبالمؤمنين) .
فالتأييد لهم غير كونهم حسبه ، لأن المعنى كونهم حسبه أن يعتمد عليهم ، ومعنى كونهم يؤيدونه أي ينصرونه مع استقلاله بنفسه ، وبينهما فرق .
رابعا : أن الله – سبحانه وتعالى – حينما يذكر الحسب يخلصه لنفسه ، قال تعالى : (وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ)(لتوبة:59) ففرق بين الحسب والإيتاء ، وقال تعالى(قل حسبي الله عليه يتوكل المؤمنون)(الزمر: 38) فكما أن التوكل على غير الله لا يجوز ، فكذلك الحسب لا يمكن أن يكون غير الله حسبا ، فلو كان ، لجاز التوكل عليه ، ولكن الحسب هو الله ، وهو الذي عليه يتوكل المتوكلون .
خامسا : أن في قوله : (ومن اتبعك) ما يمنع الصحابة حسبا للرسول صلى الله عليه وسلم ، وذلك لأنهم تابعون ، فكيف يكون التابع حسبا للمتبوع ؟ هذا لا يستقيم أبدا ، فالصواب أنه معطوف على الكاف في قوله : (حسبك) ، أي : وحسب من أتبعك من المؤمنين ، فتوكلوا عليه جميعا أنت ومن اتبعك .

قوله : (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) (الطلاق : 3) الآية .

****

الآية الرابعة : قوله تعالى : (ومن يتوكـل على اللـه فهـو حسـبه) . جملـة شـرطية تفيـد بمنطوقهـا أن من يتوكـل على اللـه ، فـإن اللـه يكفيـه مهماتـه وييسـر لـه أمره ، فاللـه حسـبه ولـو حصـل بعض الأذيـة ، فـإن اللـه يكفيـه الأذى ، والرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم سـيد المتــوكلين ، ومــع ذلــك يصــيبه الأذى ولا تحصــل لــه المضرة ، لأن الله حسبه ، فالنتيجة لمن اعتمد على اللـه أن يكفيه ربه المؤونة .
والآية تفيد بمفهومها أن من توكل على غير الله خـذل ، لأن غير الله لا يكون حسبا كما تقـدم ، فمن توكـل على غير الله تخلى عنه ، وصـار موكـولا إلى هـذا الشـي ولم يحصل له مقصوده ، وابتعد عن اللـه بمقـدار توكلـه على غير الله .

وعن ابن عبــاس ، قــال : (حســبنا اللــه ونعم الوكيـل) ، قالهـا إبـراهيم عليـه السـلام حين ألقى في النار،وقالها محمد صلى الله عليه وسـلم حين قـالوا لـه: (الَّذِينَ قَــالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَــدْ جَمَعُــوا لَكُمْ فَاخْشَــوْهُمْ فَــزَادَهُمْ إِيمَانــاً وَقَــالُوا حَسْــبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ)(آل عمران:173) . رواه البخاري [1] .

****

قوله في أثر ابن عباس رضى اللـه عنهمـا:" قـال محمـد صلى اللـه عليـه وسـلم حين قـالوا لـه: (إن النـاس قـد جمعوا لكم) .
وهذا في نص القرآن لمـا انصـرف أبـو سـفيان من أُحـد أراد أن يرجع إلى النبي صلى الله عليه وسـلم وأصـحابه ليقضي عليهم بزعمه ، فلقي ركبا فقــال لهم : إلى أين ذهبون ؟ قالوا نذهب إلى المدينة . فقال : بلغـوا محمـدا وأصـحابه أنّــا راجعــون إليهم فقاضــون عليهم . فجــاء الركب إلى المدينة، فبلغوهم، فقـال رسـول اللـه صـلى الله عليـه وسـلم ومن معـه: حسـبنا اللـه ونعم الوكيـل . وخرجـوا في نحـو سـبعين راكبـا ، حـتى بلغـوا حمـراء

---

[1] البخاري : كتاب التفسير / باب (الذين قال لهم الناس ...)

الأسد ، ثم إن أبا سفيان تراجع عن رأيه وانصرف إلى مكة ، وهذا من كفاية الله لرسوله وللمؤمنين ، حيث اعتمدوا عليه تعالى .
قوله : (قال لهم الناس) . أي : الركب .
قوله : (إن الناس) . أي : أبا سفيان ومن معه، وكلمة الناس يمثل بها الأصوليون للعام الذي أُريد به الخصوص .
قوله : (حسبنا) . أي : كافينا ، وهي مبتدأ ولفظ الجلالة خبره .
قوله : (نعم الوكيل) . (نعم) : فعل ماضي ، (الوكيل) : فاعل ، والمخصوص محذوف تقديره : هو ، أي : الله ، والوكيل : المعتمد عليه سبحانه ، والله – سبحانه –يطلق عليه اسم وكيل، وهو أيضا مُوكّل، والوكيل في مثل قوله تعالى: (نعم الوكيل)، وقوله تعالى: (وكفى بالله وكيلا) (النساء : 81) ، وأما الموكل ، ففي مثل قوله تعالى : (فإن يكفر بها هؤلاء فقد وكلنا بها قوما ليسوا بها كافرين) (الأنعام :89)
وليس المراد بالتوكيل هنا إنابة الغير فيما يحتاج إلى الاستنابة فيه ، فليس توكيله سبحانه من حاجة له ، بل المراد بالتوكيل الاستخلاف في الأرض لينظر كيف يعملون .
وقول ابن العباس رضى الله عنهما : " إن إبراهيم قالها حين ألقى في النار " قول لا مجال للرأي فيه ، فيكون له حكم الرفع .
وابن عباس ممن يروي عن بني إسرائيل ، فيحتمل أنه أخذه منه ، ولكن جزمه بهذا ، وقرنه لما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم مما يبعد أن يكون أخذه من بني إسرائيل.
الشاهد من الآية : قوله تعالى:(وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل) حيث جعلوا حسبهم الله وحده .
(تنبيه) :

قولنا : " وابن عباس ممن يروى عن بـني إسـرائيل " قول مشـهور عنـد علمـاء المصـطلح ، لكن فيـه نظـر ، فإن ابن عبـاس رضـى اللـه عنهمـا ممن ينكـر الأخـذ عن بني إسرائيل ، ففي (صحيح البخاري) (5/291 – فتح) أنـه قـال (يـا معشـر المسـلمين ! كيـف تسـألون أهـل الكتاب وكتابكم الـذي أنـزل على نبيـه صـلى اللـه عليـه وسلم أحدث الأخبار بالله تقرؤونه لم يُشب ، وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بـدلوا مـا كتب اللـه وغـيروا بأيـديهم الكتاب ؟ ! فقالوا : هـذا من عنـد اللـه ليشـتروا بـه ثمنـا قليلا ، أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسـاءلتهم ؟! لا والله ما رأينا منهم رجلا يسألكم عن الذي أنزل عليكم "

****

فيه مسائل :

الأولى : أن التوكـل من الفـرائض.ووجهـه أن اللـه علـق الإيمان بالتوكل في قوله تعالى (وعلى الله فتوكلوا إن كنتم مؤمنين) ، وقد سبق تفسيرها .

الثانية : أنه من شروط الإيمان . تؤخذ من قوله تعــالى : (إن كنتم مؤمنين) . وسبق تفسيرها .

الثالثة : تفسـير آيـة الأنفـال وهي قولـه تعـالى : (إنمـا المؤمنــون الــذين إذا ذكــر اللــه وجلت قلــوبهم . . .) والمراد بالإيمـان هنـا الإيمـان الكامـل ، وإلا ، فالإنسـان يكـون مؤمنـا وأن لم يتصـف بهـذه الصـفات ، لكن معـه مطلق الإيمان ، وقد سبق تفسير ذلك .

الرابعـة : تفسـير الآيـة في آخرهـا ، أي : آخـر الأنفـال . وهي قوله تعالى : (يا أيها النبي حسبك الله ومن اتبعك من المؤمــنين) ، أي : حســبك وحســب من اتبعــك من المؤمنين ، وهذا هو الراجح على ما سبق .

الخامسة : تفسير آية الطلاق . وهي قوله تعالى : (ومن يتوكل على الله فهو حسبه) وقد سبق تفسيرها .

السادسة : عظم شأن هذه الكلمة ، وأنهـا قـول إبـراهيم عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وسلم في الشـدائد . يعني قول : (حسبنا الله ونعم الوكيل) .

وفي الباب مسائل غير ما ذكره المؤلف ، منها :
زيادة الإيمان ، لقوله تعالى : (وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا) .
ومنها : أنه عند الشدائد ينبغي أن يعتمد على الله مع فعل الأسباب ، لأن الرسول صلى الله عليه وأصحابه قالوا ذلك عندما قيل لهم : إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، ولكنهم فوّضُوا الأمر إلى الله ، وقالوا : حسبنا الله ونعم الوكيل .
ومنها : أن اتباعه النبي صلى الله عليه وسلم مع الإيمان سبب لكفاية الله للعبد .

****

باب قوله تعالى :
(أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ) (لأعراف:99) .

هذا الباب اشتمل على موضوعين :
الأول : الأمن من مكر الله .
والثاني : القنوط من رحمة الله ، وكلاهما طرفا نقيض .
واستدل المؤلف بقوله تعالى : (أفأمنوا) .
الضمير يعود على أهل القرى، لأن ما قبلها قوله تعالى : (أَفَأَمِنَ أَهْلُ الْقُرَى أَنْ يَأْتِيَهُمْ بَأْسُنَا بَيَاتاً وَهُمْ نَائِمُونَ* أو أمن أهل القرى أن يأتيهم باسنا ضحى وهم يلعبون * أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْخَاسِرُونَ (الأعراف:97،98،99).
فقوله : (وهم نائمون) يدل على كمال الأمن لأنهم في بلادهم ،وأن الخائف لا ينام ، وقوله : (ضحى وهم يلعبون) يدل على كمال الأمن والرخاء وعد الضيق ، لأنه لو كان عندهم ضيق في العيش لذهبوا يطلبون الرزق والعيش وما صاروا في الضحى – في رابعة النهار – يلعبون .
والاستفهامات هنا كلها للإنكار والتعجب من حال هؤلاء ، فهم نائمون وفي رغد ، ومقيمون على معاصي الله

وعلى اللهــو ، وذاكــرون لــترفهم ، غــافلون عن ذكــر خالقهم
فهم في الليل نوم ، وفي النهار لعب ، فبين اللــه – عــز وجل – أن هذا من مكره بهم ، ولهذا قال : (أفأمنوا مكر اللــه) ، ثم ختم الآيــة بقولــه : (فلا يــأمن مكــر اللــه إلا القوم الخاسرون) ، فالذي يمن الله عليه بالنعم والرغد والترف وهو مقيم على معصـيته يظن أن رابح وهـو في الحقيقة خاسر .
فإذا أنعم الله عليك من كـل ناحيـة:أطعمـك من جـوع، و آمنك من خوف ، وكساك من عـرى ، فلا تظن أنــك رابح وأنت مقيم على معصية الله ، بـل أنت خاسـر ، لأن هـذا من مكر الله بك .
قولــه : (إلا القــوم الخاســرون) . الاســتثناء للحصــر ، وذلك ما قبلـه مفـرغ لـه ، فـالقوم فاعـل ، والخاسـرون صفتهم .
وفي قوله تعالى : (أفأمنوا مكر الله) دليل على أن لله مكرا ، والمكر هو التوصل إلى الإيقاع بالخصــم من حيث لا يشعر، ومنه ما جاء في الحديث(الحرب خدعة)[1]
فــإن قيــل كيــف يوصــف اللــه بــالمكر مــع أن ظــاهره مذموم ؟
قيل : إن المكر في محله محمود يدل على قوة المــاكر ، وأنه غالب على خصـمه ، ولـذلك لا يوصـف اللـه بـه على الإطلاق ، فلا يجوز أن تقول أن الله مــاكر ، وإنمــا تــذكر هذه الصفة في مقام تكون فيه مدحا، مثل قوله تعالى (ويمكرون ويمكـر اللـه) (الأنفـال :30) ، وقـال تعـالى : (ومكروا مكرا ومكرنا مكرا وهم لا يشعرون) (النمــل : 50) ومثل قوله تعالى (أفأمنوا مكـر اللـه) (الأعـراف: 99) ولا تنفي عنه هذه الصفة على سـبيل الإطلاق ، بـل إنها في المقام الأول التي تكون مدحا يوصـف بهـا وفي المقام التي لا تكون مدحا لا يوصف بها .
وكذلك لا يسمى الله بها ، فلا يقال : إن من أسماء الله الماكر .

---

(1) البخاري : كتاب الجهاد / باب الحرب خدعة ، ومسلم : كتاب الجهاد / باب جواز الخداع في الحرب .

وأما الخيانة،فلا يوصف الله بها مطلقا لأنها ذم بكل حال ، إذ أنها مكر في موضع الائتمان ، وهو مذموم ، قال تعالى : (وَإِنْ يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِنْ قَبْلُ فَأَمْكَنَ مِنْهُمْ)(لأنفال: من الآية71) ولم يقل : فخانهم .

وأما الخـداع ، فهـو كـالمكر يوصـف بـه اللـه حيث يكـون مدحا ، لقوله تعالى : (إن المنافقين يخادعون الله وهـو يخــادعهم) (النســاء : 142) ، والمكــر من الصــفات الفعلية ، لأنها تتعلق بمشيئة الله – سبحانه - .

ويستفاد من هذه الآية :

الحــذر من النعم الــتي يجلبهــا اللــه للعبــد لئلا تكــون استدراجا ، لأن كل نعمة فلله عليك وظيفة شكرها،وهي القيام بطاعة المنعم ، فإذا لم تقم بها مع توافر النعم ، فأعلم أن هذا من مكر الله .

تحريم الأمن من مكر الله ، وذلك لوجهين :

الأول : أن الجملة بصيغة الاسـتفهام الـدال على الإنكـار والتعجب .

الثاني : قوله تعالى : (فلا يأمن من مكر اللـه إلا القـوم الخاسرون) .

قوله : (قَـالَ وَمَنْ يَقْنَـطُ مِنْ رَحْمَـةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّـالُّونَ) (الحجر:56)

****

الموضوع الثاني مما اشتمل عليه هذا الباب القنــوط من رحمة الله .

(من) اسـم اسـتفهام ، لأن الفعـل بعـدها مرفـوع ، ثم إنهـا لم يكن لهـا جـواب ، والقنـوط : أشـد اليـأس ، لأن الإنســان يقنــط ويبعــد الرجــاء والأمــل ، بحيث يســتبعد حصول مطلوبه أو كشف مكروبة .

قوله: (من رحمة ربه)، هذه رحمـة مضـافة إلى الفاعـل، ومفعولها محذوف، والتقدير(من رحمة ربه إياه) .

قوله : (إلا الضالون) ، إلا أداة حصر ، لأن الاستفهام في قوله : (ومن يقنط) مراد به النفي ، و (الضالون) فاعل يقنط .
والمعنى لا يقنط من رحمة الله إلا الضالون ، والضال : فاقد الهداية ، التائه الذي لا يدري ما يجب لله تعالى ، مع أنه سبحانه قريب الغير ، ولهذا جاء في الحديث : (عجب ربنا من قنوط عباده ، وقرب غيره ، ينظر إليكم أزلين قنطين ، فيظل يضحك يعلم أن فرجكم قريب)[1] .
وأما معنى الآية ، فإن إبراهيم عليه السلام لما بشرته الملائكة بغلام عليم قال لهم (قَالَ أَبَشَّرْتُمُونِي عَلَى أَنْ مَسَّنِيَ الْكِبَرُ فَبِمَ تُبَشِّرُونَ* قَالُوا بَشَّرْنَاكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُنْ مِنَ الْقَانِطِينَ * قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ) (الحجر:54- 56) .
فالقنوط من رحمة الله لا يجوز ، لأنه سوء ظن بالله – عز وجل - ، وذلك من وجهين :
الأول : أنه طعن في قدرته سبحانه ، لأن من علم أن الله على كل شي قدير لم يستبعد شيئا على قدرة الله .
الثاني : أنه طعن في رحمته سبحانه ، لأن من علم أن الله رحيم لا يستبعد أن يرحمه الله – سبحانه - ، ولهذا كان القانط من رحمة الله ضالا.
ولا ينبغي للإنسان إذا وقع في كربة أن يستبعد حصول مطلوبه أو كشف مكروبه ، وكم من إنسان وقع في كربة وظن أن لا نجاة منها ، فنجاه الله – سبحانه - : إما بعمل صالح سابق مثل ما وقع ليونس عليه السلام ، قال تعالى : (فلو لا أنه كان من المسبحين * للبث في بطنه إلى يوم يبعثون) (الصافات :144) أو بعمل لاحق ، وذلك كدعاء الرسول صلى الله عليه وسلم يوم بدر[2] و ليلة الأحزاب[3] وكذلك أصحاب الغار[4] .

---

[1] الإمام احمد في مسنده (4/ 11، 12) وابن ماجه (المقدمة،1/64) ، وابن عاصم في (السنة) (544) والآجري في (الشريعة) . قال شيخ الإسلام ابن تيمية : (حديث حسن) (الواسطية ، ص 13)

[2] البخاري: كتاب المغازي / باب قوله تعالى (إذا تستغيثون ...) ومسلم : كتاب الجهاد / باب الإمداد بالملائكة في غزوة بدر .

[3] البخاري : كتاب المغازي / باب غزوة الخندق ، ومسلم : كتاب الجهاد / باب استحباب الدعاء بالنصر .

[4] البخاري : كتاب الأنبياء / باب حديث الغار ، ومسلم : كتاب الذكر والدعاء / باب قصة أصحاب الغار .

وتـبين ممـا سـبق أن المؤلـف رحمـه اللـه أراد أن يجمـع الإنسان في سيره إلى الله تعالى بين الخـوف فلا يـأمن مكر الله ، وبين الرجاء فلا يقنط من رحمته ، فالأمن من مكر الله ثلم في جانب الخوف ، والقنوط من رحمته ثلم في جانب الرجاء .

****

وعن ابن عباس ، أن رسول الله صلى اللـه عليـه وسـلم سئل عن الكبائر ؟ فقال :
(الشـرك باللـه، واليـأس من روح اللـه، والأمن من مكـر الله) .[1]

قولـه : في حـديث ابن عبـاس رضـى اللـه عنهمـا : (أن رسول الله صلى الله عليه وسـلم سـئل عن الكبـائر) . جمع كبيرة ، والمراد بها : كبائر الـذنوب ، وهـذا السـؤال يدل على أن الذنوب تنقسم إلى صغائر وكبائر ، وقد دل على ذلك القرآن،قال تعالى:(إِنْ تَجْتَنِبُوا كَبَائِرَ مَا تُنْهَـوْنَ عَنْهُ نُكَفِّرْ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ) (النساء:31) قال تعالى(الـذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش) (النجم : 32) والكبائر ليست على درجة واحدة ، فبعضها اكبر من بعض .
واختلف العلماء هل هي معدودة أو محدودة ؟
فقـال بعض أهـل العلم : إنهـا معـدودة ، وصـار يعـددها ويتتبع النصوص الواردة في ذلك .
وقيل : إنها محدودة ، وقد حدها شيخ الإسلام ابن تميمة رحمه الله ، فقال : (كـل مـا رتب عليـه عقوبـة خاصـة ، سواء كانت في الـدنيا أو الآخـرة ، وسـواء كـانت بفـوات محبوب أو بحصول مكروه) وهذا واسع جدا يشمل ذنوبـا كثيرة .
ووجه ما قاله : أن المعاصي قسمان :

قسم نهى عنه فقط ولم يذكر عليه وعيد ، فعقوبـة هـذا تأتي بالمعنى العام للعقوبـات ، وهـذه المعصـية مكفـرة

---

[1] البزار ، كما في (كشف الأستار) (106) ، وابن أبي حاتم في (التفسير) كما في (الدر المشور)(2/148)،وقال :(إسناده حسن) .
وقال الهيثمي (1/104) رواه البزار والطبراني ، ورجاله موثوقون .

بفعل الطاعات ، كقوله صلى الله عليه وسلم (الصلوات الخمس ، والجمعة إلى الجمعة ، ورمضان إلى رمضان كفارة لما بينهن إذا اجتنبت الكبائر) [1] وكذلك ما ورد في العمرة إلى العمرة [2] ، والوضوء من تكفير الخطايا [3]، فهذه من الصغائر.

وقسم رتب عليه عقوبة خاصة ، كاللهن ، أو الغضب ، أو التبرؤ من فاعله ، أو الحد في الدنيا ، أو نفي الإيمان ، وما أشبه ذلك ، فهذه كبيرة تختلف في مراتبها .

والسائل في هذا الحديث إنما قصده معرفة الكبائر ليجتنبها ، خلاف لحال كثير من الناس اليوم حيث يسأل ليعلم فقط ، ولذلك نقصت بركة علمهم .

قوله: (الشرك بالله) . ظاهر الإطلاق: أن المراد به الشرك الصغر والأكبر ، وهو الظاهر ، لأن الشرك الأصغر أكبر من الكبائر ، قال ابن مسعود : (لأن أحلف بالله كاذبا أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقا) [4] ، وذلك لأن سيئة الشرك أعظم من سيئة الكذب ، فدل على أن الشرك من الكبائر مطلقا .

والشرك بالله يتضمن الشرك بربوبيته ، أو بألوهيته ، أو بأسمائه وصفاته .

قوله : (اليأس من روح الله) . اليأس : فقد الرجاء ، والروح بفتح الراء ريب من معنى الرحمة ، وهو الفرج والتنفيس ، واليأس من روح الله من كبائر الذنوب لنتائجه السيئة .

قوله : (الأمن من مكر الله) . بأن يعصي الله مع استدراجه بالنعم ، قال تعالى : (وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآياتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُمْ مِنْ حَيْثُ لا يَعْلَمُونَ * وَأُمْلِي لَهُمْ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ) (الأعراف :183:182) .

وظاهر هذا الحديث : الحصر ، وليس كذلك : لأن هناك كبائر غير هذه ، ولكن الرسول صلى الله عليه وسلم يجيب كل سائل بما يناسب حاله ، فلعله رأى هذا السائل

---

[1] مسلم : كتاب الطهارة / باب الصلوات الخمس ...

[2] البخاري : كتاب العمرة / باب وجوب العمرة وفضلها ، ومسلم : كتاب الحج / باب فضل الحج والعمرة .

[3] مسلم : كتاب الطهارة / باب فضل الوضوء .

[4] تقدم (606) .

عنـده شـي من الأمن من مكـر اللـه أو اليـأس من روح اللـه ، فـأراد أن يـبين لـه ذلـك ، وهـذه مسـألة ينبغي أن يفطن لها الإنسـان فيمـا يـأتي من النصـوص الشـرعية مما ظاهره التعارض ، فيحمل كل واحد منها على الحـال المناسبة ليحصل التآلف بين النصوص الشرعية .

وعن ابن مسعود، قال : (أكبر الكبائر : الإشراك بالله والأمن من مكر الله، والقنـوط من رحمـة اللـه، واليـأس من روح الله) . رواه عبد الرازق[1] .

****

قوله في أثر ابن مسعود : (الإشراك بالله) : هـذا أكـبر الكبـائر ، لأنـه انتهـاك لأعظم الحقـوق ، وهـو حـق اللـه تعالى الذي أوجدك وأعـدك وأمـدك،فلا أحـد أكـبر عليـك نعمة من نعمة الله تعالى .
قوله : (الأمن من مكر الله) . سبق شرحه .
قوله : (القنوط من رحمة الله واليأس من روح اللــه) . المراد بالقنوط : أن يستبعد رحمة الله ويسـتبعد حصـول المطلوب ، والمراد باليأس هنا أن يستبعد الإنسان زوال المكروه، وإنما قلنا ذلك ، لئلا يحصل تكرار في كلام ابن مسعود .
والخلاصة : أن السـائر إلى اللـه يعتريـه شـيئان يعوقانـه عن ربه ، وهما الأمن من مكر الله ، والقنـوط من رحمـة الله ، فإذا أصيب بالضراء أو فات عليه ما يجب ، تجده إن لم يتداركه ربه يستولي عليه القنوط ويستبعد الفرج ولا يسعى لأسبابه ، وأما الأمن من مكر الله ، فتجد الإنسـان مقيما على المعاصي مع تـوافر النعم عليـه ، ويـرى أنـه على حق فيستمر فلا شك أن هذا استدراج .

****

فيه مسائل :

---

[1] عبد الرازق في (المصنف)(10/ 459) ، وابن جرير (5/26) ، والطبراني في (الكبير) (8783) .

الأولى : تفسير آية الأعراف . وهي قوله : (أَفَأَمِنُوا مَكْرَ اللَّهِ فَلا يَأْمَنُ مَكْـرَ اللَّهِ إِلَّا الْقَـوْمُ الْخَاسِـرُونَ) (الأعـراف: 99) . وقد سبق تفسيرها .
الثانيـة : تفسـير آيـة الحجـر . وهي قولـه تعـالى (ومن يقنط من رحمة ربه إلا الضالون) ، وقد سبق تفسيرها .
الثالثة : شدة الوعيد فيمن أمن مكر الله . وذلك بأنـه من أكبر الكبائر ، كما في الآيـة والحـديث ، وتؤخـذ من الآيـة الأولى ، والحديثين .
الرابعة : شدة الوعيد في القنوط . تؤخذ من الآية الثانية والحديثين .

****

باب من الإيمان بالله الصـبر على أقـدار الله

____

(الصـبر) . في اللغـة : الحبس ، ومنـه قـولهم : (قتـل صبرا) ، أي : محبوسا مأسورا.
وفي الاصطلاح : حبس النفس عن أشياء وأشـياء ، وهـو ثلاثة أقسام :
الأول : الصبر على طاعة الله ، كما قال تعـالى : (وَأْمُـرْ أَهْلَـكَ بِالصَّـلاةِ وَاصْـطَبِرْ عَلَيْهَـا) (طــه: من الآية132)ـ ، وقـال تعـالى : (إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَـا عَلَيْـكَ الْقُـرْآنَ تَنْـزِيلاً * فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ)(الانسان: 23-24) ، وهذا من الصـبر على الأوامر ، لأنه إنما نزل عليه القرآن ليبلغه ، فيكـون مـأمورا بالصـبر على الطاعـة وقـال تعـالى : (وَاصْـبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَـدَاةِ وَالْعَشِـيِّ يُرِيـدُونَ وَجْهَهُ)(الكهف : الآية28) . وهذا صبر على طاعة الله .
الثـاني : الصـبر عن معصـية اللـه ، كصـبر يوسـف عليـه السلام عن إجابة امرأة العزيز حيث دعته إلى نفسها في مكانة لها فيها العزة والقوة والسلطان عليه ، ومع ذلــك صبر وقـال : (قَـالَ رَبِّ السِّـجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَـدْعُونَنِي إِلَيْــهِ وَإِلَّا تَصْــرِفْ عَنِّي كَيْــدَهُنَّ أَصْــبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُنْ مِنَ الْجَاهِلِينَ) (يوسف:33) . فهذا صبر عن معصية الله .

الثالث : الصبر على أقدار الله ، قال تعالى : (فاصبر لحكم ربك) (الإنسان :24) فيدخل في هذه الآية حكم الله القدري ، ومنه قوله تعالى : (فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل ولا تستعجل لهم) (الأحقاف : 35) لأن هذا صبر على تبليغ الرسالة وعلى أذى قومه ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم لرسول إحدى بناته : (مرها، فلتصبر ولتحتسب) [1] .

إذن الصبر ثلاثة أنواع ، أعلاها الصبر على طاعة الله ، ثم الصبر على معصية الله، ثم الصبر على أقدار الله .

وهذا الترتيب من حيث هو لا باعتبار من يتعلق به ، وإلا فقد يكون الصبر على المعصية أشق على الإنسان من الصبر على الطاعة إذا فتن الإنسان مثلا بامرأة جميلة تدعوه إلى نفسها في مكان خال لا يطلع عليه إلا الله وهو رجل شاب ذو شهوة ، فالصبر عن هذه المعصية أشق ما يكون على النفوس ، وقد يصلي الإنسان مائة ركعة وتكون أهون عليه من هذا .

وقد يصاب الإنسان بمصيبة يكون الصبر عليها أشق من الصبر على الطاعة ، فقد يموت له مثلا قريب أو صديق أو عزيز عليه جدا ، فتجده يتحمل من الصبر على هذه المصيبة مشقة عظيمة .

وبهذا يندفع الإيراد الذي يورده بعض الناس ويقول : إن هذا الترتيب فيه نظر ، إذ بعض المعاصي يكون الصبر عليها أشق من بعض الطابعات ، وكذلك بعض الأقدار يكون الصبر عليها أشق ، فنقول : نحن نذكر المراتب من حيث هي بقطع النظر عن الصابر .

وكان الصبر على الطاعة أعلى ، لأنه يتضمن إلزاما وفعلا ، فتلزم نفسك الصلاة فتصلي ، والصوم فتصوم ، والحج فتحج ... ففيه إلزام وفعل وحركة فيها نوع من المشقة والتعب ، ثم الصبر على المعصية لأن فيه كفا فقط ، أي :

---

[1] البخاري : كتاب الجنائز / باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : (يعذب الميت ببعض بكاء أهله) ومسلم : كتاب الجنائز / باب البكاء على الميت .

إلزامـا للنفس بـالترك ، أمـا الصـبر على الأقـدار ، فلأن سببه ليس باختيار العبد ، فليس فعلا ولا تركا ، وإنما هو من قدر الله المحض .
وخص المؤلـف رحمـه اللـه في هـذا البـاب الصـبر على أقدار الله ، لأنه مما يتعلـق بتوحيـد الربوبيـة ، لأن تـدبير الخلق والتقدير عليهم من مقتضيات ربوبية الله تعالى .
قولـه : (على أقـدار اللـه). جمـع قـدر، وتطلـق على المقـدور وعلى فعـل المقـدر، وهـو اللـه تعـالى ، أمـا بالنسبة لفعـل المقـدر ، فيجب على الإنسـان الرضـا بـه والصـبر ، وبالنسـبة للمقـدور ، فيجب عليـه الصـبر ويستحب له الرضا .
مثـال ذلـك : قـدر اللـه على سـيارة شـخص أن تحـترق ، فكون الله قدر أن تحترق هذا قدر يجب على الإنسان أن يرضى به ، لأنه من تمام الرضا بالله ربا .
وأما للمقدور الذي هو احـتراق السـيارة ، فالصـبر عليـه واجب ، والرضـا بـه مسـتحبا وليس بـواجب على القـول الراجح .
والمقدور قد يكون طاعات ، وقـد يكـون معاصـي ، وقـد يكون من أفعـال اللـه المحضـة ، فالطاعـات يجب الرضـا بها ، والمعاصي لا يجوز الرضا بها من حيث هي مقدور ، أما من حيث كونها قدر اللـه ، فيجب الرضـا بتقـدير اللـه بكل حال ، ولهذا قال ابن القيم:
فلذاك نرضى بالقضاء ونسخط الـ ـمقضي حين يكون بالعصيان
فمن نظر بعين القضاء والقدر إلى رجل يعمل بمعصية ، فعليه الرضا لأن الله هو الذي قدر هذا ، وله الحكمـة في تقديره ، وإذا نظر إلى فعله ، فلا يجوز له أن يرضـى بـه لأنه معصية ، وهذا هو الفرق بين القدر والمقدور .

قوله تعالى : (ومن يؤمن بالله) . (من) : اسـم شـرط جازم ، فعل الشرط (يؤمن) ، وجوابه (يهـد) ، والمـراد بالإيمان بالله هنا الإيمان بقدره .
قوله : (يهد قلبه) . يرزقه الطمأنينـة ، وهـذا يـدل على أن الإيمـان يتعلـق بـالقلب ، فـإذا اهتـدى القلب اهتـدت

الجوارح ، لقوله صلى الله عليه وسلم : (إن في الجسد مضغة ، إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا هو القلب) [1] .

وقول الله تعالى : (وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ)(التغابن: من الآية11) .
وقال علقمة : (هو الرجل تصيبه المصيبة ، فيعلم أنها من عند الله، فيرضى ويسلم).

****

قوله : " قال علقمة " . وهو من أكابر التابعين .
قوله : (هو الرجل تصيبه المصيبة ...) إلخ . وتفسير علقمة هذا من لازم الإيمان ، لأن من آمن بالله علم أن التقدير من الله ، فيرضى ويسلم ، فإذا علم أن المصيبة من الله اطمأن القلب وارتاح ، ولهذا كان من أكبر الراحة والطمأنينة الإيمان بالقضاء والقدر .

وفي (صحيح مسلم) عن أبي هريرة ، أن الرسول صلى الله عليه وسلم ، قال : (اثنتان في الناس هما بهم كفر : الطعن في النسب ، والنياحة على الميت) .[1]

قوله : في حديث أبي هريرة (اثنتان) . مبتدأ وسوغ الابتداء به التقسيم ، أو أنه مفيد للخصوص .
قوله : (بهم كفر) : الباء يحتمل أن تكون بمعنى (من) ، أي : هما منهم كفر ، ويحتمل أن تكون بمعنى (في) ، أي : هما فيهم كفر . قوله : (كفر) . أي هاتان

---

[1] البخاري : كتاب الإيمان / باب فضل من استبرأ لدينه ، ومسلم : كتاب المساقاة / باب أخذ الحلال وترك الشبهات .

[1] تقدم (ص 574) .

الخصلتان كفر ولا يلزم من وجود خصلتين من الكفر في المؤمن أن يكون كافرا ، كما لا يلزم من وجـود خصـلتين في الكـافر من خصـال الإيمـان ، كالحيـاء ، والشـجاعة ، والكرم ، أن يكون مؤمنا .قـال شـيخ الإسـلام ابن تميمـة رحمه الله : (بخلاف قول رسـول اللـه صـلى اللـه عليـه وسلم : (بين الرجل والشرك والكفر ترك الصلاة) [2] . فإنه هنا أتى بال الدالة على الحقيقـة ، فـالمراد بـالكفر هنــا الكفــر المخــرج عن الملــة ، بخلاف مجي (كفــر) نكرة ، فلا يدل على الخروج عن الإسلام .
قوله : (الطعن في النسب) . أي : العيب فيه أو نفيـه ، فهذا عمل من أعمال الكفر .

قوله : (النياحة على الميت). أي : أن يبكي إنســان على الميت بكاء على صـفة نـوح الحمـام ، لأن هـذا يـدل على التضجر وعدم الصبر ، فهو مناف للصبر الـواجب ، وهـذه الجملة هي الشاهد للبـاب . والنـاس حـال المصـيبة على مراتب أربع :
الأولى : التسخط ، وهو إما أن يكون بالقلب كأن يسخط على ربه ، ويغضب على قدر الله عليـه ، وقـد يـؤدي إلى الكفـر ، وقـال تعـالى : (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُـدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَـابَتْهُ فِتْنَـةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الـدُّنْيَا وَالْآخِـرَةَ) (الحج:11) وقـد يكـون باللسان ، كالدعاء بالويل والثبور ومـا أشـبه ذلـك ، وقـد يكون بالجوارح ، كلطم الخـدود ، وشـق الجيـوب ، ونتـف الشعور ، وما أشبه ذلك .
الثانية : الصبر ، وهو كما قال الشاعر :
الصبر مثل اسمه مر مذاقته   لكن عواقبه أحلى من العسل
فيرى الإنسان أن هذا الشي ثقيـل عليـه ويكرهـه ، لكنـه يتحمله ويتصبر ، وليس وقوعه وعدمه سـواء عنـده ، بـل يكره هذا ولكن إيمانه يحميه من السخط .
الثالثـة : الرضـا ، وهـو أعلى من ذلـك ، وهـو أن يكـون الأمران عنده سواء بالنسبة لقضاء الله وقـدره وإن كـان

---

(2) تقدم (ص 574)

قـد يحـزن من المصـيبة ، لأنـه رجـل يسـبح في القضـاء والقدر ،أينما ينزل به القضاء والقدر فهو نـازل بـه على سهل أو جبل، أن أصيب بنعمة أو أُصـيب بضـدها، فالكـل عنده سـواء ، لا لأن قلبـه ميت، بـل لتمـام رضـاه بربـه - سبحانه وتعالى - يتقلب في تصرفات الـرب -عـز وجـل- ولكنها عنده سواء ، إذ ينظر إليها باعتبارهـا قضـاء لربـه وهذا الفرق بين الرضا والصبر .

ولهمـا عن ابن مسـعود مرفوعـا : (ليس منـا من ضـرب الخدود ، وشق الجيوب ، ودعا بدعوى الجاهلية)[1] .

الرابعة : الشـكر، وهـو أعلى المـراتب ، وذلـك أن يشـكر اللـه مـا أصـابه من مصـيبة، وذلـك يكـون في عبـاد اللـه الشاكرين حين يـرى أن هنـاك مصـائب أعظم منهـا، وأن مصائب الدنيا أهون من مصائب الدين، وأن عـذاب الـدنيا أهون من عذاب الآخرة ، وأن هذه المصيبة سبب لتكفـير سيئاته وربما لزيادة حسـناته شـكر اللـه على ذلـك، قـال النبي صلى الله عليه وسلم :(ما يصـيب المـؤمن من هم ولا غم ولا شي إلا كفر له بها ، حـتى الشـوكة يشـاكها [2]) .

كما أنه قد يزداد إيمان المرء بذلك .

قوله في حديث ابن مسعود : (مرفوعا) . أي : إلى النبي صلى الله عليه وسلم .

قوله : (من ضرب الخدود) . العموم يراد به الخصـوص ، أي: من أجل المصيبة.

قوله : (من شق الجيوب) . هو طوق القميص الذي يدخل منه الرأس، وذلك عند المصيبة تسخطا وعدم تحمـل لمـا وقع عليه .

قولــه : (ودعــا بــدعوى الجاهليــة) . ودعــوى مضــاف والجاهلية مضاف إليه ، وتنازع أمران :

([1]) البخاري : كتاب المناقب / باب ما ينهى من دعوى الجاهلية ، ومسلم : كتاب الإيمان / باب تحريم ضرب الخدود . .

([2]) البخاري : كتاب المرضى / باب كفارة المرض، ومسلم : كتاب البر والصلة / باب ثواب المؤمن .

الأول : صيغة العموم (دعوى الجاهلية) ، لأنه مفرد مضاف فيعم .
الثاني : القرينة، لأن ضرب الخدود وشق الجيوب يفعلان عند المصيبة فيكون دعا بدعوى الجاهلية عند المصيبة، مثل قولهم : وا ويلاه ! وا انقطاع ظهراه !
والأولى أن ترجح صيغة العموم ، والقرينة لا تخصصه ، فيكون المقصود بالدعوى كل دعوى منشؤها الجهل .
وذكر هذه الأصناف الثلاثة ، لأنها غالبا ما تكون عند المصائب، وإلا فمثله هدم البيوت ، وكسر الأواني ، وتخريب الطعام، ونحوه مما يفعله بعض الناس عند المصيبة .
وهذه الثلاثة من الكبائر ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم تبرا من فاعلها .
ولا يدخل في الحديث ضرب الخد في الحياة العادية ، مثل : ضرب الأب لأبنه ، لكن يكره الضرب على الوجه للنهي عنه ، وكذلك شق الجيب لأمر غير المصيبة .

وعن أنس ، أن رسول الله قال : (إذا أراد الله بعبده الخير عجل له

****

قوله في حديث انس : (إذا أراد الله بعبده الخير) . الله يريد بعبده الخير والشر ، ولكن الشر المراد لله تعالى ليس مرادا لذاته بدليل قول النبي صلى الله عليه وسلم :

العقوبة في الدنيا ، وإذا أراد بعبده الشر أمسك عنه بذنبه ، حتى يوافي به يوم القيامة)[1] .

---

[1] الترمذي : كتاب الزهد / باب ما جاء في الصبر على البلاء، والحاكم في (المستدرك)(4/651) ، والبيهقي في (السماء والصفات) (154) ، والبغوي في (شرح السنة) (5/245) .

(والشـر ليس إليـك)[2] ومن أراد الشـر لذاتـه كـان إليـه ، ولكن الله يريد الشر لحكمه ، وحينئذ يكون خـيرا باعتبـار ما يتضمنه من الحكمة .
قوله : (عجل له بالعقوبة في الدنيا) . العقوبة : مؤاخـذة المجرم بذنبه،وسميت بذلك، لأنها تعقب الذنب ، لكنها لا تقال إلا في المؤاخذة على الشر .
وقوله : (عجل له العقوبة في الدنيا) . كان ذلك خيرا من تأخيرهـا في الآخـرة ، لأنـه يـزول وينتهي ، ولهـذا قـال الرسول صلى اللـه عليـه وسـلم للمتلاعـنين :(إن عـذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة)[3]
وهناك خير أولى من ذلك وهو العفـو عن الـذنب ، وهـذا أعلى، لأن الله إذا لم يعاقبـه في الـدنيا ولا في الآخـرة، فهـذا هـو الخـير كلـه ، ولكن الرسـول صـلى اللـه عليـه وسلم جعل تعجيل العقوبة خيرا باعتبار أن تأخر العقوبة إلى الآخرة أشد ، كما قال تعـالى (ولعـذاب الآخـرة أشـد وأبقى)(طه:127)
والعقوبة أنواع كثيرة :
منهـا : مـا يتعلـق بالـدين ، وهي اشـدها لأن العقوبـات الحسية قد ينتبه لها الإنسان ، أما هذه،فلا ينتبه لهـل إلا من وفقه اللـه، وذلـك كمـا لـو خفت المعصـية في نظـر العاصي، فهذه عقوبة دينية تجعله يسـتهين بهـا، وكـذلك التهاون بترك الواجب، وعدم الغيرة على حرمـات اللـه ، وعدم القيام بها.
الأمـر بـالمعروف والنهي على المنكـر ، وكـل ذلـك من المصائب ، ودليله قوله تعالى : (فإن تولـوا فـأعلم أنمـا يريد الله أن يصيبهم ببعض ذنوبهم) (المائدة:49)
ومنهـا : العقوبـة بـالنفس ، وذلـك كـالأمراض العضـوية والنفسية .
ومنهـــا : العقوبـــة بالأهـــل ، كفقـــدانهم ، أو أمـــراض تصيبهم .
ومنها العقوبة بالمال ، كنقصه أو تلفه وغير ذلك .

---

(2) مسلم : كتاب المسافرين / باب الدعاء في صلاة الليل .
(3) أخرجه البخلري ومسلم .

قولـه : (وإذا أراد بعبـده الشـر ، أمسـك عنـه بذنبـه) . (أمسك عنه) أي : ترك عقوبته .
والإمساك فعل من أفعال الله ، وليس معناه تعطيل الله عن الفعل ، بل هو لم يزل ولا يزال فعالا لما يريد، لكنـه يمسك عن الفعـل في شـي مـا لحكمـة بالغـة ، ففعلـه حكمة ، وإمساكه حكمة .
قوله : (حتى يوافي به يوم القيامة) . أي : يوافيـه اللـه به : أي : يجازيه به يوم القيامـة ، وهـو الـذي يقـوم فيـه الناس من قبورهم لله رب العالمين .
وسمي بيوم القيامة لثلاثة أسباب :
1. قيام الناس من قبـورهم لقولـه تعـالى : (يـوم يقـوم الناس لرب العالمين)(المطففين:6)
2.قيام الأشهاد ، لقوله تعالى: (إنا لننصر رسلنا والـذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) (غافر : 51) .
3. قيام العدل ، لقوله تعالى : (ونضع الموازين القسـط ليوم القيامة) (الأنبياء:47) .
والغرض من سياق المؤلف لهذا الحديث : تسلية الإنسان إذا أصيب بالمصائب لئلا يجزع ،فإن ذلك قد يكـون خـيرا، وعذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة ، فيحمد الله أنه لم يؤخر عقوبته إلى الآخرة .
وعلى فرض أن أحدا لم يـأت بخطيئـة وأصـابته مصـيبة ، فنقـول لـه : إن هـذا من بـاب امتحـان الإنسـان على الصـبر ، ورفـع درجاتـه باحتسـاب الأجـر ، لكن لا يجـوز للإنسان إذا أصيب بمصيبة، وهو يـرى أنـه لم يخطيء أن يقول : أنا لم أخطي ، فهذه تزكية ، فلو فرضنا أن أحـدا لم يصـب ذنبـا وأصـيب بمصـيبة ، فـإن هـذه المصـيبة لا تلاقي ذنبا وأصيب بمصيبة ، فإن هـذه المصـيبة لا تلاقي ذنبـا تكفـره لكنهـا تلاقي قلبـا تمحصـه ، فيبتلى اللـه الإنسان بالمصـائب لينظـر هـل يصـبر أم لا؟ ولهـذا كـان أخشى الناس لله –عز وجل- وأتقـاهم محمـد صـلى اللـه عليه وسلم ، يوعك كمـا يوعـك رجلان منا[1] وذلـك لينـال أعلى درجـات الصـبر فينـال مرتبـة الصـابرين على أعلى

---

(1) البخاري : كتاب المرضى/باب أشد الناس بلاء الأنبياء، ومسلم: كتاب البروالصلة /باب ثواب المؤمن .

وجوهها ، ولذلك شدد عليه صلى الله عليه وسلم عند النزع ، ومع هذه الشدة كان ثابت القلب ، ودخل عليه عبد الرحمن ابن أبي بكر وهو يستاك ، فأمده بصره (يعني : ينظر إليه) فعرفت عائشة رضى الله عنها أنه يريد السواك ، فقالت : آخذه لك ؟ فأشار برأسه نعم ، فأخذت السواك وقضمته وألانته للرسول صلى الله عليه،فأعطته إياه ،فاستن به، قالت عائشة: ما رأيته استن استنانا أحسن منه ، ثم رفع يده قال : (في الرفيق الأعلى)[2] .

فانظر إلى هذا الثبات واليقين والصبر العظيم مع هذه الشدة العظيمة ، كل هذا لأجل أن يصل الرسول صلى الله عليه وسلم أعلى درجات الصابرين ، صبر لله ، وصبر

بالله وصبر في الله حتى نال أعلى الدرجات .

فمن أصيب بمصيبة ، فحدثته نفسه أن مصائبه أعظم من معائبه ، فإنه يدل على ربه بعمله ويمن عليه به ، فليحذر هذا .

ومن ذلك يتضح لنا أمران :

1. أن إصابة الإنسان بالمصائب تعتبر تكفيرا لسيئاته وتعجيلا للعقوبة في الدنيا ، وهذا خير من تأخيرها له في الآخرة .

2. قد تكون المصائب أكبر من المعائب ليصل المرء بصبره أعلى درجات الصابرين ، والصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم: (إنَّ عِظَمَ الجَزَاءِ مَعَ عِظَمِ البَلاءِ، وإنَّ اللهَ تَعَالَى إذَا أَحَبَّ قَوماً ابتَلاهُم، فَمَن رَضِيَ؛ فَلَهُ الرِّضا، ومَن سَخِطَ فَلَهُ السُّخطُ). حَسَّنُه التِّرمِذِي [1]

---

[2] البخاري : كتاب المغازي /باب مرض النبي صلى الله عليه وسلم .

[1] الترمذي: كتاب الزهد/ باب ما جاء في الصبر على البلاء، وابن ماجة: كتاب الفتن/ باب الصبر على البلاء.

****

قوله : (وقال النبي صلى اللـه عليـه وسـلم : (إن عظم الجزاء مع عظم البلاء) . وهـذا حـديث رواه الترمـذي عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، عن النبي صلى الله عليـه وسلم – فصحابيُّه صحابي الحديث الذي قبله .

قولـه : (إن عظم الجـزاء مـع عظم البلاء) . أي : يتقابـل عظم الجزاء مع عظم البلاء، فكلما كان البلاء أشد وصـبر الإنسـان صـار الجـزاء أعظم ، لأن اللـه عـدل لا يجـزى المحسن بأقل من إحسانه ، فليس الجـزاء على الشـوكة يشاكها كالجزاء على الكسـر إذا كسـر ، وهـذا دليـل على كمـال عـدل اللـه ، وأنـه لا يظلم أحـدا ، وفيـه تسـلية المصاب .

قوله :(وإن اللـه إذا أحب قومـا ابتلاهم) . أي : اختـبرهم بما يقدر عليهم من الأمور الكونية، كـالأمراض، وفقـدان الأهـل، أو بمـا يكلفهم بـه من الأمـور الشـرعية ، قـال تعالى : (إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا *فاصـبر لحكم ربـك) (الإنسـان :23،24) فـذكره اللـه بالنعمـة وأمـره بالصبر، لأن هذا الذي نزل عليه يكلف به .

كـذلك من الابتلاء الصـبر على محـارم اللـه، كمـا في الحديث (ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمـال، فقـال : إني أخاف الله)[1] ، فهذا جـزاؤه أن اللـه يظلـه في ظلـه يوم لا ظل إلا ظله .

قوله : (فمن رضى، فله الرضا،ومن سخط، فله السخط) .(من) : شـرطية، والجـواب : (فلـه الرضـا)، أي : فلـه الرضا من الله، وإذا رضى الله عن شخص أرضـى النـاس عنه جميعا، والمراد بالرضا : الرضا بقضـاء اللـه من حيث إنه قضاء الله، وهـذا واجب بـدليل قولـه : (ومن سـخط) فقابل الرضا بالسخط، وهـو عـدم الصـبر على مـا يكـون من المصائب القدرية الكونية .

ولم يقل هنا (فعليه السخط) مع أن مقتضى السياق أن يقول فعليه، كقوله تعالى : (ومن عمل صـالحا فلنفسـه ومن أساء فعليها) (فصلت :46).

---

[1] البخاري : كتاب الجماعة والإمامة / باب من جلس في المسجد ينتظر الصلاة، ومسلم: كتاب الزكاة / باب إخفاء الصدقة .

فقال بعض العلماء: إن اللام بمعنى على،كقوله تعـالى : (أولئك لهم اللعنة ولهم سـوء الـدار) (الرعـد : 25)، أي : عليهم اللعنة .
وقــال آخــرون : إن اللام على مــا هي عليــه ، فتكــون للاسـتحقاق، أي : صـار عليـه السـخط باسـتحقاقه لـه ، فتكـون أبلـغ من (على)، كقولـه تعـالى : (أولئـك لهم اللعنة) ، أي حقت عليهم باستحقاقهم لها ،وهذا أصح .
ويستفاد من الحديث :
إثبات المحبة والسخط والرضـا للـه – عـز وجـل -، وهي من الصفات الفعلية لتعلقها بمشيئة الله تعالى،لأن (إذا) في قولـه : (إذا أحب اللــه قومــا) للمســتقبل، فــالحب يحدث، فهو من الصفات الفعلية .
الله تعالى يحب العبد عنـد وجـود سـبب المحبـة،ويبغضـه عنـد وجـود سـبب البغض، وعلى هـذا، فقـد يكـون هـذا الشخص في يـوم من الأيـام محبوبـا إلى اللـه وفي آخـر مبغضا
إلى الله ،لأن الحكم يدور مع علته .
ويجب في كل صفة أثبتها الله لنفسه أمران :
1. إثباتها على حقيقتها وظاهرها .
2. الحذر من التمثيل أوالتكييف .
****

فيه مسائل :
الأولى تفسير آية التغابن . الثانيـة : أن هـذا من الإيمـان باللــه . الثالثــة : الطعن في النســب . الرابعــة : شــدة الوعيد فيمن ضرب الخدود، و شق الجيوب،أو دعا بدعوى الجاهليـة . لخامســة : علامــة إرادة اللــه بعبــده الخــير . السادسة : إرادة الله به الشر السابعة : علامــة حب اللــه للعبد ،

فيه مسائل :
الأولى تفسـير آيـة التغـابن . وهي قولـه تعـالى : (ومن يؤمن بالله يهـد قلبـه)، وقـد فسـرها علقمـه كمـا سـبق تفسير مناسبا للباب .

الثانية : أن هذا من الإيمان . المشار إليه بقوله : (هـذا) هو الصبر على أقدار الله .
الثالثة : الطعن في النسب . وهو عيبه أو نفيه، وهو من الكفر، لكنه لا يخرج من الملة .
الرابعـة : شـدة الوعيـد فيمن ضـرب الخـدود، أو شـق الجيوب،أو دعا بـدعوى الجاهليـة . لأن النـبي صـلى اللـه عليه وسلم تبرأ منه .
الخامسة : علامة إرادة الله بعبده الخير . وهـو أن يجعـل له العقوبة في الدنيا.
السادسة : إرادة الله به الشـر . أي علامـة إرادة اللـه بـه الشر، وهو أن يؤخر له العقوبة في الآخرة .
السابعة : علامة حب الله للعبد ، وهي الابتلاء .
الثامنة : تحريم السخط .يعني: مما به العبد، لقوله صلى الله عليه وسلم (ومن سخط،فله السخط)، وهذا وعيد .
التاسعة : ثواب الرضا بالبلاء . وهو رضـا اللـه عن العبـد، لقوله صلى الله عليه وسلم : (من رضى،فله الرضى) .

***

باب ما جاء في الرياء

المؤلف رحمه اللـه تعـالى أطلـق الترجمـة ، فلم يفصـح بحكمه لأجل أن يحكم الإنسان بنفسه على الرياء على ما جاء فيه .
تعريف الرياء :
مصدر راءي يرائي، أي عمل عملا لـيراه النـاس، ويقـال مراءاة كما يقال : جاهد جهادا ومجاهدة، ويدخل في ذلك من عمل العمل ليسمعه الناس ويقـال لـه مسـمع، وفي حديث النبي صلى الله عليه وسلم ،أنه قــال : (من راءي راءى الله به، ومن سمع سمع الله به)[1]
والرياء خلق ذميم، وهو منصفات المنافقين، قال اللـه تعـالى : (وَإِذَا قَـامُوا إِلَى الصَّـلاةِ قَـامُوا كُسَـالَى يُــرَاؤُونَ النَّاسَ وَلا يَــذْكُرُونَ اللَّهَ إِلَّا قَلِيلاً)(النســاء: من الآية142).

---

[1] البخاري : كتاب الرقاق / باب الرياء والسمع، ومسلم : كتاب الزهد /باب تحريم الرياء .

والرياء يبحث في مقامين :
المقام الأول : في حكمه .
فنقول : الريـاء من الشـرك الأصـغر، قصـد بعبادتـه غـير الله،وقد يصل إلى الأكـبر، وقـد مثـل ابن القيم للشـرك الأصغر، فقال : (مثـل يسـير الريـاء)، وهـو يـدل على أن الرياء كثير قد يصل إلى الأكبر .
المقام الثاني : في حكم العبادة إذا خالطها الرياء، وهــو على ثلاثة أوجه :
الأول : أن يكون الباعث على العبادة مراءاة النـاس من الأصـل ، كمن قـام يصـلي من أجـل مـراءاة النـاس ولم يقصد وجه الله ، فهذا شرك والعبادة باطلة .
الثاني : أن يكون مشاركا للعبادة في أثنائها، بمعنى أن يكـون الحامـل لـه في أول أمـره الإخلاص للـه ثم يطـرأ الرياء في أثناء العبادة .
فإن كـانت العبـادة لا ينبـني آخرهـا على أولهـا ، فأولهـا صحيح بكل حال، وباطل آخرها .
مثال ذلـك : رجـل عنـده مائـة ريـال قـد أعـدها للصـدقة فتصدق بخمسين مخلصـا وراءى في الخمسـين الباقيـة، فالأولى حكمها صحيح، والثانية باطلة.
أما إذا كانت العبادة ينبني آخرها على أولهـا ، فهي على حالين :
أن يدافع الرياء ولا يسكن إليه، بل يعرض عنـه ويكرهـه ، فإنه لا يـؤثر عليـه شـيئا، لقـول النـبي صـلى اللـه عليـه وسلم : (إن الله تجاوز عن أمتي ما حدثت به نفسـها مـا لم تعمل أو تتكلم)[2] .
مثال ذلك : رجل قـام يصـلي ركعـتين مخلصـا للـه، وفي الركعة الثانية أحس بالريـاء فصـار يدافعـه، فـإن ذلـك لا يضره ولا يؤثر على صلاته شيئا .
2 . أن يطمئن إلى هذا الرياء ولا يدافعه ، فحينئـذ تبطـل جميع العبادة ، لأن آخرها مبني على أولها ومرتبط به .
مثال ذلك : رجل قام يصـلي ركعـتين مخلصـا للـه، وفي الركعة الثانية طرأ عليه الريـاء لإحساسـه بشـخص ينظـر

---

[2] البخاري : كتاب العتق / باب الخطأ والنسيان، ومسلم : كتاب الإيمان / باب تجاوز الله عن حديث النفس .

إليـه ، فاطمـأن لـذلك ونـزع إليـه، فتبطـل صـلاته كلهـا لارتباط بعضها ببعض .
الثالث : ما يطرأ بعد انتهاء العبـادة، فإنـه لا يـؤثر عليهـا شـيئا، اللهم إلا إن يكـون فيـه عـدوان ، كـالمن والأذى بالصـدقة،فـإن هـذا العـدوان يكـون إثمـه مقـابلا لأجـر الصدقة فيبطلها، لقوله تعـالى: (يـا أيهـا الـذين آمنـوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى)(البقرة:264) .
وليس من الرياء أن يفرح الإنسان بعلم النـاس بعبادتـه، لأن هـذا إنمـا طـرأ بعـد الفـراغ من العبـادة. وليس من الرياء أيضا أن يفرح الإنسان بفعـل الطاعـة في نفسـه، بل ذلك دليل على إيمانه، وقـال النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم : (من سـرته حسـناته وسـاءته سـيئاته،فـذلك المؤمن)[1]. وقد سئل النبي صـلى اللـه عليـه وسـلم عن ذلك ، فقال : (تلك عاجل بشرى المؤمن)[2]

وقول الله تعالي: (قُلْ إِنَّمَـا أَنَـا بَشَـرٌ مِثْلُكُمْ يُـوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِد)(الكهف: من الآية110) الآية .

****

قوله تعالى : (قل إنما أنا بشر مثلكم) . يـأمر اللـه نبيـه أن يقول للناس : إنما أنـا بشـر مثلكم،وهـو قصـر النـبي صلى اله عليـه وسـلم على البشـرية، وأنـه ليس ربـا ولا ملكا،وأكد هذه البشرية بقوله: (مثلكم)، فذكر المثـل من باب تحقيق البشرية .

قوله : (يوحي إليّ) . الوحي في اللغـة : الإعلام بسـرعة وخفاء، ومنه قوله تعالى (فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ مِنَ الْمِحْرَابِ فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ أَنْ سَبِّحُوا بُكْرَةً وَعَشِيّاً) (مريم:11) .
وفي الشرع : إعلام الله بالشرع .

---

[1] الإمام احمد في (المسند) (1/18،26)، والترمذي (كتاب الفتن،باب ما جاء في لزوم الجماعة)

[2] مسلم : كتاب البر والصلة / باب إذا أثنى على الصالح .

والوحي : هو الفرق بيننا وبينه صلى الله عليه وسلم ، فهو متميز بالوحي كغيره من الأنبياء والرسل .
قوله : (أنما إلهكم إله واحد) . هذه الجملة في تأويل مصدر نائب فاعل (يوحى) ،وفيها حصر طريقه (إنما) ، فيكون معناها : ما إلهكم إلا إله واحد، وهو الله، فإذا ثبت ذلك، فإنه لا يليق بك أن تشرك معه غيره في العبادة التي هي خالص حقه ، ولذلك قال الله تعالى بعد ذلك (فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا)(الكهف : 110) .
قوله تعالى : (فمن كان يرجو لقاء ربه) المراد بالرجاء : الطلب والأمل، أي : من كان يؤمل أن يلقى ربه ، والمراد باللقيا هنا الملاقاة الخاصة ، لأن اللقيا على نوعين :
الأول : عامة لكل إنسان ، قال تعالى (يا أيها الإنسان إنك كادح إلى ربك كدحا فملاقيه) (الانشقاق : 6) ولذلك قال مفرعا على ذلك : (فأما من أوتي كتابه بيمينه فسوف يحاسب حسابا يسيرا) (الانشقاق : 7) (وأما من أوتي كتابه وراء ظهره ...) الآية (الانشقاق :10)
الثاني : الخاصة بالمؤمنين، وهو لقاء الرضا والنعيم كما في هذه الآية، وتتضمن رؤيته تبارك وتعالى، كما ذكر ذلك بعض أهل العلم .
فقوله : (فليعمل عملا صالحا) الفاء رابطة لجواب الشرط، والأمر لإرشاد، أي : من كان يريد أن يلقى الله على الوجه الذي يرضاه سبحانه،فليعمل عملا صالحا ، والعمل الصالح : ما كان خالصا صوابا .
وهذا وجه الشاهد من الآية .
فالخالص : ما قصد به وجه الله، والدليل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: (إنما الاعمال بالنيات)[1]
والصواب : ما كان على شريعة الله والدليل على ذلك قوله صلى الله عليه وسلم: (من عمل عملا ليس عليه أمرنا،فهو رد)[3] .

([1]) البخاري : كتاب بدء الوحي / باب كيف كان بدء الوحي ، ومسلم : كتابالإمارة إنما الأعمال بالنيات .

([3]) البخاري : كتاب البيوع / باب النجش، ومسلم : كتاب الأقضية / باب نقص الأحكام .

ولهـذا قـال العلمـاء : هـذان الحـديثان مـيزان الأعمـال، فــالأول مــيزان الأعمــال الباطنــة . والثــاني : مــيزان الأعمال الظاهرة .
قوله : (ولا يشرك) . لا : ناهية، والمراد بالنهي الإرشاد .
قوله : (بعبادة ربه أحدا) . خص العبادة لأنهـا خـالص حـق الله ، ولذلك أتى بكلمة (رب) إشارة إلى العلـة، فكمـا أن ربك خلقك ولا يشاركه أحد في خلقـك ، فيجب أن تكـون العبـادة لـه وحـده، ولـذلك لم يقـل : (لا يشـرك بعبـادة الله)، فذكر الرب من باب التعليل ، كقولـه تعـالى : (يـا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم) .
وقوله : (أحدا) نكرة في سياق النهي، فتكون عامة لكل أحد .
والشاهد من الآية : أن الرياء من الشرك ، فيكـون داخلا في النهي عنه .

وفي هذه الآية دليل على ملاقاة الله تعالى، وقد استدل بها بعض أهل العلم على ثبوت رؤيــة اللــه، لأن الملاقــاة معناها المواجهة .
وفيه دليل على أن الرسول صلى الله عليه وســلم بشــر لا يستحق أن يعبد ، لأنه حصر حاله بالبشرية، كمــا حصــر الألوهية بالله .

وعن أبي هريرة مرفوعا : قـال : قـال اللـه تعـالى :(أنـا أغنى الشركاء عن الشـرك ، من عمـل عملا أشـرك معي فيه غيري ، تركته وشركه) رواه مسلم . [1]

****

قولـه في حـديث أبي هريـرة : (قـال اللـه تعـالى). هـذا الحـديث يرويـه النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم عن ربـه، ويسمى هذا النوع بالحديث القدسي .

---

(1) مسلم كتاب الزهد / باب من أشرك في عمله غير الله

قوله : (أنا أغنى الشركاء عن الشرك) . قوله : (أغـنى). اسـم تفضـيل،وليسـت فعلا ماضـيا، ولهـذا أضـيفت إلى الشركاء .
يعـني:إذا كـان بعض الشـركاء يسـتغني عن شـركته مـع غيره،فالله أغنى الشركاء عن المشاركة .
فاله لا يقبل عملا له فيه شرك أبدا، ولا يقبل إلا العمـل الخـالص لـه وحـده، فكمـا أنـه الخـالق لـه وحـده، فكيـف تصرف شيئا من حقه إلى غيره !فهذا ليس عـدلا، ولهـذا قال الله عن لقمان : (إن الشرك لظلم عظيم) (لقمان : 13)، فالله الذي خلقك وأعدك إعدادا كاملا بكل مصالحك وأمدك بما تحتاج إليه، ثم تذهب وتصـرف شـيئا من حقـه إلي غيره ؟! فلا شك أن هذا من أظلم الظلم .
قوله : (عملا) . نكرة في سـياق الشـرط، فتعم أي عمـل من صلاة ،أو صيام، أو حج ، أو جهاد، أو غيره .
قوله : (تركته وشـركه) . أي : لم أثبـه على عملـه الـذي أشرك فيه .
وقد يصل هذا الشرك إلى حد الكفـر، فيـترك اللـه جميـع أعماله، لأن الشرك يحبط الأعمال إذا مات عليه .
والمراد بشركه : عملـه الـذي أشـرك فيـه، وليس المـراد شريكه، لأن الشريك الذي أشرك به مع الله قد لا يتركه ، كمن أشـرك نبيـا أو وليـا،فـإن اللـه لا يـترك ذلـك النـبي والولي .
ويستفاد من هذا الحديث :
1 . بيان غنى الله تعالى، لقوله : (أنا أغنى الشـركاء عن الشرك) .
بيان عظم حق الله وأنه لا يجوز لأحد أن يشرك أحـدا مـع الله في حقه .
بطلان العمــل الــذي صــاحبه الريــاء، لقولــه : (تركتــه وشركه)
تحريم الرياء، لأن ترك الإنسان وعمله وعدم قبولـه يـدل على الغضب، وما أوجب الغضب، فهو محرم
أن صفات الأفعال لا حصر لها، لأنها متعلقة بفعل اللــه ، ولم يزل الله ولا يزال فعالا .

***

وعن أبي سعيد مرفوعا : (ألا أخبركم بما هو أخوف عليكم عندي من المسيح الدجال ؟) قالوا بلي . قال : (الشرك الخفي ، يقوم الرجل فيصلي فيزين صلاته ، لما يري من نظر رجل إليه)رواه احمد [1]

قوله في حديث أبي سعيد : (ألا) .أداة عرض، والغرض منه تنبيه المخاطب، فهو ابلغ من عدم الإتيان بها .
قوله : (بما هو) . ما : اسم موصول بمعني الذي .
قوله : (أخوف عليكم عندي). أي عند الرسول صلى الله عليه وسلم من رحمته بالمؤمنين يخاف عليهم كل الفتن، واعظم فتنة في الأرض هي فتنة المسيح الدجال،لكن خوف النبي صلى الله عليه وسلم من فتنة هذا الشرك الخفي أشد من خوفه من فتنة المسيح الدجال، وإنما كان كذلك، لأن التخلص منه صعب جدا ، ولذلك قال بعض السلف : (ما جاهدت نفسي على شي مجاهدتها على الإخلاص)،وقال النبي صلى الله عليه وسلم:(أسعد الناس بشفاعتي من قال : لا إله إلا الله خالصا من قلبه)[2] ، ولا يكفي مجرد اللفظ بها، بل لا بد من إخلاص وأعمال يتعبد بها الإنسان لله – عز وجل - .
قوله : (المسيح الدجال). المسيح، أي : ممسوح العين اليمنى، فذكر النبي صلى الله عليه وسلم عيبين في الدجال :

أحدهما حسي، وهو أن الدجال أعور العين اليمنى، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم : (إن الله لا يخفي عليكم، إنه ليس بأعور وإن الدجال أعور العين اليمنى)[2] .

---

[1] الإمام أحمد (3 / 30) وابن ماجة : كتاب الزهد / باب الرياء والسمعة ، والحاكم (4/ 329)وصححه .

[2] البخاري : كتاب الرقاق / باب صفة الجنة والنار .

[2] البخاري : كتاب المغازي / باب حجة الوداع، ومسلم : كتاب الفتن / باب ذكر الدجال.

والثاني معنوي، وهو الدجال، فهو صيغة مبالغة، أو يقال بأنه نسبة إلى وصف الملازم له، وهو الدجل والكذب والتمويه، وهو رجل من بني آدم، ولكن الله – سبحانه وتعالى – بحكمته يخرجه ليفتن الناس به، وفتنة عظيمة، إذ ما في الدنيا منذ خلق آدم إلى أن تقوم الساعة فتنة أشد من فتنة الدجال .

والمسيح الدجال ثبتت به الأحاديث واشتهرت حتى كان من المعلوم بالضرورة، لأن النبي صلى الله عليه وسلم أمر أمته أن يتعوذوا بالله منه في كل صلاة، وقد حاول بعض الناس إنكاره وقالوا : ما ورد من صفته متناقض ولا يمكن أن يصدق به ، ولكن هؤلاء يقيسون الأحاديث بعقولهم وأهوائهم ، وقدرة الله بقدرتهم، ويقولون كيف يكون اليوم عن سنة والشمس لها نظام لا تتعداه؟ وهذا لا شك جهل منهم بالله ، فالذي جعل هذا النظام هو الله، وهو القادر على أن يغيره متى شاء، فيوم القيامة تكور الشمس، وتتكدر النجوم، وتكشط السماء،كل ذلك بكلمة (كن) ، وورود هذه الأحاديث بمثل هذه التعاليل دليل على ضعف الإيمان وعدم تقدير الله حق قدره، قال تعالى : (وما قدروا الله حق قدره) (الزمر: 67) .

فالذي نؤمن به أنه سيخرج في آخر الزمان ، ويحصل منه كل ما ثبت عن الرسول صلى الله عليه وسلم .

ونؤمن أن الله على كل شي قدير ، وأنه قادر على أن يبعث على الناس من يفتنهم عن دينهم، ليتميز المؤمن من الكافر والخبيث من الطيب، مثل ما ابتلى الله بني إسرائيل بالحيتان يوم سبتهم شرعا ويوم لا يسبتون لا تأتيهم ، ومثل ما ابتلى الله المؤمنين بأن أرسل عليهم الصيد وهم حرم ،تناله أيديهم ورماحهم ليعلم الله من يخافه بالغيب، وقد يبتلى الله أفراد الناس بأشياء يمتحنهم بها، قال تعالى : (وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ عَلَى حَرْفٍ فَإِنْ أَصَابَهُ خَيْرٌ اطْمَأَنَّ بِهِ وَإِنْ أَصَابَتْهُ فِتْنَةٌ انْقَلَبَ عَلَى وَجْهِهِ خَسِرَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةَ) (الحج:11) .

قوله : (الشرك الخفي) . الشرك قسمان خفي وجلي.

فالجلي : ما كان بالقول مثل الحلف بغير الله أو قول ما شاء الله وشئت، أو بالفعل مثل : مثل الانحناء لغير الله تعظيما .

والخفي : ما كان في القلب ، مثل : الرياء، لأنه لا يبين ،إذ لا يعلم ما في القلوب إلا الله، ويسمى أيضا (شرك السرائر) وهذا هو الذي بينه الله بقوله: (يوم تبلى السرائر)(الطارق: 9) لأن الحساب يوم القيامة على السرائر، قال تعالى (أفلا يعلم إذا بعثر ما في القبور* وحصل ما في الصدور) (العاديات : 9،10)ـ ، وفي الحديث الصحيح فيمن كان يأمر بالمعروف ولا يفعله وينهى عن المنكر ويفعله : أنه (يلقى في النار حتى تندلق أقتاب بطنه، فيدور عليها كما يدور الحمار برحاه، فيجتمع عليه أهل النار فيسألونه، فيخبرهم أنه كان يأمر بالمعروف ولا يفعله، وينهى عن المنكر ويفعله)[1] .

قوله : (يقوم الرجل، فيصلي فيزين صلاته) . يتساوى في ذلك الرجل والمرأة، والتخصيص هنا يسمى مفهوم اللقب، أي أن الحكم يعلق بما هو أشرف ، لقصد التخصيص ولكن لضرب المثل.

قوله : (فيزين صلاته) . أي : يحسنها بالطمأنينة، ورفع اليدين عند التكبير، ونحو ذلك .

قوله : (لما يرى من نظر الرجل إليه) . (ما) موصولة، وحذف العائد، أي : للذي يراه من نظر رجل ، وهذه هي العلة لتحسين الصلاة، فقد زين صلاته ليراه هذا الرجل فيمدحه بلسانه أو يعظمه بقلبه ، وهذا شرك .

****

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية الكهف. الثانية : الأمر العظيم في رد العمل الصالح إذا دخله شي لغير الله . الثالثة : ذكر السبب الموجب لذلك، وهو كمال الغنى. الرابعة : أن من السباب أنه تعالى خير الشركاء. الخامسة : خوف النبي صلى الله عليه وسلم على أصحابه من الرياء

---

[1] البخاري : كتاب بدء الخلق / باب صفة النار، ومسلم : كتاب الزهد / باب عقوبة من يأمر بمعروف ولا يفعله .

فيه مسائل :
الأولى : تفسير آية الكهف وسبق الكلام عليها .
الثانية : الأمر العظيم في رد العمل الصالح إذا دخله شي لغـير اللـه . وذلـك لقولـه : (تركتـه وشـركه) ، وصـار عظيما، لأنه ضاع على العامـل خسـارا،وفحـوى الحـديث تدل على غضب الله – عز وجل – من ذلك .
الثالثة : ذكر السبب الموجب لـذلك، وهـو كمـال الغـنى . يعني : الموجب للرد هو كمال غنى الله – عز وجـل – عن كـل عمـل فيـه شـرك ، وهـو غـني عن كـل عمـل ، لكن العمل الصالح يقبله ويثيب عليه .
الرابعة : أن من السـباب أنـه تعـالى خـير الشـركاء. أي : من أسباب رد العمل إذا أشرك فيه العامل مع الله أحـدا، أن الله خير الشركاء، فلا ينازع من جعل شريكا له فيه .
الخامسـة : خـوف النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم على أصحابه من الرياء. وذلك لقولـه صـلى اللـه عليـه وسـلم (ألا أخـبركم بمـا هـو أخـوف عليكم عنـدي من المسـيح الدجال) . وإذا كان يخـاف ذلـك على أصـحابه ، فـالخوف على من بعدهم من ذلك من باب أولى .
السادسة : أنـه فسـر ذلـك بـأن يصـلي المـرء للـه ، لكن يزينها لما يرى من نظر رجل إليه . وهذا التفسير ينطبق تماما على الرياء، فيكون أخوف علينا عند رسـوله صـلى الله عليه وسلم من المسيح الدجال .
ولم يذكر المؤلف مسألة خـوف النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم على أمتـه من المسـيح الـدجال، لأن المقـام في الرياء لا فيما يخافه النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم على أمته .

****

باب من الشرك إرادة الإنسان بعمله في الدنيا

قوله : (من الشرك) . للتبعيض، أي : بعض الشرك .

قوله (الدنيا). مفعول بإرادة ، لأن إرادة المصدر مضـاف إلى فاعله ، وإذا أردت أن تعرف المصدر إن كـان مضـافا إلى فاعله أو مفعوله، فحوله إلى فعـل مضـارع مقـرون بأن، فإذا قلنا : باب من الشرك أن يريـد الإنسـان بعملـه الـدنيا ، فالإنسـان فاعـل ، وعلى هـذا ، فـإرادة مصـدر مضاف إلى فاعله ، والدنيا مفعول به .

وعنوان الباب له ثلاثة احتمالات :

الأول : أن يكون مكررا مع ما قبله، وهذا بعيـد أن يكتب المؤلف ترجمتين متتابعتين لمعنى واحد

الثاني : أن يكون الباب الذي قبله أخص من هـذا البـاب، لأنه خاص في الرياء، وهذا أعم،وهذا محتمل .

الثالث : أن يكون هذا الباب نوعا مستقلا عن الباب الذي قبله، وهذا هو الظاهر، لأن الإنسان في البـاب السـابق، يعمل رياء يريد أن يمدح في العبادة، فيقـال : هـو عابـد، ولا يريد النفع المادي .

وفي هـذا البـاب لا يريـد أن يمـدح بعبادتـه ولا يريـد المراءاة ، بل يعبد الله مخلصا لـه، ولكنـه يريـد شـيئا من الدنيا كالمال، والمرتبة، والصحة في نفسه وأهله وولـده وما أشبه ذلك، فهو يريد بعمله نفعا في الدنيا، غافلا عن ثواب الآخرة .

*** أمثلة تبين كيفية إرادة الإنسان بعمله الدنيا :**

1. أن يريد المـال، كمن أذن ليأخـذ راتب المـؤذن، أو حج ليأخذ المال .

2. أن يريد المرتبة، كمن تعلم في كليـة ليأخـذ الشـهادة فترتفع مرتبته .

3. أن يريد دفع الأذى والأمراض والآفات عنه، كمن تعبـد الله كي يجزيه الله بهذا في الدنيا بمحبة الخلق له ودفـع السوء عنه وما أشبه ذلك .

4. أن يتعبد لله يريـد صـرف وجـوه النـاس إليـه بالمحبـة والتقدير .

وهناك أمثلة كثيرة .

تنبيه :

فإن قيل : هل يدخل من يتعلمون في الكليات أو غيرهـا يريدون شهادة أو مرتبة بتعلمهم ؟
فـالجواب : أنهم يـدخلون في ذلـك إذا لم يريـدوا غرضـا شرعيا ، فنقول لهم :
أولا : لا تقصدوا بذلك المرتبة الدنيوية، بـل اتخـذوا هـذه الشهادات وسيلة للعمل في الحقول النافعة للخلق، لأن الأعمـال في الـوقت الحاضـر مبنيـة على الشـهادات ، والناس لا يستطيعون الوصول إلى منفعة الخلق إلا بهذه الوسيلة، وبذلك تكون النية سليمة .
ثانيا : أن المراد العلم لذاته قد لا يجـده إلا في الكليـات، فيدخل كلية أو نحوها لهذا الغرض، وأما بالنسبة للمرتبة، فإنها لاتهمه .
ثالثـا : أن الإنسـان إذا أراد بعملـه الحسـنيين – حسـنى الدنيا وحسني الآخرة - ،فلا شـي عليـه لأن اللـه يقـول: (ومن يتـق اللـه يجعـل لـه مخرجـا ويرزقـه من حيث لا يحتسب) (الطلاق : 3،2)، رغبه في التقوى بذكر المخرج من كل ضيق والرزق من حيث لا يحتسب .

فإن قيل : من أراد بعمله الـدنيا كيـف يقـال إنـه مخلص مع أنه أراد المال مثلا ؟
أجيب : إنـه أخلص العبـادة ولم يـرد بهـا الخلـق إطلاقـا، فلم يقصد مراءاة الناس ومدحهم ، بل قصد أمـرا ماديـا، فإخلاصه ليس كامل لأن فيـه شـركا، ولكن ليس كشـرك الرياء يريد أن يمدح بالتقرب إلى الله ، وهذا لم يرد مدح الناس بذلك ، بل أراد شيئا دنيئا غيره .
ولا مانع أن يدعو الإنسان في صـلاته ويطلب أن يرزقـه الله المال، ولكن لا يصـلى من أجـل هـذا الشـي ، فهـذه مرتبة دنيئة .
أمـا طلب الخـير في الـدنيا بأسـبابه الدنيويـة ، كـالبيع، والشـراء، والزراعـة، فهـذا لا شـي فيـه ، والأصـل أن لا نجعل في العبـادات نصـيبا من الـدنيا، وقـد سـبق البحث في حكم العبادة إذا خالطها الرياء في باب الرياء.
ملاحظة :

بعض النـــاس عنـــدما يتكلمـــون على فوائـــد العبـــادات يحولونها إلى فوائد دنيويـة. فمثلا يقولـون : في الصـلاة رياضــة وإفــادة الأعصــاب ، وفي الصــيام فائــدة إزالــة الرطوبة وترطيب الوجبات، والمفروض ألا نجعل الفوائد الدنيوية هي الأصل ، لأن الله لم يذكر ذلك في كتابه، بل ذكر أن الصلاة تنهي عن الفحشاء والمنكر .

وعن الصـوم أنـه سـبب للتقـوى، فالفوائـد الدينيـة في العبادات هي الأصل والدنيوية ثانويـة ، لكن عنـدما نتكلم عنـد عامـة النـاس ، فإننـا نخـاطبهم بـالنواحي الدينيـة ، وعنـدما نتكلم عنـد من لا يقتنـع إلا بشـي مـادي ، فإننـا نخاطبه بالنواحي الدينية والدنيوية ، ولكل مقام مقال .

****

قوله تعالى : (من) (مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَـاةَ الـدُّنْيَا وَزِينَتَهَـا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَـا لا يُبْخَسُـونَ) (هـود: 15)

قوله تعالى : (من كان يريد الحيـاة الـدنيا) . أي : البقـاء في الدنيا .

قولـــه : (وزينتهـــا) . أي : المـــال، والبـــنين، والنســـاء، والحـرث، والأنعـام، والخيـل المسـومة ، كمـا قـال اللـه تعـالى : (زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّـهَوَاتِ مِنَ النِّسَـاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَـــاطِيرِ الْمُقَنْطَـــرَةِ مِنَ الـــذَّهَبِ وَالْفِضَّـــةِ وَالْخَيْـــلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَـاعُ الْحَيَـاةِ الـدُّنْيَا) (آل عمران:14) .

قوله :(نوف إليهم) . فعل مضارع معتل مجزوم بحــذف حرف العلة – الياء - ،لأنه جواب الشرط .

والمعني : أنهم يعطون ما يريدون في الدنيا ، ومن ذلك الكفـــار لا يســـعون إلا للـــدنيا وزينتهـــا ، فعجلت لهم طيبـاتهم في حيـاتهم الـدنيا، كمـا قـال تعـالى: (وَيَـوْمَ يُعْـــرَضُ الَّذِينَ كَفَـــرُوا عَلَى النَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَـــاتِكُمْ فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا) (الاحقاف: من الآية20).

ولهذا لما بكى عمر حين رأى النبي صلى الله عليه وسلم وقد أثر في جنبه الفراش، فقال : (ما يبكيك؟) . قال: يا رسول الله ! كسرى وقيصر يعيشان فيما يعيشان فيه من نعيم وأنت على هذا الحال. فقال رسول صلى الله عليه وسلم : (أولئك قوم عجلت لهم طيباتهم)[1] ، وفي الحقيقة هي ضرر عليهم ، لأنهم إذا انتقلوا من دار النعيم إلى الجحيم ، صار عليهم أشد وأعظم في فقد ما متعوا به في الدنيا .

قوله : (وهم فيها لا يبخسون) . البخس : النقص، أي : لا ينقصون مما يجازون فيه ، لأن الله عدل لا يظلم ، فيعطون ما أرادوه .

قوله : (أولئك) . المشار إليه الذين يريدون الحياة الدنيا وزينتها .

قوله : (ليس لهم في الآخرة إلا النار) . فيه حصر وطريقة النفي والإثبات ، وهذا يعني أنهم لن يدخلوا الجنة، لأن الذي ليس له إلا النار محروم من الجنة والعياذ بالله .

قوله :(وحبط ما صنعوا فيها) . الحبوط : الزوال، أي : زال عنهم ما صنعوا في الدنيا .

قوله : (وباطل ما كانوا يعملون) . (باطل) : خبر مقدم لأجل مراعاة الفواصل في الآيات والمبتدأ (ما) في قوله : (ما كانوا يعملون) ، فأثبت الله أنه ليس لهؤلاء إلا النار، وأن ما صنعوا في الدنيا قد حبط ، وأن أعمالهم باطلة . وقوله تعالى : (من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها نوف إليهم أعمالهم فيها لا يبخسون) مخصوصة بقوله تعالى : (من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموما مدحورا)(الإسراء : 18) .

فإن قيل : لماذا لا نجعل آية هود حاكمة على آية الإسراء ويكون الله توعد من يريد العاجلة في الدنيا أن يجعل له ما يشاء لمن يريد ؟ ثم وعد أن يعطيه ما يشاء ؟

---

[1] البخاري : كتاب اللباس/ باب ما كان النبي صلى الله عليه وسلم يتجوز من اللباس ، ومسلم : كتاب الطلاق / باب في الإيلاء واعتزال النساء .

أجيب : إن هذا المعنى لا يستقيم لأمرين :
أولا : أن القاعدة الشرعية
في النصـوص أن الأخص مقـدم على الأعم ، وآيـة هـود عامة ، لأن كل من أراد الحيـاة الـدنيا وزينتهـا وفي إليـه العمل وأعطى ما أراد أن يعطي ، أما آية الإسراء ، فهي خاصة : (عجلنا له فيهـا مـا نشـاء لمن نريـد) (الإسـراء : 18) ، ولا يمكن أن يحكم بالأعم على الأخص .
الثاني : أن الواقع يشهد على ما تدل عليه آية الإسراء : لأن في فقـــراء الكفـــار من هـــو أفقـــر من فقـــراء المسلمين، فيكون عموم آية هود مخصوصا بآية الإسراء ، فالأمر موكول إلى مشيئة الله و فيمن يريده .
واختلف فيمن نزلت فيه آية هود :
1. قيل : نزلت في الكفار، لأن الكافر لا يريـد إلا الحيـاة الدنيا ، ويـدل لهـذا سـياقها والجـزاء المـرتب على هـذا، وعليه يكون وجـه مناسـبتها للترجمـة أنـه إذا كـان عمـل الكافرين يراد به الدنيا، فكل من شـاركهم في شـي من ذلك ، ففيه شي من شر كهم وكفرهم .
2. وقيـــل : نـــزلت في المـــرائين، لأنهم لا يعلمـــون إلا للدنيا، فلا ينفعهم يوم القيامة .
3. وقيل : نزلت فيمن يريد مالا بعمله الصالح .
والسـياق يـدل للقـول الأول ، لقولـه تعـالى : (أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ) (هود:16) .
تنبيه :
اقتصر المؤلف رحمه الله على الإشارة إلى تكميل الآية الأولى، وزدنا الآية التالية سهوا أن يكون خيرا .

***

وفي الصحيح عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلي الله عليه وسلم : (تعس عبد الدينار ؛ تعس عبد الدرهم ؛ تعس عبد الخميصة؛ تعس عبد الخميلة ؛ إن اعطي رضي وإن لم يعط سخط ، تعس وانتكس ؛ وإذا شيك فلا انتفش. طوبي لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله ، اشعث راسه ، مغبرة قدماه ، إن كان في الحراسة ، كان في الحراسة ، وغن كان في الساقة ، كان في الساقة ، إن إستاذن ، لم يؤذن له ، وإن شفع ، لم يشفع له)[1]

قوله : (وفي الصحيح عن أبي هريرة) . سبق الكلام على قول المؤلف : (وفي الصحيح) في باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله .

قوله (تعس) . بفتح العين أو كسرها ، أي خاب وهلك .

قوله : (عبد الدينار). الدينار : هو النقد من الذهب ، والدينار الإسلامي زنته مثقال ، وسماه عبد الدينار، لأنه تعلق به تعلق العبد بالرب فكان أكبر همه، وقدمه على طاعة ربه ، فيقول في عبد الدرهم ما قيل في عبد الدينار ، والدرهم هو النقد من الفضة ، وزنة الدرهم الإسلامي سبعة أعشار المثقال ، فكل عشرة دراهم سبعة مثاقيل .

وقد أراد المؤلف لهذا الحديث أن يتبين أن من الناس من يعبد الدنيا ، أي : يتذلل لها ويخضع لها، وتكون مناه وغايته ، فيغضب إذا فقدت ويرضى إذا وجدت ، ولهذا سمي النبي صلى الله عليه وسلم من هذا شأنه عبدا لها ، وهذا من يعني بجمع المال من الذهب والفضة ، بعمله في الدنيا .

قوله (تعس عبد الخميصة، تعس عبد الخميلة) . وهذا من يعني بمظهره وأثاثه، لأن الخميصة كساء جميل والخميلة فراش وثير، ليس له هم إلا هذا الأمر ، فإذا كان عابدا لهذه الأمور لأنه صرف لها لا جهوده وهمته ، فكيف بمن أراد بالعمل الصالح شيئا من الدنيا فجعل الدين وسيلة للدنيا ؟ فهذا أعظم .

---

(1) لبخاري : كتاب / الرقاق باب ما يتقي من فتنة المال

قوله : (إن أعطى رضى ، وإن لم يعط سخط) . يحتمل أن يكون المعطي هو الله فيكون الإعطاء قدريا ، أي : أن قدر الله له الرزق والعطاء رضى واشرح صدره ، وإن منع وحرم المال سخط بقلبه وقوله ، كأن يقول : لماذا كنت فقيرا وهذا غنيا ؟ وما أشبه ذلك ، فيكون ساخطا على قضاء الله وقدره لأن الله منعه . والله – سبحانه وتعالى – يعطي ويمنع لحكمة، ويعطي الدنيا لمن يحب ومن لا يحب ، ولا يعطى الدين إلا لمن يحب . والواجب على المؤمن أن يرضى بقضاء الله وقدره ، إن أعطي شكر ، وأن منع صبر . ويحتمل أن يراد بالإعطاء الشرعي، أي : إن أعطي من مال يستحقه من الأموال الشرعية رضي، وأن لم يعط سخط، وكلا المعنيين حق، وهما يدلان على أن هذا الرجل لا يرضى إلا للمال ولا يسخط إلا له ، ولهذا سماه الرسول صلى الله عليه وسلم عبدا له . قوله (تعس وانتكس) . تعس، أي : خاب وهلك ، وانتكس، أي : انتكست عليه الأمور بحيث لا تتيسر له ، فكلما أراد شيئا انقلبت عليه الأمور خلاف ما يريد ، ولهذا قال : (وإذا شيك فلا انتفش) . أي إذا أصابته شوكة، فلا يستطيع أن يزيل ما يؤذيه عن نفسه . وهذه الجمل الثلاث يحتمل خبرا منه صلى الله عليه وسلم عن حال هذا الرجل، وأنه في تعاسة وانتكاس وعدم خلاص من الأذى،ويحتمل أن يكون من باب الدعاء على من هذه حالة ، لأنه لا يهتم إلا للدنيا ، فدعا عليه أن يهلك، وأن لا يصيب من الدنيا شيئا ، وأن لا يتمكن من إزالة ما يؤذيه ، وقد يصل إلى الشرك عندما يصده ذلك عن طاعة الله حتى أصبح لا يرضى إلا للمال ولا يسخط إلا له .

قوله :طوبى لعبد آخذ بعنان فرسه في سبيل الله) . هذا عكس الأول ، فهو لا يهتم للدنيا ، وإنما يهتم للآخرة ، فهو في استعداد دائم للجهاد في سبيل الله .

و(طوبى) فُعلى من الطيب ، وهي اسم تفضيل ، فأطيب للمذكر وطوبى للمؤنث، والمعني : أطيب حال تكون لهذا الرجل ، وقيل : إن طوبى شجرة في الجنة ،

والأول أعم ، كما قالوا في ويل : كلمـة وعيـد ، وقيـل : واد في جهنم ، والأول أعم .
وقولـه : (آخـذ بعنـان فرسـه) . أي : ممسـك بمقـود فرسه الذي يقاتل عليه .
قوله : (في سبيل الله) . ضابطه أن يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا لا للحميـة أو الوطنيـة أو مـا أشـبه ذلـك ، لكن إن قاتـل وطنيـة وقصـد حمايـة وطنـه لكونـه بلـدا إسلاميا يجب الذود عنه ، فهـو في سـبيل اللـه ، وكـذلك من قاتل دفاعا عن نفسه أو مالـه أو أهلـه ، فـإن النـبي صلى الله عليه وسـلم قـال : (من قُتـل دون ذلـك، فهـو شـهيد) ، فأمـا من قاتـل للوطنيـة المحضـة ، فليس في سبيل اللـه لأن هـذا قتـال عصـبية يسـتوي فيـه المـؤمن والكافر ، فإن الكافر يقاتل من أجل وطنه .
قوله : (أشعث رأسه، مغبرة قدماه) . أي : رأسه أشعث من الغبار في سبيل الله ، فهو لا يهتم بحاله ولا بدنه ما دام هذا الأمر ناتجا عن طاعة الله – عـز وجـل – وقـدماه مغبرة في السـير في سـبيل اللـه ، وهـذا دليـل على أن أهم شي عنده هو الجهاد في سـبيل اللـه، أمـا أن يكـون شعره أو ثوبه نظيفا ، فليس له هم فيه .
قوله : (إن كان في الحراسـة، فهـو في الحراسـة، وإن كان في الساقة، فهو في الساقة) . الحراسـة والسـاقة ليست من مقدم الجيش، فالحراسة أن يحـرس الإنسـان الجيش، والسـاقة أن يكـون في مؤخرتـه، وللجملـتين معنيان :
أحدهما : أنه لا يبالي أين وضـع ، إن قيـل لـه : احـرس، حـرس، وإن قيـل لـه : كن في السـاقة، كـان فيهـا ، فلا يطلب مرتبة أعلى من هذا المحل كمقدم الجيش مثلا .
الثاني ، إن كان في الحراسة أدى حقهـا، وكـذا إن كـان في السـاقة، والحـديث الصـالح لمعنـيين، يحمـل عليهمـا جميعا إذا لم يكن بينهما تعارض، ولا تعارض هنا . قوله : (إن استأذن لم يؤذن له، وإن شفع لم يشفع له). أي:هو عند الناس ليس له جـاه ولا شـرف، حـتى إن اسـتأذن لم يؤذن له، وهكذا عند أهـل السـلطة ليس لـه مرتبـة، فـإن شفع لم يشفع، ولكنه وجيه عند الله وله المنزلة العالية،

لأنه يقاتل في سبيل الله . والشفاعة : هي التوسط لغير يجلب منفعة أو دفع مضرة .
والاستئذان : طلب الإذن بالشي . والحديث قسم الناس إلى قسمين :
الأول : ليس له هم إلا الدنيا، أما لتحصيل المال ، أو تجميل الحال ، فقد استعبدت قلبه حتى أشغلته عن ذكر الله وعبادته .
الثاني : أكب همه الآخرة ، فهو يسعى لها في أعلى ما يكون مشقة وهو الجهاد في سبيل الله، ومع ذلك أدى ما يجب عليه من جميع الوجوه .
ويستفاد من الحديث :
1. أن الناس قسمان كما سبق .
2. أن الذي ليس له هم إلا الدنيا قد تنقلب عليه الأمور، ولا يستطيع الخلاص من أدنى أذية وهي الشوكة، بخلاف الحازم الذي لا تهمه الدنيا ، بل أراد الآخرة ولم ينس نصيبه من الدنيا، وقنع بما قدره الله له .
3. أنه ينبغي لمن جاهد في سبيل الله ألا تكون همه المراتب، بل يكون همه القيام بما يجب عليه ، إما في الحراسة ،أو الساقة ، أو القلب، أو الجنب، حسب المصلحة.
4. أن دنو مرتبة الإنسان عند الناس لا يستلزم منه دنو مرتبته عند الله – عز وجل – فهذا الرجل الذي إن شفع لم يشفع وإن استأذن لم يؤذن له قال فيه الرسول صلى الله عليه وسلم (طوبى له) ، ولم يقل إن سأل لم يعط، بل لا تهمه الدنيا حتى يسال عنها، لمن يهمه الخير فيشفع للناس ويستأذن للدخول على ذوي السلطة للمصالح العامة .

فيه مسائل :
الأولى : إرادة الإنسان الدنيا بعمل الآخرة . وهذا من الشرك، لأنه جعل عمل الآخرة وسيلة لعمل الدنيا، فيطغى قلبه حب الدنيا حتى يقدمها على الآخرة ، والحزم والإخلاص أن يجعل عمل الدنيا للآخرة .
الثانية : تفسير آية هود. وقد سبق ذلك .

الثالثة : تسمية الإنسـان المسـلم عبـد الـدينار والـدرهم والخميصـة. وهـذه العبوديـة لا تـدخل في الشـرك مـا لم يصـل بهـا إلى حـد الشـرك، ولكنهـا نـوع آخـر يخـل بالإخلاص ، لأنه جعل في قلبه محبة زاحمت محبة اللـه - عز وجل - ومحبة أعمال الخير.
الرابعة : تفسير ذلك بأنه إن أعطى رضـى وإن لم يعـط سخط. وهذا تفسير لقوله صلى الله عليه وسـلم : (عبـد الدينار، عبد الدرهم ،عبد الخميصة، إن أعطي رضـى وإن لم يعط سخط) ، وهذه علامة عبوديتـه لهـذه الأشـياء أن يكون رضاه وسخطه تابعا لهذه الأشياء .
الخامسة : قوله (تعس وانتكس) .
السادسة : قوله : (إذا شيك فلا انتفش) يحتمل أن تكون الجمل الثلاث خبرا أو دعاء ، وسبق شرح ذلك .
السابعة : الثناء على المجاهد الموصوف بتلك الصفات .
فقولـه في الحـديث (طـوبى لعبـد ....) يـدل على الثنـاء عليه، وأنه هو الذي يستحق أن يمدح لا أصـحاب الـدراهم والدنانير وأصحاب الفرش والمراتب .

****

باب من أطـاع اللـه العلمـاء والأمـراء في تحـريم مـا أحل الله أو تحيل ما حرمه فقد اتخذهم أربابا

قولــه (من أطــاع العلمــاء). (من) يحتمــل أن تكــون شـرطية، بـدليل قولـه : (فقـد اتخـذهم) ، لأنـه جـواب الشرط ، ويحتمـل أن تكـون موصـولة ، أي : (بـاب الـذي أطاع العلماء) .
قوله : (فقد اتخذهم) . خبر مبتدأ ، وقـرنت بالفـاء، لأن الاسم الموصول كالشرط في العموم،وعلى الأول تقــرأ (بــاب) بــالتنوين ، وعلى الثــاني بــدون تنــوين ، والأول أحسن .
والمراد بالعلمـاء : العلمـاء بشـرع اللـه ، والأمـراء: أولـو الأمر المنفذون له ، وهـذا الصـنفان هم المـذكوران في قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنـوا أطيعـوا اللـه وأطيعـوا الرسول وأولى الأمر منكم) (النسـاء :59) ، فجعـل اللـه

طاعته مستقلة، وطاعة رسوله مستقلة، وطاعة أولي الأمر تابعة، ولهذا لم يكرر الفعل (أطيعوا) فلا طاعة لمخلوق في معصية الخالق .
وأولو الأمر هم أولو الشأن، وهم العلماء ، لأنه يستند إليهم في أمر الشرع والعلم به ، والأمراء ، لأنه يستند إليهم في تنفيذ الشرع وإمضائه، وإذا استقام العلماء والأمراء استقامت الأمور، وبفسادهم تفسد الأمور، لأن العلماء أهل الإرشاد والدلالة ، والأمراء أهل الإلزام والتنفيذ.
قوله : (في تحريم ما أحل الله) . أي : في جعله حراما، أي : عقيدة أو عملا.
(أو تحليل ما حرم الله) . أي : في جعله حلالا عقيدة أو عملا ، فتحريم ما احل الله لا ينقص درجة في الإثم عن تحليل ما حرم الله ، وكثير من ذوي الغيرة من الناس تجدهم يميلون إلى تحريم ما أحل الله أكثر من تحليل الحرام، بعكس المتهاونين ، وكلاهما خطأ، ومع ذلك ، فإن تحليل الحرام فيما الأصل فيه الحل أهون من تحريم الحلال ، لأن تحليل الحرام إذا لم يتبين تحريمه فهو مبني على الأصل وهو الحل ، ورحمة الله – سبحانه – سبقت غضبه، فلا يمكن أن نحرم إلا ما تبين تحريمه ، ولأنه أضيق وأشد ، والأصل أن تبقى الأمور على الحل والسعة حتى يتبين التحريم .
أما في العبادات فيشدد ، لأن الأصل المنع والتحريم حتى يبينه الشرع كما قيل :
والأصل في الأشياء حل وامنع عبادة إلا بإذن الشارع
قوله : (أربابا) . جمع رب ، وهو المتصرف المالك .
والتصرف نوعان : تصرف قدري ، وتصرف شرعي .
فمن أطاع العلماء في مخافة أمر الله ورسوله ، فقد اتخذهم أربابا من دون الله باعتبار التصرف الشرعي، لأنه اعتبرهم مشرعين واعتبر تشريعهم شرعا يعمل به ، وبالعكس الأمراء .

وقـال ابن عبـاس : (يوشـك أن تـنزل عليكم حجـارة من السماء ،

****

قول ابن عباس : (حجـارة من السـماء) . أي : من فـوق تـنزل عليكم عقوبـة لكم ، ونـزول الحجـارة من السـماء ليس بالأمر المستحيل، بـل هـو ممكن ، قـال تعـالى في أصحاب الفيـل : (وأرسـل عليهم طـيرا أبابيـل *تـرميهم بحجارة من سجيل) (الفيل : 3،4) وقال تعالى في قــوم لـوط : (إنـا أرسـلنا عليهم حاصـبا إلا آل لـوط نجينـاهم بسحر) (القمر :24) .

والحاصب : الحجارة تحصبهم من السماء .

قوله : (أقول : قال رسول الله صلى الله عليـه وسـلم، وتقولون قال أبو بكر وعمر؟!) أبو بكر وعمر أفضل هذه الأمة وأقربها إلى الصواب، قال النـبي صـلي اللـه عليـه وسـلم : (إن يطيعــوا أبــا بكــر وعمــر يرشــدوا) . رواه مسلم[2] ، وروي عنه صلي الله عليـه وسـلم، أنـه قـال : (اقتدوا بالذين من بعدي أبي بكر وعمر)[3] ، وقـال صـلى اللــه عليــه وســلم : (عليكم بســنتي وســنة الخلفــاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليهـا بالنواجذ)[4] . ولم يعرف عن أبي بكر أنه خـالف نصـا في رأيه ، فإذا كان قول أبي بكـر وعمـر إذا عـارض الإنسـان بقولهمـا قـول الرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم ، فإنـه يوشك أن تنزل عليه حجارة من السماء ، فمـا بالـك بمن يعارض قوله صلى الله عليه وسلم بمن هو دون أبي بكر وعمــر؟ والفــرق بين ذلــك كمــا بين الســماء والأرض ، فيكون هذا أقرب للعقوبة .

---

(1) الإمام أحمد في المسند) بنحوه ، والخطيب في (الفقيه والمتفقه (1/145)

(2) مسلم : كتاب المساجد / باب قضاء الصلاة الفائتة .

(3) الإمام احمد في (المسند)(5/382)، والترمذي:كتاب المناقب/ باب في منـاقب أبي بكر وعمـر/ وابن ماجة في (المقدمة)(1/37).

(4) الإمام احمد في (المسند) (4/126)، وأبو داود : كتاب السنة/باب في لزوم السنة، وابن ماجة في (المقدمة) (1/15)، وصححه شيخ الإسلام ابن تيمية في (الفتاوى) (28/ 493)، والحاكم ووافقه الذهبي(1-150)، وابن رجب في (جامع العلوم) (ص 246) .

وقال أحمد بن حنبل : (عجبت لقوم عرفوا الإسناد وصحته يذهبون إلى رأي سفيان ، والله تعالى يقول : (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ)(النور: من الآية63) اتدري ما الفتنة ؟ الفتنة الشرك ، لعله إذا رد بعض قوله أن يقع في قلبه شيء من الزيغ فيهلك) (1)

وفي الأثر التحذير عن التقليد الأعمى والتعصب المذهبي الذي ليس مبنيا على أساس سليم .

وبعض الناس يرتكب خطأ فاحشا إذا قيل له : قال رسول الله صلى الله عيه وسلم ، قال : لكن في الكتاب الفلاني كذا وكذا ، فعليه أن يتقي الله الذي قال في كتابه : (ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين) (القصص :65) ، ولم يقل ماذا أجبتم فلانا وفلانا ، أما صاحب الكتاب ، فإنه علم أنه يحب الخير ويريد الحق ، فإنه يدعى له بالمغفرة والرحمة إذا أخطأ ، ولا يقال : إنه معصوم ، يعارض بقوله قول الرسول صلى الله عليه وسلم .

****

قول أحمد رحمه الله : (عجبت) العجب نوعان :

الأول : عجب استحسان، كما في حديث عائشة رضى الله عنها : (كان الرسول صلى الله عليه وسلم يعجبه التيمن في شأنه كله : في طهوره، وترجله، وتنعله)[2] .

الثاني : عجب إنكار ، كما في قوله تعالى : (بل عجبت ويسخرون) (الصافات :12) ، والعجب في كلام الإمام أحمد هنا عجب إنكار .

قوله : (الإسناد) . المراد به هنا رجال السند لا نسبة الحديث إلى راويه، أي : عرفوا صحة الحديث بعرفة الرجال .

قوله : (يذهبون إلى رأي سفيان) . أي : سفيان الثوري ، لأنه صاحب المذهب المشهور وله أتباع لكنهم

---

(1)

(2)البخاري : (كتاب الوضوء، باب التيمن في الوضوء) ، ومسلم (كتاب الطهارة، باب التيمن في الطهور)

انقرضوا ، فهم يذهبون إلى رأي سفيان وهو من الفقهاء ويتركون ما جاء به الحديث!
قوله : (والله يقول : (فليحذر)) . الفاء عاطفة ، واللام للأمر ، ولهذا سكنت وجزم الفعل بها، لكن حرك بالكسر، لالتقاء الساكن .
قوله : (عن أمره) . الضمير يعود للرسول صلى الله عليه وسلم ،بدليل أول الآية قال تعالى (لا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضاً قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذاً فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ) (النور:63) .
فإن قيل : لماذا عدى الفعل ب: (عن) مع أن (يخالف) يتعدى بنفسه ؟
أجيب:أن الفعل ضمن معنى الإعراض، أي : يعرضون عن أمره زهدا فيه وعدم مبالاة به .
و(أمره) : واحد الأوامر وليس واحد الأمور ، لأن الأمر هو الذي يخالف فيه ، وهو مفرد مضاف ، فيعم جميع الأوامر .
(فتنة).الفتنة فسرها الإمام أحمد بالشرك ، وعلى هذا يكون الوعد بأحد أمرين : إما الشرك ، وإما العذاب الأليم

****

وعن عدي بن حاتم : انه سمع النبي صلي الله عليه وسلم يقرأ هذه الآية :( )اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) (التوبة: 31) ، فقلت له : إنا لسنا نعبدهم . قال : (أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ، ويحلون ما حرم الله فتحلونه؟) فقلت بلي ، قال : (فتلك عبادتهم) . رواه أحمد والترمذي وحسنه [1]

قوله في حديث عدى بن حاتم : (اتخذوا) . الضمير يعود للنصارى ، لأن اليهود لم يتخذوا المسيح ابن مريم إلها ،

---

(1) الترمزي : كتاب تفسير القرأن ، تفسير سورة التوبة .

بل ادعوا أنه ابن زانية وحاولوا قتله، وادعوا أنهم قتلوه، ويحتمل أن يعود الضمير لليهود والنصارى جميعا ويختص النصارى باتخاذ المسيح ابن مريم ، وهذا هو المتبادر من السياق مع الآية التي قبلها .

قوله : (أحبارهم ورهبانهم) . الأحبار : جمع حبر ، وحبر بفتح الحاء وكسرها ، وهو العالم الواسع العلم، والرهبان : جمع راهب، وهو العابد الزاهد .

قوله : (والمسيح ابن مريم) . أي : اتخذوه إلها مع الله ، بدليل قوله تعالى : (وما أمروا إلا ليعبدوا إلها واحدا) ، والعبادة : التذلل والخضوع ، واتباع الأوامر واجتناب النواهي .

قوله : (إلها واحدا) . هو الله – عز وجل - ، وإله، أي : مألوه معبود مطاع ، وليس بمعنى آله ، أي : قادر على الاختراع ، فإن هذا المعنى فاسد ذهب إليه المتكلمون أو عامتهم ، فيكون معنى (لا إله إلا الله) على هذا القول : لا رب إلا الله ، وهذا ليس بالتوحيد المطلوب بهذه الكلمة، إذ لو كان كذلك لكان المشركون الذين قاتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم موحدين ، لأنهم يقولون : لا رب إلا الله ، قال تعالى : (قل من رب السماوات السبع ورب العرش العظيم سيقولون الله) (المؤمنون : 86) وهذه إحدى القراءتين ، وهي سبعيه .

قوله : (سبحانه عما يشركون) . (سبحان) : اسم مصدر ، وهي معمول أو مفعول لفعل محذوف وجوبا تقديره يسبح سبحانا ، أي : تسبيحا ، لأن اسم المصدر بمعنى المصدر ، فسبحان : مفعول مطلق عاملها محذوف وجوبا وهي ملازمة للإضافة : إما إلى مضمر ، كما في الآية :(سبحانه)، أو إلى مظهر كما في (سبحان الله) .

والتسبيح : التنزيه، أي : تنزيه الله عن كل نقص ، ولا يحتاج أن نقول : ومماثلة المخلوقين ، لأن المماثلة نقص ، ولكن إذا قلناها ، فذلك من باب زيادة الإيضاح حتى لا يظن أن تمثيل الخالق بالمخلوق في الكمال من باب الكمال، فيكون المعنى : تنزيه الله عن كل ما لا يليق به من نقص أو مماثلة المخلوقين .

وقوله : (عما يشـركون) . أي : ممـا سـواه من المسـيح ابن مريم والأحبار والرهبان ، فهو متنزه عن كـل شـرك وعن كل مشرك به .
قوله : (عما يشـركون) . هـذا من البلاغـة في القـرآن ، لأنهـا جـاءت محتملـة أن تكـون (مـا) مصـدرية، فيكـون المعـنى من شـركهم ، أو موصـولة، ويكـون المعـنى : سبحان الله عن الذين يشركون به، وهي صالحة الأمـرين ، فتكـون شـاملة لهمـا لأن الصـحيح جـواز اسـتعمال المشترك في معنييه إذا لم يكن بينهمـا تعـارض، فيكـون التنزيه عن الشرك وعن المشرك به .
قولـه : (إنـا لسـنا نعبـدهم) . أي : لا نعبـد الأحبـار والرهبـان، ولا نسـجد لهم ولا نركـع ولا نـذبح ولا ننـذر لهم ، وهذا صحيح بالنسبة للأحبار والرهبان بدليل قوله : (أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه، ويحلون مـا حـرم الله فتحلونه ؟!) .
فإن هذا الوصف لا ينطبق على عيسى أبدا ، لأنه رسـول الله ، فما أحله ، فقد أحله الله ، وما حرمه ، فقـد حرمـه اللـه ، وقـد حـاول بعض النـاس أن يعـل الحـديث لهـذا المعـنى مـع ضـعف سـنده ، والحـديث حسـنة الترمـذي والألباني وآخرون وضعفه آخرون .
ويجاب على التعليـل المـذكور بـأن قـول عـدى : (لسـنا نعبدهم) يعـود على الأحبـار والرهبـان ، أمـا عيسـى ابن مريم ، فالمعروف أنهم يعبدونه .
وبـدأ بتحـريم الحلال ، لأنـه أعظم من تحليـل الحـرام ، وكلاهما محـرم ، لقولـه تعـالى : (وَلا تَقُولُـوا لِمَـا تَصِـفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَـذَا حَـرَامٌ لِتَفْتَـرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَـذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَـرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَـذِبَ لا يُفْلِحُـونَ) (النحل:116) .
قوله : (فتلك عبادتهم) ووجه كونه عبادة : أن من معنى العبادة الطاعة ، وطاعة غير اللـه عبـادة للمطـاع ، ولكن بشرط أن تكون في غير طاعـة اللـه ، أمـا إذا كـانت في طاعـة اللـه فهي عبـادة للـه، لأنـك أطعت غـير اللـه في طاعة اللـه ، كمـا لـو أمـرك أبـوك بالصـلاة فصـليت ، فلا تكون قد أباك أبوك بطاعتك له ، ولكن عبدت الله ، لأنـك

أطعت غـير اللـه في طاعـة اللـه ، ولأن أمـر غـير اللـه بطاعة الله وامتثال أمره هو امتثال لأمر الله .
ويستفاد من هذا الحديث :
1. أن الطاعة بمعنى العبادة عبودية مقيدة .
2. أن الطاعة في مخالفة شرع الله من عبادة المطــاع ، أما في عبادة الله ، فهي عبادة لله .
3. أن اتبـاع العلمـاء والعبـاد في مخالفـة شـرع اللـه من اتخاذهم أربابا.
واعلم أن اتباع العلماء أو الأمراء في تحليل ما حرم الله أو العكس ينقسم إلى ثلاثة أقسام :
الأول : أن يتابعهم في ذلك راضيا بقولهم ، مقدما له ، ساخطا لحكم الله فهـو كـافر لأنـه كـره مـا أنـزل اللـه ، فأحبط الله عمله ، ولا تحبط الأعمال إلا بـالكفر ، فكـل من كره ما أنزل الله ، فهو كافر.
الثاني : أن يتـابعهم في ذلـك راضـيا بحكم اللـه وعالمـا بأنه أمثل وأصلح للعبـاد والبلاد ، ولكن لهـوى في نفسـه اختاره ، كـأن يريـد مثلا وظيفـة ، فهـذا لا يكفـر ، ولكنـه فاسق وله حكم غيره من العصاة .
الثالث : أن يتابعهم جـاهلا ، فيظن أن ذلـك حكم اللـه ، فينقسم إلى قسمين :
أ – أن يمكنـه أن يعـرف الحـق بنفسـه ، فهـو مفـرط أو مقصر ، فهو آثم ، لأن الله أمـر بسـؤال أهـل العلم عنـد عدم العلم .
ب – أن لا يكون عالما ولا يمكنه التعلم فيتـابعهم تقليـدا ويظن أن هذا هو الحق ، فهذا لا شي
عليه لأنه فعل ما أمر به وكان معـذور بـذلك ،ولـذلك ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال:(من أفتي بغير علم ، فإنما إثمه على من أفتاه) [1]،لو قلنـا : بإثمـه بخطأ غـيره ، لـزم من ذلـك الحـرج والمشـقة ، ولم يثـق الناس بأحد لاحتمال خطئه .
فإن قيل : لماذا لا يكفر أهل القسم الثاني ؟

---

[1] الإمام أحمد في (المسند) (2/321، 365) ، وأبو داود : كتاب العلم / باب التوقي في الفتيا ، وابن ماجة : كتاب المقدمة/ باب اجتناب الرأي. قال الألباني: (إسناده حسن) (المشكاة 242)

أجيب : إننا لـو قلنـا بكفـرهم لـزم من ذلـك تكفـير كـل صاحب معصية يعرف أنه عاص لله ويعلم أنه حكم الله .

فائدة :

وصف الله الحاكمين بغير ما أنزل الله بثلاث أوصاف :

1. قال تعالى : (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ)(المائدة: من الآية44) .

2. قال تعالى : (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظالمون) (المائدة: من الآية45) .

3. قال تعالى : (وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الفاسقون) (المائدة: من الآية47) .

واختلف أهل العلم في ذلك :

فقيـل:إن هـذه الأوصـاف لموصـوف واحـد،لأن الكـافر ظالم،لقوله تعالى(والكـافرون هم الظـالمون) (البقـرة: 254) وفاسـق، لقولـه تعـالى:(وأمـا الـذين فسـقوا فمأواهم النار)(السجدة:33)،أي:كفروا .

وقيـل : إنهـا لموصـفين متعـددين ، وإنهـا على حسـب الحكم ، وهذا هو الراجح .

فيكون كافرا في ثلاثة أحوال :

أ – إذا اعتقد جواز الحكم بغير الله ما أنزل اللـه ، بـدليل قولـه تعـالى : (أفحكم الجاهليـة يبغـون) (المائـدة :50) فكل ما خالف حكم الله، فهو من حكم الجاهليـة ، بـدليل الإجماع القطعي على أنه لا يجـوز الحكم بغـير مـا أنـزل الله فالمحل والمبيح للحكم بغـير مـا أنـزل اللـه مخـالف لإجماع المسلمين القطعي، وهذا كافر مرتد، وذلـك كمن اعتقد حل الزنا أو الخمر أو تحريم الخبز أو اللبن .

ب – إذا اعتقد أن حكم غير الله أحسن من حكم الله .

ج – إذا اعتقد أن حكم غير الله أحسن من حكم الله .

بدليل قوله تعـالى : (ومن أحسـن من اللـه حكمـا لقوم يوقنون) (المائـدة : 50) ، فتضـمنت الآيـة أن حكم الله أحسن الأحكـام ، بـدليل قولـه تعـالى مقـررا ذلـك : (أليس الله بأحكم الحاكمين) (الـتين : 8) فـإذا كـان اللـه أحسـن الحـاكمين أحكامـا وهـو أحكم الحـاكمين ، فمن أدعى أن حكم اللـه أو أحسـن فهـو كـافر لأنـه مكـذب للقرآن .

ويكون ظالما : إذا اعتقد أن الحكم بما أنزل الله أحسن الأحكام ، وأنه أنفع للعباد والبلاد ، وأنه الواجب تطبيقه، ولكن حمله البغض والحقد للمحكوم عليه حتى حكم بغير ما أنزل الله ، فهو ظالم .
ويكون فاسقا : إذا كان حكمه بغير ما أنزل الله لهوى في نفسه مع اعتقاده أن حكم الله هو الحق ، لكن حكم بغيره لهوى في نفسه، أي محبة لما حكم به لا كراهة لحكم الله ولا يضر أحدا به، مثل : أن يحكم لشخص لرشوة رشي إياها ، أو لكونه قريبا أو صديقا ، أو يطلب من ورائه حاجة، وما أشبه ذلك مع اعتقاده بأن حكم الله هو الأمثل والواجب اتباعه ، فهذا فاسق ، وإن كان أيضا ظالما ، لكن وصف الفسق في حقه أولى من وصف الظلم .

أما بالنسبة لمن وضع قوانين تشريعية مع علمه بحكم الله وبمخالفة هذه القوانين لحكم الله ، فهذا قد بدل الشريعة بهذه القوانين ، فهو كافر لأنه لم يرغب بهذا القانون عن شريعة الله إلا وهو يعتقد أنه الخير للعباد والبلاد من شريعة الله ، وعندما نقول بأنه كافر ، فنعني بذلك أن هذا الفعل يوصل إلى الكفر .
ولكن قد يكون الواضع له معذورا ، مثل أن يغرر به كأن يقال : إن هذا لا يخالف الإسلام ، أو هذا من المصالح المرسلة ، أو هذا مما رده الإسلام إلى الناس .
فيوجد بعض العلماء – وإن كانوا مخطئين – يقولون : إن مسألة المعاملات لا تعلق لها بالشرع ، بل ترجع إلى ما يصلح الاقتصاد في كل زمان بحسبه ، فإذا اقتضى الحال أن نضع بنوكا للربا أو ضرائب على الناس، فهذا لا شي فيه .
وهذا لا شك في خطئه ، فإن كان مجتهدين غفر الله لهم ، وإلا ، فهم على خطر عظيم ، واللائق بهؤلاء أن يلقبوا بأنهم من علماء الدولة لا علماء الملة .
ومما لا شك فيه أن الشرع جاء بتنظيم العبادات التي بين الإنسان وربه والمعاملات التي بين الإنسان مع الخلق في العقود والأنكحة والمواريث وغيرها ، فالشرع

كامل من جميع الوجوه ، قال تعالى : (اليـوم أكملت لكم دينكم) (المائدة : 3) .
وكيف يقال:إن المعاملات لا تعلق لها بالشـرع وأطـول آية في القرآن نزلت في المعاملات ، ولولا نظام الشرع في المعاملات لفسد الناس ؟
وأنا لا أقول : نأخـذ بكـل مـا قالـه الفقهـاء ، لأنهم قـد يصيبون وقد يخطئون ، بـل يجب أن نأخـذ بكـل مـا قالـه الله ورسوله صلى الله عليه وسـلم ، ولا يوجـد حـال من الأحوال تقع بين الناس إلا في كتاب الله وسـنة رسـوله مـا يزيـل إشـكالها ويحلهـا ، ولكن الخطـأ إمـا من نقص العلم أو الفهم ، وهـذا قصـور ، أو نقص التـدبر ، وهـذا تقصير .
أما إذا وفـق الإنسـان بـالعلم والفهم وبـذل الجهـد في الوصـول إلى الحـق ، فلا بـد أن يصـل إليـه حـتى في المعاملات ، قال تعالى (أفلا يتدبرون القرآن) (النسـاء : 82) وقـال تعـالى : (أفلم يـدبروا القـول) (المؤمنـون : 68) وقال تعـالى : (كتـاب أنزلنـاه إليـك مبـارك ليـدبروا آياته) (ص : 29) ، وقـال تعـالى : (ونزلنـا عليـك الكتـاب تبيانا لكل شي) (النحل : 89) فكل شي يحتاجه الإنسـان في دينه أو دنياه ، فإن القرآن بينه بيانا شافيا .
ومن سـن قـوانين تخـالف الشـريعة وادعى أنهـا من المصالح المرسلة ، فهـو كـاذب في دعـواه لأن المصـالح المرسلة والمقيـدة إن اعتبرهـا الشـرع ودل عليهـا فهي حق ومن الشرع ، وإن لم يعتبرها ، فليست مصـالح ، ولا يمكن أن تكون كذلك ، ولهذا كان الصواب أنه ليس هناك دليل يسمى بالمصالح المرسلة ، بل ما اعتـبره الشـرع ، فهو مصلحة ، وما نفاه ، ليس بمصلحة ، وما سـكت عنـه فهو عفو .
والمصالح المرسلة توسع فيها كثير من الناس ، فأدخل فيهـا بعض المسـائل المنكـرة من البـدع وغيرهـا ، كعيـد ميلاد الرسول ، فزعموا أن فيـه شـحذا للهمم وتنشـيطا للناس لأنهم نسوا ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهذا باطل ، لأن جميع المسـلمين في صـلاة يشـهدون أن محمدا عبده ورسـوله ويصـلون عليـه ، والـذي لا يحي

قلبه بهذا وهو يصلي بين يدي ربه كيف يحي قلبه بساعة يؤتى فيها بالقصائد الباطلة التي فيها من الغلو ما ينكره رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فهذه مفسدة وليست مصلحة .

فالمصلحة المرسلة وإن وضعها بعض أهل العلم المجتهدين الكبار ، فلاشك أن مرادهم نصر الله ورسوله ، ولكن استخدمت هذا المصالح في غير ما أولئك العلماء وتوسع فيها ، وعيه ، فإنها تقاس بالمعيار الصحيح ، فإن اعتبرها الشرع قبلت ، وإلا ، فكما قال الإمام مالك : (كل أحد يؤخذ من قوله ويرد إلا صاحب هذا القبر) وهنالك قواعد كليات تطبق عليه الجزئيات .

وليعلم أنه يجب أن يجب على الإنسان أن يتقي ربه في جميع الأحكام ، فلا يتسرع في البت بها خصوصا في التكفير الذي صار بعض أهل الغيرة والعاطفة يطلقونه بدون تفكير ولا روية، مع إن الإنسان إذا كفر شخصا ولم يكن الشخص أهلا له عاد ذلك إلى قائله ، وتكفير الشخص يترتب عليه أحكام كثيرة،فيكون مباح الدم والمال ، ويترتب عليه جميع أحكام الكفر ، وكما لا يجوز أن نطلق الكفر على شخص معين حتى يتبين شروط التكفير في حقه يجب أن لا نجبن عن تكفير من كفره الله ورسوله ، ولكن يجب أن نفرق بين المعين وغير المعين ، فالمعين يحتاج الحكم بتكفيره إلى أمرين :

1. ثبوت أن هذه الخصلة التي قام بها مما يقتضي الكفر .
2. انطباق شروط التكفير عليه ، وأهمها بأن هذا مكفر ، فإن كان جاهلا ،فإنه لا يكفر ، ولهذا ذكر العلماء أن من شروط إقامة الحد أن يكون عالما بالتحريم ، وهذا وهو إقامة حد وليس بتكفير ، والتحرز من التكفير أولى وأحرى .

قال تعالى : (رُسُلاً مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ)(النساء: من الآية165) وقال تعالى : (وما كنا معذبين حتى نبعث رسول) (الإسراء : 15) وقال تعالى : (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْماً بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ)(التوبة: من الآية115)

ولابد من توفر الشروط من عدم الموانع ، فلو قام الشخص بما يقتضي الكفر إكراها أو ذهولا لم يكفر،لقوله تعالى:(من كفر بالله من بعد إيمانه إلا من إكراه و قلبه مطمئن) (النحل : 106) ولقول الرجل الذي وجد دابته في مهلكة:(اللهم!أنت عبدي وأنا ربك ، أخطأ من شدة الفرح[1]، فلم يؤاخذ على بذلك) .

***

فيه مسائل :

الأولى : تفسير آية النور . وهي قوله تعالى : (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصبهم عذاب أليم) . وسبق تفسيرها

الثانية : تفسير آية براءة . وهي قوله تعالى:(اتخذوا أحبارهم و رهبانهم أرباب من دون الله .) الآية ، وقد سبق ذلك .

الثالثة : التنبيه على معنى العبادة التي أنكرها عدي . لأن العبادة هي التعبد لهم بالطاعة ، والتذلل لهم بالركوع والسجود والنذر وما أشبه ، ولكن بين صلى الله عليه وسلم المراد من عبادتهم بأنها طاعتهم في تحليل الحرام وتحريم الحلال .

الرابعة : تمثيل ابن عمر عباس بأبي بكر وعمر، وتمثيل أحمد بسفيان . أي : إذا كان أبو بكر وعمر لا يمكن أن يعارض قول النبي صلى الله عليه وسلم بقولهما ، فما بالك بمن عارض قول النبي صلى الله عليه وسلم بقول من دونهما ؟ فهو اشد وأقبح ، وكذلك مثل الإمام احمد بسفيان الثوري وأنكر على من أخذ برأيه وترك ما صح به الإسناد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، واستدل بقوله تعالى : (فليحذر الذين يخالفون عن أمره) . الآية .

الخامسة : تحول الأحوال إلي هذه الغاية حتى صار عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال ... الخ .

---

[1] البخاري : كتاب الدعوات /باب التوبة ، ومسلم : كتاب التوبة /باب الدعوات/ باب في الحض على التوبة .

يقول المؤلف رحمه الله تعالى : تغيرت الأحوال إلى هذه الغاية حتى صار عند الأكثر عبادة الرهبان هي أفضل الأعمال ... وهذا لاشك أنه أشد من معرضة قول الرسول صلى الله عليه وسلم بقول أبي بكر وعمر .
ثم قال : (ثم تغيرت الأحوال إلى أن عبد من دون الله من ليس من الصالحين) ، أي / يركع ويسجد له ، ويعظم تعظيم الرب ، ويوصف بما لا يستحق ، وهذا يوجد عند كثير من الشعراء الذين يمدحون الملوك والوزراء وهم لا يستحقون أن يكونوا بمنزلة أبي بكر وعمر .
ثم قال : (وعبد بالمعنى الثاني) : وهو الطاعة والاتباع من هو من الجاهلين ، فأطيع الجاهل في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله ، كما يوجد في بعض النظم والقوانين المخالفة للشريعة الإسلامية ، فإن واضعيها جهال لا يعرفون من الشريعة ولا الأديان شيئا ، فصاروا يعبدون بهذا المعنى ، فيطاعون في تحليل ما حرم الله وتحريم ما أحل الله .
وهذا في زمان المؤلف ، فكيف بزماننا ؟ وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم فيما رواه البخاري عن أنس بن مالك رضى الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم ، أنه قال : (لا يأتي زمان على الناس إلا وما بعده شر منه ، حتى تلقوا ربكم [1]، وقال النبي صلى الله عليه وسلم للصحابة : (ومن يعش منكم فسيرى اختلافا كثيرا[2] ، وعصر الصحابة أقرب إلى الهدى من عصر من بعدهم .
والناس لا يحسون بالتغير ، لأن الأمور تأتي رويدا رويدا ، ولو غاب أحد مدة طويلة ثم جاء ، لوجد التغير الكثير المزعج – نسأل الله السلامة - ، فعلينا الحذر ، وأن نعلم أن شرع الله يجب أن يحمي وأن يصان ، ولا يطاع أحد في تحليل ما حرم الله أو تحريم ما أحل الله أبدا مهما كانت منزلته ، وأن الواجب أن نكون عبادا لله – عز وجل – تذللا وتعبدا وطاعة .

---

(1) البخاري : كتاب الفتن / باب لا يأتي زمان إلا الذي بعده شر منه .

(2) تقدم تخريجه (ص733) .

هذا الباب له صلة قوية بما قبله ، لأن ما قبلـه فيـه حكم من أطـاع العلمـاء والأمـراء في تحليـل مـا حـرم اللـه أو تحـريم مـا أحـل اللـه ، وهـذا فيـه الإنكـار على من أراد التحاكم إلى غير الله ورسـوله ، وقـد ذكـر الشـيخ رحمـه الله فيه أربع آيات :

باب قوله تعالي :

(أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ آمَنُوا بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنْزِلَ مِنْ قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَنْ يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُضِلَّهُمْ ضَلالاً بَعِيداً) (النساء:60)

****

الآية الأولى ما جعلها ترجمة للباب ، وهي قولـه تعـالى : (أم تر) .

الاسـتفهام يـراد بـه التقريـر والتعجب من حـالهم ، والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم .

قوله : (يزعمون أنهم آمنوا بما أنـزل إليـك) . هـذا يعين أن يكون الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم هنـا ، ولم يقل الذين آمنوا ، لأنهم لم يؤامنـوا ، بـل يزعمـون ذلـك وهم كاذبون .

والذي أنزل على النبي صـلى اللـه عليـه وسـلم الكتـاب والحكمـة ، قـال تعـالى : (وأنـزل اللـه عليـك الكتـاب والحكمـة) (النسـاء : 113) قـال المفسـرون : الحكمـة السـنة ، وهم يزعمـون أنهم آمنـوا بـذلك ، لكن أفعـالهم تكذب أقوالهم ، حيث يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت لا إلى الله ورسوله .

قولـه : (إلى الطـاغوت) . صـيغة مبالغـة من الطغيـان ، ففيه اعتداء وبغي، والمراد به هنـا كـل حكم خـالف حكم الله ورسوله ، وكل حاكم يحكم بغـير مـا أنـزل اللـه على رسـوله ، أمـا الطـاغوت بـالمعنى الأعم فقـد حـده ابن القيم بأنه : (كل مـا تجـاوز العبـد بـه حـده من معبـود أو

متبوع أو مطاع) وقد تقدم الكلام عليه في أول كتاب التوحيد .
قوله : (وقد أمروا أن يكفروا) . أي : أمرهم الله بالكفر بالطاغوت أمرا ليس فيه لبس ولا خفاء ، فمن أراد التحاكم إليه ، فهذه الإرادة على بصيرة ، إذ الأمر بين لهم .
قوله : (ويريد الشيطان) . جنس يشمل شياطين الإنس والجن .
قوله : (أن يضلهم ضلالا بعيدا) . أي : يوقعهم في الضلال البعيد عن الحق، ولكن لا يلزم من ذلك أن ينقلهم إلى الباطل مرة واحدة ، ولكن بالتدريج .
فقوله : (بعيدا) . أي : ليس قريبا ، لكن بالتدرج شيئا فشيئا حتى يوقعهم في الضلال البعيد.
قوله : (وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول) . أي : قال لهم الناس : أقبلوا (إلى ما أنزل الله) من القرآن (وإلى الرسول) نفسه في حياته وسنته بعد وفاته ، والمراد هنا الرسول صلى الله عليه وسلم نفسه في حياته .
قوله : (رأيت المنافقين يصدون عنك صدودا) . الرؤية هنا رؤية حال لا رؤية بصر ، بدليل قوله : (تعالوا) ، فهي تدل على أنهم ليسوا حاضرين عنده . والمعنى : كأنما تشاهدهم .
قوله : (رأيت المنافقين) . إظهار في موضع الإضمار لثلاث فوائد :
الأولى : أن هؤلاء الذين يزعمون الإيمان كانوا منافقين .
الثانية : أن هذا لا يصدر إلا من منافق ، لأن المؤمن حقا لا بد أن ينقاد لأمر الله ورسوله بدون صد .
الثالثة : التنبيه ، لأن الكلام إذا كان على نسق واحد قد يغفل الإنسان عنه ، فإذا تغير ، حصل له انتباه .
قوله : (رأيت المنافقين) جواب (إذا) ، وكلمة (صد) تستعمل لازمة ،أي : يوصف به الشخص ولا يتعداه إلى غيره ، ومصدرها صدود ، كما في هذه الآية ، ومتعدية ،

أي : صد غيره ، ومصدرها صد ، كما في قوله تعالى : (وصدوكم عن المسجد الحرام) (الفتح : 25) .
وقوله : (فكيف إذا أصابتهم مصيبة بما قدمت أيديهم ثم جاؤوك يحلفون بالله إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا) . الاستفهام هنا يراد به التعجب ، أي : كيف حالهم إذا أصابتهم مصيبة ، والمصيبة هنا تشمل المصيبة الشرعية والدنيوية لعد تضاد المعنيين .
فالدنيوية مثل : الفقر، والجدب، وما أشبه ذلك ، فيأتون يشكون إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، فيقولون : أصابتنا هذه المصائب ونحن ما أردنا إلا الإحسان والتوفيق .
والشرعية : إذا أظهر الله رسوله على أمرهم ، خافوا وقالوا : يا رسول الله ! ما أردنا إلا الإحسان والتوفيق .
قوله : (بما قدمت أيديهم) . الباء : هنا للسببية ، و(ما) اسم موصول ، و(قدمت) صلته ، والعائد محذوف تقديره بما قدمته أيديهم ، وفي اللغة العربية يطلق هذا التعبير باليد ويراد به نفس الفاعل ، أي : بما قدموه من الأعمال السيئة .
وقوله : (إن أردنا إلا إحسانا وتوفيقا) . (إن) بمعني : (ما) ، أي : ما أردنا إلا إحسانا بكوننا نسلم من الفضيحة والعار ، وتوفيقا بين المؤمنين والكافرين أو بين طريق الكفر وطريق الإيمان ،أي : نمشي معكم ونمشي الكفار ، وهذه حال المنافقين ، فهم قالوا : أردنا أن حسن المنهج والمسلك مع هؤلاء وهؤلاء ونوفق بين الطرفين .
قوله : (أولئك الذين يعلم الله ما في قلوبهم) . توعدهم الله بأنه يعلم ما في قلوبهم من النفاق والمكر والخداع ، فالله علام الغيوب ، قال تعالى : (ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه) (ق : 16) بل الله أعلم منك بما فيك ، قال تعالى : (واعلموا أن الله يحول بين المرء وقلبه) (الأنفال : 24) ، وهذا من أعظم ما يكون من العلم والخبرة أن الله يحول بين المرء وقلبه ، ولهذا قيل لأعرابي : (بم عرفت ربك ؟) قال : بنقض العزائم ، وصرف الهمم).

فالإنسان يعزم على الشي ثم لا يدري إلا وعزيمته منتقضة بدون سبب ظاهر .
قوله : (فأعرض عنهم) وهذا من أبلغ ما يكون من الإهانة والاحتقار .
قوله : (وعظهم) . أي : ذكرهم وخوفهم ، ولكن لا تجعلهم أكبر همك ، فلا تخافهم ، وقم بما يجب عليك من الموعظة لتقوم عليهم الحجة .
قوله : (وقل لهم في أنفسهم قولا بليغا) . اختلف المفسرون فيها على ثلاثة أقوال :
الأول : أن الجار والمجرور في أنفسهم متعلق ببليغ ، أي : قل لهم قولا بليغا في أنفسهم ، أي : يبلغ في أنفسهم مبلغا مؤثرا .
الثاني : أن المعنى : انصحهم سرا في أنفسهم .
الثالث : أن المعنى : قل لهم في أنفسهم (أي : في شأنهم وحالهم) قولا بليغا في قلوبهم يؤثر عليها ، والصحيح أن الآية تشمل المعاني الثلاثة ، لأن اللفظ صالح لها جميعا ، ولا منافاة بينها ، وهذه قاعدة في التفسير ينبغي التنبيه لها ، وهي أن المعاني المحتملة للآية والتي قال بها أهل العلم إذا كانت الآية تحتملها وليس بينها تعارض : فإنه يؤخذ بجميع المعاني .
وبلاغة القول تكون في أمور :
الأول : هيئة المتكلم بأن يكون إلقاؤه على وجه مؤثر .
وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا خطب ، احمرت عيناه وعلا صوته ، واشتد غضبه حتى كأنه منذر جيشا ، يقول : صبحكم ومساكم [1].
الثاني : أن تكون ألفاظه جزلة مترابطة محددة الموضوع .
الثالث : أن يبلغ من الفصاحة غايتها بحسب الإمكان ، بأن يكون كلامه : سليم التركيب ، موافقا للغة العربية ، مطابقا لمقتضى الحال .
قال شيخ الإسلام ابن تيمية : (إن هذه الآيات تنطبق تماما على أهل التحريف والتأويل في صفات الله ، لأن

---

[1] مسلم : كتاب الجمعة / باب تخفيف الصلاة والخطبة .

هؤلاء يقولون : أنهم يؤمنون بالله ورسوله ، وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول ، يعرضون ، ويصدون ، ويقولون : نذهب إلى فلان وفلان ، وإذا اعترض عليهم ، قالوا : نريد الإحسان والتوفيق ، وأن نجمع بين دلالة العقل ودلالة السمع) ذكره رحمه الله في (الفتوى الحموية) .

****

قوله : (وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ قَالُوا إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ) (البقرة:11)

الآية الثانية قوله تعالى : (وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض) .

الإفساد في الأرض نوعان :

الأول : إفساد حسي مادي ، وذلك مثل هدم البيوت وإفساد الطرق وما أشبه ذلك .

الثاني : إفساد معنوي ، وذلك بالمعاصي ، فهي من أكبر الفساد في الأرض ، قال تعالى : (ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ) (الروم:41) ، وقال تعالى : (وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير) (الشورى : 30) وقال تعالى : (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ) (لأعراف:96)

وقال تعالى: (وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَكَفَّرْنَا عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأَدْخَلْنَاهُمْ جَنَّاتِ النَّعِيم *ولو أنهم أقاموا التوراة والإنجيل وما أنزل إليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ِ) (المائدة : 65 -66) .

قوله : (إنما نحن مصلحون) . وهذه دعوى من أبطل الدعاوى ، حيث قالوا : ما حالنا وما شأننا إلا الإصلاح .

ولهذا قال تعالى : (ألا إنهم هم المفسدون). (ألا) : أداة استفتاح ، والجملة مؤكدة بأربع مؤكدات ، وهي (ألا) ، و(إن) ،و ضمير الفصل (هم) والجملة الاسمية ، فالله قابل حصرهم بأعظم منه ، فهؤلاء الذين يفسدون في الأرض ويدعون الإصلاح هم المفسدون حقيقة لا غيرهم. ومناسبة الآية للباب ظاهرة ، وذلك أن التحاكم إلى غير ما أنزل الله من أكبر الفساد في الأرض.

الآية الثالثة قوله تعالى: (لا تفسدوا في الأرض).يشمل الفساد المادي والمعنوي كما سبق .

قوله : (بعد إصلاحها). من قبل المصلحين ، ومن ذلك الوقوف ضد دعوة أهل العلم والوقوف ضد دعوة السلف ، والوقوف ضد من ينادي بأن يكون الحكم بما في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

وقوله (بعد إصلاحها) من باب تأكيد اللوم والتوبيخ ، إذ كيف يفسد الصالح وهذا غاية ما يكون من الوقاحة والخبث والشر؟ فالإفساد بعد الإصلاح أعظم وأشد من أن يمضي الإنسان في فساده قبل الإصلاح ، وإن كان المطلوب هو الإصلاح قبل بعد الفساد .

ومناسبة الآية للباب : أن التحاكم إلى ما أنزل الله هو الإصلاح ، وإن التحاكم إلى غيره هو الإفساد .

وقوله :(وَلا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلاحِهَا)(لأعراف: من الآية56)

وقوله : (أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ) (المائدة:50)

****

الآية الرابعة قوله تعالى : (أفحكم الجاهلية يبغون)

الاستفهام للتوبيخ ، و(حكم) مفعول مقدم ل (يبغون) ، وقدم لإفادة الحصر، والمعنى : أفلا يبغون إلا حكم الجاهلية .

و(يبغون) : يطلبون ، والإضافة في قوله : (حكم الجاهلية) تحتمل معنيين :

أحدهما : أن يكون المعنى : أفحكم أهل الجاهلية الذين سبقوا الرسالة يبغون ، فيريدون أن يعبدوا هذه الأمة إلى طريق الجاهلية التي أحكامها معروفة ، ومنها : البحائر، والسوائب، وقتل الأولاد .

ثانيهما : أن يكون المعنى : أفحكم الجهل الذي لا يبني على العلم يبغون ، سواء كانت عليه الجاهلية السابقة أم

لم تكن ، وهذا أعم . والإضافة للجاهلية تقتضي التقبيح والتنفير .
وكل حكم يخالف حكم الله ، فهو جهل وجهالة . فإن كان مع العلم بالشرع ، فهو جهالة ، وإن كان مع خفاء الشرع ، فهو جهل، والجهالة هي العمل بالخطأ سفها لا جهلا ،قال تعالى: (إنما التوبة على الذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب) (النساء :17) ، وأما من يعمل السوء بجهل فلا ذنب عليه ، لكن عليه أن يتعلم .
قوله : (ومن أحسن من الله حكما) . (من) : اسم استفهام بمعنى النفي، أي : لا أحد أحسن من الله حكما، وهذا النفي مشرب معنى التحدي ، فهو أبلغ من قول : (لا أحسن من الله حكما) لأنه متضمن للنفي وزيادة . وقوله : (حكما) .تمييز ، لأنه بعد اسم التفضيل ، وهو مبهم ، فبين هذا التمييز المبهم وميزه . والحكم هنا يشمل الكوني والشرعي .
فإن قيل : يوجد في الأحكام الكونية ما هو ضار مثل الزلازل والفيضانات وغيرها، فأين الحسن في ذلك ؟
أجيب أن الغايات المحمودة في هذا الأمور تجعله حسنة، كما يضرب الإنسان ولده تربية له ، فيعد هذا الضرب فعلا حسنا ، فكذلك الله يصيب بعض الناس بهذه المصائب لتربيتهم ، قال تعالى في القرية التي قلب الله أهلها قردة خاسئين : (فجعلناها نكالا لما بين يديها وما خلفها وموعظة للمتقيين) (البقرة : 66) وهذا الحسن في حكم الله ليس بينا لكل أحد ، كما قال تعالى : (لقوم يوقنون) ، وكلما ازداد العبد يقينا وإيمانا ازداد معرفة بحسن أحكام الله ، وكلما نقص إيمانه ويقينه ازداد جهلا بحسن أحكام الله ، ولذلك تجد أهل العلم الراسخين فيه إذا جاءت الآيات المتشابهات بينوا وجه ذلك بأكمل بيان ولا يرون في ذلك تناقضا ، وعلى هذا فإنه يتبين قوة الإيمان واليقين بحسب ما حصل للإنسان من معرفته بحسن أحكام الله الكونية والشرعية .
وقوله : (ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون) . خبر لا يدخله الكذب ولا النسخ إطلاقا ، ولذلك هدى الله

الذين آمنوا لما اختلفـوا فيـه من الحـق بإذنـه ، فجمعـوا بين المتشـابهات والمختلفـات من النصـوص ، وقـالوا : (كل من عند ربنا) (آل عمران :7) وعرفوا حسـن أحكـام الله تعالى ، وأنها أحسن الأحكام وأنفعها للعباد وأقومها لمصالح الخلق في المعاش والمعاد ، فلم عنها بديلا .

وعن عبد الله بن عمر ؛ أن رسول اللـه صـلى اللـه عليـه وسلم قال : (لا يؤمن احدكم

****

قوله في حديث عبد الله بن عمـر : (لا يـؤمن أحـدكم) . أي : إيمانا كـاملا إلا إذا كـان لا يهـوى مـا جـاء بـه النـبي صلى الله عليه وسلم بالكلية ، فإنـه ينتفي عنـه الإيمـان بالكلية ، لأنـه إذا كـره مـا أنـزل اللـه ، فقـد حبـط عملـه لكفره ، قال تعـالى : (ذلـك بـأنهم كرهـوا مـا أنـزل اللـه فأحبط أعمالهم)(محمد:9)

قوله : (حتى لا يكون هواه تبعـا لمـا جئت بـه) . الهـوى بالقصر : هو الميل ، وبالمد هو : الريح ، والمراد الأول .

و (حتى) : للغاية ، والذي جاء به النبي صـلى اللـه عليـه وسلم هو القرآن والسنة .

وإذا كان هواه تبعا لمـا جـاء بـه النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم ، لـزم من ذلـك أن يوافقـه تصـديقا بالأخبـار ، وامتثالا للأوامر ، واجتنابا للنواهي .

واعلم أن أكـثر مـا يطلـق الهـوى على هـوى الضـلال لا على هوى الإيمان ، قال تعالى : (أفرأيت من أتخـذ إلهـه هواه)(الجاثية : 23)، وقـال تعـالى : (واتبعـوا أهـواءهم) (محمد : 14)، وغيرها من الآيات الدالة على ذم من اتبع هواه ، ولكن إذا كان الهوى تبعا لما جاء بـه النـبي صـلى الله عليه وسلم ، كان محمودا ، وهو من كمال الإيمان .

وقـد سـبق بيـان أن من اعتقـد أن حكم اللـه غـير اللـه مساو لحكم الله ، أو أحسـن ، أو أنـه يجـوز التحـاكم إلى غير الله ، فهو كافر .

وأما من لم يكن هواه تبعا لما جاء بـه النـبي صـلى اللـه عليه وسلم ، فإن كان كارها له ، فهو كافر، وإن لم يكن كارهـا ولكن آثـر محبـة الـدنيا على ذلـك ، فليس كـافر ، ولكن يكون ناقص الإيمان .

قوله : (قال النـووي : حـديث صـحيح) . صـححه النـووي وغيره ، وضعفه جماعـة من أهـل العلم ، منهم ابن رجب في كتابه (جامع العلوم والحكم) ولكن معناه صحيح .

وقال الشعبي : (وكان بين رجـل من المنـافقين ورجـل من اليهود خصومة ، فقال اليهودي نتحـاكم إلى محمـد ؛ عرف أنه لا ياخذ الرشوة ، وقـال المنـافق ، نتحـاكم إلى اليهود ؛ لعلمـه أنهم يأخـذون الرشـوة ، فأتفقـا أن ياتيـا كاهنا في جهينة ، فيتحاكما غليه ، فـنزلت : (أَلَمْ تَـرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ)(النساء: من الآية60) [1]

****

قوله في أثر الشعبي : (وقال الشعبي) أي : في تفسير الآية .

قوله : (رجل من المنافقين) . وهو من يظهـر الإسـلام ويبطن الكفر ، وسمي منافقا من النّافقـاء ، وهي جحـر اليربوع ، واليربوع له جحر له باب وله نافقاء – أي يحفـر حفـرة في الأرض خنـدقا حـتى يصـل منتهى جحـره ثم يحفر إلى أعلى، فـإذا بقى شـي قليـل بحيث يتمكن من دفعه برأسه توقف – فإذا حجر عليه من البـاب خـرج من النافقاء .

قوله :(ورجل من اليهود) . اليهود هم المنتسـبون إلى دين موسى عليه السلام ، وسـموا بـذلك إمـا من قولـه : (إنّا هُدنا إليك) ، أي : رجعنا ، أو نسبة إلى أبيهم يهـوذا ، ولكن بعد التعريب صار بالدال .

---

(1) ابن جرير الطبري (9891) قال الحافظ ابن حجر في الفتح (5/37) روي اسحق بن راهويه في تفسيره باسناد صحيح عن الشعبي

قوله : (إلى محمد) . أي : النبي صلى الله عليه وسـلم ، ولم يذكره بوصف الرسالة ، لأنهم لا يؤمنـون برسـالته ، ويزعمون أن النبي الموعود سيأتي .
قوله : (عرف أنه لا يأخذ الرشوة) . تعليل لطلب التحكم إلى النبي صلى الله عليه وسلم .
والرشـوة : مثلثـة الـراء ، فيجـوز الرشـوة ، الرَّشـوة ، الرُّشوة ، وهي المال المدفوع للتوصل إلى شي .
قال أهل العلم:(لا تكون محرمة إلا إذا أراد الإنسـان أن يتوصل بها إلى باطل أو دفع حق ، أما من بذلها ليتوصل بها إلى حق له منع منه أو ليدفع بهـا بـاطلا عن نفسـه ، فليست حراما على الباذل ، أما على آخذها ، فحرام) .
قولـه:(فاتفقـا أن ياتيـا كاهنـا في جهينـة) كأنـه صـار بينهما خلاف ، وأبي المنافق أن يتحاكما إلى النبي صلى الله عليه وسلم .
والكاهن : من يـدعي علم الغيب في المسـتقبل ، وكـان للعـرب كهـان تـنزل عليهم الشـياطين بخـبر السـماء ، فيقولون : سـيحدث كـذا وكـذا ، فربمـا أصـابوا مـرة من المرات ، وربما أخطؤوا ، فإذا أصابوا ادعـوا علم الغيب ، فكان العرب يتحاكمون إليهم ، فنزل قولـه تعـالى : (أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ). الآية .
***
قوله : (وقيل) . ذكر هذه القصة بصـيغة التمـريض ، لكن ذكـر في (تيسـير العزيـز الحميـد) أنـه رويت من طـرق متعددة ، وأنهـا مشـهورة متداولـة بين السـلف والخلـف تداولا يغني عن الإسـناد ، ولهـا طـرق كثـيرة ولا يضـرها ضعف إسنادها . أ . ه .
قوله : (رجلين) . همـا مبهمـان ، فيحتمـل أن يكونـا من المسلمين المؤمنين ، ويحتمل أن يكونا من المنـافقين ، ويحتمل غير ذلك .
قوله : (إلى كعب بن الأشـرف) . وهـو رجـل من زعمـاء بني النضير .
قوله : (أ كذلك) . خبر لمبتـدأ محـذوف ،التقـدير أ كـذلك الأمر .
قوله : (فضربه بالسيف) . الضارب عمر .

وهـذه القصـة والـتي قبلهـا تـدل على أن من لم يـرض بحكم رسول الله صلى الله عليه وسلم كافر يجب قتله ، ولهذا قتله عمر رضي الله عنه .
فإن قيل:كيف يقتلـه عمـر رضـي اللـه عنـه والأمـر إلى الإمام وهو النبي صلى الله عليه وسلم ؟
أجيب : أن الظاهر أن عمر لم يملك نفسه لقـوة غيرتـه فقتله ، لأنه عـرف أن هـذا ردة عن الإسـلام ، وقـد قـال النبي صلى الله عليـه وسـلم : (من بـدل دينـه فـأقتلوه)[2] .

وقيل نزلت في رجلين اختصما فقـال أحـدهما : نـترافع إلى النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم ، وقـال الأخـر : إلى كعب بن الأشرف ، ثم ترافعا إلى عمر فذكر له أحـدهما القصة ، فقال للذي لم لم يرض برسول الله صـلى اللـه عليـه وسـلم: أكـذلك ؟ قـال : نعم . فضـربه بالسـيف فقتله .)[1]

****

فيه مسائل :
الأولى : تفسـير آيـة النسـاء ومـا فيهـا من الإعانـة على فهم الطـاغوت . وهي قولـه تعـالى : (ألم تـر الـذين يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك)
وقولـه : (ومـا فيهـا من الإعانـة على فهم الطـاغوت) . أي : أن الطاغوت مشتق من الطغيان ، وإذا كان كـذلك ، فيشمل كل ما تجاوز به العبد حده من متبوع أو معبود أو مطاع ، فالأصنام والأمراء والحكام الذين يحلـون الحـرام ويحرمون الحلال طواغيت .

---

(2) البخاري : كتاب استتابة المرتدين / باب حكم المرتد .

(1) قـال الحافظ في الفتح (5/37) رواه الكلـبي في تفسـيره عن ابن عبـاس ...... ، واسناده وإن كان ضعيفا لكن تقوي بطريق مجاهد .

الثانية : تفسير آيـة البقـرة . (وإذا قيـل لهم لا تفسـدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون) . ففيها دليــل على أن النفـــاق فســـاد في الأرض ،لأنهـــا في ســـياق المنافقين ، والفساد يشمل جميع المعاصي .
الثالثة : تفسـير أيـة الأعـراف : (ولا تفسـدوا في الأرض بعد إصلاحها) . وقد سبق .
الرابعة : تفسـير (أ فحكم الجاهليـة يبغـون). وقـد سـبق ذلك ، وقد بينـا أن المـراد بحكم الجاهليـة كـل مـا خـالف الشرع ، وأضيف للجاهلية للتنفير منه وبيان قبحه ، وأنـه مبني على الجهل والضلال .
الخامســة : مــا قالــه الشــعبي في ســبب نــزول الآيــة الأولى . وقد سبق .
السادسة : تفسير الإيمـان الصـادق والكـاذب . فالإيمـان الصادق يستلزم الإذعان التـام والقبـول والتسـليم لحكم الله ورسوله ، والإيمان الكاذب بخلاف ذلك .
السابعة : قصة عمر مع المنافق . حيث جعـل عدولـه عن الترافع إلى النبي صـلى اللـه عليـه وسـلم مبيحـا لقتلـه لردته ، وأقدم على قتله لقوة غيرته فلم يملك نفسه .
الثامنة : كون الإيمان لا يحصل لأحد حتى يكون هواه تبعا لما جاء به الرسول صلى الله عليه وسـلم . وهـذا واضـح من الحديث .

باب جحد شيئا من الأسماء والصفات

الجحد : الإنكار، والإنكار نوعان :
الأول : إنكار تكذيب ، وهذا كفر بلا شك ، فلـو أن أحـدا أنكر اسما من أسماء الله أو صفة من صفاته الثابتـة في الكتاب والسنة، مثل أن يقول : ليس لله يـد ، أو أن اللـه لم يســتو على عرشــه ، أو ليس لــه عين ، فهــو كــافر بإجماع المسلمين ، لأن تكـذيب خـبر اللـه ورسـوله كفـر مخرج عن الملة بالإجماع .
الثاني : إنكـار تأويـل، وهـو أن لا ينكرهـا ولكن يتأولهـا إلى معنى يخالف ظاهرها، وهذا نوعان :

1. أن يكون للتأويل مسوغ في اللغة العربية ، فهذا لا يوجب الكفر .
2.أن لا يكون له مسوغ في اللغة العربية ، فهذا حكمه الكفر لأنه إذا لم يكن له مسوغ صار في الحقيقة تكذيب ، مثل أن يقول : المراد بقوله تعالى : (تجري بأعيننا) (القمر : 14) تجري بأراضينا ، فهذا كافر لأنه نفاها نفيا مطلقا ، فهو مكذب .
ولو قال في قوله تعالى : (بل يداه مبسوطتان) (المائدة :64) المراد بيديه : السماوات والأرض ، فهو كفر أيضا لأنه مصوغ في اللغة العربية،ولا هو مقتضى الحقيقة الشرعية ، فهو منكر ومكذب ، لكن إن قال:المراد باليد النعمة أو القوة ، فلا يكفر لأن اليد في اللغة تطلق بمعنى النعمة ، قال الشاعر :

وكم لظلام الليل عندك من يد حدث أنّ المانويّة تكذب

فقوله : من يد، أي : من نعمة ، لأن المانوية يقولون : أن الظلمة لا تخلق الخير ، وإنما تخلق الشر .
قوله :(من الأسماء) جمع اسم، واختلف في اشتقاقه ، فقيل : من السمو ، وهو الارتفاع ، ووجه هذا أن المسمى يرتفع باسمه ويتبين ويظهر .
وقيل : من السمة وهى العلامة ، ووجهه : أنه علامة على مسماه ، والراجح أن مشتق من كليهما
والمراد بالأسماء هنا أسماء الله – عز وجل – والفرق بين الاسم والصفة أن الاسم ما تسمى به الله والصفة ما اتصف بها .
* البحث في أسماء الله :
المبحث الأول :
أن أسماء الله أعلام وأوصاف ، وليست أعلاما محضة ، فهي من حيث دلالتها على الصفة التي يتضمنها هذا الاسم أوصاف ، بخلاف أسمائنا ، فالإنسان يسمي ابنه محمدا وعليا دون أن يلحظ معنى الصفة ، فقد يكون اسم عليه هو من أوضع الناس ، أو عبد الله وهو من

أكفر الناس، بخلاف أسماء الله ، لأنها متضمنة للمعاني ، فالله هو العلي لعلـو ذاتـه وصـفاته ، والعزيـز يـدل على العزة ، والحكيم يدل على الحكمة ، وهكذا .
ودلالة الاسم على الصفة تنقسم إلى ثلاثة أقسام :
الأول : دلالـة مطابقـة ، وهي دلالتـه على جميـع معنـاه المحيط به .
الثاني : دلالة تضمن ، وهي دلالته على جزء معناه .
الثالث : دلالة التزام ، وهي دلالته على أمر خارج لازم .
مثـال ذلـك : الخـالق يـدل على ذات اللـه وحـده ، وعلى صفة الخلق وحـدها دلالـة تضـمن ، ويـدل على ذات اللـه وعلى صفة الخلق فيه دلالة مطابقـة ، ويـدل على العلم والقدرة دلالة التزام .
كما قال اللـه تعـالى : (اللـه الـذي خلـق سـبع سـماوات ومن الأرض مثلهن يتـنزل الأمـر بينهن لتعلمـوا أن اللـه على كل شي قدير وأن الله قـد أحـاط بكـل شـي علمـا) (الطلاق : 12) فعلمنا القدرة من كونه خـالق السـماوات والأرض ، وعلمنـا العلم من ذلـك أيضـا ، لأن الخلـق لابـد فيه من علم ، فمن لا يعلم لا يخلق ، وكيف يخلق شيئا لا يعلمه ؟ !
المبحث الثاني :
أن أسماء الله مترادفة متباينة ، المـترادف : مـا أختلـف لفظه واتفق معناه ، والمتباين : ما اختلف لفظه ومعناه ، فأسماء الله مترادفة باعتبار دلالتها على ذات الله – عز وجل – لأنها تدل على مسمى واحد ، فالسميع ، البصـير، العزيـز ، الحكيم ، كلهـا تـدل على شـي واحـد هـو اللـه ، ومتباينة باعتبار معانيهـا ، لأن معـنى الحكيم غـير معـنى السميع وغير معنى البصير وهكذا .
المبحث الثالث :
أسماء الله ليسـت محصـورة بعـدد معين ، والـدليل على ذلك قوله صلى الله عليه وسـلم في حـديث ابن مسـعود الحـديث الصـحيح المشـهور : (اللهم! إني عبـدك ، ابن عبدك ،ابن أمتك ...- إلى أن قال : أسألك بكل اسـم هـو لك سـميت بـه نفسـك ،أو أنزلتـه في كتابـك ، أو علمتـه

أحدا من خلقك ، أو استأثرت به في علم الغيب عنـدك[2]، وما استأثر الله بـه في علم الغيب لا يمكن أن يعلم بـه ، وما ليس بمعلوم فليس بمحصور .

أما قوله صلى الله عليه وسلم : (إن لله تسـعة وتسـعين اسما من أحصاها دخل الجنة[1] ، فليس معناه أنه ليس له إلا هذه الأسماء ، لكن معنـاه أن من أحصـى من أسـمائه هذه التسعة والتسعين فإنه يـدخل الجنـة، فنقـول : (من أحصـاها) تكميـل للجملـة الأولى ، وليسـت اسـتئنافية منفصلة ، ونظـير هـذا قـول القائـل : عنـدي مئـة فـرس أعددتها للجهاد في سـبيل اللـه ، فليس معنـاه أنـه ليس عنده إلا هذه المئة بـل معنـاه أن هـذه المئـة معـدة لهـذا الشي .

المبحث الرابع :

الاسم من أسماء الله دل على الذات وعلى المعنى كمـا سـبق ، فيجب علينـا أن نـؤمن بـه اسـما من الأسـماء ، ونـؤمن بمـا تـدل عليـه الصـفة من الـثر والحكم إن كـان متعـديا ، فمثلا : السـميع نـؤمن بـأن من أسـمائه تعـالى السميع ، وأنه دال على صفة السـمع ، وأن لهـذا السـمع حكما وأثرا وهو أنـه يسـمع بـه ، كمـا قـال تعـالى : (قـد سمع الله قـول الـتي تجادلـك في زوجهـا وتشـتكي إلى اللـه واللـه يسـمع تحاوركمـا إن اللـه سـميع بصـير) (المجادلة : 1) أما إن كان الاسم غـير متعـد ، كـالعظيم ، والحي ، والجليـــل ، فثبت الاســـم والصـــفة ، ولا حكم يتعدى إليه .

المبحث الخامس :

هل أسماء الله تعالى غيره، أو أسماء الله هي الله ؟

إن أريد بالاسم اللفظ الدال على المسـمى ، فهي غـير الله – عز وجل – وإن أريد بالاسـم مـدلول ذلـك اللفـظ ، فهي المسمى .

---

(2) الإمـام احمد في (المسـند) (1/391، 452) وابن حيـان (2372)ـ ، والطـبراني في (الكبـير) (10352)ـ ، والحاكم (1/ـ 509)ـ ، والهيثمي (10/ـ 136)ـ ، وقال : (رجال أحمد وأبي يعلي رجـال الصـحيح) وصـححه ابن القيم في (شفاء العليل) (277) ، واحمد شاكر في (المسند) (3712) .

(1) البخاري : كتاب الدعوات / باب لله مائة اسم غير واحد ، ومسلم : كتاب الذكر والدعاء / بـاب في أسـماء الله تعالى .

فمثلا : الذي خلق السماوات والأرض هـو اللـه ، فالاسـم هنـا هـو المسـمى ، فليسـت (اللام – والهـاء) هي الـتي خلقت السماوات والأرض ، وإذا قيل : اكتب باسم اللـه . فكتبت بسم الله ، فالمراد به هو الاسـم دون المسـمى ، وإذا قيـل : اضـرب زيـدا ، فضـربت زيـدا المكتـوب في الورقـة لم تكن ممتثلا ، لأن المقصـود المسـمى ، وإذا قيل : اكتب زيد قائم . فالمراد الذي هو غير المسمى .

البحث في صفات الله :

المبحث الأول :

تنقسم صفات الله إلى ثلاثة أقسام :

الأول : ذاتية ويقال معنوية .

الثاني : فعلية .

الثالث : خبريه .

فالصفات الذاتية : هي الملازمـة لـذات اللـه ، والـتي لم يـزل ولا يـزال متصـفا بهـا مثـل : السـمع والبصـر وهي معنوية ، لأن هذه الصفات معان .

والفعلية : هي التي تتعلق بمشـيئته إن شـاء فعلهـا وإن لم يشـأ لم يفعلهـا ، مثـل : الـنزول إلى سـماء الـدنيا ، والاسـتواء على العـرش ، والكلام من حيث آحـاده ، والخلـق من حيث آحـاده ، لا من حيث الأصـل ، فأصـل الكلام صفة ذاتية وكذلك الخلق .

والخبرية:هي أبعاض وأجزاء بالنسـبة لنـا ، أمـا بالنسـبة إلى الله ، فلا يقال هكذا ، بل يقال : صـفات خبريـة ثبت بهـا الخـبر من الكتـاب والسـنة ، وهي ليسـت معـنى ولا فعلا مثل : الوجه ، والعين ، والساق ، واليد .

المبحث الثاني :

الصفات أوسع من الأسماء ، لأن كل اسم متضمن لصفة ، وليس كـل صـفة تكـون اسـما ، وهنـاك صـفات كثـيرة تطلـق على اللـه وليسـت من أسـمائه ، فيوصـف اللـه بالكلام والإرادة ، ولا يسمى بالمتكلم أو المريد .

المبحث الثالث :

إن كل ما وصف الله به نفسه ، فهو حـق على حقيقتـه ، لكنه ينزه عن التمثيل والتكييف ، أمـا التمثيـل ، فلقولـه تعالى : (ليس كمثله شي وهو السميع البصير) (الشورى

: 11) وقولـه : (فلا تضـربوا للـه الأمثـال إن اللـه يعلم وانتم لا تعلمـون) (النمـل : 74) والتعبـير بنفي التمثيـل أحسن من التعبير بنفي التشبيه ، لوجوه ثلاثة :
أحدهما : أن التمثيل هو الذي جاء به القـرآن وهـو منفي مطلقا ، بخلاف التشبيه ، فلم يأت القرآن بنفيه .
الثاني : أن نفي التشبيه على الإطلاق لا يصـح ، لأن كـل موجودين فلا بد أن يكون بينهما قـدر مشـترك يشـتبهان فيه ويتميز كـل واحـد بمـا يختص بـه ، ف : (الحيـاة) مثلا وصف ثابت في الخالق والمخلوق ، فبينهما قدر مشترك ، لكن حياة الخالق تليق به وحياة المخلوق به .
الثالث : إن الناس اختلفـوا في مسـمى التشـبيه ، حـتى جعـل بعضـهم إثبـات الصـفات الـتي أثبتهـا اللـه لنفسـه تشبيها ، فإذا قيل من غير تشـبيه ، فهم هـذا البعض من هذا القول نفي الصفات التي الله لنفسه .
وأمـا التكـييف ، فلا يجـوز أن نكيـف صـفات اللـه ، فمن كيف صفة من الصـفات ، فهـو كـاذب عـاص، كـاذب لأنـه قال بما لا علم عنده فيه ، عاص لأنه واقع فيما نهى الله عنه وحرمه في قوله تعـالى : (ولا تقـل مـا ليس لـك بـه علم) (الإسـراء : 36) وقولـه تعـالى : (وأن تقولـوا على الله ما تعلمون) بعد قوله (قل إنما حـرم ربي الفـواحش ما ظهر منهـا ومـا بطن.)(الأعـراف : 33) ولأنـه لا يمكن إدراك الكيفية ، لقوله تعالى : (يعلم ما بين أيـديهم ومـا خلفهم ولا يحيطــون بــه علم)(طــه : 110) وقولــه:(لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار)(الأنعام : 103)
وسواء كان التكييف بالسان تعبيرا أو بالجنان تقـديرا أو بالبيان تحريرا ، ولهذا قال مالـك رحمـه اللـه حين سـئل عن كيفيـة الاسـتواء : (الكيـف مجهـول ، والسـؤال عنـه بدعة) وليس معنى هذا أن لا نعتقـد أن لهـا كيفيـة ، بـل لها كيفية ،ولكنهـا ليسـت معلومـة لنـا ، لأن مـا ليس لـه كيفية ليس بموجود ، فالاسـتواء والـنزول واليـد والوجـه والعين لها كيفية ، لكننا لا نعلمهـا ، ففـرق بين أن نثبت كيفية معينة ولو تقـديرا وبين أن نـؤمن بـأن لهـا كيفيـة غير معلومة ، وهـذا هـو الـواجب ، فنقـول : لهـا كيفيـة، لكن غير معلومة .

قـول اللـه تعـالى : (وهم يكفـرون بـالرحمن ....) (الرعد : 30) الآية .

فإن قيل : كيف يتصور أن نعتقد للشـي و كيفيـة نحن لا نعلمها؟
أجيب : إنه متصور ، فالواحد منـا يعتقـد أن لهـذا القصـر كيفيــة من داخلــه ، ولكن لا يعلم هــذه الكيفيــة إلا إذا شاهدها ، أو شاهد نظيرها ، أو أخبره شخص صادق عنها .

***

قوله تعالى : (وهم يكفرون بالرحمن) الآية
(وهم) . أي : كفر قريش .
(يكفرون بالرحمن) . المراد : أنهم يكفرون بهذا الاســم لا بالمســمى ، فهم يقــرون بــه ، قــال تعــالى : (ولئن ســألتهم من خلــق الســماوات والأرض ليقــولن اللــه) (لقمان : 25) ، وفي حـديث سـهيل بن عمـر : (لمـا أراد النبي صلى الله عليـه وسـلم أن يكتب الصـلح في غـزوة الحديبيــة قــال للكــاتب : [اكتب بســم اللــه الــرحمن الرحيم] ، قال سهيل : أمـا الـرحمن، واللـه مـا أدرى مـا هي ولكن اكتب باسمك اللهم[1] ، وهذا من الأمثلـة الـتي يراد بها الاسم دون المسمى .
وقد قال الله تعالى : (قل ادعوا الله أو ادعـوا الـرحمن أيا ما تـدعوا فلـه الأسـماء الحسـنى) (الإسـراء :110) ، أي : بـأي اسـم من أسـمائه تدعونـه ، فـإن لـه الأسـماء الحسنى ، فكل أسمائه حسـنى ، فـادعوا بمـا شـئتم من الأسماء ، ويراد بهذه الآية الإنكار على قريش .

وفي الآية دليل على أن من أنكر اسما من أسمائه تعالى فإنــه يكفــر ، لقولــه تعــالى : (وهم يكفــرون بــالرحمن) (الرعد :30) ، ولأنه مكـذب للـه ولرسـوله ، وهـذا كفـر ، وهذا وجه استشهاد المؤلف بهذه الآية .

---

[1] البخاري : كتاب الشروط / باب الشروط في الجهاد .

قوله : (لا إله إلا هو) . خبر(لا) النافية للجنس محذوف ، والتقدير : لا إله إلا هو ، وأما الإله الباطل ، فكثير ، قال تعالى : (ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يـدعون من دونـه الباطل)(لقمان:30).

قولـه (عليـه تـوكلت) . أي : عليـه وحـده ، لأن تقـديم المعمـول يـدل على الحصـر ، فـإذا قلت مثلا : (ضـربت زيدا)، فإنه يدل على أنك ضربته ، ولكن لا يدل على أنـك لم تضرب غيره ، وإذا قلت : (زيدا ضربت) دلت على أنك ضـربت زيـدا ولم تضـرب غـيره ، وسـبق معـنى التوكـل وأحكامه .

قوله : (وإليه المتاب) . أي : إلى الله . و(متاب) أصـلها متابي ، فحذفت الياء تخفيفا ، والمتـاب بمعـنى التوبـة ، فهي مصر ميمي ، أي : وإليه توبتي .

والتوبة : هي الرجوع إلى اللـه تعـالى من المعصـية إلى الطاعة ، ولها شروط خمسة :

1. الإخلاص لله تعالى بأن لا يحمل الإنسان على التوبـة مراعاة أحد أو محاباته أو شي من الدنيا .
2. أن تكون في وقت قبـول التوبـة ، وذلـك قبـل طلـوع الشمس من مغاربها،وقبل حضور الموت .
3. النـدم على مـا مضـى من فعلـه،وذلـك بـأن يشـعر بالتحسر على ما سبق ويتمنى أنه لم يكن .
4. الإقلاع عن الذنب ، وعلى هذا ، فإذا كـانت التوبـة من مظـالم الخلـق فلا بـد من رد المظـالم إلى أهلهـا أو استحلالهم منها .
5. العزم على عدم العودة ، والتوبة التي لا تكون إلا للـه هي توبة العبادة ، كمـا في الآيـة السـابقة ، وأمـا التوبـة التي بمعنى الرجوع ، فإنها تكون له ولغيره ، ومنها قول عائشـة حين جـاء النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم فوجـد نمرقة فيها صور ، فوقـف بالبـاب ولم يـدخل ، وقـالت : (أتوب إلى الله ورسوله ، مـاذا أذنبت؟)[2] فليس المـراد بالتوبة هنا توبة العبادة لأن توبة العبادة لا تكون للرسول صلى الله عليه وسلم ولا لغيره من الخلق بل لله وحده ، ولكن هـذه توبـة رجـوع ، ومن ذلـك أيضـا حين يضـرب الإنسان ابنه لسوء أدبه ، يقول الابن : أتوب .

وفي صحيح البخاري : قال علي : (حدثوا الناس بما يعرفون ، اتريدون أن يكذب الله ورسوله)[1]

****

قوله في أثر علي رضى الله عنه:(حدثوا الناس) . أي : كلموهم بالمواعظ وغير المواعظ .

قوله : (بما يعرفون) . أي : بما يمكن أن يعرفوه وتبلغه عقولهم حتى لا يفتنوا ، ولهذا جاء عن ابن مسعود رضي الله عنه ، قال : (إنك لن تحدث قوما حديثا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة)[3] ولهذا كان من الحكمة في الدعوة ألا تباغت الناس بما لا يمكنهم إدراكه ،بل تدعوهم رويدا رويدا حتى تستقر عقولهم ، وليس معنى (بما يعرفون) ، أي : بما يعرفون من قبل ، لأن الذي يعرفونه من قبل يكون التحديث به من تحصيل الحاصل .

قوله : (أتريدون أن يكذب الله ورسوله ؟!) . الاستفهام للإنكار ، أي : أتريدون إذا حدثتم الناس بما لا يعرفون أن يكذب الله ورسوله ، لأنك إذا قلت : قال الله وقال رسوله كذا وكذا ، قالوا : هذا كذب إذا كانت عقولهم لا تبلغه ، وهم لا يكذبون الله ورسوله ، ولكن يكذبونك بحديث تنسبه إلى الله ورسوله ، فيكونون مكذبين لله ورسوله ، لا مباشرة ولكن بواسطة الناقل .

فإن قيل : هل ندع الحديث بما لا تبلغه عقول الناس وإن كانوا محتاجين لذلك؟

أجيب : لا ندعه ، ولكن نحدثهم بطريقة تبلغه عقولهم ، وذلك بأن ننقلهم رويدا رويدا حتى يتقبلوا هذا الحديث ويطمئنوا إليه ، ولا ندع ما لا تبلغه عقولهم ونقول : هذا شي مستنكر لا نتكلم به .

---

(1) البخاري : كتاب العلم / باب من خص بالعلم قوما دون قوم

(2) البخاري : كتاب النكاح / باب هل يرجع إذا رأي منكرا في الدعوة

(3) مسلم في مقدمة (صحيحه) (1 / 11) .

ومثــل ذلــك العمــل بالســنة الــتي لا يعتادهــا النــاس ويستنكرونها ، فإننا نعمل بها ولكن بعد أن نخبرهم بها ، حتى تقبلها نفوسهم ويطمئنوا إليها .

ويستفاد من هذا الأثر أهمية الحكمة في الدعوة إلى الله – عز وجل – وأنه يجب على الداعية أن ينظـر في عقـول المدعوين وينزل كل إنسان منزلته .

مناسبة هذا الأثر لباب الصفات :

مناسـبة ظـاهرة ، لأن بعض الصـفات لا تحتملهـا أفهـام العامــة فيمكن إذا حــدثتهم بهــا كــان لــذلك أثــر ســيي عليهم ، كحديث النزول إلى السماء الدنيا مع ثبوت العلو ، فلو حدثت العامي بأنه نفسه يـنزل إلى السـماء الـدنيا مع علوه على عرشـه ، فقـد يفهم أنـه إذا نـزل ، صـارت السماوات فوقه وصار العـرش خاليـا منـه ، وحينئـذ لابـد في هذا من حديث تبلغـه عقـولهم فتـبين لهم أن اللـه – عز وجـل – يـنزل نـزولا لا يماثـل نـزول المخلـوقين مـع علوه على عرشه ، وأنـه لكمـال فضـله ورحمتـه يقـول : (من يدعوني فاستجيب له ...)[3] الحديث .

والعامي يكفيـه أن يتصـور مطلـق المعـنى ، وأن المـراد بذلك بيان فضل الله – عـز وجـل – في هـذه السـاعة من الليل .

وروي عبد الرازق عن معمر ، عن ابن طـاووس عن أبيـه عن ابن عبـاس : (أنـه رأي رجلا انتفض لمـا سـمع حـديثا عن النبي صلى الله عيله وسلم في الصفات ،

****

قوله في أثر ابن عباس : (انتفض) . أي : اهـتز جسـمه ، والرجل مبهم والصفة التي حُدث بها لم تُبين، وبيان ذلك ليس مهما ، وهذا الرجل انتفض استنكار لهـذه الصـفة لا تعظيما للـه ، وهـذا أمـر عظيم صـعب، لأن الـواجب على

---

(3) البخاري : كتاب التهجد /باب الدعاء والصلاة من آخر الليل ، ومسلم : صـلاة المسـافرين / بـاب الـترغيب في الدعاء .

المـرء إذا صـح عنـد شـي عن اللـه ورسـوله أن يقـر بـه ويصدق ليكون طريقه طريق الراسـخين في العلم حـتى وإن لم يسمعه من قبل أو يتصوره .

الصفات استنكارا لذلك ، فقلت : ما فرق هؤلاء ؟ يجدون رقة عند محكمه ويهلكون عند متشابهه؟!) انتهي [1]

قوله : (ما فرق) . فيها : ثلاث روايات :
1. (فَرَقُ) ، بفتح الراء وضم القاف .
2. (فرَّقَ) ، بفتح الراء مشددة ، وفتح القاف .
3. (فَرَقَ) ، بفتح الراء مخففة ، وفتح القاف .
فعلى روايــة (فَــرَقُ) تكــون (مــا) اســتفهامية مبتــدأ، و(فـرق) خـبر المبتـدأ ، أي : مـا خـوف هـؤلاء من إثبـات الصفة تليت عليهم وبلغتهم ،لمـاذا لا يثبتونهـا للـه – عـز وجل – كما أثبتهـا اللـه لنفسـه وأثبتهـا لرسـوله ؟ وهـذا ينصب تماما على أهل التعطيل والتخريف الذين ينكـرون الصفات ، فما الذي يخوفهم من إثباتها والله تعـالى قـد أثبتها لنفسه ؟
وعلى رواية (فرّق) أو(فَرَقَ) تكـون فعلا ماضـيا بمعـنى ما فرقهم ، كقوله تعالى : (وقرآنـا فرقنـاه) (الإسـراء : 106) ، أي : فرقنــاه : و(مــا) يحتمــل أن تكــون نافيــة، والمعنى : ما فـرق هـؤلاء بين الحـق والباطـل ، فجعلـوا هـذا من المتشـابه وأنكـروه ولم يحملـوه على المحكم ، ويحتمل أن تكون استفهامية والمعنى : أي شي فــرقهم فجعلهم يؤمنون بالمحكم ويهلكون عند المتشابه ؟
قولــه : (يجــدون رقــة عنــد محكمــه) . الرقــة : اللين والقبول ، و(محكمه) ، أي : محكم القرآن .

قوله : (ويهلكون عند متشابهه) . أي : متشابه القرآن .
والمحكم الذي اتضح معناه وتبين ، والمتشابه هـو الـذي يخفي معنــاه ، فلا يعلمــه النــاس ، وهــذا إذا جمــع بين المحكم والمتشــابه، وأمــا إذا ذكــر المحكم مفــردا دون

---

[1] عبد الرزاق في المصنف (20895) وابن ابي عاصم في كتاب السنة (485)

المتشابه ، فمعناه المتقن الذي ليس فيه خلل : لا كـذب في أخباره ، ولا جور في أحكامـه ، قـال تعـالى : (وتمت كلمة ربك صـدقا وعـدلا) (الأنعـام :115) وقـد ذكـر اللـه الإحكـام في القـرآن دون المتشـابه ، وذلـك مثـل قولـه تعالى : (كتاب أُحكمت آياته) (هود :1) .

وإذا ذكر المتشابه دون المحكم صـار المعـنى أنـه يشـبه بعضه بعضا في جودته وكماله ، ويصـدق بعضـه بعضـا ولا يتناقض ، قال تعـالى : (اللـه نـزل أحسـن الحـديث كتابـا متشـابها مثـانى)(الزمـر:23) والتشـابه نوعـان : تشـابه نسبي ، وتشابه مطلق .

والفـرق بينهمـا : أن المطلـق يخفي على كـل أحـد ، ونسـبي يخفي على أحـد دون أحـد، وبنـاء على هـذا التقسـيم ينبـني الوقـف في قولـه تعـالى : (ومـا يعلم تأويله إلا اللـه والراسـخون في العلم) (آل عمـران : 7)، فعلى الوقـوف على (إلا اللـه) يكـون المـراد بالمتشـابه المطلق ، وعلى الوصل (إلا الله والراسـخون في العلم) يكـون المـراد بالمتشـابه المتشـابه النسـبي ، وللسـلف قولان :

القـول الأول : الوقـف على (إلا اللـه) ، وعليـه أكـثر السـلف ، وعلى هـذا ، فـالمراد بالمتشـابه المتشـابه المطلق الذي لا يعلمه إلا الله ، وذلك مثل كيفية وحقائق صفات اللـه ، وحقـائق مـا أخـبر اللـه بـه من نعيم الجنـة وعـذاب النـار ، وقـال اللـه تعـالى في نعيم الجنـة : (فلا تعلم نفس مـا أخفى لهم من قُـرة أعين) (السـجدة : 17)،أي : لا تعلم حقائق ذلـك ، ولـذلك قـال بن عبـاس : (ليس في الجنة شي مما في الدنيا إلا الأسماء)[2] .

والقول الثاني : الوصل ، فيقرأ : (إلا الله والراسـخون في العلم) ، وعلى هـذا فـالمراد بالمتشـابه المتشـابه النسبي ، وهذا يعلمـه الراسـخون في العلم ويكـون عنـد غيرهم متشابها ، ولهذا يروى عن ابن عباس ، أنه قـال : (أنا من الراسخين في العلم الذي يعلمون تأويله)[3] ولم

---

(2) ابن حزم في (الفصل) (2 /108)ـ – وقال: (هذا سند في غاية الصحة) – و قـال المنـذري في (الـترغيب) (4/560) : (رواه البيهقي موقوفا بإسناد جيد)

(3) انظر قوله في : (تفسير الطبري) (3/183)

يقل هذا مدحا لنفسه أو ثناء عليهـا ، ولكن ليعلم النـاس أنه ليس في كتاب الله شـي لا يعـرف معنـاه ، فـالقرآن معانيه بينـه ، ولكن بعض القـرآن يشـتبه على نـاس دون آخرين حتى العلمـاء الراسـخون في العلم يختلفـون في معنى القـرآن،وهـذا يـدل على أنـه خفي على بعضـهم ، والصواب بلا شـك مـع أحـدهم إذا كـان اختلافهم اختلاف تضاد لا تنوع، أما إذا كانت الآية تحتمـل المعنـيين جميعـا بلا منافاة ولا مرجح لأحدهما ، فإنها تحمل عليها جميعا .

وبعض أهــل العلم يظنــون أن في القــرآن مــا لا يمكن الوصــول إلى معنــاه ، فيكــون من المتشــابه المطلــق ، ويحملــون آيــات الصــفات على ذلــك ، وهــذا من الخطــأ العظيم ، إذ ليس من المعقول أن يقول تعـالى : (كتـاب أنزلنــاه مبــارك ليــدبروا آياتــه) (ص :29) ثم تســتثنى الصفات وهي أعظم وأشـرف موضـوعا وأكـثر من آيـات الأحكام ، ولو قلنا بهذا القول ، لكان مقتضاه أن أشـرف ما في القرآن موضوعا خفيا ، ويكون معنى قوله تعــالى (ليدبروا آياته) ، أي : آيات الأحكام فقط ،

وهذا غير معقول ، بل جميع القـرآن يفهم معنـاه ، إذ لا يمكن أن تكون هذه الأمة من رسول الله صلى الله عليـه وسـلم إلى آخرهـا لا تفهم معـنى القـرآن ، وعلى رأيهم يكون الرسول صـلى اللـه عليـه وسـلم وأبـو بكـر وعمـر وجميع الصحابة يقرؤون آيات الصــفات وهم لا يفهمـون معناها ، بل هي عندهم بمنزلـة الحـروف الهجائيـة أ، ب، ت ... والصواب أنه ليس في القـرآن شـي متشـابه على جميع الناس من حيث المعنى ، ولكن الخطأ في الفهم .

فقــد يقصــر الفهم عن إدراك المعــني أو يفهمــه على معنى خطأ ، وأما بالنسبة للحقائق ، فما أخبر الله به من أمر الغيب ، فمتشابه على جميع الناس .

ولما سمعت قريش رسول الله صلي الله عليه وسلم يذكر الرحمن ، انكروا ذلك ، فأنزل الله فيهم (وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ)(الرعد: من الآية30)[1]

****

قوله : (ولما سمعت قريش رسول الله يذكر الرحمن) . أصل ذلك أن سهيل بن عمرو أحد الذين أرسلتهم قريش لمفاوضة النبي صلى الله عليه وسلم في صلح الحديبية وأمر النبي صلى الله عليه وسلم أن يكتب (بسم الله الرحمن الرحيم) ، فقال (أما الرحمن ، فلا والله ما أدري ما هي ، وقالوا : إننا لا نعرف رحمانا إلا رحمن اليمامة ، فأنكروا الاسم دون المسمى ، فأنزل الله : (وهم يكفرون بالرحمن) ، أي : بهذا الاسم من أسماء الله .

وفي الآية دليل على أن من أنكر اسما من أسماء الله الثابتة في الكتاب أو السنة ، فهو كافر لقوله تعالى : (وهم يكفرون بالرحمن) .

وقوله : (ولما سمعت قريش) . الظاهر - والله أعلم - أنه من باب العام الذي أريد به الخاص، وليس كل قريش تنكر ذلك ، بل طائفة منهم ، ولكن إذا أقرت الأمة الطائفة على ذلك ولم تنكر ، صح أن ينسب لهم جميعا ، بل إن الله نسب إلى اليهود في زمن النبي صلى الله عليه وسلم ما فعله أسلافهم في زمن موسى عليه السلام ، قال تعالى : (وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ الطُّورَ خُذُوا مَا آتَيْنَاكُمْ بِقُوَّةٍ)(البقرة: من الآية63) ، وهذا لم يكن في عهد المخاطبين .

****

قوله فيه مسائل :

الأولى : عدم الإيمان بجحد شي من الأسماء والصفات . عدم بمعنى انتفاء ، أي : انتفاء الإيمان بسبب جحد شي من السماء والصفات ، وسبق التفصيل في ذلك .

---

[1] ابن جرير الطبري في التفسير (20397).

الثانية : تفسير آية الرعد . وهي قوله تعالى : (وهم يكفرون بالرحمن) وسبق تفسيرها.
الثالثة : ترك التحديث بما لا يفهم السامع . وهذا ليس على إطلاقه ، وقد سبق التفصيل عند شرح الأثر .
الرابعة : ذكر العلة أنه يفضي إلى تكذيب الله ورسوله ولو لم يتعمد المنكر . وهي أن الذي لا يبلغ عقله ما حدث به يفضي به التحديث إلى تكذيب الله ورسوله ، فيكذب ويقول : هذا غير ممكن ، وهذا يوجد من بعض الناس في أشياء كثيرة مما أخبر به النبي صلى الله عليه وسلم مما يكون يوم القيامة ، كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم : (إن الأرض يوم القيامة تكون خبزة واحدة يتكفؤها الجبار بيده كما يتكفأ أحدكم خبزته)[1] وما أشبه ذلك ، وكما أن الصراط أحد من السيف وأدق من الشعرة وغير هذه الأمور ، لو حدثنا بها إنسانا عاميا لأوشك أن ينكر ، لكن يجب أن تبين له بالتدريج حتى يتمكن من عقلها مثل ما نعلم الصبي شيئا فشيئا .
قوله : (ولو لم يتعمد المنكر) أي : ولو لم يقصد المنكر تكذيب الله ورسوله ، ولمن كذب نسبة هذا الشي إلى الله ورسوله ، وهذا يعود بالتالي إلى رد خبر الله ورسوله .
الخامسة : كلام ابن عباس لمن استنكر شيئا من ذلك وأنه أهلكه. وذلك قوله : (ما فرق هؤلاء؟ يجدون رقة – أي لينا – عند محكمه فيقبلونه، ويهلكون عند متشابهه فينكرونه ؟)

باب قوله تعالي :

(يَعْرِفُونَ نِعْمَتَ اللَّهِ ثُمَّ يُنْكِرُونَهَا وَأَكْثَرُهُمُ الْكَافِرُونَ) (النحل:83)

---

(1) البخاري : كتاب الرقاق / باب يقبض الله الأرض يوم القيامة ، ومسلم كتاب صفات المنافقين / باب منزلة أهل الجنة .

قولـه تعـالى : (يعرفـون) . أي : يـدركون بحواسـهم أن النعمة من عند الله .
قوله تعالى:(نعمـة اللـه) . واحـدة والمـراد بهـا الجمـع ، فهي ليست واحدة ،بل هي لا تحصى ، قال تعالى : (وإن تعدوا نعمة اللـه لا تحصـوها) (إبـراهيم :34) ، والقاعـدة الأصــولية : أن المفــرد المضــاف يعم ، والنعمــة بجلب المحبوبات ، وتطلق أحيانا على رفع المكروهات .
قولـه : (ثم ينكرونهـا) أي : ينكـرون إضـافتها إلى اللـه لكونهم يضيفونها إلى السـبب متناسـين المسـبب الـذي هو الله – سبحانه وتعالى – وليس المعـنى أنهم ينكـرون هذه النعمة ، مثل أن يقولـوا : مـا جاءنـا مطـر أو ولـد أو صحة ، ولكن ينكرونها بإضافتها إلى غـير اللـه متناسـين الذي خلق السبب فوجد به المسبب .
قوله : (الآية) أي : إلى آخر الآيـة ، وهي منصـوبة بفعـل محذوف تقديره أكمل الآية .
قولـه : (وأكـثرهم الكـافرون) . أي أكـثر العـارفين بـأن النعمة من الله الكافرون ، أي الجاحدون كونها من الله ، أو الكافرون بالله عز وجل .
وقوله : (أكثرهم) بعد قوله : (يعرفـون)الجملـة الأولى أضافها إلى الكـل ، والثانيـة أضـافها إلى الأكـثر ، وذلـك لأن منهم من هـــو عـــامي لا يعـــرف ولا يفهم ، ولكن أكثرهم يعرفون ثم يكفرون .

مناسبة هذا الباب التوحيد :
أن من أضاف نعمة الخالق إلى غـيره ، فقـد جعـل معـه شريكا في الربوبيـة ، لأن أضـافها إلى السـبب على أنـه فاعــل ، هــذا من وجــه ، ومن وجــه آخــر : أنــه لم يقم بالشكر الذي هو عبادة من العبادات ، وترك الشكر مناف للتوحيد ، لأن الواجب أن يشكر الخالق المنعم – ســبحانه وتعـالى – فصـارت لـه صـلة بتوحيـد الربوبيـة وبتوحيـد العبادة ، فمن حيث إضافتها إلى السبب على أنـه فاعـل هــذا إخلال بتوحيــد الربوبيــة ، ومن حيث تــرك القيــام بالشكر الذي هو العبادة هذا إخلال بتوحيد الألوهية .

قال مجاهد ما معناه (هو قول الرجل هذا مالي ورثته عن أبائي

****

قوله : (قال مجاهد) هو إمام المفسرين في التابعين ، عرض المصحف على ابن عباس رضى الله عنهما يوقفه عند كل آية ويسأله عن تفسيرها ، وقال سفيان الثوري : إذا جاءك التفسير عن مجاهد فحسبك به . أي : كافيك ، ومع هذا ، فليس معصوما من الخطأ .

قوله : (ما معناه) . أي : كلاما معناه ، وعلى هذا ف (ما) نكرة موصوفة، وفيه أن الشيخ رحمه الله لم ينقله بلفظه .

قوله:(و قول الرجل).هذا من باب التغليب والتشريف ، لأن الرجل أشرف من المرأة وأحق
بتوجيه الخطاب إليه منها ، وإلا ، فالحكم واحد .

قوله:(هذا مالي ورثته عن آبائي) . ظاهر هذه الكلمة أنه لا شي فيها ، فلو قال لك واحد : من أين لك هذا البيت ؟ قلت : ورثته عن آبائي ، فليس فيه شي لأنه خبر محض .

لكن مراد مجاهد أن يضيف القائل تملكه للمال إلى السبب الذي هو الإرث متناسيا المسبب الذي هو الله ، فبتقدير الله – عز وجل – انتقل هذا البيت إلى ملكك عن طريق الإرث ، فكيف تتناسى المسبب للأسباب القدرية والشرعية فتضيف الأمر إلى ملك آبائك وإرثك إياه بعدهم ؟! فمن هنا صار هذا القول نوعا من كفر النعمة .

أما إذا كان قصد الإنسان مجرد الخبر كما سبق ، فلا شي في ذلك ، ولهذا ثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم قيل له يوم الفتح : (أتنزل في دارك غدا؟) فقال : (وهل ترك لنا عقيل من دار أو رباع)[1] فبين صلى الله عليه وسلم أن هذه الدور انتقلت إلى عقيل بالإرث .

---

[1] البخاري : كتاب الحج / باب توريث دور مكة وبيعها ، ومسلم : كتاب الحج / باب النزول بمكة للحجاج .

فتبين أن هناك فرقا بين إضافة الملك إلى الإنسان على سبيل الخبر ، وبين إضافته إلى سببه متناسيا أن المسبب هو الله – عز وجل - .

وقال عون بن عبد الله : (يقولون لولا فلان لم يكن كذا .

****

قوله : (وقال عون بن عبد الله : يقولون : لو لا فلان لم يكن كذا) .

وهذا القول من قائله فيه تفصيل إن أراد به الخبر وكان الخبر صدقا مطابقا للواقع ، فهذا لا باس به ، وإن أراد بها السبب ، فلذلك ثلاث حالات :

الأولى : أن يكون سببا خفيا لا تأثير له إطلاقا ، كأن يقول : لولا الولي الفلاني ما حصل كذا وكذا ، فهذا شرك أكبر لأنه يعتقد بهذا القول أن لهذا الولي تصرفا في الكون مع أنه ميت ، فهو تصرف سري خفي .

الثانية : أن يضيفه إلى سبب صحيح ثابت شرعا أو حسا ، فهذا جائز بشرط أن لا يعتقد أن السبب مؤثر بنفسه ، وأن لا يتناسى المنعم بذلك .

الثالثة : أن يضيفه إلى سبب ظاهر ، ولكن يثبت كونه سببا لا شرعا ولا حسا ، فهذا نوع من الشرك الأصغر ، وذلك مثل : التولة ، والقلائد التي يقال : أنها تمنع العين ، وما أشبه ذلك ، لأنه أثبت سببا لم يجعله الله سببا ، فكان مشاركا لله في إثبات الأسباب .

ويدل هذا التفصيل أنه ثبت إضافة (لولا) إلى السبب وحده بقول النبي صلى الله عليه وسلم في عمه أبي طالب : (لولا أنا ، لكان في الدرك الأسفل من النار)[1] ولا شك أن النبي صلى الله عليه وسلم أبعد الناس عن الشرك ، وأخلص الناس توحيدا لله تعالى ، فأضاف النبي

---

[1] البخاري : كتاب فضائل الصحابة / باب قصة أب طالب ، ومسلم : كتاب الإيمان / باب شفاعة النبي صلى اله عليه وسلم .

صلى الله عليه وسلم الشي إلى سببه ، لكنه شرعي حقيقي ، فإنه أذن له بالشفاعة لعمه بأن يخفف عنه ، فكان في ضحضاح من النار ، عليه نعلان يغلي منه دماغه لا يرى أن أحدا أشد عذابا منه ، لأنه لو يرى أن أحدا أشد عذابا منه أو مثله هان عليه بالتسلي ، كما قالت الخنساء في رثاء أخيها صخر :

ولولا كثرة الباكين حولي لى إخوانهم لقتلت نفسي
وما يبكون مثل أخي ولكن سلي النفس عنه بالتأسي

وابن القيم رحمه الله – وإن كان قول العالم ليس بحجة لكن يستأنس به – قال في القصيدة الميمية يمدح الصحابة :

أولئك أتباع النبي وحزبه ولولا هُمُو ما كان في الأرض مسلم
ولولا همو كادت تميد بأهلها ولكن رواسيها وأوتادها هم
ولولا همو كانت ظلاما بأهلها ولكن همو فيها بدور وأنجم

فأضاف (لولا) إلى سبب صحيح .

وقال ابن قتيبة : (يقولون هذا بشفاعة آلهتنا

****

قوله : (وقال ابن قتيبة : هذا بشفاعة آلهتنا). هؤلاء أخبث ممن سبقهم ، لأنهم مشركون يعبدون غير الله ، ثم يقولون : إن هذه النعم حصلت بشفاعة آلهتهم ، فالعزى مثلا شفعت عند الله أن ينزل المطر ، فهؤلاء أثبتوا سببا من أبطل الأسباب لأن الله – عز وجل – لا يقبل شفاعة آلهتهم ، لأن الشفاعة لا تنفع إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا ، والله – عز وجل – لا يأذن

لهذه الأصنام بالشفاعة ، فهذا أبطل من الـذي قبلـه لأن فيه محذورين :

1. الشرك بهذه الأصنام .

2. إثبات سبب غير صحيح .

****

قال أبو العباس بعد حديث زيد بن خالد الـذي فيـه : (إن الله تعـالى قـال (أصـبح من عبـادي مـؤمن وكـافر ....) الحديث[1] وقد تقدم : (وهذا كثـير من الكتـاب والسـنة ، يذم سبحانه من يضيف إنعامه إلى غيره ويشرك به)

قوله : (وقال أبو العباس) . وهو شيخ الإسـلام أحمـد بن تميمة .

قوله : (هـذا كثـير من الكتـاب والسـنة يـذم سـبحانه من يضـيف إنعامـه إلى غـيره ...) . وذلـك مثـل الاستسـقاء بالأنواء ، وإنما كان مذموما ، لأنه لو أتى إليـك عبـد فلان بهدية من سـيده فشـكرت العبـد دون السـيد ، كـان هـذا سوء أدب مع السيد وكفرانا لنعمتـه ، وأقبح من هـذا لـو أضفت النعمة إلى السبب دون الخالق ، لما يأتي :

1. أن الخالق لهذه الأسباب هو اللـه ، فكـان الـواجب أن يشكر وتضاف النعمة إليه .

2. أن السبب لا يؤثر، كما ثبت في (صـحيح مسـلم) أنـه صلى الله عليه وسلم قال : (ليس السنة أن لا تمطـروا، ولكن السنة أن تمطروا وتمطروا، ولا تنبت الأرض شيئا)[2] .

3. أن السبب قد يكون له مانع يمنع تأثيره ، وبهذا عرف بطلان إضـافة الشـي إلى سـببه دون الالتفـات إلى المسبب جل وعلا .

قال بعض السلف : هـو كقـولهم : كـانت الـريح طيبـة ، والملاح حاذقا ...... ونحو ذلـك ممـاهو جـار على ألسـنة كثيرة))

***

قوله : (كانت الريح طيبـة) . هـذا في السـفن الشـراعية التي تجـري بـالريح ، قـال تعـالى : (حـتى إذا كُنْتُمْ فِي

---

(1) ص 519.

(2) مسلم : كتاب الفتن / باب سكنى المدينة .

**الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا) (يونس:22) .
فكانوا إذا طاب سير السفينة قالوا كانت الريح طيبة ، وكان الملاح – هو قائد السفينة – حاذقا ، أي : مجيدا للقيادة ، فيضيفون الشي إلى سببه وينسون الخالق – جل وعلا - .**

****

فيه مسائل :
الأولى : تفسير معرفة النعمة وإنكارها . وسبق ذلك .
الثانية : معرفة أن هذا جار على ألسنة كثيرة . وذلك مثل قول بعضهم : كانت الريح طيبة ، والملاح حاذقا ، وما أشبه ذلك .
الثالثة : تسمية هذا إنكارا للنعمة . يعني : إنكار لتفضل الله تعالى بها وليس إنكارا لوجودها ، لأنهم يعرفونها ويحسون بوجودها .
الرابعة : اجتماع الضدين في القلب . وهذا من قوله : (يعرفون نعمة الله ثم ينكرونها) ، فجمع بين المعرفة والإنكار،وهذا كما يجتمع في الشخص الواحد خصلة إيمان وخصلة كفر ، وخصلة فسوق وخصلة عدالة .

****

باب قول الله تعالى :
(فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَاداً وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ)(البقرة: من الآية 22)

قوله : (فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمون)
لما ذكر سبحانه ما يقر به هؤلاء من أفعاله التي لم يفعلها غيره : (الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ * الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَكُمْ) (البقرة: 21-22) . فكل من أقر بذلك لزمه أن لا يعبد إلا المقر له ، لأنه لا يستحق العبادة من لا يفعل ذلك ، ولا يبغي أن يعبد إلا من فعل ذلك ، ولذلك أتى بالفاء الدالة

على التفريع والسببية ، أي : فبسبب ذلك لا تجعلـوا للـه أندادا .
و(لا) هذه ناهية ، أي : فلا تجعلوا له أندادا في العبـادة ، كمـا أنكم لم تجعلـوا لـه أنـدادا في الربوبيـة، وأيضـا لا تجعلوا له أندادا في أسمائه وصفاته ، لأنهم قـد يصـفون غير الله بأوصاف الله – عز وجل - ، كاشتقاق العـزى من العزيز ، وتسميتهم رحمن اليمامة .
قوله : (أندادا) . جمع ند ، وهو الشبيه والنظير ، والمراد هنا : أندادا في العبادة .
قوله : (وأنتم تعلمون) . الجملة في موضـع نصـب حـال من فاعـــل (تجعلـــوا) ، أي : والحـــال أنكم تعلمـــون ، والمعـنى : وأنتم تعلمـون أنــه لا أنــداد لــه – يعـني في الربوبية -، لأن هذا محط التقبيح من هؤلاء أنهم يجعلون له أندادا وهم يعلمون أنه لا أنـداد لـه في الربوبيـة ، أمـا الألوهية ، فيجعلون لـه أنـدادا ، قـالوا للنـبي صـلى اللـه عليه وسلم (أجعل الآلهة إلها واحدا إن هذا لشي عجاب) (ص : 5) ، ويقولون في تلبيتهم : (لبيك لا شريك لــك إلا شريكا هو لك تملكه وما ملك) ، وهذا من سفههم ، فإنـه إذا صار مملوكا ، فكيف يكـون شـريكا ، ولهـذا أنكـر اللـه عليهم في قوله : (فلا تجعلوا لله أندادا وأنتم تعلمـون) ، إذ الأنداد بالمعنى العام – بقطع النظر عن كونه يخـاطب أقوامـا يقـرون بالربوبيـة – يشـمل الأنـداد في الربوبيـة والألوهية والأسماء والصفات .

وقال ابن عباس في الآية : (الأنداد هـو الشـرك ، أخفي من دبيب النمل على صفاة سوداء في ظلمة الليـل وهـو ان تقول : والله وحياتك يا

****

قولـــه :(وقـــال ابن عبـــاس في الآيـــة) . أي : في تفسيرها .

قوله : (هو الشرك) . هذا تفسير بالمراد ، لأن التفسـير تفسيران :
تفسـير بـالمراد ، وهـو المقصـود بسـياق الجملـة بقطـع النظر عن مفرداتها .
تفسير بـالمعنى ، وهـو الـذي يسـمى تفسـير الكلمـات ، فعندنا الآن وجهان للتفسير :
أحدهما : التفسير اللفظي وهو تفسـير الكلمـات ، وهـذا يقال فيه : معناه كذا وكذا .
الثاني : التفسير بـالمراد ، فيقـال : المـراد بكـذا وكـذا ، والأخير هنا هو المراد .
فـإذا قلنـا : الأنـداد الأشـباه والنظـراء ، فهـو تفسـير بالمعنى ، وإذا قلنـا : الأنـداد الشـركاء أو الشـرك ، فهـو تفسـير بـالمراد ، يقـول رضـى اللـه عنـه(الأنـداد هـو الشـرك)، فـإذا النـد الشـريك المشـارك للـه – سـبحانه وتعالى – فيما يختص به .

فلان، وحياتي ، وتقول : لولا كليبة هذا لأتانا اللصـوص ، ولـولا البـط في الـدار ، لأتي اللصـوص، وقـول الرجـل لصاحبه لا تجعل فيها فلانا، هذا كلـه بـه شـرك)رواه ابن أبي حاتم(1)

____

وقوله : (دبيب) . أي : أثر دبيب النمل وليس فعل النمـل .
وقوله : (على صفاة) هي الصخرة الملساء .
وقولـه :(سـوداء) . وليس على بيضـاء ، إذ لـو كـان على بيضاء لبان أثر السير أكثر .
وقولـه : (في ظلمـة الليـل) . وهـذا أبلـغ مـا يكـون في الخفاء .

فـإذا كـان الشـرك في قلـوب بـني آدم أخفى من هـذا ، فنسأل الله أن يعين على التخلص منه ، ولهذا قال بعض السـلف : (مـا عـالجت نفسـي معالجتهـا على الإخلاص)، ويروى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه لما قال مثـل هذا، قيل له :كيف نتخلص منه ؟ قال : قولوا : اللهم! إنا نعوذ بك من أن نشرك بك شيئا نعلمه ، ونستغفرك لما لا نعلم) [2].

وقوله : (والله وحياتك) . فيها نوعان من الشرك :

الأول : الحلف بغير الله .

الثـاني : الإشـراك مـع اللـه بقولـه : واللـه ! وحياتـك ! فضمها إلى الله بالواو المقتضية للتسوية فيهـا نـوع من الشرك ، والقسم بغير الله إن اعتقد الحالف أن المقسم به بمنزلة الله في العظمة ، فهو شرك أكـبر، وإلا ، فهـو شرك أصغر .

وقوله : (وحياتي) فيه حلف بغير الله فهو شرك .

وقوله : (لولا كليبة هذا لأتانا اللصـوص) ، كليبـة تصـغير كلب ، والكلب ينتفــع بــه للصــيد وحراســة الماشــية والحرث .

قوله : (لولا كليبـة هـذا) يكـون فيـه شـرك إذا نظـر إلى السبب دون المسبب، وهو الله –عز وجل – أمـا الاعتمـاد علي السبب الشرعي أو الحسي المعلوم، فقد تقدم أنـه لا بأس به ، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قال : (لـولا أنا ، لكان في الـدرك السـفل من النـار)[1] لكن قـد يقـع في قلب الإنسان إذا قال لولا كذا لحصل كذا أو مـا كـان كذا وكذا ، قد يقع في قلبـه شـي من الشـرك بالاعتمـاد على السبب بـدون نظـر إلى المسـبب ، وهـو اللـه – عـز وجل - .

وقولـه : (لـولا البـط في الـدار لأتى اللصـوص) . البـط طائر معروف ، وإذا دخـل اللص الـبيت وفيـه بـط ، فإنـه يصرخ ، فينتبه أهل البيت ثم يجتنبه اللصوص .

---

(1) ابن ابي حاتم كما في تفسير ابن كثير (1/63).

(2) الإمام أحمد في (المسند) (4/403) .

(1) تقدم ص 787.

وقوله : (وقول الرجل لصاحبه : ما شاء الله وشئت) فيه شرك ، لأنه شرك غير الله مع الله بالواو ، فإن اعتقد أنه يساوي الله – عز وجل – في التدبير والمشيئة ، فهو شرك أكبر ، وأن لم يعتقد ذلك ، واعتقد أن الله – سبحانه وتعالى – فوق كل شي ، فهو شرك أصغر ، وكذلك قوله : (لولا الله فلان) .

وقوله : (هذا كله به شرك) . المشار إليه ما سبق ، وهو شرك أكبر أو اصغر وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه ؛ أن رسول الله صلي الله عليه وسلم قال : (من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك) رواه الترمزيوحسنه وصححه الحاكم [1]

حسب ما يكون في قلب الشخص من نوع هذا التشريك .

قوله : (وعن عمر) . صوابه عن ابن عمر ، نبه عليه الشارح في (تيسير العزيز الحميد) .

قوله في حديث ابن عمر رضي الله عنهما : (من حلف بغير الله) . (من) شرطية ، فتكون للعموم.

قوله : (أو أشرك) . شك من الراوي ، والظاهر أن الصواب الحديث (أشرك)

قوله : (من حلف بغير الله) . يشمل كل محلوف به سوى الله ، سواء بالكعبة أو الرسول صلى الله عليه وسلم أو الأسماء أو غير ذلك ، ولا يشمل الحلف بصفات الله ، لأن الصفة تابعة للموصوف ، وعلى هذا فيجوز أن تقول : وعزة الله لأفعلن كذا .

وقوله : (بغير الله) . ليس المراد بغير هذا الاسم ، بل المراد بغير المسمى بهذا الاسم ، فإذا حلف بالله أو بالرحمن أو بالسميع ، فهو حلف بالله .

والحلف : تأكيد الشي بذكر معظم بصيغة مخصوصة بالباء أو التاء أو الواو . وحروف القسم ثلاثة : الباء ، والتاء ، والواو .

---

[1] الإمام أحمد في المسند (2/ 34، 86) وأبو داوود كتاب الإيمان / باب كراهة الحلف بالأباء ، والترمزي : كتاب الإيمان /باب ما جاء في كراهة الحلف بغير الله ــ وحسنه ، وابم حبان (1177) والحاكم (1/18 ، 4/ـ 297) وصححه ووافقه الذهبي ، وصححه سماحة الشيخ العلامة عبد العزيز بن باز في الفتاوى (5/307).

مسلم : كتاب الإيمان / باب بيان الصلوات التي هي أحد أركان الإسلام .

والباء : أعمها، لأنه تـدخل على الظـاهر والمضـمر وعلى أسم الله وغـيره ، ويـذكر معهـا فعـل القسـم ويحـذف ، فيـذكر معهـا فعـل القسـم ، كقولـه تعـالى : (وأقسـموا بالله جهد أيمانكم) (الأنعام :109) ، ويحذف مثل قولك : باللـه لأفعلن ، وتـدخل على المضـمر مثـل قولـك : اللـه عظيم أحلـف بـه لأفعلن ، وعلى الظـاهر كمـا في الآيـة وعلى غير لفظ الجلالة ، مثل قولك : بالسـميع لأفعلن ، وأما الواو ، فإنه لا يذكر معهـا فعـل القسـم ، ولا تـدخل على الضمير ، ويحلف بها مع كل اسم ، وأما التاء ، فإنـه لا يذكر معها فعـل القسـم وتختص باللـه ورب ، قـال بن مالك : (والتاء لله ورب) . والحلف بغير الله شـرك أكـبر إن اعتقد أن المحلوف به مساو للـه تعـالى في التعظيم والعظمة ، وإلا ، فهو شرك أصغر .

وهل يغفر الله الشرك الأصغر؟

قال بعض العلماء : إن قوله تعالى : (إن الله لا يغفر أن يشرك به) (النساء : 116) ، أي : الشرك الكبر (ويغفر ما دون ذلك) ، يعني : الشرك الصغر والكبائر .

وقال شيخ الإسلام ابن تميمة رحمـه اللـه:إن الشـرك لا يغفره لله ولـو كـان أصـغر ، لأن قولـه : (أن يشـرك بـه) مصدر مؤول ، فهو نكرة في سياق النفي ، فيعم الصـغر والأكبر ،والتقدير : لا يغفر شركا به أو إشراكا به .

وأمـا قولـه تعـالى:(والشـمس وضـحاها)(الشـمس: 1)،وقولـه:(لا أقسـم بهـذا البلـد) (البلـد : 1)، وقولـه : (والليـل إذا يغشـى) (الليـل : 1) ومـا أشـبه ذلـك من المخلوقات التي اقسم الله بها ، فالجواب على وجهين :

الأول:أن هذا من فعل الله والله لا يسأل عما يفعل،ولـه أن يقسم سبحانه بما شـاء من خلقـه ، وهـو سـائل غـير مسؤول وحاكم غير محكوم عليه .

الثاني : أن قسـم اللـه بهـذه الآيـات دليـل على عظمتـه وكمال قدرتـه وحكمتـه ، فيكـون القسـم بـه الـدال على تعظيمها ورفع شأنها متضمنا للثناء على الله – عز وجـل – بما تقتضيه من الدلالة على عظمته .

وأما نحن ، فلا نقسم بغير الله أو صفاته ، لأننـا منهيـون عن ذلك .

وأما ما ثبت في (صحيح مسلم)من قوله صلى الله عليــه وسلم : (أفلح وأبيه إن صدق)[2] .
فالجواب عنه من وجوه :
الأول : أن بعض العلماء أنكر هذه اللفظة ، وقـال : إنهـا لم تثبت في الحديث ، لأنهـا مناقضـة للتوحيـد،ومـا كـان كـذلك ، فلا تصـح نسـبته إلى الرسـول صـلى اللـه عليـه وسلم ، فيكون باطلا .
الثاني : أنها تصحيف من الرواة ، والأصـل : (أفلح واللـه إن صدق) .
وكانوا في السابق لا يشـكلون الكلمـات ، و(أبيـه) تشـبه (الله) إذا حذفت النقط السفلي .
الثالث : أن هذا ما يجري على الألسـنة بغـير قصـد، وقـد قال اللـه تعـالى : (لا يؤاخـذكم اللـه بـاللغو في أيمـانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الإيمان)(المائـدة : 89)، وهـذا لم ينو فلا يؤاخذ .
الرابع : أنه وقع من النبي صـلى اللـه عليـه وسـلم وهـو أبعد الناس عن الشرك ، فيكون من خصائصـه ، وإمـا من غيره ، فهم منهيون عنـه لأنهم لا يسـاوون النـبي صـلى الله عليه وسلم في الإخلاص والتوحيد .
الخامس : أنه على حذف مضاف ، والتقـدير : (أفلح ورب أبيه) .
السادس : أن هذا على منسـوخ ، وأن النهي هـو الناقـل من الأصل ، وهذا من أقرب الوجوه .
ولـو قـال قائـل : نحن نقلب عليكم الأمـر ، ونقـول : إن المنسوخ هو النهي ، لأنهم لما كانوا حديثي عهـد بشـرك نهوا أن يشركوا بـه كمـا نهي النـاس حين كـانوا حـديثي عهد بشرك عن زيارة القبور ثم أذن لهم فيها[1] ؟
فالجواب عنه : أن هذا اليمين كان جاريا على ألسـنتهم ، فتركوا حتى استقر الإيمان في نفوسهم ثم نهـوا عنـه ، ونظـيره إقـرارهم على شـرب الخمـر أولا ثم أمـروا باجتنابه .

---

(1) مسلم كتاب الإيمان / باب بيان الصلوات التي هي أحد أركان الإسلام

(1) مسلم : كتاب الجنائز/ باب استئذان النبي صلى الله عليه وسلم ربه زيارة أمه .

أما بالنسبة للوجه الأول، فضعيف لأن الحديث ثابت، وما دام يمكن حمله على وجه صحيح ، فإنه يجوز إنكاره .
أما الوجه الثاني ، فبعيد ، وإن أمكن ، فلا يمكن في قوله صلى الله عليه وسلم لما سئل : أي الصدقة افضل؟ فقال : (أما وأبيك لتنبأنه)[2] .
وأما الوجه الثالث ، فغير صحيح لأن النهي وارد مع أنه كان يجري على ألسنتهم كما جرى على لسان سعد فنهاه النبي صلى الله عليه وسلم[3] ، ولو صح هذا ، لصح أن يقال لمن فعل شركا اعتاده لا ينهى ، لأن هذا من عادته ، وهذا باطل .
وأما الرابع ، فدعوى الخصوصية تحتاج إلى دليل ، وإلا ، فالأصل التأسي به .
وأما الخامس : فضعيف لأن الأصل عدم الحذف، ولأن الحذف هنا يستلزم فهما باطلا ، ولا يمكن أن يتكلم الرسول صلى الله عليه بما يستلزم ذلك بدون بيان المراد ، وعلى هذا يكون أقربها الوجه السادس أنه منسوخ ، ولا نجزم بذلك لعدم العلم بالتاريخ ، ولهذا قلنا أقربها والله أعلم ، وإن كان النووي رحمه الله ارتضى أن هذا مما يجري على اللسان بدون قصد ، لكن هذا ضعيف لا يمكن القول به ، ثم رأيت بعضهم جزم بشذوذها لانفراد مسلم بها عن البخاري مع مخالفة راويها للثقات ، فالله أعلم .

قال ابن مسعود : (لأن أحلف بلله كاذبا أحلب إلي من أن أحلف بغيره صادقا)(1)

****

---

(2) مسلم : كتاب الزكاة / باب أن أفضل الصدقة صدقة الصحيح الشحيح .

(3) ونصه :0حلفت مرة باللات والعزى ، فقال النبي صلى الله عليه وسلم (قل لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، ثم انفث على يسارك ثلاثا ، ثم تعوذ ولا تعد) .

قولـه في اثـر ابن مسـعود : (لأن أحلـف باللـه كاذبـا) .
اللام : لام الابتداء ، و(أن) مصدرية ، فيكـون قولـه : (أن أحلف) مؤولا بمصدر مبتدأ تقديره لحلفي بالله .
قوله : (أحب إليّ) . خبر مبتدأ ، ونظير ذلك في القـرآن قوله تعالى : (وأن تصوموا خير لكم) (البقرة : 184) .
قوله : (كاذبا) حال من فاعل أحلف .
قوله:(أحب إليّ) هذا من باب التفضيل الـذي ليس فيـه من الجانبين ، وهـذا نـادر في الكلام ، لأن التفضـيل في الأصـل يكـون فيـه المعـنى ثابتـا في المفضـل وفي المفضـل عليـه ، وأحيانـا في المفضـل دون المفضـل عليه ، وأحيانا لا يوجد في الجانبين ، فابن مسعود رضـى الله عنه لا يحب لا هذا ولا هذا ، ولكن الحلف بالله كاذبـا أهون عليه من الحلف بغيره صادق، فالحلف كاذبا محـرم من وجهين :

1. أن كذب ، والكذب محرم لذاته .
2. أن هذا الكذب قرن باليمين ، واليمين تعظيم لله – عز وجل - ، فإذا كان على كذب صار فيه شي من تنقص لله – عز وجل - ، حيث جعل اسمه مؤكدا لأمر كذب ، ولـذلك كان الحلف باللـه كاذبـا عنـد بعض أهـل العلم من اليمين المغموس التي تغمس صاحبها في الإثم ثم في النار .

وأما الحلف بغير الله صادقا ، فهو محرم من وجـه واحـد وهو الشرك ، لكن سيئه الشرك أعظم من سيئة الكذب ، وأعظم من سيئة الحلف بالله كاذبـا ، وأعظم من اليمين الغمـوس إذا قلنـا : إن الحلـف باللـه كاذبـا ، من اليمين الغموس ، لأن الشرك لا يغفر ، قال تعـالى : (إن اللـه لا يغفر أن يشرك به)(النساء:116) وما أرسل اللـه الرسـل وأنـزل الكتب إلا لإبطـال الشـرك، فهـو أعظم الـذنوب ، قال تعالى : (إن الشـرك لظلم عظيم) (لقمـان : 13) ، وسئل النبي صلى اللـه عليـه وسـلم : أي الـذنب أعظم؟ قال : (إن تجعل لله ندا وهو خلقك)[1] ، والشرك متضمن للكذب ، فإن الذي جعل غير الله شـريكا للـه كـاذب ، بـل من أكذب الكاذبين ، لأن الله لا شريك له .

---

[1] سبق تخريجه ص 606
(2)البخاري : كتاب التوحيد / باب قوله تعالى : (فلا تجعلوا لله أندادا)

****

وعن حذيفة رضي الله عنه ؛ أن الرسول صلي الله عليه وسلم قال : (لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء فلان) رواه أبو داوود بسند صحيح [1]

قوله في حديث حذيفة رضى الله عنه : (لا تقولوا) . (لا) الناهية ، ولهذا جزم الفعل بعدها بحذف النون .
قوله : (ما شاء الله وما شاء فلان) . والعلة في ذلك أن الواو تقتضي تسوية المعطوف بالمعطوف عليه ، فيكون القائل : ما شاء الله وشئت مسويا مشيئة الله بمشيئة المخلوق ، وهذا شرك، ثم إن اعتقد أن المخلوق أعظم من الخالق ، أو أنه مساو له ، فهو شرك اكبر ، وإن اعتقد أنه أقل ، فهو شرك اصغر .
قوله : (ولكن قولوا : ما شاء الله ثم شاء فلان) . لما نهي عن اللفظ المحرم بين اللفظ المباح ، لأن (ثم) للترتيب والتراخي ، فنفيد أن المعطوف أقل مرتبة من المعطوف عليه .
أما بالنسبة لقوله :(ما شاء الله فشاء فلان) ، فالحكم فيه أنها مرتبة بين مرتبة (الواو) ومرتبة (ثم) فهي تختلف عن (ثم) بأن (ثم) للتراخي والفاء للتعقيب ، وتوافق (ثم) بأنها للترتيب ، فالظاهر أنها جائزة ، ولكن التعبير ب (ثم) أولى لأنه اللفظ الذي أرشد إليه النبي صلى الله عليه وسلم ، ولأنه أبين في إظهار الفرق بين الخالق والمخلوق .
ويستفاد من هذا الحديث :
1. إثبات المشيئة للعبد ، لقوله : (ثم شاء فلان) ، فيكون فيه رد على الجبرية حيث قالوا : إن العبد لا مشيئة له ولا اختيار .
2. أنه ينبغي لمن سد على الناس بابا محرما أن يفتح لهم الباب المباح ، لقوله : (ولكن قولوا : ما شاء الله ثم

---

[1] الإمام أحمد في المسند (5/ـ 384) وأبو داوود كتاب الأدب / باب لا يقال : خبث نفسي ، والطيالسي (430) ،والنسائي في عمل اليوم والليلة (919) قال النووي في الأذكار (308) إسناده صحيح

شاء فلان) ، ونظير ذلك قوله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تقولوا راعنا وقولوا انظرنا) (البقرة : 104) ، وكذلك النبي صلى الله عليه وسلم لما جي له بتمر جيد وأخبره الآتي به أنه أخذ الصاع بالصاعين والصاعين بالثلاثة ، وقال : (لا تفعل ، ولكن بع الجمع بالدراهم ، ثم اشتر بالدراهم جنيبا [1]، أي : تمرا جيدا، فأرشده إلى الطريق المباح حين نهاه عن الطريق المحرم.

وفي هذا فائدتان عظيمتان :

الأولى : بيان كمال الشريعة وشمولها ، حيث لم تسد على الناس بابا إلا فتحت لهم ما هو خير منه .

الثانية : التسهيل على الناس ورفع الحرج عنهم ، فعامل الناس بهذا ما استطعت ، كلما سددت عليهم بابا ممنوعا ، فافتح لهم من المباح ما يغني عنه ما استطعت إلى ذلك سبيلا حتى لا يقعوا في الحرج .

****

وجاء عن ابراهيم النخعي : (أنه يكره : أعوذ بلله وبك ، ويجوز أن يقول بلله ثم بك). قال : ويقول : (ولولا الله ثم فلان ، ولا تقولوا لولا اله وفلان).

قوله : (عن إبراهيم النخعي) . من فقهاء التابعين ، لكنه قليل البضاعة في الحديث ، كما ذكر ذلك حماد بن زيد .

قوله : (يكره أعوذ بالله وبك) . العياذ الاعتصام بالمستعاذ به عن المكروه ، واللياذ بالشخص : هو اللجوء إليه لطلب المحبوب ، قال الشاعر :

يا من ألوذ به فيما أومله ومن أعوذ به مما أحاذره

لا يجبر الناس عظما أنت كاسره ولا يهيضون عظما أنت جابره

وهذان البيتان يخاطب بهما رجلا، لكن كما قال بعضهم: هذا القول لا ينبغي أن يكون إلا لله .

---

[1] البخاري : كتاب البيوع / باب إذا أراد بيع تمر بتمر ، ومسلم : كتاب المساقاة /باب بيع الطعام مثلا بمثل .

وقوله : (أعوذ بالله وبك) . هذا محرم ، لأنه جمع بين الله والمخلوق بحرف يقتضي التسوية وهو الواو .
ويجوز بالله ثم بك ، لأن (ثم) تدل على الترتيب والتراخي .
فإن قيل : سبق أن من الشرك الاستعاذة بغير الله ، وعلى هذا يكون قوله : أعوذ بالله ثم بك محرما .
أجيب : أن الاستعاذة بمن يقدر على أن يعيذك جائزة ، لقوله صلى الله عليه وسلم في (صحيح مسلم) وغيره : (من وجد ملجأ، فليعذ به)[2] ، لكنه قال : أعوذ بالله ثم بفلان . وهو ميت ، فهذا شرك أكبر لأنه لا يقدر على أن يعيذك ، وأما استدلال الإمام أحمد على أن القرآن غير مخلوق بقوله صلى الله عليه وسلم : (أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق) ، ثم قال رحمه الله : والاستعاذة لا تكون بمخلوق فيحمل كلامه على أن الاستعاذة بكلام لا تكون بكلام مخلوق بل بكلام غير مخلوق،وهو كلام الله ، والكلام تابع للمتكلم به ، إن كان مخلوقا ، وإن كان غير مخلوق، فهو غير مخلوق .

فيه مسائل :
الأولى : تفسير آية البقرة في الأنداد . وقد سبق
الثانية : أن الصحابة يفسرون الآية النازلة في الشرك الأكبر أنها تعم الصغر ، لأن قوله تعالى : (فلا تجعلوا لله أندادا وانتم تعلمون) نازلة في الأكبر، لأن المخاطب بها هم المشركون، وابن عباس فسرها بما يقتضي الشرك الأصغر ، لأن الند يشمل النظير المساوي على سبيل الإطلاق أو في بعض الأمور .
الثالثة : الحلف بغير الله شرك. لحديث ابن عمر رضى الله عنهما .
الرابعة : أنه إذا حلف بغير الله صادقا ، فهو أكبر من اليمين الغموس . واليمين الغموس عند الحنابلة أن يحلف بالله كاذبا ، وقال بعض العلماء – وهو الصحيح : أن يحلف بغير الله كاذبا ليقتطع بها مال امري مسلم .

---

(2) سبق تخريجه (ص ـــ) .

الخامسة : الفرق بين الواو وثم في اللفـظ . لأن الـواو تقتضي المساواة ، فتكون شركا ، وثم تقتضـي الـترتيب والتراخي ، فلا تكون شركا .

****

باب ما جاء فيمن لم يقنع بالحلف بلله

مناسبة هذا الباب لكتاب التوحيد :

أن الاقتناع بالله من تعظيم الله ، لأن الحالف أكد ما حلف عليه بالتعظيم باليمين وهـو تعظيم المحلـوف بـه ، فيكون من تعظيم المحلوف به أن يصدق ذلـك الحـالف ، وعلى هذا يكون عدم الاقتناع بالحلف بالله فيه شـي من نقص تعظيم الله ، وهذا ينافي كمال التوحيد ، والاقتناع بالحلف بالله لا يخلو من أمرين :

الأول : أن يكون ذلك من الناحية الشرعية، فإنـه يجب الرضا بالحلف بالله فيما إذا توجهت اليمين على المدعى عليه فحلـف،فيجب الرضـا بهـذا اليمين بمقتضـى الحكم الشرعي .

الثاني : أن يكون ذلـك من الناحيـة الحسـية ، فـإن كـان الحالف موضع صدق وثقـة ، فإنـك ترضـى بيمينـه ، وإن كان غير ذلك ، فلك أن ترفض الرضا بيمينه ، ولهذا قـال النبي صلى الله عليه وسلم لحويصة ومحيصـة : (تـبرئكم يهود بخمسين يمينا . فقالوا : كيف نرضى يا رسول الله بأيمان اليهود؟) .[1] فأقرهم النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك .

****

عن ابن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قـال : (لا تحلفوا بآبائكم ، من حلف بلله فليصدق ، ومن حلـف له بالله فليرض ، ومن لم يـرض فليس من اللـه ،) رواه ابن ماجة بسند حسن [1]

---

[1] البخاري : كتاب الأدب / باب إكرام الكبير ، ومسلم : كتاب القسامة ، باب القسامة .

قولـه في الحديث : (لا تحلفوا) .(لا): ناهية، ولهـذا جـزم الفعـل بعـدها بحـذف النـون ، و (آبـاؤكم) : جمـع أب ، ويشمل الأب والجد ، وإن علا فلا يجوز الحلف بهم ، لأنه شرك ، وقد سبق بيانه .
قوله صلى الله عليه وسلم : (من حلف بالله ، فليصـدق، ومن حلف له بالله ، فليرض) هنا أمران :
الأمر الأول: للحالف، فقد أمر أن يكون صادقا ، والصدق : هو الإخبار بما يطـابق الواقـع ، وضـده الكـذب ، وهـو : الإخبـــار بمـــا يخـــالف الواقـــع ، فقولـــه : (من حلـــف باللـه ،فليصـدق)، أي : فليكن صـادقا في يمينـه ، وهـل يشترط أن يكون مطابقا للواقع أو يكفي الظن ؟
الجواب : يكفي الظن، فله أن يحلف على مـا يغلب على ظنه ، كقول الرجل للنبي صلى الله عليه وسـلم : واللـه ما بين لابتيها أهل بيت أفقر مني . فـأقره النـبي صـلى الله عليه وسلم .
الثاني : للمحلوف له ،فقد أمر أن يرضـى بيمين الحـالف له .
فـإذا قـرنت هـذين الأمـرين بعضـهما ببعض،فـإن الأمـر الثاني يـنزل على إذا كـان الحـالف صـادقا، لأن الحـديث جمـع أمـرين : أمـرا موجهـا للحـالف ، وأمـرا موجهـا للمحلـوف لـه ، فـإن كـان الحـالف صـادقا ، وجب على المحلوف له الرضا .
فإن قيل : إن كان صادقا فإننا نصدقه وإن لم يحلف؟
أجيب : أن اليمين تزيده توكيدا .
قولـــه : (ومن لم يـــرض، فليس من اللـــه) أي : من لم يرض بالحلف بالله إذا حلـف لـه ، فليس من اللـه ، وهـذا تبرؤ منـه يـدل على أن عـدم الرضـا من كبـائر الـذنوب ، ولكن لابـد من ملاحظـة مـا سـبق ، وقـد أشـرنا أن في حديث القسامة دليلا على أنه إذا كان الحالف غـير ثقـة ، فلك أن ترفض الرضا به ، لأنـه غـير ثقـة ، فلـو أن أحـدا حلف لك ، وقال : واللـه ، إن هـذه الحقيبـة من خشـب .

---

(1) ابن ماجة : كتاب الكفارات / باب من حلف له بالله فليرض وقـال البويصـري في مصباح الزجاجة (2/143) هذا اسناد صحيح رجاله ثقات) وقـال ابن حجر في الفتح (11/535) سند صحيح .

وهي من جلد ، فيجوز أن لا ترضى به لأنك قاطع بكذبه ، والشرع لا يأمر بشي يخالف الحس والواقع، بل يأمر إلا بشي يستحسنه العقل ويشهد له بالصحة والحسن ، وإن كان العقل لا يدرك أحيانا مدى حسن هذا الشي الذي أمر به الشرع ، ولكن ليعلم علم اليقين أن الشرع لا يأمر إلا بما هو حسن ، لأن الله تعالى يقول : (ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون) (المائدة : 50) فإذا اشتبه عليك حسن شي من أحكام الشرع ، فاتهم نفسك بالقصور أو بالتقصير ، أما أن تتهم الشرع ، فهذا لا يمكن ، وما صح عن الله ورسوله ، فهو حق وهو من أحسن الأحكام .

****

فيه مسائل :

الأولى : النهي عن الحلف بالآباء . الثانية : الأمر للمحلوف له بالله أن يرضى . الثالثة : وعيد من لم يرض .

فيه مسائل :

الأولى : النهي عن الحلف بالآباء . لقوله : (لا تحلفوا بآبائكم) ، والنهي للتحريم .

الثانية : الأمر للمحلوف له بالله أن يرضى . لقوله : (من حلف له بالله، فليرض) ، وسبق التفصيل في ذلك .

الثالثة : وعيد من لم يرض . لقوله : (ومن لم يرض، فليس من الله) .

الرابعة : ولم يذكرها المؤلف - : أمر الحالف أن يصدق لأن الصدق واجب في غير اليمين ، فكيف باليمين ؟

وقد سبق أن من حلف على يمين كاذبة أنه آثم، وقال بعض العلماء : أنها اليمين الغموس .

وأما بالنسبة للمحلوف له ، فهل يلزمه أن يصدق أم لا؟

المسألة لا تخلو من أحوال خمس :

الأولى : أن يعلم كذبه ، فلا أحد يقول : إنه يلزم تصديقه .

الثانية : أن يترجح كذبه ، فكذلك لا يلزم تصديق .
الثالثة : أن يتساوى الأمران ، فهذا يجب تصديقه .
الرابعة: أن يترجح صدقه ، فجب أن يصدق .
الخامسة : أن يعلم صدقه ، فيجب أن يصدق .
وهذا في الأمور الحسية ، أما الأمـور الشـرعية في بـاب التحاكم ، فيجب أن يرضى بـاليمين ويلـتزم بمقتضـاها ، لأن هذا من باب الرضا بالحكم الشرعي ، وهو واجب .

مناسبة الباب لكتاب التوحيد :
أن قول : (ما شـاء اللـه وشـئت) من الشـرك الأكـبر أو الأصغر ، لأنه إن اعتقـد أن المعطـوف مسـاو للـه ، فهـو شـرك أكـبر ، وإن اعتقـد أنـه دونـه لكن أشـرك بـه في اللفظ ، فهو أصغر ، وقـد ذكـر بعض أهـل العلم : أن من جملة ضوابط الشـرك الصـغر أن مـا كـان وسـيلة للأكـبر فهو أصغر .

باب قول : ما شاء الله وشئت :
عن قتيلة : أن يهوديا أتي النبي صـلى اللـه عليـه وسـلم فقال : أنكم تشـركون تقولـون : مـا شـاء اللـه وشـئت ، وتقولون والكعبة ، فأمرهم النبي صلى الله عليه وسـلم إذا ارادوا أن يحلفـوا أن يقولـوا : ورب الكعبـة ، وان يقولوا : ما شاء الله ثم شئت . رواه النسائي وصححه [1]

****

قولـه : (أن يهوديـا) . اليهـودي : هـو المنتسـب إلى شـريعة موسـى عليـه السـلام ، وسـموا بـذلك من قولـه تعالى : (إنا هدنا إليك) ، أي : رجعنا ، أو لأن جدهم يهوذا ابن يعقـوب ، فتكـون التسـمية من أجـل النسـب ، وفي الأول تكون التسمية من أجل العمل ، ولا يبعـد أن تكـون من الاثنين جميعا .

---

[1] الإمام احمد في المسند (6/371 ، 372) والنسـائي : كتـاب الإيمـان / بـاب الحلف بالكعبة ، والحاكم (4/315) وصححه ووافقه الذهبي .

قوله : (إنكم تشركون) . أي : تقعـون في الشـرك أيهـا المسلمون .
قولـه : (مـا شـاء اللـه وشـئت) . الشـرك هنـا أنـه جعـل المعطوف مساويا للمعطوف عليه ، وهو الله - عز وجل - ، حيث كان العطف بالواو المفيدة للتسوية .
قوله : (والكعبة) . الشرك هنا أنه حلـف بغـير اللـه ، ولم ينكر النبي صلى الله عليه وسلم ما قالـه اليهـودي ، بـل أمر بتصحيح هذا الكلام ، فأمرهم إذا حلفـوا أن يقولـوا : ورب الكعبة ، فيكون القسم بالله .
وأمـرهم أن يقولـوا : مـا شـاء اللـه ، ثم شـئت، فيكـون الترتيب بثم بين مشيئة اللـه ومشـيئة المخلـوق ، وبـذلك يكون الترتيب صحيحا ، أما الأول ، فلأن الحلف صار بالله ، وأما الثاني ، فلأنه جعل بلفـظ يتـبين بـه تـأخر مشـيئة العبد عن مشيئة الله ، وأنه لا مساواة بينهما .
ويستفاد من هذا الحديث :
أن النبي صلى الله عليه وسلم لم ينكر على اليهودي مع أن ظاهر قصده الذم واللوم للنبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه ، لأن ما قاله حق .
مشروعية الرجوع إلى الحق وإن كان من نبـه عليـه ليس من أهل الحق .
أنه ينبغي عند تغيير الشي أن يغير إلى شي قريب منـه ، لأن النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم أمـرهم أن يقولـوا : (ورب الكعبــة)، ولم يقــل : احلفـوا باللـه ، وأمـرهم أن يقولوا : (ما شاء الله، ثم شئت) .

إشكال وجوابه :
هـو أن يقـال : كيـف لم ينبـه على هـذا العمـل إلا هـذا اليهودي ؟
جوابه : أنه يمكن أن الرسول صلى اللـه عليـه وسـلم لم يسمعه ولم يعلم به .
ولكن يقال : بأن الله يعلم ، فكيف يقرهم؟
فيبقى الإشــكال ، ولكن يجــاب : إن هــذا من الشــرك الأصـغر دون الأكـبر ، فتكـون الحكمـة هي ابتلاء هـؤلاء

اليهود الذين انتقدوا المسلمين بهذه اللفظة مع أنهم يشركون شركا أكبر ولا يرون عيبهم .

وله أيضا عن ابن عباس ، ان رجلا قال للنبي صلى الله عليه وسلم : ما شاء الله وشءت ، فقال : (أجعلتني لله ندا ؟! بل قل ما شاء الله وحده)[1]

****

قوله في حديث ابن عباس رضى الله عنهما : (أن رجلا قال للنبي صلى الله علي وسلم . الظاهر أنه قال للنبي صلى الله عليه وسلم تعظيما ، وأنه جعل الأمر مفوضا لمشيئة الله ومشيئة رسوله .

قوله : (أجعلتني لله ندا؟!) . الاستفهام للإنكار ، وقد ضمن معنى التعجب ، ومن جعل للخالق ندا فقد أتى شيئا عجابا .

والند : هو النظير والمساوي ، أي جعلتني لله مساويا في هذا الأمر ؟

قوله : (بل ما شاء الله وحده) . أرشده النبي صلى الله عليه وسلم إلى ما يقطع عنه الشرك، ولم يرشده إلى أن يقول ما شاء الله ثم شئت حتى يقطع عنه كل ذريعة عن الشرك وإن بعدت .

يستفاد من الحديث :

1. أن تعظيم النبي صلى الله عليه بلفظ مساواته للخالق شرك ، فإن كان يعتقد المساواة ، فهو شرك اكبر ، وإن كان يعتقد أنه دون ذلك ، فهو أصغر وإذا كان هذا شركا ، فكيف بمن يجعل حق الخالق للرسول صلى الله عليه وسلم ؟

هذا أعظم ، لأنه صلى الله عليه وسلم ليس له شي من خصائص الربوبية ، بل يلبس الدرع ، ويحمل السلاح ، ويجوع ، ويتألم ، ويمرض ، ويعطش كبقية

---

[1] سبق تخريجه ص 608

الناس ، ولكن الله فضله على البشر بمـا أوحى إليـه من هـذا الشـرع العظيم ، قـال تعـالى : (قـل إنمـا أنـا بشـر مثلكم) ، فهو بشر ، وأكد هذه البشرية بقولـه : (مثلكم)، ثم جـاء التميـيز بينـه وبين بقيـة البشـر بقولـه تعـالى : (يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد) (الكهف :110)، ولاشك أن الله أعطاه من الأخلاق الفاضـلة الـتي بهـا الكمـالات من كـل وجـه : أعطـاه من الصـبر العظيم ، وأعطـاه من الكرم ومن الجود ، لكنها كلها في حدود البشرية ، أما أن تصـل إلى خصـائص الربوبيـة ، فهـذا أمـر لا يمكن ، ومن ادعى ذلك، فقد كفر بمحمد صلى الله عليه وسلم وكفـر بمن أرسـله . فـالمهم أننـا لا نغلـو في الرسـول عليـه الصلاة والسلام فننزله في منزلة هو ينكرها ، ولا نهضـم حقه الذي يجب علينا فنعطيه مـا يجب لـه ، ونسـأل اللـه أن يعيننا على القيام بحقه ، ولكننا لا ننزله منزلـة الـرب – عز وجل - .

2. إنكار المنكر وإن كان في أمر يتعلق بـالمنكر ، لقولـه صلى الله عليه وسلم : (أجعلتني لله ندا؟) ، مع أنه فعـل ذلك تعظيما للنبي صلى الله عليه وسلم ، وعلى هـذا إذا انحنى لك شخص عند السلام ، فالواجب عليك الإنكار .

3. أن من حسن الدعوة إلى الله – عـز وجـل – أن نـذكر ما يباح إذا ذكرت ما يحرم ، لأنه صـلى اللـه عليـه وسـلم لما منعه من قـول : (مـا شـاء اللـه وشـئت) أرشـده إلى الجائز وهو قوله : (بل ما شاء الله وحده) .

لابن ماجه عن الطفيل ـ أخي عائشة لأمها ـ قـال : رأيت كاني أتيت على نفـر من اليهـود قلت: إنكم لأنتم القـوم لولا انكم تقولون : عزيز ابن اللـه ، قـالوا : لأنتم القـوم لولا أنكم تقولون : ما شاء الله وشـاء محمـد ، ثم مـررت بنفـر من النصـاري ، فقلت إنكم لأنتم القـوم لـولا انكم تقولون : المسيح ابن الله ، قالوا :لأنتم القوم لولا انكم

****

قوله في حـديث الطفيـل : (رأيت كـأني أتيت على نفـر من اليهود) . أي رؤيا في المنام .
قوله : (كأن) : اسمها الياء، وجملة (أتيت) خبرها .
وقولـه : (على نفـر) من الثلاثـة إلى التسـعة ، واليهـود أتباع موسى .
قوله : (لأنتم القوم) . كلمة مـدح ، كقولـك : هـؤلاء هم الرجال .
وقوله : (عزيز) هو رجل صالح ادعى اليهود أنه ابن اللـه ، وهذا من كذبهم ، وهو كفر صريح ، واليهود لهم مثالب كثـيرة ، لكن خصـت هـذه لأنهـا من أعظمهـا وأشـهرها عندهم .

تقولون ما شاء الله وشاء محمـد ،فلمـا اصـبحت أخـبرت بهـا من اخـبرت ثم أتيت النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم فأخبرته ، قال : (هل أخبرت أحـدا ؟ قلت : نعم . قـال : فحمد الله ، وأثني عليه ثم قال:أما بعد فإن طفيلا رأي رؤيـا أخـبر بهـا من أخـبر منكم ، وإنكم قلتم كلمـة يمنعني كذا وكذا أن أنهاكم عنها فلا تقولوا ما شـاء اللـه وشاء محمد،ولكن قولوا ما شاء الله وحده)[1]

قوله : (ما شاء الله وشاء محمد) هذا شـرك أصـغر ، لأن الصحابة الـذين قـالوا هـذا ولا شـك أنهم لا يعتقـدون أن مشيئة الرسول صلى الله عليه وسـلم مسـاوية لمشـيئة الله ، فانتقدوا عليهم تسوية مشـيئة الرسـول بمشـيئة الله - عز وعلا - .
قوله : (تقولـون : المسـيح ابن اللـه) : هـو عيسـى ابن مريم وسمي مسيحا بمعنى ماسـح ، وهـو فعيـل بمعـنى فاعل ، لأنه كـان لا يمسـح ذا عاهـة إلا بـرى بـإذن اللـه ، كالأكمه والأبرص .
والشيطان لعب بالنصارى فقـالوا : هـو ابن اللـه ، لأنـه أتى بـدون أب ، كمـا في القـرآن : (فنفخنـا فيهـا من

---

(1) ابن ماجه كتاب الكفارات / بـاب النهي أن يقـال : ما شـاء الله وشـئت وقـال البويصري في المصباح (2/152) على شرط البخاري .

روحنا) (الأنبيـاء : 91) ، قـالوا : هـو جـزء من اللـه ، لأن أضافه إليه ، والجزء هو الابن .

والروح على الراجح عند أهل السنة : ذات لطيفـة تـدخل الجسم وتحل فيـه كمـا يحـل المـاء في الطين اليـابس ، ولهـذا يقبضـها الملـك عنـد المـوت وتكفن ويصـعد بهـا ويراها الإنسان عند موته ، فالصـحيح أنهـا ذات وإن كـان بعض النـاس يقـول : إنهـا صـفة، ولكنـه ليس كـذلك ، والحيـاة صـحيح أنهـا صـفة لكن الـروح ذات ، إذا نقـول لهؤلاء النصـارى : إن اللـه أضـاف روح عيسـى إليـه كمـا أضـاف الـبيت والمسـاجد والناقـة ومـا أشـبه ذلـك على سبيل التشريف والتعظيم، ولا شك أن المضاف إلى الله يكتسب شـرفا وعظمـة ، حـتى إن بعض الشـعراء يقـول في معشوقته :

لا تدعني إلا بيا عبدها فإنه أشرف أسمائي

قوله : (فما أصبحت أخبرت بها من أخبرت) (طه : 78) ، والإبهام قد يكون للتعظيم كما في الآية المذكورة، وقـد يكون للتحقير حسب السياق ، وقد يراد به معنى آخر .

قوله:(هل أخبرت بهـا أحـدا؟) . سـأل النـبي صـلى اللـه عليه وسلم هذا السؤال ، لأنـه لـو قـال : لم أخـبر أحـدا، هذا هو الظـاهر ، ثم بين الحكم عليـه الصـلاة والسـلام ، لكن لما قال : إنه أخبر بها ، صار لابـد من بيانهـا للنـاس عموما ، لأن الشي إذا انتشر يجب أن يعلن عنــه ، بخلاف إذا كـان خاصـا ، فهـذا اخـبر بهـا ، صـار لابـد من بيانهـا للناس عموما ، لأن الشي إذا انتشر يجب أن يعلن عنــه ، بخلاف إذا كان خاصا ، فهذا يخبر من وصله الخبر .

قوله : (فحمد الله) . الحمد : وصف المحمود بالكمال مع المحبة والتعظيم .

قوله :(وأثني عليه) . أي كرر ذلك الوصف .

قوله:(أما بعد) . سبق أنها بمعنى مهما يكن من شي بعد ، أي : بعد ما ذكرت ، فكذا وكذا .

قوله : (يمنعني كذا وكذا) . أي : يمنعه الحيـاء كمـا في رواية أخرى ، ولكن ليس الحياء من إنكار الباطـل ، ولكن من أن ينهى عنها دون أن يأمره اللـه بـذلك ، هـذا الـذي

يجب أن تحمل عليه هذه اللفظة إن كانت محفوظـة : أن الحياء الذي يمنعه ليس الحياء من الإنكـار ، لأن الرسـول صلى الله عليه وسلم لا يستحي من الحق ، ولكن الحيـاء من أن ينكر شيئا درج على الألسنة وألفه الناس قبل أن يؤمر بالإنكار ، مثـل الخمـر بقي النـاس يشـربونها حـتى حرمت في سورة المائدة ، فالرسول صلى الله عليه لمـا لم يؤمر بالنهي عنها سكت ، ولما حصل التنبيه على ذلك بإنكار هؤلاء اليهود والنصارى رأي صلى الله عليه وسـلم أنه لابد من إنكارها لدخول اللوم على المسلمين للنطـق بها .

قوله : (قولوا ما شاء الله وحده) . نهاهم عن الممنوع ، وبين لهم الجائز .

فيه مسائل :

الأولى : معرفة اليهود بالشـرك الأصـغر . لقولـه : (إنكم لتشركون) .

الثانية : فهم الإنسان إذا كان له هوى . أي : إذا كـان لـه هوى فهم شيئا ، وإن كان هو يرتكب مثله أو أشـد منـه ، فاليهود – مثلا – أنكروا على المسلمين قولهم : (ما شاء اللـه وشـئت) ، وهم يقولـون أعظم من هـذا ، يقولـون : عزيز ابن الله ، ويصفون الله تعالى بالنقائص والعيوب .

ومن ذلك بعض المقلدين يفهم النصوص على مـا يوافـق هـواه ، فتجـده يحمـل النصـوص على من الـدلالات مـا لا تحتمل ، كذلك أيضا بعض العصريين يحمل النصوص ما لا تحتمله حتى توافق ما اكتشـفه العلم الحـديث في الطب والفلك وغير ذلك ، وكـل هـذا من الأمـور الـتي لا يحمـد الإنسان عليها ، فالإنسـان يجب أن يفهم النصـوص على ما هي عليه، ثم يكون فهمه تابعـا لهـا ، فالإنسـان يجب أن يفهم النصوص على مـا هي عليـه ، ثم يكـون فهمـه تابعا لها ، لا أن يخضع النصوص لفهمـه أو لمـا يعتقـده ، ولهذا يقولون : استدل ثم اعتقد ، ولا تعتقد ثم تستدل ، لأنك إذا اعتقدت ثم استدللت ربما يحملك اعتقـادك على أن تحرف النصـوص إلى مـا تعتقـده كمـا هـو ظـاهر في جميع الملل والمذاهب المخالفة لما جاء به الرسول عليه

الصلاة والسلام ، تجدهم يحرفون هذه النصوص لتوافق ما هم عليه ، والحاصل أن الإنسان إذا كان له هوى ، فإنه يحمل النصوص ما لا تحتمله من أجل أن توافق هواه .

الثالثة : قوله صلى الله عليه وسلم : (أجعلتني لله ندا؟!) وهو قوله : (ما شاء وشئت) .
وقوله : (فكيف بمن قال : ما لي ألوذ به سواك ...) يشير رحمه الله إلى أبيات للبوصيري في البردة – القصيدة المشهورة -، يقول فيها :
يا أكرم الخلق ما لي من ألوذ به سواك عند حلول الحادث العمم
إن لم تكن آخذا يوم المعاد يدي عفوا وإلا فقل يا زلة القدم
فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح و القلم
وهذا غاية الكفر والغلو ، فلم يجعل لله شيئا ، والنبي صلى الله عليه وسلم شرفه بكونه عبد الله ورسوله ، لا مجرد كونه محمد بن عبد الله .
الرابعة : أن هذا ليس من الشرك الأكبر ، لقوله : (يمنعني كذا وكذا) لأنه لو كان من الشرك الأكبر ما منعه شي من إنكاره .
الخامسة : أن الرؤيا الصالحة من أقسام الوحي . تؤخذ من حديث الطفيل ، ولقوله صلى الله عليه وسلم : (الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة)[1] . لأن أول الوحي كان بالرؤيا الصالحة من ربيع الأول إلى رمضان، وهذا ستة أشهر ، فإذا نسبت هذا إلي بقية زمن الوحي ، كان جزءا من ستة وأربعين جزءا ، لأن الوحي كان ثلاثة وعشرين سنة وستة أشهر مقدمة له .
والرؤيا الصالحة : هي التي تضمن الصلاح ، وتأتي منظمة وليست بأضغاث أحلام .

---

[1] البخاري : كتاب التعبير / باب الرؤيا الصالحة ، ومسلم : كتاب الرؤيا ، (2265) .

أما أضغاث الأحلام ، فإنها مشوشة غـير منظمـة ، وذلـك مثل التي قصها رجل على النبي صلى اللـه عليـه وسـلم قـال : (إني رأيت رأسـي قـد قطـع ، وإني جعلت أشـتد وراءه سعيا . فقـال النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم : (لا تحـــدث النـــاس بتلاعب الشـــيطان بـــك في منامـــك)[2]، والغالب أن المرائي المكروهة من الشيطان ، قـال اللـه تعالى : (إنما النجوى من الشـيطان ليحـزن الـذين آمنـوا وليس بضـارهم شـيئا إلا بـإذن اللـه) (المجادلـة : 10) ولذلك أرشد النبي صـلى اللـه عليـه وسـلم لمن رأى مـا يكـره أن يتفـل عن يسـاره ، أو ينفث ثلاث مـرات ، وأن يقول : (أعوذ بالله من شر الشيطان ومن شر ما رأيت . وان يتحـول إلى الجـانب الآخـر ، وأن لا يخـبر أحـدا)[3] ، وفي رواية : (أمره أن يتوضأ وأن يصلي)[4] .

السادسة : أنه قد تكون سـببا لشـرع بعض الأحكـام ، من ذلك رؤيا إبراهيم عليه الصـلاة والسـلام أنـه يـذبح ابنـه ، وهذا الحديث ، وكذلك أثبت النبي صـلى اللـه عليـه رؤيـا عبـد بن زيـد في الأذان ، وقـال النـبي صـلى اللـه عليـه وسلم : (إنها رؤيا حق)[5]، وأبو بكر رضى اللـه عنـه أثبت رؤيـا من رأى ثـابت بن قيس بن شـماس، فقـال للـذي رآه : إنكم سـتجدون درعي تحت برمـة ، وعنـده فـرس يسـتن . فلمـا أصـبح الرجـل ذهب إلى خالـد بن الوليـد وأخـبره ، فـذهبوا إلى المكـان ورأوا الـدرع تحت البرمـة عندها الفرس[6]، فنفّذ أبوبكر وصيته؛ لوجد القرائن التي تدل على صدقها، لكن لو دلّت على ما يخـالف الشـريعة؛ فلا عبرة بها، ولا يلتفت إليها؛ لأنها ليست رؤيا صالحة.

---

[2] مسلم : كتاب الرؤيا / باب لا يحبر بتلاعب الشيطان في المنام .

[3] مسلم (كتاب الرؤيا) (2260)

[4] البخاري : كتاب التعبير / باب القيد في المنام .

[5] الإمام أحمد في (المسند) (4/43) ، وأبو داود : كتاب الصلاة / باب كيفية الأذان .

[6] الهيثمي في (مجمع الزوائد) (9/322)، وقال: (رواه الطبراني، ورجاله رجال الصحيح).

باب من سب الدهر

السبّ : الشتم، والتقبيح، والذم، وما أشبه ذلك.
الدَّهر : هو الزمان والوقت.
وسب الدهر ينقسم إلى ثلاثة أقسام:
الأول: أن يقصد الخبر المحض دون اللّوم، فهذا جائز، مثل أن يقول: تعبنا من شدة حر هذا اليوم أو برده، وما أشبه ذلك؛ لأن الأعمال بالنيات، ومثل هذا اللفظ صالح لمجرد الخبر، ومنه قول لوط عليه الصلاة والسلام: (هذا يوم عصيب) (هود: 77).
الثاني: أن يسب الدهر على أنه هو الفاعل، كأن يعتقد بسبِّه الدهر أن الدهر هو الذي يٌقلِّب الأمور إلى الخير والشر؛ فهذا شرك أكبر لأنه اعتقد أن مع الله خالقاً؛ لأنه نسب الحوادث إلى غير الله، وكل من اعتقد أن مع الله خالقاً؛ فهو كافر، كما أن من اعتقد أن مع الله إلهاً يستحق أن يٌعبَد؛ فإنه كافر.
الثالث: أن يسب الدهر لا لاعتقاد أنه هو الفاعل، بل يعتقد أن الله هو الفاعل، لكن يسبه لأنه محل لهذا الأمر المكروه عنده؛ فهذا محرم، ولا يصل إلى درجة الشرك، وهو من السَّفه في العقل والضلال في الدين؛ لأن حقيقة سبِّه تعود إلى الله –سبحانه-؛ لأن الله تعالى هو الذي يصرف الدهر ويكون فيه ما أراد من خير أو شر، فليس الدهر فاعلاً، وليس هذا السبب يٌكفِّر؛ لأنه لم يسب الله تعالى مباشرة.
قوله: (فقد آذى الله). لا يلزم من الأذية الضرر؛ فالإنسان يتأذى بسماع القبيح أو مشاهدته، ولكنه لا يتضرر بذلك، ويتأذى بالرائحة الكريهة كالبصل والثوم ولا يتضرر بذلك، ولهذا أثبت الله الأذية في القرآن، قال تعالى: (إن الذين يؤذون الله ورسوله لعنهم الله في الدنيا والآخرة وأعد لهم عذاباً مهيناً) (الأحزاب: 57)، وفي الحديث القدسي: (يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر وأنا الدهر، أقلب الليل والنهار)[1]، ونفى عن نفسه أن يضره شيء، قال تعالى: (إنهم لن يضروا الله شيئاً) (آل

---

[1] يأتي (ص 826).

عمران: 176)، وفي الحديث القدسي: (يا عبادي! إنكم لن تبلغوا ضري فتضروني)[2] رواه مسلم.

وقول الله تعالى : (وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ) (الجاثية:24)

* * *

قوله تعالى: (وقالوا ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا). المراد بذلك المشركون الموافقون للدُّهرية - بضم الدال على الصحيح عند النسبة؛ لأنه مما تغيّر فيه الحركة-، والمعنى وما الحياة والوجود إلا هذا؛ فليس هناك آخرة، بل يموت بعض ويحيا آخرون، هذا يموت فيدفن وهذا يولد فيحيا، ويقولون: إنها أرحام تدفع وأرض تبلع ولا شيء سوى هذا.

قوله: (وما يهلكنا إلا الدهر). أي: ليس هلاكنا بأمر الله وقدره، بل بطول السنين لمن طالت مدته، والأمراض والهموم والغموم لمن قصرت مدته؛ فالمهلك لهم هو الدهر.

قوله: (وما لهم بذلك من علم). (ما): نافية، و(علم): مبتدأ خبره مقدم (لهم)، وأكد بـ(من)؛ فيكون للعموم: أي ما لهم علم لا قليل ولا كثير، بل العلم واليقين بخلاف قولهم.

قوله: (إن هم إلا يظنون). (إن): هنا نافية لوقوع (إلا) بعدها؛ أي: ما هم إلا يظنون.

الظن هنا بمعنى الوهم؛ فليس ظناً مبنياً على دليل يجعل الشيء مظنوناً، بل هو مجرد وهم لا حقيقة له؛ فلا حجة لهم إطلاقاً، وفي هذا دليل على أن الظن يستعمل بمعنى الوهم، وأيضاً يستعمل بمعنى العلم واليقين؛ كقوله تعالى: (الذين يظنون أنهم ملاقو ربهم) (البقرة: 46).

---

[2] مسلم: كتاب البر والصلة / باب تحريم الظلم.

والرد على قولهم بما يلي:
أولاً: قولهم: (وما هي إلى حياتنا الدنيا نموت ونحيا).
وهذا يرده المنقول والمعقول.
أما المنقـول؛ فالكتـاب والسـنة تـدل على ثبـوت الآخـرة ووجـوب الإيمـان بـاليوم الآخـر، وأن للعبـاد حيـاة أخـرى سوى هذه الحياة الدنيا، والكتب السماوية الأخـرى تقـرر ذلك وتؤكده.
وأمـا المعقـول، فـإن الله فـرض على النـاس الإسـلام والدعوة إليه والجهاد لإعلاء كلمة اللـه، مـع مـا في ذلـك من استباحة الدماء والأموال والنساء والذرية، فمن غـير المعقول أن يكون الناس بعد ذلك تُرابـاً لا بعث ولا حيـاة ولا ثواب ولا عقاب، وحكمة الله تأبى هـذا، قـال تعـالى: (إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلى معاد) (القصص: 85)؛ أي: الـذي أنـزل عليـك القـرآن وفـرض العمـل بـه والدعوة إليه لابد أن يردك إلى معاد تجازى فيـه ويجـازى فيه كل من بلغته الدعوة.
ثانيـاً: قـولهم: (ومـا يهلكنـا إلا الـدهر)؛ أي: إلا بمـرور الزمن.
وهذا يرده المنقول والمحسوس:فأما المنقول؛ فالكتاب والسنة تدل على أن الإحياء والإماتة بيد الله –عز وجـل-؛ كما قال الله تعالى: (هـو يٌحـيي ويٌميت وإليـه تٌرجَعـون) (يونس: 56)، وقـال عن عيسـى عليـه الصـلاة والسـلام: (وأحيي الموتى بإذن الله) (آل عمران: 49).
وأما المحسوس؛ فإننا نعلم من يبقى سنين طويلـة على قيد الحياة؛ كنوح عليه السلام وغـيره ولم يهلكـه الـدهر، ونشاهد أطفـالاً يموتـون في الشـهر الأول من ولادتهم، وشباباً يموتون في قوة شبابهم؛ فليس الدهر هـو الـذي يميتهم.
مناسبة الآية للباب:
أن في الآية نسب الحوادث إلى الـدهر، ومن نسـبها إلى الدهر؛ فسوف يَسٌبٌّ الدهر إذا وقع فيه ما يكرهه.

وفي الصحيح عن أبي هريرة عن النبي صـلى اللـه عليـه وسلم ، قال : (قال الله تعالى : يؤذيني ابن آدم ، يسب الدهر وأنا الدهر أقلب الليل والنهار)[1]

* * *

قوله: (وفي الصحيح) عن أبي هريرة... إلى آخـره). هـذا الحديث يُسـمى الحـديث القدسـي أو الإلهي أو الربـاني، وهو كل ما يرويه النبي صلى الله عليه وسـلم عن ربـه - عز وجل-، وسبق الكلام عليه في باب فضل التوحيد ومـا يكفر الذنوب.

قوله: (قال اللـه تعـالى). تعـالى من العلـو، وجـاءت بهذه الصيغة للدلالة على ترَفُّعِه -جل وعلا- عن كل نقص وسـفل؛ لأنهـا تحمـل معـنى التَّرَفُّع والتَّنَـزُّه عمـا يقولـه المعتدون علواً كبيراً.قوله: (يؤذيني ابن آدم). أي: يلحق بي الأذى؛ فالأذية لله ثابتة ويجب علينا إثباتهـا؛ لأن اللـه أثبتها لنفسها، فلسنا أعلم من الله بالله، ولكنهـا ليسـت كأذية المخلوق؛ بدليل قولـه تعـالى: (ليس كمثلـه شـيء وهو السـميع البصـير) (الشـورى: 11) وقـدم النفي في هذه الآية على الإثبـات، لأجـل أن يـرد الإثبـات على قلب خال من توهم المماثلة، ويكون الإثبات حينئذ على الوجه اللائق به تعالى، وأنه لا يماثل في صـفاته كمـا لا يماثـل في ذاتـه، وكـل مـا وصـف اللـه بـه نفسـه؛ فليس فيـه احتمال للتمثيل؛ إذ لـو كـان احتمـال التمثيـل جـائزاً في كلامه سبحانه وكلامِ رسوله فيما وصف به نفسـه؛ لكـان احتمال الكفر جائزاً في كلامه سبحانه وكلام رسوله.

قوله: (ابن آدم). شامل للذكور والإناث، وآدم هو أبو البشر، خلقه الله تعـالى من طين وسـواه ونفخ فيـه من روحه وأسجد له الملائكة وعلَّمَه الأسماء كلها.

---

[1] البخـاري كتـاب التوحيد / بـاب قوله تعـالي: (يريـدون أن يبـدلوا كلام الله) تفسير سورة الجاثية ومسلم : كتاب الألفاظ / باب النهي عن سب الدهر .

واعلم أنه من المؤسف أنه يوجد فكرة مضلة كافرة، وهي أن الآدميين نشؤوا من قرد لا من طين، ثم تطور الأمر بهم حتى صاروا على هذا الوصف، ويمكن على مر السنين أن يتطوروا حتى يصيروا ملائكة، وهذا القول لا شك أنه كفر وتكذيب صريح للقرآن؛ فيجب علينا أن ننكره إنكاراً بالغاً، وأن لا نقره في كتب المدارس، فمن زعم هذه الفكرة يُقال له: بل أنت قرد في صورة إنسان، ومثلك كما قال الشاعر:

إذا ما ذكرنا آدماً وفعاله وتزويجه بنتيه بابنيه في الخنا

علمنا بأن الخلق من نسل فاجر وأن جميع الناس من عنصر الزنا

وأجابه بعض العلماء بجواب؛ فقال: أنت الآن أقررت أنك ولد زنا، وإقرارك على نفسك مقبول وعلى غيرك غير مقبول، ومثلك كما قال الشاعر:

كذلك إقرار الفتى لازم له وفي غيره لغوُ كما جاء شرعٌنا

ولكن أنا في الحقيقة يؤلمني أن يوجد هذا بين أيدي شبابنا؛ فبعض الناس أخذوا به على أنه أمر محتمل، والواقع أنه لا يحتمل سوى البطلان والكذب والدس على المسلمين بالتشكيك بما أخبرهم الله به عن خلق آدم وبنيه.

وأيضاً مما يحذر عنه كلمة (فكر إسلامي)؛ إذ معنى هذا أننا جعلنا الإسلام عبارة عن أفكار قابلة للأخذ والرد، وهذا خطر عظيم أدخله علينا أعداء الإسلام من حيث لا نشعر، والإسلام شرع من عند الله وليس فكراً لمخلوق.

قوله: (يسب الدهر). الجملة تعليل للأذية أو تفسير لها؛ أي: بكونه يسب الدهر؛ أي: يشتمه ويُقَبِّحُه ويلومه وربما يلعنه –والعياذ بالله- يؤذي الله، والدهر: هو الزمن والوقت، وقد سبق بيان أقسام سب الدهر.

قوله: (وأنا الدهر). أي: مُدبِّر الدهر ومُصَرِّفه، لقوله تعالى: (وتلك الأيام نداولها بين الناس) (آل عمران: 140)، ولقوله في الحديث: (أقلب الليل والنهار)، والليل والنهار هما الدهر.

ولا يقال بأن الله هو الدهر نفسه، ومن قال ذلك؛ فقد جعل الله مخلوقاً، والمقلِّب بكسر اللام مقلَّباً بفتح اللام.

فإن قيل: أليس المجاز ممنوعاً في كلام الله وكلام رسوله وفي اللغة؟

أجيب: إن الكلمة حقيقة في معناها الذي دل عليه السياق والقرائن، وهنا في الكلام المحذوف تقديره: وأنا مُقلب الدهر؛ لأنه فسره بقوله: (أقلب الليل والنهار)، والليل والنهار هما الدهر، ولأن العقل لا يمكن أن يجعل الخالق الفاعل هو المخلوق المفعول، المقلب هو المقلب، وبهذا عرف خطأ من قال: إن الدهر من أسماء الله، كابن حزم رحمه الله؛ فإنه قال: (إن الدهر من أسماء الله)، وهذا غفلة عن مدلول هذا الحديث، وغفلة عن الأصل في أسماء الله، فأما مدلول الحديث؛ فإن السابين للدهر لم يريدوا سب الله، وإنما أرادوا سبَّ الزمن؛ فالدهر هو الزمن في مرادهم، وأما الأصل في أسماء الله؛ أن تكون حسنى؛ أي: بالغة في الحسن أكمله، فلابد أن تشتمل على وصف ومعنى هو أحسن ما يكون من الأوصاف والمعاني في دلالة هذه الكلمة، ولهذا لا تجد في أسماء الله تعالى اسماً جامداً أبداً؛ لأن الاسم الجامد ليس فيه معنى أحسن أو غير أحسن، لكن أسماء الله كلها حسنى؛ فيلزم من ذلك أن تكون دالة على معان، والدهر اسم من أسماء الزمن ليس فيه معنى إلا أنه اسم زمن، وعلى هذا؛ فينتفي أن يكون اسماً لله تعالى لوجهين:

الأول: أن سياق الحديث يأباه غاية الإباء.

الثاني: أن أسماء الله حسنى، والدهر اسم جامد لا يحمل معنى إلا أنه اسم للأوقات.

فلا يحكم المعنى الذي يوصف بأنه أحسن، وحينئذ فليس من أسماء الله تعالى، بل إنه الزمن، ولكن مقلب الزمن هو الله، ولهذا قال: (أقلب الليل والنهار).

قوله: (أقلب الليل والنهار). أي: ذواتهما وما يحدث فيهما؛ فالليل والنهار يُقَلَّبان من طول إلى قصر إلى تساوٍ، والحوادث تتقلب فيه في الساعة وفي اليوم

وفي الأسبوع وفي الشهر وفي السنة، قال تعالى: (قل اللهم مالك الملك تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شيء قدير) (آل عمران: 26)، وهذا أمر ظاهر، وهذا التقليب له حكمة قد تظهر لنا وقد لا تظهر؛ لأن حكمة الله أعظم من أن تحيط بها عقولنا، ومجرد ظهور سلطان الله –عز وجل- وتمام قدرته هو من حكمة الله لأجل أن يخشى الإنسان صاحب هذا السلطان والقدرة، فيتضرع ويلجأ إليه.

قوله: (وفي رواية: لا تسبوا الدهر؛ فإن الله هو الدهر). وفائدة هذه الرواية أن فيها التصريح في النهي عن سب الدهر.

قوله: (فإن الله هو الدهر). وفي نسخة: (فإن الدهر هو الله)، والصواب: (فإن الله هو الدهر).

وقوله: (فإن الله هو الدهر)؛ أي: فإن الله هو مدبر الدهر ومصرفه، وهذا تعليل للنهي، ومن بلاغة كلام الله ورسوله قرن الحكم بالعلة لبيان الحكمة وزيادة الطمأنينة، ولأجل أن تتعدى العلة إلى غيرها فيما إذا كان المٌعَلَّل حكماً؛ فهذه ثلاث فوائد في قَرن العلة بالحكم.

* * *

فيه مسائل:

الأولى: النهي عن سب الدهر. لقوله: (لا تسبوا الدهر).

الثانية: تسميته أذى لله. تؤخذ من قوله: (يؤذيني ابن آدم).

الثالثة: التأمل في قوله: فإن الله هو الدهر. فإذا تأملنا فيه وجدنا أن معناه أن الله مٌقَلِّب الدهر ومٌصَرِّفه وليس معناه أن الله هو الدهر، وقد سبق بيان ذلك.

الرابعة: أنه قد يكون ساباً ولو لم يقصده بقلبه. تؤخذ من قوله: (يؤذيني ابن آدم، يسب الدهر)، ولم يذكر قصداً ولو عَبَّر الشيخ بقوله: أنه قد يكون مؤذياً لله وإن لم يقصده؛ لكان أوضح وأصح، لأن الله صرح بقوله: (يسب الدهر)، والفعل لا يضاف إلا لمن قصده.

وقد فات على الشيخ رحمـه اللـه بعض المسـائل، منهـا: تفسير آية الجاثية، وقد سبق ذلك.

باب التسمي بقاضي القضاة ونحوه

قوله: (باب التسمي بقاضي القضاة). أي: وضع الشخص لنفسه هذا الاسم، أو رضاه به من غيره.

قوله: (قاضي القضاة). قاضي: بمعنى حاكم، والقضـــاة؛ أي: الحكام، و(أل) للعموم.

والمعـنى: التسـمي بحـاكم الحكـام ونحـوه، مثـل ملـك الأملاك، وسلطان السلاطين، وما أشـبه ذلـك، ممـا يـدل على النفوذ والسـلطان؛ لأن القاضـي جمـع بين الإلـزام والإفتـاء، بخلاف المفـتي؛ فهـو لا يٌلـزم، ولهـذا قـالوا: القاضـي جمـع بين الشـهادة، والإلـزام، والإفتـاء؛ فهـو يشهد أن هذا الحكم حكم اللـه، وأن الحـــق للمحكـوم لـه على المحكـوم عليـه، ويفـتي؛ أي : يخـبر عن حكم اللـه وشرعه، ويٌلزم الخصمين بما حكم به.

*** مناسبة الباب لكتاب التوحيد:**

أن من تسمى بهذا الاسم؛ فقد جعـل نفسـه شـريكاً مع الله فيما لا يستحقه إلا الله؛ لأنـه لا أحـد يسـتحق أن يكون قاضي القضاة أو حاكم الحكـام أو ملـك الأملاك إلا الله –سبحانه وتعالى-؛ فالله هو القاضي فوق كل قاض، وهو الذي له الحكم، ويٌرجع إليه الأمر كله كمـا ذكـر اللـه ذلك في القرآن.

وقد تقدم أن قضاء الله ينقسم إلى قسمين:

1- قضاء كوني .

2- قضاء شرعي.

والقضاء الكوني لابد من وقوعه، ويكون فيمـا أحب اللـه وفيما كرهه، قال تعالى: (وقضينا إلى بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مـرتين) (الإسـراء: 4)؛ فهـذا قضـاء كـوني متعلـق بمـا يكرهـه اللـه؛ لأن الفسـاد في

الأرض لا يحبـه اللـه، والله لا يحب المفسدين، وهـذا القضاء الكوني لابد أن يقع ولا معارض له إطلاقاً.

وأما النوع الثاني من القضاء، وهو القضاء الشرعي؛ فمثـل قولـه تعـالى: (وقضـى ربـك ألا تعبـدوا إلا إيـاه وبالوالدين إحسانا) (الإسراء: 23)، والقضـاء الشـرعي لا يلزم منه وقوع المقضي، فقـد يقـع وقـد لا يقـع، ولكنـه متعلق فيما يحبه الله، وقد سبق الكلام عن ذلك.

فـإن قلت: إذا أضـفنا القضـاة وحصـرناها بطائفـة معينـة، أو ببلـد معين، أو بزمـان معين، مثـل أن يٌقـال: قاضـي القضـاة في الفقـه، أو قاضـي قضـاة المملكـة العربية السعودية، أو قاضي قضاة مصر أو الشام، أو مـا أشبه بذلك؛ فهل يجوز هذا؟

فالجواب: أن هذا جائز؛ لأنه مٌقَيَّد، ومعلوم أن قضـاء اللـه لا يتقيـد، فحينئـذ لا يكـون فيـه مشـاركة للـه -عـز وجل-، على أنه لا ينبغي أيضاً أن يتسمى الإنسـان بـذلك أو يٌسـمَّى بـه وإن كـان جـائزاً؛ لأن النفس قـد تصـعب السـيطرة عليهـا فيمـا إذا شـعر الإنسـان بأنـه موصـوف بقاضـي قضـاة الناحيـة الفلانيـة، فقـد يأخـذه الإعجـاب بـالنفس والغـرور حـتى لا يقبـل الحـق إذا خـالف قولـه، وهذه مسألة عظيمة لها خطرها إذا وصلت بالإنسان إلى الإعجـاب بـالرأي بحيث يـرى أن رأيـه مفـروض على من سواه؛ فإن هذا خطر عظيم، فمع القول بأن ذلك جائز لا ينبغي أن يقبله اسماً لنفسه أو وصفاً له، ولا أن يتسمى به.

فإذا قٌيِّد بزمان أو مكـان ونحوهمـا؛ قلنـا: إنـه جـائز، ولكن الأفضل ألا يفعـل، ولكن إذا قٌيِّد بفن من الفنـون؛ هل يكون جائزاً؟

مقتضى التقييد أن يكون جائزاً، لكن إن قٌيِّد بالفقـه بـأن قيل: (عالم العلماء في الفقه)، وقلنا: إن الفقه يشـمل أصول الدين وفروعه على حد قول الرسـول صـلى اللـه عليـه وسـلم: (من يـرد اللـه بـه خـيراً فليفقهـه في الدين)[1]؛ صار فيه عموم واسـع، ومعـنى هـذا أن مرجـع

---

[1] البخاري: كتاب العلم/ باب من يرد الله به خيراً، ومسلم: كتاب الزكاة/ باب النهي عن المسألة.

الناس كلهم في الشرع إليه؛ فهذا في نفسي منه شيء، والأولى التنزه عنه.
وأما إن قُيِّد بقبيلة؛ فهو جائز، لكن يجب مع الجواز مراعاة جانب الموصوف أن لا يغتر ويُعجب بنفسه، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم للمادح: (قطعت عنق صاحبك)[2].
وأما التسمي بـ(شيخ الإسلام)؛ مثل أن يُقال: شيخ الإسلام ابن تيمية، أو شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب، أي أنه الشيخ المطلق الذي يرجع إليه الإسلام؛ فهذا لا يصح؛ إذ أن أبا بكر رضي الله عنه أحق بهذا الوصف؛ لأنه أفضل الخلق بعد النبيين، ولكن إذا قُصد بهذا الوصف أنه جَدَّد في الإسلام وحصل له أثر طيب في الدفاع عنه؛ فلا بأس بإطلاقه.
وأما بالنسبة للتسمية بـ(الإمام)؛ فهو أهون بكثير من التسمي بـ(شيخ الإسلام)؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم سمى إمام المسجد إماماً ولو لم يكن عنده إلا اثنان.
لكن ينبغي أن ينبه أنه لا يتسامح في إطلاق كلمة إمام إلا على من كان قدوة وله أتباع؛ كالإمام أحمد والبخاري ومسلم وغيرهم ممن له أثر في الإسلام؛ لأن وصف الإنسان بما لا يستحق هضم للأمة، لأن الإنسان إذا تصور أن هذا إمام وهذا إمام هان الإمام الحق في عينه، قال الشاعر:
ألم تر أن السيف ينقص قدره   إذا قيل إن السيف أمضى من العصا
ومن ذلك أيضاً: (آية الله، حجة الله، حجة الإسلام)؛ فإنها ألقاب حادثة لا تنبغي لأنه لا حجة لله على عباده إلا الرسل.
وأما آية الله، فإن أُريد به المعنى الأعم؛ فلا مدح فيه لأن كل شيء آية لله ، كما قيل:
وفي كل شيء له آية   تدل على أنه واحد
وإن أريد المعنى الأخص؛ أي: أن هذا الرجل آية خارقة؛ فهذا في الغالب يكون مبالغاً فيه، والعبارة

---

[2] البخاري: كتاب الأدب/ باب ما يكره من التمادح، ومسلم: كتاب الزهد/ باب النهي عن المدح إذا كان فيه إفراط.

السليمة أن يقال: عالم مفت، قاض، حاكم، إمام لم كان مستحقاً لذلك.

*** ****

قوله (في الصحيح) انظر الكلام عليها (ص 146)

قوله: (إن أخنع اسم). أي: أوضع اسم، والمراد بالاسم المسمى، فأوضع اسم عند الله رجل تسمى ملك الأملاك، لأنه جعل نفسه في مرتبة عليا، فالملوك أعلى طبقات البشر من حيث السلطة؛ فجعل مرتبته فوق مرتبتهم، وهذا لا يكون إلا لله -عز وجل-، ولهذا عوقب بنقيض قصده؛ فصار أوضع اسم عند الله إذا قصده أن يتعاظم حتى على الملوك، فأُهين، ولهذا كان أحبُّ اسم عند الله ما دل على التذلل والخضوع، مثل: عبدالله وعبدالرحمن، وأبغض اسم عند الله ما دل على الجبروت والسلطة والتعظيم.

قوله: (لا مالك إلا الله). أي لا مالك على الحقيقة الملك المطلق إلا الله تعالى.

وأيضاً لا ملك إلا الله -عز وجل-، ولهذا جاءت آية الفاتحة بقراءتين: (ملك يوم الدين) و(مالك يوم الدين) (الفاتحة: 4)؛ لكي يجمع بين الملك وتمام السلطان؛ فهو -سبحانه- ملك مالك، ملك ذو سلطان وعظمة وقول نافذ، ومالك متصرف مدبر لجميع مملكته.

فالله له الخلق والملك والتدبير؛ فلا خالق إلا الله، ولا مدبر إلا الله، ولا مالك إلا الله، قال تعالى: (هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء والأرض) (فاطر: 3)؛ فالاستفهام بمعنى النفي، وقد أشرب معنى التحدي، أي إن وجدتموه فهاتوه، وقال تعالى: (إن ربك هو الخلاق العليم) (الحجر: 86) فيها توكيد وحصر، وهذا دليل انفراده بالخلق، وقال تعالى: (إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له) (الحج: 73)؛ فـ(الذين): اسم موصول يشمل كل من يُدعى من دون الله (لن يخلقوا ذباباً)، وهذا على سبيل المبالغة؛ وما كان على سبيل المبالغة؛ فلا مفهوم له كثرة أو قلة.

وقال تعالى: (تبارك الذي بيـده الملـك) (الملـك: 1)، وقال تعالى: (قل اللهم مالك الملـك) (آل عمـران: 26)، وهذا دليل انفراده بالملك، وقال تعالى:
(قــل من يــرزقكم من الســماء والأرض أم من يملــك السـمع والأبصــار ومن يخــرج الحي من الميت ويخــرج الميت من الحي ومن يــدبر الأمــر فســيقولون اللــه) (يونس: 31)، وقـال تعـالى: (قـل من بيـده ملكـوت كـل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن كنتم تعلمون سيقولون الله) (المؤمنون: 88).

قال سفيان : (مثل شـاهان شـاه) وفي روايـة (أغيـظ رجل على الله يوم القيامة ةأخبثه)[1]
قوله : (أخنع) يعني : أوضع

***   *   ***

قولـه: (قال سفيان (هوابن عيينة): مثل شـاهان شـاه). وهذا يدل باللغة الفارسية؛ فشاهان: جمع بمعنى أملاك، وشاه مفرد بمعنى ملك، والتقدير أملاك ملـك؛ أي: ملـك الأملاك، لكنهم في اللغـة الفارسـية يقـدمون المضـاف إليه على المضاف.
قوله: وفي رواية: (أغيـظ رجـل على اللـه يـوم القيامـة وأخبثه).
أغيظ: من الغيظ وهو الغضب؛ أي: إن أغضـب شـيء عند الله –عز وجل- وأخبثه هو هذا الاسم، وإذا كان سبباً لغضب الله وخبيثاً؛ فإن التسمي به من الكبائر.
وقوله : (أغيظ). فيه إثبات الغيـظ للـه – عـز وجـل-؛ فهي صفة تليق باللـه –عـز وجـل- كغيرهـا من الصـفات، والظاهر أنها أشد من الغضب.

الرابعة: التفطن أن هذا لأجل اللـه –سـبحانه-. يؤخـذ من قوله: (لا مالك إلا الله)؛ فالرسول صلى الله عليه وسلم

---

[1] ومسلم كتاب الآداب / باب تحريم التسمي بملك الأملاك

أشار إلى العلة، وهي: (لا مالك إلا الله)؛ فكيف تقول : ملك الأملاك وهو لا مالك إلا الله –عز وجل-؟!
*** الفرق بين ملك ومالك:**
ليس كل ملك مالكاً، وليس كل مالك ملكاً؛ فقد يكون الإنسان ملكاً، ولكنه لا يكون بيده التدبير، وقد يكون الإنسان مالكاً ويتصرف فيما يملكه فقط؛ فالملكُ من ملك السلطة المطلقة، لكن قد يملك التصرف فيكون ملكاً مالكاً، وقد لا يملك فيكون ملكاً وليس بمالك، أما المالك؛ فهو الذي له التصرف بشيء معين؛ كمالك البيت، ومالك السيارة وما أشبه ذلك ؛ فهذا ليس بملك؛ يعني: ليس له سلطة عامة.
ويستفاد من الحديث أيضاً:
1- إثبات صفة الغيظ لله –عز وجل-، وأنه يتفاضل لقوله: (أغيظ)، وهو اسم تفضيل.
2- حكمة الرسول صلى الله عليه وسلم في التعليم؛ لأنه لما بيّن أن هذا أخنع اسم وأغيظه أشار إلى العلة، وهو: (لا مالك إلا الله)، وهذا من أحسن التعليم والتعبير، ولهذا ينبغي لكل إنسان يعلم الناس أن يقرن الأحكام بما تطمئن إليه النفوس من أدلة شرعية أو علل مرعية، قال ابن القيم:

العلم معرفة الهدى بدليله ... ما ذاك والتقليد يستويان

فالعلم أن تربط الأحكام بأدلتها الأثرية أو النظرية؛ فالأثرية ما كان من كتاب أو سنة أو إجماع، والنظرية: العقلية؛ أي: العلل المرعية التي يعتبرها الشرع.

باب احترام أسماء الله .... إلخ

أسماء الله –عز وجل- هي: التي سمَّى بها نفسه أو سمَّاه بها رسوله صلى الله عليه وسلم. وقد سبق لنا الكلام فيها في مباحث كثيرة ، منها:
هل أسماء الله مترادفة أو متباينة؟

وقلنا باعتبار دلالتها على الذات مترادفة؛ لأنها تدل على ذات واحدة، وهو الله –عـز وجـل-، وباعتبـار دلالتهـا على المعنى والصفة التي تحملها متباينة، وإن كان بعضها قد يدل على ما تضمَّنه الآخر من بـاب دلالـة اللـزوم؛ فمثلاً: (الخلاق) يتضمن الدلالـة على العلم المسـتفاد من اسـم العليم، لكنه بالالتزام، وعلى القدرة المستفادة من اسم التقدير، لكن بالالتزام.

الثاني: هـل أسـماء اللـه مشـتقة أو جامـدة (يعـني: هـل المـراد بهـا الدلالـة على الـذات فقـط، أو على الـذات والصفة)؟

الجواب: على الـذات والصـفة، أمـا أسـماؤنا نحن؛ فـيراد بها الدلالة على الذات فقط، فقد يُسمّى محمداً وهو من أشد الناس ذماً، وقد يسمى عبدالله وهو من أفجـر عبـاد الله.

أما أسماء الله –عز وجـل-، وأسـماء الرسـول صـلى اللـه عليه وسلم، وأسماء القرآن، وأسـماء اليـوم الآخـر، ومـا أشبه ذلك؛ فإنها أسماء متضمنة للأوصاف.

الثالث: أسماء الله بعضها معلوم لنا وبعضها غـير معلـوم بدليل قول الرسول صلى الله عليـه وسـلم في الحـديث الصحيح في دعاء الكرب: (أسألك اللهم بكل اسم هو لـك سميت به نفسك، أو أنزلته في كتابك، أو علّمته أحداً من خلقك، أو استـأثرت بـه في علم الغيب عنـدك: أن تجعـل القـرآن ربيـع قلـبي....)[1]. ومعلـوم أن مـا اسـتأثر اللـه بعلمه لا يعلمه أحد.

الرابع: أسماء الله؛ هل هي محصورة بعدد معين؟

والجـواب: غـير محصـورة، وقـد سـبق الكلام على ذلـك، والجواب عن قوله صلى الله عليه وسلم: (إن للـه تسـعة وتسعين اسماً، من أحصاها دخل الجنة)[2].

الخـامس: أن هـذه التسـعة والتسـعين غـير معينـة، بـل موكولة لنا لنبحث حتى نحصـل على التسـعة والتسـعين، وهذا من حكمة إبهامها لأجل البحث حتى نصل إلى هــذه الغاية، ولهـذا نظـائر، منهـا: أن اللـه أخفى ليلـة القـدر،

---

[1] تقدم (ص 768).

[2] تقدم (ص 768).

وساعة الإجابة يوم الجمعـة، وسـاعة الإجابـة في الليـل؛ ليجتهد الناس في الطلب.
السـادس: معـنى إحصـاء هـذه التسـعة والتسـعين الـذي يترتب عليه دخـول الجنـة ليس معـنى ذلـك أن تكتب في رقاع ثم تكرر حتى تحفظ فقط، ولكن معنى ذلك:
أولاً : الإحاطة بها لفظاً .
ثانياً : فهمها معنىً.
ثالثاً : التعبد لله بمقتضاها، ولذلك وجهان:
الوجـه الأول : أن تـدعو اللـه بهـا؛ لقولـه تعـالى: (وللـه الأسـماء الحسـنى فأدعـوه بهـا) (الأعـراف:180) بـأن تجعلهـا وسـيلة إلى مطلوبـك، فتختـار الاسـم المناسـب لمطلوبك، فعند سؤال المغفرة تقـول: يـا غفـور! وليس من المناسب أن تقول: يا شديد العقـاب! اغفـر لي، بـل هذا يشبه الاستهزاء، بل تقول: أجرني من عقابك.
الوجه الثاني : أن تتعرض في عبادتـك لمـا تقتضـيه هـذه الأسـماء؛ فمقتضـى الـرحيم الرحمـة، فاعمـل العمـل الصالح الذي يكون جالباً لرحمـة اللـه، ومقتضـى الغفـور المغفرة، إذاً افعل ما يكون سبباً في مغفرة ذنوبك، هـذا هو معنى إحصائها، فإذا كان كذلك؛ فهو جدير لأن يكـون ثمناً لدخول الجنة، وهذا الثمن ليس على وجـه المقابلـة، ولكن على وجـه السـبب؛ لأن الأعمـال الصـالحة سـبب لـدخول الجنـة وليسـت بـدلاً، ولهـذا ثبت في الحـديث الصـحيح عن النـبي صـلى اللـه عليـه وسـلم قولـه: (لن يدخل الجنة أحد بعمله. قـالوا: ولا أنت يـا رسـول اللـه؟! قال: ولا أنا؛ إلا أن يتغمدني الله برحمته)[1].
فلا تغتر يا أخي بعملك،ولا تعجب فتقول: أنـا عملت كـذا وكذا وسوف أدخل الجنة، قال تعـالى: (يمنـون عليـك أن أسلموا قل لا تمنوا عليّ إسلامكم بل الله يمن عليكم أن هداكم للإيمان) (الحجرات: 17)، هذا باعتبار ما نراه نحن نحو أعمالنا؛ فيجب أن نرى لله المنة والفضل علينا، لكن باعتبـار الجـزاء، قـال تعـالى: (هـل جـزاء الإحسـان إلا الإحسان) (الرحمن: 60)؛ فتؤمن بأن اللـه تعـالى يجـزي الإحسان بالإحسان.

---
(1) البخاري: كتاب الرقاق/ باب القصد والمداومة، ومسلم: كتاب المنافقين/ باب لن يدخل أحد الجنة بعمله.

السابع : أسماء الله –عز وجل- ودلالتها على الذات والصفة جميعاً دلالة مطابقة، ودلالتها على الذات وحدها أو على الصفة وحدها دلالة تضمّن، ودلالتها على أمر خارج دلالة التزام.
مثال ذلك: (الخلاق) دلّ على الذات، وهو الرب –عز وجل-، وعلى الصفة وهي الخلق جميعاً دلالة مطابقة، ودل على الذات وحدها أو على الصفة وحدها دلالة تضمن، ودلّ على القدرة والعلم دلالة التزام.
الثامن: أسماء الله –عز وجل- لا يتم الإيمان بها إلا بثلاثة أمور إذا كان الاسم متعدياً: الإيمان بالاسم اسماً لله، والإيمان بما تضمنه من صفة، وما تضمنه من أثر وحكم؛ فالعليم مثلاً لا يتم الإيمان به حتى نؤمن بأن العليم من أسماء الله، ونؤمن بما تضمنه من صفة العلم، ونؤمن بالحكم المترتب على ذلك ، وهو أنه يعلم كل شيء، وإذا كان الاسم غير متعد؛ فنؤمن بأنه من أسماء الله وبما يتضمنه من صفة.
التاسع : أن من أسماء الله ما يختص به؛ مثل الله، الرحمن، رب العالمين، وما أشبه ذلك، ومنها ما لا يختص به، مثل: الرحيم، السميع، العليم، قال تعالى: (إنّا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً) (الإنسان : 2)، وقال تعالى عن النبي صلى الله عليه وسلم: (بالمؤمنين رؤوف رحيم) (التوبة: 128)[2].
قوله : (باب احترام أسماء الله). أي: وجوب احترام أسماء الله، لأن احترامها احترام لله –عز وجل- ومن تعظيم الله –عز وجل-؛ فلا يسمى أحد باسم مختص بالله، وأسماء الله تنقسم إلى قسمين:
الأول : ما لا يصح إلا لله ، فهذا لا يُسمَّى به غيره، وإن سُمِّيَ وجب تغييره؛ مثل: الله، الرحمن، رب العالمين، وما أشبه ذلك.
الثاني: ما يصح أن يوصف به غير الله؛ مثل: الرحيم، والسميع، والبصير، فإن لوحظت الصفة منع من التسمي به، وإن لم تلاحظ الصفة جاز التسمي به على أنه علم محض.

---

[2] انظر أيضاً : (رسالة القواعد المثلى) للمؤلف حفظه الله.

عن أبي شريح أنه كان يكني أبا الحكم ، فقال لـه النـبي صلى الله عليه وسلم : (إن الله هو الحكم وإليه الحكم) فقال ‘ن قومي إذا اختلفـوا في شـيء أتـوني ، فحكمت بينهم فرضي كلا الفريقين ، فقال : ما أحسن هذا ! فما لك من الولد ؟ قلت : شريح ، ومسلم ، وعبد الله . قال : (قلت : شريح . قال : (فأنت أبو شريح) رواه أبو داوود وغيره [1]

**** ***

قوله : (عن أبي شريح) هو هـاني بن يزيـد الكنـدي، جـاء وافداً إلى النبي صلى الله عليه وسلم مع قومه.

وقوله: يكنى أبا الحكم. أي ينادى به. والكنية ما صدر بـأب أو أم أو أخ أو عم أو خـال، وتكـون للمـدح كمـا في هـذا الحـديث، وتكـون للـذم كـأبي جهـل، وقـد تكـون لمصاحبة الشـيء مثـل : أبي هريـرة، وقـد تكـون لمجـرد العلمية كـأبي بكـر رضـي اللـه عنـه، وأبي العبـاس شـيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله، لأنه ليس له ولد.

قوله: (إن الله هو الحَكم وإليه الحُكم). (هـو الحكم)؛ أي: المسـتحق أن يكـون حاكمـاً على عبـاده، حاكمـاً بالفعـل، يدل له قوله: (وإليه الحكم).

وقوله: (وإليـه الحكم). الخـبر جـار ومجـرور مقـدم، وتقديم الخبر يفيد الحصر، وعلى هذا يكون الحكم راجعاً إلى الله وحده.

وحكم الله ينقسم إلى قسمين:

الأول: كـوني، وهـذا لا راد لـه؛ فلا يسـتطيع أحـد أن يرده، ومنه قوله تعالى: (فلن أبرح الأرض حتى يـأذن لي أبي أو يحكم الله لي وهو خير الحاكمين) (يوسف: 80).

الثاني : شرعي، وينقسم النـاس فيـه إلى قسـمين: مؤمن وكافر؛ فمن رضيه وحكم به فهـو مـؤمن، ومن لم

---

[1] أبو داوود : كتاب الأدب / باب تغيير الاسم القبيح ، والنسائي : كتاب القضاء / باب إذا حكموا رجلا فقضي بينهم .

يرض به ولم يحكم به فهو كافر، ومنه قوله تعالى: (وما اختلفتم فيه من شيء فحكمه إلى الله) (الشورى: 10)

وأما قوله : (أليس الله بأحكم الحاكمين) (التين: 8)، وقوله تعالى : (ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون) (المائدة: 50)؛ فهو يشمل الكوني والشرعي، وإن كان ظاهر الآية الثانية أن المراد الحكم الشرعي؛ لأنه في سياق الحكم الشرعي، والشرعي يكون تابعاً للمحبة والرضا والكراهة والسخط، والكوني عام في كل شيء.

وفي الحديث دليل على أن من أسمائه تعالى: (الحكم).

وأما بالنسبة للعدل؛ فقد ورد عن بعض الصحابة أنه قال: (إن الله حكم عدل) ولا أعرف فيه حديثاً مرفوعاً ، ولكن قوله تعالى : (ومن أحسن من الله حكماً) (المائدة: 50) لا شك أنه متضمن للعدل، بل هو متضمن للعدل وزيادة.

قوله : (فقال: إن قومي إذا اختلفوا في شيء أتوني). هذا بيان لسبب تسميته بأبي الحكم.

قوله: (ما أحسن هذا). الإشارة تعود إلى إصلاحه بين قومه لا إلى تسميته بهذا الاسم؛ لأن النبي صلى الله عليه وسلم غيّره.

قوله: (شريح ومسلم وعبدالله). الظاهر: أنه ليس له إلا الثلاثة؛ لأن الولد في اللغة العربية يشمل الذكر والأنثى، فلو كان عنده بنات لعدهن.

قوله : (فأنت أبو شريح). غيره النبي صلى الله عليه وسلم ؛ لأمرين:

الأول : أن الحكم هو لله ، فإذا قيل : يا أبا الحكم! كأنه قيل: يا أبا الله!

الثاني : إن هذا الاسم الذي جعل كنية لهذا الرجل لوحظ فيه معنى الصفة وهي الحكم، فصار بذلك مطابقاً لاسم الله، وليس لمجرد العَلَميّة المحضة، بل للعلمية المتضمنة للمعنى، وبهذا يكون مشاركاً لله – سبحانه وتعالى- في ذلك، ولهذا كنّاه النبي صلى الله عليه وسلم بما ينبغي أن يُكنَّى به.

***

فيه مسائل :

الأولى : احترام أسماء الله وصفاته ولما لم يقصد معناه .

قوله : (ولو لم يقصد معناه) هذا في النفس منه شي ، لأنه لم يقصد معناه فهو جائز ، إلا إذا سمي بما لا يصح إلا لله ، مثل : الله ، الرحمن، رب العالمين، وما أشبه، فهذه لا تطلق إلا على الله مهما كان ، وأما لا يختص بالله ، فإنه يسمى به غير الله إذا لم يلاحظ معنى الصفة، بل كان المقصود مجرد العلمية فقط ، لأنه لا يكون مطابقا لاسم الله ، ولذلك كان في الصحابة من اسمه(الحكم)[1] ولم يغيره النبي صلى الله عليه وسلم ، لأنه لم يقصد إلا العلمية ، وفي الصحابة من اسمه(حكيم [2]) واقره النبي صلى الله عليه وسلم .

فالذي يحترم من أسمائه تعالى ما يختص به، أو ما يقصد به ملاحظة الصفة .

الثانية : تغيير الاسم لأجل ذلك . وقد سبق الكلام عليه .

الثالثة : اختيار أكبر الأبناء للكنية . تؤخذ من سؤال النبي صلى الله عليه وسلم (فمن أكبرهم؟ قال : شريح . قال فأنت أبو شريح) .

ولا يؤخذ من الحديث استحباب التكني، لأن النبي صلى الله عليه وسم أراد أن يغير كنيته إلى كنية مباحة ولم يأمره النبي صلى الله عليه وسلم أن يكنى ابتداء .

ويستفاد من الحديث ما يلي :

أنه ينبغي لأهل الوعظ والإرشاد والنصح إذا أغلقوا بابا محرما أن يبنوا للناس المباح، وقد سبق تقرير ذلك .

أن الحكم لله وحده، لقوله صلى الله عليه وسلم (وإليه الحكم) ، أما الكوني، فلا نزاع فيه إذ لا يعارض الله أحد في أحكامه الكونية .

أما الشرعي، فهو محل الفتنة والامتحان والاختبار، فمن شرع للناس شرعا سوى شرع الله ورى أنه أحسن من شرع الله وأنفع للعباد، وأنه مساو لشرع الله، وأنه يجوز

---

[1] انظر (الإصابة) لابن حجر (1/342) .

[2] انظر(الإصابة) لابن حجر (1/249) .

ترك شرع الله إليه، فإنه كافر لأنه جعل نفسه نـدا للـه – عـز وجـل – سـواء في العبـادات أو المعـاملات، والـدليل على ذلـك قولـه تعـالى : (أفحكم الجاهليـة يبغـون ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون) (المائدة :50) فدلت الآية على أنه لا أحد أحسن من حكم الله ولا مساو لحكم الله، لأن أحسن اسم : معناه لا يوجـد شـي في درجتـه ، ومن زعم ذلك، فقد كذب الله – عز وجل - . قال تعالى : (ومن لم يحكم بمـا أنـزل اللـه فأولئـك هم الكـافرون) (المائدة : 44) وهذا دليـل على أنـه لا يجـوز العـدول عن شرع الله إلى غيره ، وأنه كفر .

فإن قيـل : قـال تعـالى : (ومن لم يحكم بمـا أنـزل اللـه فأولئك هم الفاسقون(المائدة : 47) .

قلنا : قال الله تعالى : (ألم تر إلى الـذين يزعمـون أنهم آمنـوا بمـا أنـزل إليـك ومـا أنـزل من قبلـك يريـدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمـروا أن يكفـروا بـه ويريـد الشيطان أن يضـلهم ضـلالا بعيـد * وإذا قيـل لهم تعـالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصــدون عنك صدودا) (النساء :60-61)، وهذا دليل على كفرهم ، لأنه قال : (يزعمون أنهم آمنوا) ، وهذا إنكار لإيمـانهم ، فظاهر الآية أنهم يزعمون بلا صدق و لا حق .

فقوله صلى الله عليه وسـلم : (وإليـه الحكم) يـدل على أن من جعل الحكم لغير الله ، فقد أشرك .

فائدة :

يجب على طـالب العلم أن يعـرف الفـرق بين التشـريع الذي يجعل نظاما يمشي عليه ويستبدل به القرآن، وبين أن يحكم في قضية معينة بغير مـا أنـزل اللـه، فهـذا قـد يكون كفرا أو فسقا أو ظلما .

فيكـون كفـرا إذا اعتقـد أنـه أحسـن من حكم الشـرع أو مماثل له .

ويكون فسقا إذا كان لهوى في نفس الحاكم .

ويكـون ظلمـا إذا أراد مضـرة المحكـوم عليـه ، وظهـور الظلم في هــذه أبين من ظهــوره في الثانيــة أبين من ظهوره في الثالثة .

3 – تغيير الاسم إلى ما هو مباح أحسن إذا تضمن أمرا لا ينبغي، كما غير النبي صلى الله عليه وسلم بعض الأسماء المباحة، ولا يحتاج ذلك إلى إعـادة العقيقـة كمـا يتوهمه بعض العامة .

*   *   *

باب من هزل بشيء فيه ذكرالله أو القرآن أو الرسول

هذه الترجمة فيها شي من الغموض، والظاهر أن المـراد من هـزل بشـي فيكـون فيـه ذكـر اللـه مثـل الأحكـام الشرعية، أو هزل بالقرآن أو هزل بالرسـول صـلى اللـه عليه وسلم، فيكون معطوفا على قوله بشي .

والمـراد بالرسـول هنـا : اسـم الجنس، فيشـمل جميـع الرسل، وليس المراد محمدا صلى اللـه عليـه وسـلم، ف (أل) للجنس وليس للعهد .

قوله : (من هزل) . سخر واستهزأ لعبا ليس جدا .

ومن هزل بالله أو بآياته الكونية الشرعية أو برسله، فهو كافر، لأن منافاة الاستهزاء للإيمان منافاة عظيمة .

كيف يسخر ويستهزأ بأمر يؤمن بـه ؟ فـالمؤمن بالشـي لابد أن يعظمه وأن يكون في قلبه من تعظيمه مـا يليـق به .

والكفـــر كفـــران : كفـــر إعـــراض، وكفـــر معارضـــة، والمستهزي كافر كفر معارضة، فهو أعظم ممن يسجد لصـنم فقـط، وهـذه المسـألة خطـيرة جـدا، ورب كلمـة أوقعت بصـاحبها البلاء بـل الهلاك وهـو لا يشـعر، فقـد يتكلم الإنسـان بالكلمـة من سـخط اللـه – عـز وجـل – لا يلقى لها بالا يهوى بها في النار .

فمن اســتهزأ بالصــلاة - ولــو نافلــة -، أو بالزكــاة، أو بالصوم، أو بالحج، فهو كـافر بإجمـاع المسـلمين، كـذلك من استهزأ بالآيات الكونية بأن قال مثلا : إن وجود الحـر في أيام الشتاء سفه، أو قال : إن وجـود الـبرد في أيـام الصيف سفه، فهذا كفر مخرج عن الملة، لأن الرب – عـز

وجل – كل أفعاله مبنية على الحكمة وقد لا نستطيع بلوغها بل لا نستطيع بلوغها .
ثم أعلم أن العلماء اختلفوا فيمن سب الله أو رسوله أو كتابه: هل تقبل توبته؟ على قولين :
القول الأول : أنه لا تقبل، وهو المشهور عن الحنابلة، بل يقتل كافرا، ولا يصلى عليه، ولا يدعى له بالرحمة، ويدفن في محل بعيد عن قبور المسلمين، ولو قال : إنه تاب أو إنه أخطأ؛ لأنهم يقولون : إن هذه الردة أمرها عظيم وكبير لا تنفع فيه التوبة .
وقال بعض أهل العلم : إنها تقبل إذا علمنا صدق توبته إلى الله، وأقر على نفسه بالخطأ، ووصف الله تعالى بما يستحق من صفات التعظيم، وذلك لعموم الأدلة الدالة على قبول التوبة، كقوله تعالى : (قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا) (الزمر : 53) ومن الكفار من يسبون الله، ومع ذلك تقبل توبتهم .
وهذا هو الصحيح، إلا أن ساب الرسول صلى الله عليه وسلم تقبل توبته ويجب قتله، بخلاف من سب الله، فإنه تقبل توبته ولا يقتل، لا لأن حق الله دون حق الرسول صلى الله عليه وسلم، بل لأن الله أخبرنا بعفوه عن حقه إذا تاب العبد إليه بأنه يغفر الذنوب جميعا، أما ساب الرسول صلى الله عليه وسلم، فإنه يتعلق به أمران :
الأول:أمر شرعي لكونه رسول الله صلى الله عليه سلم، ومن هذا الوجه تقبل توبته إذا تاب.
الثاني : أمر شخصي لكونه من المرسلين، ومن هذا يجب قتله لحقه صلى الله عليه وسلم ويقتل بعد توبته على أنه مسلم، فإذا قتل،غسلناه وكفناه وصلينا عليه ودفناه مع المسلمين .
وهذا اختيار شيخ الإسلام ابن تميمة، وقد ألف كتابا في ذلك اسمه(الصارم المسلول في حكم قتل ساب الرسول) أو : (الصارم المسلول على شاتم الرسول) ، وذلك لأنه استهان بحق الرسول صلى الله عليه وسلم، وكذا لو قذفه، فإنه يقتل و لا يجلد .

فإن قيل : أليس قد ثبت أن من الناس من سب الرسول صلى الله عليه وسلم وقبل منه وأطلقه؟
أجيب : بلى ، وهذا صحيح، لكن هذا في حياته صلى الله عليه وسلم، وقد اسقط حقه، أما بعد موته، فلا ندري، فننفذ ما نراه واجبا في حق من سبه صلى الله عليه وسلم .
فإن قيل : احتمال كونه يعفو عنه أو لا يعفوا موجب للتوقف؟
أجيب : إنه لا يوجب التوقف، لأن المفسدة حصلت بالسب، وارتفاع أثر هذا السب غير معلوم، والأصل بقاؤه .
فإن قيل : أليس الله الغالب أن الرسول صلى الله عليه وسلم عفا عمن سبه؟
أجيب : بلى، وربما كان في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم إذا عفا قد تحصل المصلحة ويكون في ذلك تأليف، كما أنه صلى الله عليه وسلم يعلم أعيان المنافقين،ولم يقتلهم، لئلا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه، لكن الآن لو علمنا أحدا بعينه من المنافقين لقتلناه، وقال ابن القيم:إن عدم قتل المنافق المعلوم إنما هو في حياة الرسول صلى الله عليه وسلم .

* * *

وقول الله تعالي : (وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَب)(التوبة: من الآية65)

قوله تعالى : (ولئن سألتهم) . الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم، أي سالت هؤلاء الذين يخوضون ويلعبون بالاستهزاء بالله وكتابه ورسوله والصحابة .
قوله : (ليقولن) . جواب القسم، قال بن مالك :
واحذف لدي اجتماع شرط وقسم جواب ما أخرت فهو ملتزم

ولهـذا جـاءت اللام الـتي تقـترن بجـواب القسم دون الفاء التي تقع في جواب الشرط .
قوله : (ليقولن)، أي : المؤولون .
قوله : (إنما كنا نخـوض ونلعب) . أي : ما لنا قصـد، ولكننا نخـــوض ونلعب، واللهب يقصد به الهـــزء، وأما الخوض، فهو كلام عائم لا زمام له .
هـذا إذا وصف بـذلك القـول، وأما إذا لم يوصف به القـــول ، فإنه يكـــون الخـــوض في الكلام واللهب في الجوارح .
وقوله (إنما كنا نخـــوض ونلعب) : (إنمـــا) : أداة حصر،أي : ما شأننا وحالنا إلا أننا نخوض ونلعب .
قوله : (قل أبا لله وآياته ورسوله كنتم تستهزئون) . الاستفهام للإنكـار والتعجب، فينكر عليهم أن يسـتهزئوا بهـذه الأمـور العظيمـة، ويتعجب كيف يكـون الحق محلا للسخرية؟
قوله : (أبا لله) . أي : بذاته وصفاته .
قوله : (وآياته) : جمع آية، ويشمل :

الآيات الشرعية، كالاستهزاء بالقرآن، بل يقـال : هـذا أســاطير الأولين- والعيــاذ بالله – أو يســتهزأ بشي من الشرائع، كالصلاة والزكاة والصوم والحج .
والآيـات الكونيـة، كـأن يسـخر بما قـدره الله تعـالى، فكيف يأتي هذا في هـذا الـوقت؟ كيف يخـرج هـذا الثمر من هـــذا الشـــي؟ كيف يخلق هـــذا الـــذي يضر النـــاس ويقتلهم؟ استهزاء وسخرية .
قوله : (ورسـوله) . المـراد هنا محمد صـلى الله عليه وسلم .
قوله : (لا تعتــذروا) . المــراد بــالنهي التيــئيس، أي : أنهم عن الاعتذار تيئيسا لهم بقبول اعتذارهم .
قوله : (قد كفــرتم بعد إيمــانكم) . أي : بالاســتهزاء وهم لم يكونــوا منــافقين خالصــين بل مؤمــنين، ولكن إيمـانهم ضـعيف، ولهـذا لم يمنعهم من الاسـتهزاء بالله وآياته ورسوله .

قوله : (إن نعف عن طائفة منكم نعـذب طائفة بـأنهم كانوا مجرمين).
(نعــف) : ضــمير الجمع للتعظيم، أي : الله – عز وجل - .
قوله : (عن طائفة منكم) قــــــال بعض أهل العلم : هؤلاء حضروا وصـار عنـدهم كراهية لهـذا الشـي، لكنهم داهنوا فصـاروا في حكمهم لجلوسـهم إليـه، لكنهم أخف لما في قلـــوبهم من الكراهـــة، ولهـــذا عفا الله عنهم وهداهم إلى الإيمان وتابوا .
قوله : (نعـذب طائفـة) . هـذا جـواب الشـرط، أي : لا يمكن أن نعفو عن الجميع، بل إن عفونا عن طائفـة، فلا بد أن نعذب الآخرين .
قوله : (بـأنهم كـانوا مجـرمين) . البـاء للسـببية، أي : بسـبب كـونهم مجـرمين بالاسـتهزاء وعنـدهم جـرم – والعيـاذ بالله -، فلا يمكن أن يوفقـوا للتوبة حـتى يعفي عنهم .

ويستفاد من الآيتين :

1. 1. بيـــان علم الله – عز وجل – بما ســيكون، لقوله : (ولئن سـألتهم ليقـولن)، وهـذا مسـتقبل، فالله عالم ما كان وما سـيكون، قـال تعـالى : (ولله غيب السماوات والأرض وإليه يرجع الأمر كله) (هـود :123) .
2. 2. . أن الرسول صلى الله عليه وسـلم يحكم بما أنــزل الله عليه حيث أمــره أن يقــول : (أبا لله وآياته ...) .
3. أن الاســــتهزاء بالله وآياته ورســــوله من أعظم الكفر، بدليل الاستفهام والتوبيخ .
4. أن الاستهزاء بالله وآياته ورسـوله أعظم اسـتهزاء وقبحا، لقوله : (أبا لله وآياته ...)، وتقديم المتعلق يـدل على الحصر كأنه ما بقي إلا أن تستهزؤا بهؤلاء الثلاثة .
5. أن المستهزي بالله يكفـر، لقوله : (لا تعتـذروا قد كفرتم بعد إيمانكم) .

6. اســتعمال الغلظة في محلهــا، وإلا فالأصل إن من جاء يعتذر يرحم يرحم، لكنه ليس أهلا للرحمة .

7.. قبول توبة المستهزي باللـه، لقوله : (إن تعف عن طائفة ...) ، وهذا أمر قد وقع، فإن من هــؤلاء من عُفي عنه وهُـدي للإسـلام تـاب وتـاب الله عليـه، وهـذا دليل للقول الراجح أن المسـتهزي بالله تقبل توبتـه، لكن لابد من دليل بين على صدق توبته، لأنه كفره من أشد الكفر أو هو أشد الكفر، فليس مثل كفر الإعراض أو الجحد .

وهـؤلاء الـذين حضـروا السب مثل الـذين سـبوا، قـال تعالى : (وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَـاتِ اللَّهِ يُكْفَــرُ بِهَا وَيُسْتَــهْزَأُ بِهَا فَلا تَقْعُــدُوا مَعَهُمْ حَتَّى يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ إِنَّكُمْ إِذاً مِثْلُهُمْ) (النساء:140) . وهم يستطيعون المفارقة، والنبي صلى الله عليه وسلم امتثل أمر الله بتبليغهم، حتى أن الرجل الذي جاء يعتــذر صار يقول له : (أَبِاللَّهِ وَآيَاتِـهِ وَرَسُـولِهِ كُنْتُمْ تَسْـتَهْزِئُونَ) (لا تَعْتَذِرُوا قَدْ كَفَـرْتُمْ بَعْـدَ إِيمَـانِكُمْ) (التوبة : 65، 66)، ولا يزيد عن هذا أبدا مع إمكان أن يزيده توبيخا وتقريعا .

عن ابن عمر ومحمد بن كعب وزيد ابن اسـلم وقتــاده دخل حـديث بعضـهم في بعض :أنه قـال رجل في غـزوة تبوك . ما راينا مثل قرائنا هؤلاء ؛ ارغب بطونا ولا أكذب ألسنا ولا اجبن عند اللقاء : (يعني :

***

قوله : (عن ابن عمر) . وهو عبد الله .

(ومحمد بن كعب، وزيد بن أسـلم، وقتــادة) . والثلاثة تــابعيون ، فالرواية عن ابن عمر مرفوعــة، وعن الثلاثة الآخرين مرسلة .

قوله : (دخل حديثهم بعضهم في بعض) . أي : إن هذا الحــديث مجمــوع من كلامهم، وهـــذا يفعله بعض أئمة الرواة كـالزهري وغـيره، فيحدثه جماعة بشـأن قصة من

القصص كحديث الإفك مثلا، فيجمعون هذا ويجعلـون في حديث واحد، ويشيرون إلى هذا، فيقولــون - مثلا - دخل حديث بعضهم في بعض، أو يقول : حدثني بعضـهم بكـذا وبعضهم بكذا، وما أشبه ذلك .

قوله : (في غزوة تبوك) . تبـوك في أطـراف الشـام، وكانت هذه الغـزوة في رجب حيث طـابت الثمـار، وكـان مع الرسول صلى الله عليه وسلم في هـذه الغـزوة نحو ثلاثين ألفا، ولما خرجوا رجع عبد الله بن أبي بنحو نصف المعسكر، حتى قيل له : إنه لا يدري أي الجيشين أكــثر : الــذين رجعــوا، أو الــذين ذهبــوا؟ مما يــدل على وفــرة النفــاق في تلك الســنة، وكــانت في الســنة التاســعة، وسببها أنه قيل للنـبي صـلى الله عليه وسـلم : إن قوما من الـروم ومن متنصـرة العـرب يجمعـون لـه، فـأراد أن يغـزوهم صــلى الله عليه وســلم إظهــارا للقــوة وإيمانا بنصر الله – عز وجل -.

قوله : (ما رأينا) تحتمل أن تكون بصــرية، وتحتمل أن تكون علمية قلبية.

قوله : (مثل قرائنــا) المفعــول الأول، والمــراد بهم الرسول صلى الله عليه وسلم وأصحابه .

قوله : (أرغب بطونا) . المفعـــول به الثـــاني، أي : أوسـع، وإنما كـانت الرغبة هنا بمعـنى السـعة، لأنه كلما اتسع البطن رغب الإنسان في الأكل .

قوله : (ولا أكذب ألسنا) . الكـذب : هو الإخبـار بخلاف الواقع، والألسن : جمع لسان، والمراد : ولا أكذب قــولا، واللسان يطلق على القول كثـيرا في اللغة العربيـة، كما في قوله تعــالى : (وما أرســلنا من رســول إلا بلســان قومه) (إبراهيم : 49) أي : بلغتهم .

قوله : (و لا أجبن عند اللقــاء) . الجبن : هو خــور في النفس يمنع من الإقدام على ما يكــره، فهو خلق نفسي ذميم، ولهذا كـان النـبي صـلى الله عليه وسـلم يسـتعيذ منه[1] لما يحصل فيه من الإحجـــام عما ينبغي الإقـــدام إليه، فلهذا كان صفة ذميمة، وهذه الأوصاف تنطبق على المنافقين لا على المؤمنين، فــالمؤمن يأكل بمعي واحد

---

(1) البخاري : كتاب الدعوات / باب الاستعاذة من الجبن .

: ثلث لطعامه وثلث لشرابه وثلث لنفسه، والكــافر يأكل بسـبعة أمعـاء، والمـؤمن أصـدق النـاس لسـانا ولا سـيما النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فإن الله وصــفهم بالصدق في قوله : (للفقراء المهـاجرين الـذين أخرجـوا من ديــارهم وأمــوالهم يبتغــون فضلا من الله ورضــوانا وينصـرون الله ورسـوله أولئك هم الصـادقون) (الحشر : 8) والمنافقون أكذب الناس، كما قال الله فيهم : (والله يشهد إنهم كاذبون) (الحشر : 11)، ، وجعل النبي صـلى الله عليه وســـلم الكـــذب من علامـــات النفـــاق [2] ، والمنافقون من أجبن الناس، قال تعالى : (يحسبون كل صيحة عليهم ...) (المنافقون : 4) فلو سمعوا أحدا ينشد ضالته، لقـالوا : عـدو، عـدو، وهم أحب النـاس للـدنيا، إذ أصل نفاقهم من أجل الدنيا ومن أجل أن تحمي دماؤهم واموالهم وأعراضهم .

قوله : (كـــذبت) . أي : أخـــبرت بخلاف الواقع ، وفي ذلك دليل على تكـــذيب الكـــذب مهما كـــان الأمـــر، وأن السكوت عليه لا يجوز .

قوله : (ولكنك منافق) . لأنه لا يطلق هذه الأوصـاف على رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم وأصـحابه رجل تسـمى بالإسـلام إلا منـافق، وبهـذا يعـرف أن من يسب أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسـلم أنه كـافر، لأن الطعن فيهم طعن في الله ورسوله وشريعته .

فيكــون طعنا في اللــه، لأنه طعن في حكمتــه، حيث اختار لأفضل خلقه أسوأ خلقه .

وطعنا في الرســول صــلى الله عليه وســلم : لأنهم أصحابه، والمرء على دين خليله، والإنسـان يسـتدل على صلاحه أو فساده أو سوء أخلاقه أو صلاحها بالقرين .

وطعنا في الشـــريعة : لأنهم الواســطة بيننا وبين الرسـول صـلى الله عليه وسـلم في نقل الشـريعة، وإذا كانوا بهذه المثابة، فلا يوثق بهذه الشريعة .

قوله : (فوجد القـرآن قد سـبقه) . أي : بـالوحي من الله تعــالى، والله عليم بما يفعلــون وبما يريــدون وبما يـــبيتون، قـــال تعـــالى : (يســتخفون من النـــاس ولا

---

[2] البخاري : كتاب الإيمان / باب علامة المنافق، ومسلم : كتاب الإيمان / باب بيان خصال المنافق .

يستخفون من الله وهو معهم إذ يــبيتون ما لا يرضي من القول) (النساء : 108)
قوله : (وقد ارتحل وركب ناقته) . الظاهر أن هـذا من باب عطف التفسير، لأن ركوب الناقة هو الارتحال .
قوله : (كأني أنظر إليه) . كأن إذا دخلت على مشــتق، فهي للتوقع، وإذا دخلت على جامد، فهي للتشــبيه، وهنا دخلت على جامد، والمعـنى : كأنه الآن أمـامي من شـدة يقيني به .
قوله (بنسعة) . هي الحزام الذي يربط به الرحل .
قوله : (والحجــــــارة تنكب رجليــــــه) . أي : يمشي والحجــارة تضــرب وكأنه – والله أعلم – يمشي بســرعة، ولكنه لا يحس في تلك الحال، لأنه يريد أن يعتذر .
قولـه:(وما يزيـده عليـه).أي:لا يزيـده على ما ذكر من توبيخ امتثالا لأمر الله – عز وجل - ، وكفي بالقول الــذي أرشد الله إليه نكاية وتوبيخا .

فيه مسائل :
الأولى - وهي العظيمة - : أن من هـزل بهـذا كـافر . أي من الهزل : بالله وآياته ورسوله.
الثانية : أن هـذا هو تفسـير الآية فيمن فعل ذلك كائنا من كان . أي سواء كان منافقا أو غير منافق ثم اسـتهزأ ، فإنه يكفر كائنا من كان .
الثالثة : الفرق بين النميمة والنصـيحة لله ولرسـوله . النميمة : من نمَّ الحـديث، أي : نقله ونسـبه إلى غـيره، وهي نقل كلام للغـــير بقصد الإفســـاد، وهو من أكـــبر الـذنوب، قـال صـلى الله عليه وسـلم : (لا يـدخل الجنة نمـام)[1]، وأخـبر عن رجل يعـذب في قـبره، لأنه كـان يمشي بالنميمة [2] ، وأما النصــيحة لله ورســوله، فلا يقصد بها ذلك، وإنما يقصد بها احــترام شـعائر الله – عز وجل – وإقامة حـدوده وحفظ شـريعته، وعـوف بن مالك نقل كلام هذا الرجل لأجل أن يقام عليه الحد أو ما يجب أن يقام عليه وليس قصده مجرد النميمة .

---
[1] البخاري : كتاب الأدب / باب ما يكره من النميمة ، ومسلم : كتاب الإيمان / باب غلظ تحريم النميمة .
[2] البخاري : باب الجنائز / باب عذاب القبر من الغيبة ، ومسلم : كتاب الطهارة / باب الدليل على نجاسة البول .

ومن ذلك لو أن رجلا اعتمد على شـــخص ووثق بـــه، وهذا الشخص يكشف سـره ويسـتهزأ به في المجـالس، فإنك إذا أخبرت هذا الرجل بذلك، فليس من النميمة، بل من النصيحة .

الرابعة : الفـــــرق بين العفو الـــــذي يحبه الله وبين الغلظة على أعداء الله .

العفو الـذي يحبه الله : هو الـذي فيه إصـلاح، لأن الله اشترط ذلك في العفو فقال : (فمن عفا وأصلح فـأجره على الله) (الشورى : 40) أي : كان عفـوه مشـتملا على الإصلاح ، وقـال بعضـهم : أي أصـلح الـود بينه وبين من أساء إليـه، وهـذا تفسـير قاصر والصـواب أن المـراد به اصلح من عفوه، أي : كان في عفوه إصلاح .

فمن كان في عفوه إفسـادا لا إصـلاحا، فإنه آثم بهـذا العفــو،ووجه ذلك من الآية ظــاهر، لأن الله قــال : (عفا وأصـــلح) ، ولأن العفو إحســان والفســاد إســاءة، ودفع الإساءة أولى، بل العفو حينئذ محرم .

والنـبي صـلى الله عليه وسـلم غلظ على هـذا الرجل لكونه صلى الله عليه وسلم لم يلتفت إليه، ولا يزيد على هذا الكلام الذي أمـره الله به مع أن الحجـارة تنكب رجل الرجل، ولم يرحمه النبي صلى الله عليه وسلم ولم يرق له، ولكل مقام مقال ، فينبغي أن يكون الإنسـان شـديدا في موضع الشـدة، لينا في موضع اللين، لكن أعـداء الله – عز وجل - الأصل في معـاملتهم الشـدة، قـال تعـالى في وصف الرســول صـــلى الله عليه وســـلم وأصـــحابه (أشداء على الكفار رحماء بينهم) (الفتح :29)

وقال تعالى : (يا أيها النبي جاهد الكفـار والمنـافقين وأغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير) (التحـريم : 9) ذكرها الله في ســورتين من القـــرآن مما يـــدل على أنها من أهم ما يكون، لكن استعمال اللين أحيانا للـدعوة والتأليف قد يكون مستحسنا .

الخامسة : أن من الاعتــــذار ما لا ينبغي أن يقبل . فالأصل في الاعتـذار أن يقبل لا سـيما إذا كـان المعتـذر محســنا، لكن حصـلت منه هفــوة، فــإن علم أنه اعتــذار باطل ، فإنه لا يقبل .

* * *

مناسبة الباب ل(كتاب التوحيد) : أن الإنسان إذا أضاف النعمة إلى عمله وكسبه، ففيه نوع من الإشراك بالربوبية، وإذا أضافها إلى الله لكنه زعم أنه مستحق لذلك، وإن ما أعطاه الله ليس محض تفضيل، لكن لأنه أهل، ففيه نوع من التعلي والترفع في جانب العبودية .

وقد ذكر الشيخ في آيتين :

باب قول الله تعالى :

(وَلَئِنْ أَذَقْنَاهُ رَحْمَةً مِنَّا مِنْ بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَذَا لِي)(فصلت: من الآية50)

---

* * *

الآية الأولى ما ترجم به المؤلف، وهي قوله تعالى : (ولئن أذقناه) .

الضمير يعود على الإنسان ، والمراد به الجنس. وقيل : المراد به الكافر .

والظاهر أن المراد به الجنس، إلا أنه من هذه الحال الإيمان، فلا يقول ذلك المؤمن، قال تعالى : (إليه يرد علم الساعة وما تخرج من ثمرات من أكمامها وما تحمل الأنثى ولا تضع إلا بعلمه ويوم يناديهم أين شركائي قالوا آذناك ما منا من شهيد* وضل عنهم ما كانوا يدعون من قبل وظنوا ما لهم من محيص* لا يسأم الإنسان من دعاء الخير وإن مسه الشر فيئوس قنوط) (فصلت : 47-49) هذه حال الإنسان من حيث هو إنسان، لكن الإيمان يمنع الخصال السيئة المذكورة .

قوله : (منا) أضافه الله إليه، لوضوح كونها من الله، ولتمام منته بها.

قوله : (من بعد ضراء مسته) . أي : أنه لم يذق الرحمة من أول أمره، بل أصيب بضراء، كالفقر وفقد الأولاد وغير ذلك ، ثم أذاقه بعد ذلك الرحمة حتى يحس

بها وتكون لذتها والسرور به أعظم مثل الـذائق للطعـام بعد الجوع .
قوله : (مسته) أي : أصابته وأثرت فيه .
قوله : (ليقولن هذا لي) . هذا كفر بنعمة الله وإعجاب بــالنفس، واللام في قوله (ليقــولن) واقعة في جــواب القسم المقدر قبل اللام في قوله : (لئن أذقناه) .
قوله : (وما أظن الساعة قائمة) . بعد أن انغمس في الدنيا نسي الآخرة، بخلاف المؤمن إذا أصابته الضراء لجأ إلى الله، ثم كشفها، ثم وجد بعد ذلك لذة وسرورا يشكر الله على ذلك، أما هذا، فنسي الآخرة وكفر بها .
قوله : (ولئن رجعت إلى ربي إن لي عنده للحسنى) .
(إن) : شـــرطية وتـــأتي فيما يمكن وقوعه وفيما لا يمكن رجوعه وفيما لا يمكن وقوعـه، كقوله تعـالى:(لئن أشركت ليحبطن عملـك) (الزمر : 65)، والمعـنى : على فرض أن أرجع إلى الله إن لي عنده للحسنى .
والحسـنى : أسم تفضـيل، أي : الـذي هو أحسن من هذا، واللام للتوكيد.
قوله : (فلننــبئن الــذين كفــروا بما عملــوا) أي : فلننبئن هذا الإنسان، وأظهر في مقام الإضمار من أجل الحكم على هـذا القائل بـالكفر ولأجل أن يشـمله الوعيد وغيره .
قول مجاهد : هـذا بعملي، وأنا محقـوق به . أي هـذا بكسبي وأنا مستحق له .
قــول ابن عبـاس : يريد من عنـدي . أي من حـذقي وتصرفي وليس من عند الله .
الآية الثانية قوله تعالى :(إنما أوتيته على علم) .
في القــرآن آيتــان : آية قــال الله فيها : (إنما أوتيته على علم بل هي فتنة ولكن أكثرهم لا يعلمون)، والثانية : (إنما أوتيته على علم عنـــدي)،والظـــاهر من تفســير المؤلف انه يريد الآية الثانية .
قوله : (على علم) . في معناه أقوال :
الأول : قال قتادة : على علم مني بوجوه المكاسب، فيكــون العلم عائــدا على الإنســان، أي : عــالم بوجــوه

المكاسب ولا فضل لأحد عليّ فيما أوتيتــه، وإنما الفضل لي ، وعليه يكون هذا كفرا بنعمة الله وإعجابا بالنفس .
الثاني : قال آخـرون : على علم من الله أني له أهل ، فيكون بـذلك مـدلا على الله ،وأنه أهل ومسـتحق لينعم الله عليـــه، والعلم هنا عائد على اللـــه،أي : أوتيت هـــذا الشي على علم من الله أني مستحق له وأهل له .
الثـالث : قـول مجاهد : (أوتيته على شـرف)، وهو معنى القول الثاني، فصار معنى الآية يـدور على وجهين :
الوجه الأول : أن هــذا إنكــار أن يكــون ما أصــابه من النعمة من فضل الله، بل زعم أنها من كسب يـده وعلمه ومهارته .
الوجه الثاني : أنه أنكر أن يكـون الفضل لله عليـه، وكأنه هو الذي له الفضل على الله، لأن الله أعطــاه ذلك كونه أهلا لهذه النعمة .
فيكون على كلا الأمرين غـير شـاكر لله – عز وجل – والحقيقة أن كل ما نؤتــاه من النعم فهو من اللــه، فهو الذي يسـرها حـتى حصـلنا عليهـا، بل كـان ما نحصل من علم أو قــــدرة أو إرادة فمن الله ، فـــــالواجب علينا أن نضيف هذه النعم إلى الله سبحانه وتعالى، قـال تعـالى : (وما بكم من نعمة من اللـــــه) (النحل : 53) حـــــتى لو حصلت لك هذه النعمة بعلمك أو مهارتك، فالذي أعطــاك هذا العلم أو المهارة هو الله – عز وجل -، ثم أن المهارة أو العلم قد لا يكون سببا لحصول الرزق،فكم من إنسـان عالم أو ماهر حاذق ومع ذلك لا يوفق بل يكون عاطلا؟!
وشكر النعمة يكون له ثلاثة أركان :
الاعتراف بها في القلب .
الثناء على الله باللسان .
العمل بالجوارح بما يرضي المنعم .
فمن كان عنده شعور في داخل نفسه أنه هو الســبب لمهارته وجودته وحذقه، فهذا لم يشـكر النعمـة، وكـذلك لو أضـاف النعمة بلسـانه إلى غـير الله أو عمل بمعصـية الله في جوارحه، فليس بشاكر لله تعالى .
* * *

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أنه سمع النـبي صـلي الله عليه وسـلم يقـول : (أن ثلاثة من بـني إسـرائيل أبرص وأقـرع وأعمي،فـأراد الله ان يبتليهم فبعث إليهم ملكا فأتي الأبرص فقـال : أي شـيء احب إليك ؟ قـال : لون حسن)

قوله : (وعن أبي هريـرة رضى الله عنـه، أنه سـمع النـبي صـلى الله عليه وسـلم يقـول : أن ثلاثة من بـني إسرائيل) .

جميع القصص الـواردة في القـرآن وصـحيح السـنة ليس المقصـود بها مجـرد الخـبر، بل يقصد منها العـبرة والعظة مع ما تكسب النفس من الراحة والسـرور، قـال الله تعالى : (لقد كان في قصصهم عبرة لأولي الألبـاب) (يوسف : 111) .

قوله : (من بـني إسـرائيل) في محل نصب نعت ل (لثلاثة)، وبنو إسـرائيل هم ذرية يعقـوب بن إسـحاق أبن إبراهيم عليهم الصلاة والسلام .

وقوله : (أبرص) . أي : في جلده برص، والـبرص داء معـروف، وهو من الأمـراض المستعصـية الـتي لا يمكن علاجها بالكلية، وربما توصلوا أخـيرا إلى عـدم انتشـارها وتوسـعها في الجلـد، لكن رفعها لا يمكن، ولهـذا جعلها الله آية لعيسـى، قـال الله تعـالى : (تـبريء الأكمة والأبرص بإذني) (المائدة : 110)

قوله : (أقرع) . من ليس على رأسه شعر .

قوله : (أعمى) . من فقد البصر .

قوله : (فـأراد اللـه)وفي بعض النسخ : (أراد اللـه) . فعلى إثبـات الفـاء يكـون خـبر(إن) محـذوفا دل على السياق تقديره : إن ثلاثة من بني إسرائيل أبرص وأقـرع وأعمى أنعم الله عليهم فأراد الله أن يبتليهم .

ولا يمكن أن يكون (أبرص وأقرع وأعمى) خبرا، لأنها بدل، وعلى حذف الفـاء يكـون الخـبر جملة : (أراد اللـه)، والإرادة هنا كونية .

وجلد حسن ويذهب عني الـذي قد قـذرني النـاس به) قال : (فمسحه فـذهب عنه قـذره ، فـأعطي لونا حسـنا وجلدا حسنا . قال : فأي المـال أحب إليك ؟ قـال : الإبل او البقر (شك اسـحق) فـأعطي ناقة عشـراء ، وقـال : بارك الله لك فيها)

قــولهم : (يبتليهم) . أي : يختــبرهم، كما قــال الله تعـالى : (ونبلـوكم بالشر والخـير فتنـة) (الأنبيـاء : 35)، وقــال تعـالى : (هـذا من فضل ربي ليبلـوني أأشـكر أم أكفر) (النمل : 40) .

قوله : (ملكا) . أحد الملائكة : هم عالم غيبي خلقهم الله من نور وجعلهم قائمين بطاعة اللـه، لا يـأكلون، ولا يشربون، يسبحون الليل والنهار لا يفترون، لهم أشــكال وأعمـال ووظـائف مـذكورة في الكتـاب والسـنة، ويجب الإيمان بهم، وهم أحد أركان الإيمان الستة .

قال أهل اللغة : واصل ال(ملك) مأخوذ من الألوكة، وهي الرسالة، وعلى هذا يكـون أصـله مألـك، فصـار فيه إعلال قلــبي، فصــار ملأك، ثم نقلت حركة الهمــزة إلى اللام السـاكنة وحـذفت الهمـزة تخفيفـا، فصـار ملك ، ولهذا في الجمع تأتي الهمزة : ملائكة.

قوله : (ويذهب) . يجوز فيه الرفع والنصــب، والرفع أولى .

قوله : (قذرني) . أي : استقذرني وكرهوا مخالطتي من أجله .

وقوله : (به) . الباء للسببية، أي : بسببه .

قوله : (فمســحه) . ليتــبين أن لكل شي ســببا وبــرى بإذن الله – عز وجل -، (فـذهب عنه قـذره) : بـدأ بـذهاب القذر قبل اللون الحسن والجلد الحسن، لأنه يبدأ بـزوال المكروه قبل حصول المطلوب، كما يقــال : التخلية قبل التحلية .

قوله : (قـــال : الإبل أو البقر – شك إســـحاق -) . والظـاهر : أنه الإبل كما يفيـده السـياق، وإسـحاق أحد رواة الحديث .

قوله : (عشـراء) . قيل : هي الحامل مطلقا ، وقـال في (القـاموس): هي الـتي بلغ حملها عشـرة أشـهر أو ثمانيــة، ســخرها الله – عز وجل – وذللها ولعلها كــانت قريبة من الملك فأعطاها إياها .

قوله : (بارك الله لك فيهـا). فيحتمل أن لفظه الخـبر ومعنـاه الـدعاء، وهو الأقـرب، لأنه أسـلم من التقـدير، ويحتمل أنه خـبر محض، كأنه قـال : هـذه ناقة عشـراء مبارك لك فيها ويكون المعنى على تقدير (قـد)، أي : قد بارك الله لك فيها .

قوله : (فأتى الأقرع) . وهو الرجل الثاني في الحديث .

قوله : (فقــال : أي شي أحب إليــك؟ قــال : شــعر حسن) . ولم يكتف بالشعر الحسن، بل طلب شعرا حسنا .

قوله : (الذي قذرني الناس به) . أي : القرع، لأنه كان أقرع كرهه النـاس واسـتقذروه، وهـذا يـدل على أنهم لا يغطون رؤوسهم بالعمـائم ونحوهـا، وقد يقـال يمكن أن يكون عليه عمامة يبدو بعض الـرأس من جوانبها فيكرهه الناس مما بدا منها .

قوله : (فـذهب عنه قـذره) . يقـال في تقـديم ذهـاب القذر ما سبق، وهذه نعمة من الله عز وجل أن يسـتجاب للإنسان.

قوله : (البقر أو الإبـل). الشك في إسـحاق، وسـياق الحديث يدل على أنه أعطى البقر .

قوله : (فــأتى الأعمى) . هــذا هو الرجل الثــالث في هذه القصة.

قوله : (فأبصر به الناس) . لم يطلب بصـرا حسـنا كما طلبه صـاحباه، وإنما طلب بصـرا يبصر النـاس فقط مما يدل على قناعته بالكفاية.

قوله : (فـرد الله إليه بصـره)الظـاهر أن بصـره الـذي كان معه من قبل هو ما يبصر به الناس فقط .
قوله : (قـال: الغنم) . هـذا يـدل على زهـده كما يـدل على أنه صاحب سكينة وتواضع، لأن السكينة في أصحاب الغنم .
قوله : (شاة والدا) . قيل : إن المعـنى قريبة الـولادة، ويؤيده أن صاحبيه أعطيا أنثى حاملا، ولما يأتي من قوله : (فـأنتج هـذان وولد هـذا)، والشي قد يسـمى بالاسم القريب، فقد يعبر عن الشي حاصلا وهو لم يحصل، لكنه قريب الحصول .
قوله : (فـأُنتج هـذان) . بالضم ، وفيه رواية بـالفتح: (فأَنتج)، وفي رواية : (فَنتج هذان) .
والأصل في اللغة في مـــــــــادة (نتج) : أنها مبنية للمفعـول والإشـارة إلى صـاحب الإبل والبقر ، و(أنتج)، أي : حصل لهما نتاج الإبل والبقر .
قوله : (وولد هـذا) . أي : صـار لشـاته أولاد، قـالوا: والمنتج من أنتج، والناتج من نتج، والمولد من ولـد، ومن تولى توليد النساء يقال له القابلة، ومن تولى توليد غـير النساء يقال له : منتج أو ناتج أو مولد .
قوله : (فكـان لهـذا واد من الإبـل) . مقتضى السـياق أن يقـول : فكـان لـذلك، لأنه أبعد المـذكورين، لكنه استعمل الإشارة للقريب في مكان البعيـد، وهـذا جـائز ، وكذا العكس .
قوله : (في صـورته وهيئتـه) . الصـورة في الجسم ، والهيئة في الشكل واللباس، وهذا الفرق بينهما .
قوله : (رجل مسكين) . خبر لمبتدأ محـذوف تقـديره : أنا رجل مسـكين، والمسـكين : الفقـير، وسـمي الفقـير مسـكينا، لأن الفقر أسـكنه وأذلـه، والغـني في الغـالب يكون عند قوة وحركة .
قوله : (وابن السـبيل) . أي : مسـافر سـمي بـذلك لملازمته للطريـق، ولهـذا سـمي طـير المـاء ابن المـاء لملازمته له غالبـا، فكل شي يلازم شـيئا، فإنه يصح أن يضاف إليه بلفظ البنوة .

قوله : (انقطعت بي الحبـال في سـفري) . الحبـال الأسـباب، فالحبل يطلق على السـبب وبـالعكس، قـال تعالى : (فليمدد بسـبب إلى السـماء ثم ليقطـع) (الحج : 15)، ولأن الحبل سبب يتوصل به الإنسان إلى مقصوده كالرشاء يتوصل به الإنسان إلى الماء الذي في البئر .

قال : ثم أنه أتي الأبرص في صورته وهيئته ، وقـال : رجل مسـكين وابن سـبيل قد انقطعت بي الحبـال في سفري فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك ، أسـألك بالـذي اعطاك اللون الحسن والجلد الحسن والمال ، بعيرا اتبلغ به في سفري . فقال : الحقوق كثيرة . فكأني اعرفـك! ألم تكن ابـرص يقـذرك النـاس فقـيرا فأعطـاك الله عز وجل المـال ؟ فقـال : إنما ورثت هـذا المـال كـابرا عن كابر . فقال : إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت)

قوله : (فلا بلاغ لي اليـوم إلا بالله ثم بـك) . (لا) نافية للجنس، والبلاغ بمعـنى الوصـول،ومنه تبليغ الرسـالة، أي : إيصـالها إلى المرسل إليـه، والمعـنى : لا شي يوصـلني إلى أهلي إلا بالله ثم بـك، فالمسـألة فيها ضرورة .

قوله : (أسألك بالـذي أعطـاك اللـون الحسن والجلد الحسن).

السؤال هنا ليس سؤال استخبار بل سؤال استجداء، لأن (سال) تأتي بمعنى استجدى وبمعنى استخبر، تقـول : سـألته عن فلان، أي : اسـتخبرته، وسـألته مـالا، أي : اسـتجديته واسـتعطيته، وإنما قـال : (أسـألك بالـذي أعطاك)، ولم يقل : أسألك باللـه، لأجل أن يـذكره بنعمة الله عليـه، ففيه إغـراء له على الإعانة لهـذا المسـكين، لأنه جمع بين أمـرين : كونه مسـكينا، وكونه ابن سـبيل، ففيه سببان يقتضيان الإعطاء .

قوله : (بعيرا) . يدل على أن الأبـرص أُعطي الإبـل، وتعبير إسحاق (الإبل أو البقر) من باب ورعه .

قوله : (أتبلغ به في سفري) . أي : ليس أطيب الإبل وإنما يوصلني إلى أهلي فقط .

قوله : (الحقوق كثيرة) . أي : هذا المـال الـذي عنـدي متعلق به حقـــوق كثـــيرة، ليس من حقك أنت فقـــط، وتناس – والعياذ بالله – أن الله هو الــذي من عليه بالجلد الحسن واللون الحسن والمال .
قوله : (كــأني أعرفــك) . كــأن هنــاك للتحقيق لا للتشــبيه، لأنها إذا دخلت على جامد فهي للتشــبيه، وإذا دخلت على مشــتق، فهي للتحقيق أو للظن والحســبان، والمعنى : أني أعرفك معرفة تامة .
قوله : (ألم تكن أبرص يقـذرك النـاس) ذكـره الملك بنعمة الله عليه، وعرفه بما فيه من العيب السـابق حـتى يعــرف قــدر النعمــة، والاســتفهام للتقرير لدخوله على (لم)، كقوله تعالى : (ألم نشرح لك صدرك) (الشرح : 1) .
قوله : (كــابرا عن كــابر) . أنكر أن المــال من الله ، لكنه لم يستطيع أن ينكر البرص.
و(كابرا) منصوبة على نـزع الخـافض، أي : من كـابر، أي : إننا شرفاء وسادة وفي نعمة من الأصل، وليس هذا المال مما تجدد، واللفظ يحتمل المعنيين جميعا .
قوله : (إن كنت كاذبا فصــــيرك الله إلى ما كنت) . (إن) : شــرطية ولها مقابــل، يعــني : وإن كنت صــادقا فأبقى الله عليك النعمة .
فإن قيل : كيف يأتي ب (إن) الشرطية الدالة على الاحتمال مع أنه يعرف أنه كاذب ؟
أجيب : إن هذا من باب التنزل مع الخصم، والمعنى : إن كنت كما ذكــرت عن نفســك، فــأبقى الله عليك هـذه النعمـــة، وإن كنت كاذبا وأنك لم ترثه كـــابرا عن كـــابر، فصيرك الله إلى ما كنت من البرص والفقــر، ولم يقل : (إلى ما أقول) لأنه كان على ذلك بلا شك .
والتنزل مع الخصم يـرد كثـيرا في الأمـور المتيقنـة، كقوله تعالى : (الله خير

قال : (وأتي الأقرع في صورته ، وقال له مثل ما قال لهــذا ، ورد عليه مثل ما رد عليه هــذا فقــال : إن كنت كاذبا فصيرك الله إلى ما كنت)

أمّا يشركون) (النمل : 59)، ومعلوم أنه لا نسبة، وأن الله خير مما يشركون، ولكن هذا من بـاب محاجة الخصم لإدحاض حجته .

قوله : (وأتى الأقــرع في صــورته) . الفاعل الملــك، وهنا قـال : (في صـورته) فقط وفي الأول قـال : (في صورته وهيئتـه) ، فالظـاهر أنه تصـرف من الـرواة، وإلا، فالغالب أن الصورة قريبة من الهيئة، وإن كانت الصـورة قريبة من الهيئة، وإن كانت الصورة تكون خلقه، والهيئة تكــون تصــنعا في اللبــاس ونحــوه، وقد جــاء في رواية البخاري :في صورته وهيئته) .

قوله : (فقــال له مثل ما قــال لهــذا) المشــار إليه الأبرص .

قوله : (فرد عليه) . أي : الأقرع .

قوله : (مثل ما رد عليه هذا). أي : الأبرص .

فكلا الـرجلين – والعيـاذ بالله – غـير شـاكر لنعمة الله ولا معترف بها ولا راحم لهـذا المسـكين الـذي انقطع به السفر .

قوله : (فصــيرك الله على بصــري) . اعــترف بنعمة اللـه، وهـذا أحد أركـان الشـكر، والـركن الثـاني : العمل بالجوارح في طاعة المنعم، والـركن الثـالث : الاعـتراف بالنعمة في القلب، قال الشاعر :

أفادتكم النعماء مني ثلاثة يدي ولساني والضمير المحجبا

قوله : (فوالله، لا أجهدك بشي أخذته لله) . الجهد : المشقة، والمعنى : لا

قـــال : (و أتي الأعمي في صـــورته ،فقـــال : رجل مسكين وابن سبيل قد انقطعت بي الحبـال في سـفري فلا بلاغ لي اليوم إلا بالله ثم بك ، أسألك بالذي رد عليك بصرك ،شاةً اتبلغ به في سـفري . قـال : قد كنت أعمي فرد الله على بصـري .فخذ ما شـئت فو الله ؛ لا اجهـدك اليــوم بشـــيء أخذته لله فقـــال : أمسك مالـــك؛ فإنما ابتليتم؛ فقد رضي الله عنـــك، وســـخط على صـــاحبيك) أخرجاه (1)

أشق عليكم بمنع ولا منة،واعترافه بلسانه مطـابق لما في قلبه، فيكون دالا على الشكر بالقلب بالتضمن .

قوله : (خذ ما شـئت ودع ما شـئت) . هــذا من بـــاب الشــكر بـــالجوارح، فيكــون هــذا الأعمى قد أتم أركـــان الشكر .

قوله : (لله) . اللام للاختصاص، والمعنى : لأجل الله، وهـذا ظـاهر في إخلاصه للـه، فكل ما تأخـذه لله فأنا لا أمنعك منه ولا أردك .

قوله : (إنما ابتليتم) . أي : اختـبرتم، والـذي ابتلاهم هو الله تعـالى، وظـاهر الحـديث أن قصـتهم مشـهورة معلومة بين النـــاس، لأن قوله : (إنما ابتليتم) يـــدل على أن عنـــده علما بما جـــرى لصـــاحبيه وغالبا أن مثل هـــذه القصة تكون مشهورة بين الناس .

قوله : (فقد رضى الله عنـك) . يعـني : لأنك شـكرت نعمة الله بالقلب واللسان والجوارح .

قوله : (وسخط على صاحبيك) . لأنهما كفرا نعمة الله – سـبحانه -، وأنكـرا أن يكـون الله منّ عليهما بالشـفاء والمال .

وفي هذا الحديث من العبر شي كثير، منها :

1. أن الرسول صلى الله عليه وسلم يقص علينا أنبــاء بني إسرائيل لأجل الاعتبار والاتعاظ بما جــرى، وهو أحد الأدلة لمن قـال : إن شـرع من قبلنا شـرع لنا ما لم يـرد شرعنا بخلافه،ولا شك أن هذه قاعدة صحيحة .

2. بيان قدرة الله – عز وجل – بإبراء الأبرص والأقــرع والأعمى من هذه العيوب التي فيهم بمجــرد مسح الملك لهم .
3. أن الملائكة يتشــكلون حــتى يكونــوا على صــورة البشــر، لقوله : (فــأتى الأبــرص في صــورته)، وكــذلك الأقـــرع والأعمى، لكن هـــذا – والله أعلم – ليس إليهم وإنما يتشكلون بأمر الله تعالى .
4. أن الملائكة أجســام وليســوا أرواحا أو معــاني أو قوى فقط .
5. حرص الرواة على نقل الحديث بلفظه .
6. إن الإنســـان لا يلزمه الرضـــاء بقضـــاء الله – أي بالمقضى، لأن هؤلاء الذين أصيبوا قالوا : أحب إلينا كــذا وكــذا، وهــذا يــدل على عــدم الرضا . وللإنســان عند المصائب أربع مقامات :
- جزع، وهو محرم .
- صبر، وهو واجب .
- رضا، وهو مستحب.
- شكر، وهو أحسن وأطيب .
وهنا إشــكال وهو : كيف يشــكر الإنســان ربه على المصيبة وهي لا تلائمه؟

أجيب : أن الإنســان إذا آمن بما يــترتب على هــذه المصـيبة من الأجر العظيم عـرف أنه تكـون بـذلك نعمـة، والنعمة تشكر .
وأما قوله صلى الله عليه وسـلم : (فمن رضـى، فله الرضا، ومن سخط، فعليه السـخط)[2] ، فـالمراد بالرضا هنا الصــبر، أو الرضا بأصل القضــاء الــذي هو فعل الله والمقضي .
والمقضي ينقسم إلى : مصــائب لا يلــزم الرضا بهــا، وإلى أحكام شرعية يجب الرضا بها .
7 – جــواز الــدعاء المعلــق، لقوله : (إن كنت كاذبــا، فصيرك الله إلى ما كنت) ،وفي القــرآن الكــريم

---

(1) البخاري كتاب الأنبياء / باب حديث أبرص وأقرع وأعمي في بني إسرائيل . ومسلم كتاب الزهد والرقاق
(2) (2) تقدم (ص 700)

قــال تعــالى : (والخامسة أن لعنة الله عليه إن كــان من الكاذبين) (النور :7)، (والخامسة أن غضب الله عليها إن كـان من الصــادقين) (النــور :9) وفي دعــاء الاســتخارة (اللهم ! إن كنت تعلم ... إلخ) .

8 – جــواز التـــنزل مع الخصم فيما لا يقر به الخصم المتنزل لأجل إفحام الخصــم، لأن الملك يعلم أنه كـاذب، ولكن بناء على قوله : أن هذا ما حصل، وإن المــال ورثه كابرا عن كابر، وقد سبق بيـان وروده في القـرآن، ومنه أيضا قوله تعالى : (وإنا أو إياكم لعلى هدى أو في ضلال مبين) (سـبأ :24) ومعلـوم أن الرسـول صـلى الله عليه وسلم وأصحابه على هدى وأولئك على ضلال، ولكن هـذا من باب التنزل معهم من باب العدل .

9 – أن بركة الله لا نهاية لها، ولهذا كان لهـذا واد من الإبل، ولهذا واد من بقر، ولهذا واد من غنم .

10 – هل يستفاد منه أن دعاء الملائكة مستجاب أو أن هذه قضية عين ؟

الظـــاهر أنه قضـــية عين، وإلا ، لكـــان الرجل إذا دعا لأخيه بظهر الغيب، وقال الملك : آمين ولك بمثله، علمنا أن الدعاء قد استجيب .

11- بيان أن شكر كل نعمة بحسبها،فشكر نعمة المال أن يبذل في سبيل الله، وشكر نعمة العلم أن يبــذل لمن سأله بلسان الحال أو المقـال، و الشـكر الأعم أن يقـوم بطاعة المنعم في كل شي .

12- جواز التمثيل، وهو أن يتمثل الإنسان بحــال ليس هو عليها في الحقيقة، مثل ن يأتي بصورة مسكين وهو غني وما أشبه ذلك إذا كـان فيه مصـلحة وأراد أن يختــبر إنسانا بمثل هذا، فله ذلك .

13 – أن الابتلاء قد يكون عاما وظاهرا يؤخذ من قوله : (فإنما ابتليتم)، وقصتهم مشهورة كما سبق .

14 – فضيلة الورع والزهد، وأنه قد يجر صاحبه إلى ما تحمد عقبــاه، لأن الأعمى كـان زاهـدا في الــدنيا، فكـان شاكرا لنعمة الله.

15 – ثبوت الإرث في الأمم السـابقة، لقوله : (ورثته كابرا عن كابر) .

16- أن من صـفات الله – عز وجل – الرضا والسـخط والإرادة، وأهل السـنة والجماعة يثبتونها على المعـنى اللائق بالله على أنها حقيقة .

وإرادة الله نوعان : كونية، وشرعية .

والفرق بينهما أن الكونية يلزم فيها وقـوع المـراد ولا يلزم أن يكون محبوبا لله، فإذا أراد الله شيئا قـال له كن فيكون .

وأما الشرعية : فإنه لا يلزم فيه وقـوع المـراد ويلـزم إن يكـون محبوبا للـه، ولهـذا نقـول : الإرادة الشـرعية بمعنى المحبة والكونية بمعنى المشـيئة، فـإن قيل : هل لله يريد الخير والشر كونا أو شرعا؟

أجيب : إن الخير إذا وقع ، فهو مراد لله كونا وشـرعا، وإذا لم يقع، فهو مراد شرعا فقط، وأما الشر فإذا وقع، فهو مراد لله كونا لا شرعا وإذا لم يقـع، فهو غـير مـراد كونا ولا شـرعا، واعلم أن الشر لا ينسب إلى فعل الله – سـبحانه -، ولكن إلى مخلوقـات اللـه، فكل فعل الله تعـالى خـير ، لأنه صـادر عن حكمة ورحمـة، ولهـذا قـال النـبي صـلى الله عليه وسـلم : (الخـير كله في يـديك، والشر ليس إليك)[1] وأما مخلوقات الله، ففيها خير وشر .

وإثبـات صـفة الرضا لله – سـبحانه – لا يقتضي انتفـاء صـفة الحكمـة، بخلاف رضا المخلـوق، فقد تنتفي معه الحكمـة، فـإن الإنسـان إذا رضى عن شـخص مثلا فـإن عاطفته قد تحمله على أن يرضى عنه في كل شي ولا يضبط نفسه في معاملته لشدة رضاه عنه، قـال الشـاعر :

وعين الرضا عن كل عيب كليلة كما أن عين السخط تبدي المساويا

لكن رضا الله مقـرون بالحكمـة، كما أن غضب الخـالق ليس كغضب المخلـــوق، فلا تنتفي الحكمة مع غضب

---

[1] مسلم : كتاب صلاة المسافرين / باب الدعاء في صلاة الليل .

الخـالق، بخلاف غضب المخلـوق، فقد يخرجه عن الحكمة فيتصرف بما لا يليق لشدة غضبه .
ومن فسر الرضا بالثواب أو إرادتـه، فتفسـيره مـردود عليـــه، فإنه إذا قيل : إن معـــني (رضـــى)، أي : أراد أن يـــثيب، فمقتضـــاه أنه لا يرضي ، ولو قـــالوا : لا يرضي لكفـــروا، لأنهم نفوها نفي جحـــود، لكن أولوها تـــأويلا يســـتلزم جـــواز نفي الرضـــا، لأن المجـــاز معنـــاه نفي الحقيقة، وهذا أمر خطير جدا.
ولهذا بين شيخ الإسـلام ابن تميمة وابن قيم : أنه لا مجـاز في القـرآن ولا في اللغـة، خلافا لمن قـال : كل شي في اللغة مجاز .
17- أن الصـــحابة تطلق على المشـــاكلة في شي من الأشـياء ولا يلـزم منه المقارنـة، لقوله : (وسـخط على صـــاحبيك)، فالصـــاحب هنا : من يشـــبه حاله في أن الله أنعم عليه بعد البؤس .
18- اختبار الله – عز وجل – بما أنعم عليهم به .
19 – أن التـــذكير قد يكـون بـــالأقوال أو الأفعـال أو الهيئات .
20 – أنه يجوز للإنسان أن ينسب لنفسه شيئا لم يكن من أجل الاختبار، لقول الملك : إنه فقير وابن سبيل .
21 – أن هذه القصة كانت معروفة مشهورة ، لقوله : (فقد رضى الله عنك وسخط على صاحبيك) .

***   *   ***

فيه مسائل :
الأولي :تفســـير الآية . وهي قوله تعـــالى : (ولئن أذقنـــاه رحمة منا من بعد ضـــراء مســـته ليقـــولن هـــذا لي)،وقد سبق أن الضمير في قوله: (أذقنـاه) يعـود على الإنسان باعتبار الجنس .
الثانية : ما معنى(ليقولن هـذا لي).اللام للاسـتحقاق، والمعنى : إني : حقيق به وجدير به.
الثالثة : ما معـنى قوله : (إنما أوتيته على علم) . وقد سبق بيان ذلك .

الرابعة : ما في هـــــذه القصة العجيبة من العــــــبر العظيمـة. وقد سـبق ذكر عـبر كثـيرة منهـا، وهـذا ليس اســـتيعابا، ومن ذلك الفــــرق بين الأبــــرص والأقــــرع والأعمى، فـإن الأبـرص والأقـرع جحـدا بنعمة الله – عز وجل – والأعمى اعـترف بنعمة اللـه، عنـدما طلب الملك من الأعمى المسـاعدة، قـال : (خذ ما شـئت) فـدل هـذا على جــوده و إخلاصــه، لأنه قــال : (فوالله ، لا أجهــدك اليـــــوم بشي أخذته لله - عز وجل -) بخلاف الأبـــــرص والأقرع حيث كانوا بخلاء منكرين نعمة الله – عز وجل - .

* * *

باب قوله تعالي :

(فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ فِيمَا آتَاهُمَا فَتَعَالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ) (لأعراف:190)

قوله : (فلما آتاهما) . الضمير يعود على ما سبق من النفس وزوجها ، ولهذا ينبغي أن يكون الشــرح من قوله تعالى : (هو الذي خلقكم من نفس واحدة ...) .

قوله : (خلقكم من نفس واحدة) فيها قولان :

الأول : أن المراد بالنفس الواحـدة : العين الواحـدة، أي : من شــخص معين ، وهو آدم عليه الســلام، وقوله : (وجعل منها زوجها)،أي حواء، لأن حـواء خلقت من ضـلع آدم .

الثاني : أن المراد بالنفس الجنس، وجعل هـذا الجنس زوجه، ولم يجعل زوجه من جنس آخـر، والنفس قد يـراد بها الجنس، كما في قوله تعـــــــالى (لقد من الله على المؤمنين إذ بعث فيه رسولا من أنفسـهم) (آل عمـران : 164) أي : من جنسهم .

قوله : (ليسكن إليها) سكون الرجل إلى زوجته ظاهر من أمرين:

أولهما : لأن بينهما من المــودة والرحمة ما يقتضي الأنس والاطمئنان والاستقرار.

ثانيا : سكون من حيث الشهوة، وهذا سـكون خـاص لا يوجد له نظير حتى بين الأم وأبنها .

وقوله : (ليسـكن إليهـا) تعليل لكونها من جنسه أو من النفس المعينة.

قوله : (فلما تغشاها) . أي : جامعهـا،وعـبرة القـرآن والسـنة التكنية عن الجمـاع، قـال تعـالى : (أو لامسـتم النسـاء) (النسـاء:43)، وقـال : (اللاتي دخلتم بهن) (النسـاء : 23) وقـال تعـالى : (وقد أفضى بعضـكم إلى بعض) (النساء21) كأن الاستحياء من ذكره بصريح أسـمه أمر فطـري، ولأن الطبـاع السـليمة تكـره أن تـذكر هـذا الشي باسـمه إلا إذا دعت الحاجة إلى ذلـك، فإنه قد يصرح به، كما في قول الرسـول صـلى الله عليه وسـلم لماعز وقد أقرّ عنده بـالزنى : (أنكتها لا يكـني)[1] ، لأن الحاجة هنا داعية للتصـريح حـتى يتـبين الأمر جليـا، ولأن الحدود تدرأ بالشبهات .

وتشبيه علو الرجل بالمرأة بالغشيان أمر ظـاهر، كما أن الليل يستر الأرض بظلامـه، قـال تعـالى : (والليل إذا يغشـى) (الليل : 1) وعـبر بقوله (تغشـاها) ولم يقل : غشيها، لأن تغشى أبلغ، وفيه شي من المعالجـة، ولهـذا جـاء في الحـديث: (إذا جـاس بين شـعبها الأربع ثم جهـدها)[2]، والجلـوس بين شـعبها الأربع هـذا غشـيان، (جهدها)(2) هذا تغشي .

قوله : (حملت حملا خفيفاً). الحمل في أوله خفيف : نطفة ، ثم علقة ، ثم مضغة .

قوله : (فمرت بـه) . المـرور بالشي تجـاوزه من غـير تعب ولا إعيـاء، والمعـنى : تجـاوزت هـذا الحمل الخفيف من غير تعب ولا إعياء.

قوله : (فلما أثقلت). الأثقال في آخر الحمل .

قوله : (دعوا الله) ولم يقل : دعيـا، لأن الفعل واوي، فعاد إلى أصله .

---

[1] البخاري : كتاب المحاربين/ باب هل يقول الإمام للمقر لعلك لمست .

[2] البخاري : كتاب الغسل/ باب إذا التقى الختانان ، ومسلم : كتاب الحيض/ باب نسخ الماء من الماء.

قوله (الله ربهمـــــــــا) أتي بالألوهية والربوبية ، لأن الدعاء يتعلق به جانبان :
الأول : جانب الألوهية من جهة العبد أنه داع ، والدعاء عبادة .
الثـــاني : جــانب الربوبية ؛ لأن في الــدعاء تحصـــيلا للمطلوب ، وهذا يكون متعلقا بالله من حيث الربوبية .
والظــاهر أنهما قــالا : اللهم ربنا ، ويحتمل ان يكــون بصيغة أخري .
قوله (لئن آتيتنا صالحا) . أي أعطيتنا .
وقوله : (صالحا) ؛ هل المراد صلاح البـدن أو المـراد صلاح الدين ، اي : لئن آتيتنا بشـرا سـويا ليس فيه عاهة لا نقص ، أو صالحا بالدين ، فيكون تقيا قائما بالواجبـات ؟
الجواب يشمل الأمرين جميعا ، وكثير من المفسـرين لم يــذكر إلا الأمر الاول ، وهو الصــلاح البــدني ، لكن لا مانع من ان يكون شاملا للأمـرين جميعا قوله : (لنكـونن من الشـاكرين) ، أي : من القـائمين بشـكرك على الولد الصالح .
والجملة هنا جواب قسم وشرط قسم متقدم وشــرط متاخر ، والجواب فيه للقسم ولهذا جـاء مقرونا بـاللام : لنكونن .
قوله : (فلما آتاهما صــالحا)هنا حصل المطلـــوب ، لكن لم يحصل الشـــكر الـــذي وعد الله به ، بل جعلا له شركاء فيما أتاهما .
وقوله : (جعلا له شركاء فيما آتاهما) هـذا هو جـواب (لما) .
والجواب متعقب للشـرط وهـذا يـدل على أن الشـرك منهما حصل حين إتيانه وهو صغير ، ومثل هـذا لا يعـرف ايصلح في دينه في المسـتقبل أم لا يصـلح؟ ولهـذا كـان أكثر المفسرين على أن المراد بالصلاح الصلاح البدني .

فمعاهدة الإنسـان ربه ان يفعل العبـادة مقابل تفضل الله عليه بالنعمة الغـــالب أنه لا يفي بها ؛ ففي ســـورة التوبة قــال تعـالي : (وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَـدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ

فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ وَلَنَكُونَنَّ مِنَ الصَّالِحِينَ* فَلَمَّا آتَاهُمْ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُعْرِضُونَ) (التوبة:75-76) وفي هذه الآية قال الله تعالى : (لئن آتيتنا صالحا لنكونن من الشاكرين * فلما آتاهما صالحا جعلا له شركاء) فكانا من المشركين لا من الشاكرين ، ولهذا نعرف الحكمة من نهي النبي صلى الله عليه وسلم النذر وقال : (أنه لا يرد شيئا ، وإنما يستخرج به من البخيل) [1]وقد ذهب كثير من اهل العلم إلى تحريم النذر ، وظاهر كلام شيخ الإسلام ابن تيميه أنه يميل إلى تحريم النذر ؛ لأن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهي عنه ونفى أنه ياتي بخير .

إذا ما الذي نستفيد من أمر نهى عنه الرسول صلى الله عليه وسلم وقال : انه لا ياتي بخير.

الجواب : لا نستفيد إلا المشقة على انفسنا وإلزام أنفسنا بمن نحن منه في عافية ، ولهذا ، فالقول بتحريم النذر قول قوي جدا ، ولا يعرف مقدار وزن هذا القول إلا من عرف أسئلة الناس وكثرتها ورأي أنهم يذهبون إلى كل عالم لعلهم يجدون خلاصا مما نذروا .

فإن قيل : هذا الولد الذي آتاهما الله ـ عز وجل ـ كان واحدا ؛ فكيف جعلا في هذا الولد الواحد شركا بل شركاء ؟

فالجواب أن نقول هذا على ثلاثة أوجه :

الوجه الأول : أن يعتقد بأن هذا الذي اتي بهذا الولد هو الولي الفلاني والصالح الفلاني ونحو ذلك ؛ فهذا شرك أكبر ، لأنهما أضافا الخلق إلى غير الله .

ومن هذا ما يوجد أيضا عند بعض الأمم الإسلامية الأن ، فتجد المرأة التي لا يأتيها الولد تأتي إلى قبر الولي الفلاني ، كما يزعمون أنه ولي الله ـ والله اعلم بولايته ـ ، فتقول : يا سيدي فلان أرزقني ولداً .

---

[1] البخاري كتاب القدر / باب إلقاء العبد النذر إلى القدر ، ومسلم كتاب النـذر / باب النهي عن النذر

الوجه الثاني: أن يضيف سلامة المولود ووقايته إلى الأطباء وإرشاداتهم وإلى القوابل وما أشبه ذلك فيقولون مثلا : سلم هذا الولد من الطلق ؛ لأن القابلة إمرأة متقنة جيدة ، فهنا أضاف النعمة إلى غير الله ، وهذا نوع من الشرك ولا يصل إلى حد الشرك الأكبر، لأنه اضاف النعمة إلى السبب ونسي المسبب وهو الله ـ عز وجل ـ

الوده الثالث: أن لا يشرك من ناحية الربوبية بل يؤمن أن هذا الولد خرج سالما بفضل الله ورحمته ، ولكن يشرك من ناحية العبودية ، فيقدم محبته على محبة الله ورسوله ويلهيه عن طاعة الله ورسوله قال تعالى : (إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللَّهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ) (التغابن:15) فكيف تجعل هذا الولد ندا لله في المحبة وربما قدمت محبته على محبة الله ، والله هو المتفضل عليك به ؟!

وفي قوله (فلما آتاهما) نقد لاذع أن يجعلا في هذا الولد شريكا مع الله ، مع أن الله هو المتفضل به ، ثم قال : (فَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ) أي : ترفع وتقدس عما يشركون به من هذه الأصنام وغيرها .

ومن تأويل الآية وحدها دالة على أن قوله : (خلقكم من نفس واحدة) أي : من جنس واحد ، وليس فيها تعرض لأدم وحواء بوجه من الوجوه ، ويكون السياق فيهما جاريا على الأسلوب العربي الفصيح الذي له نظير في القرآن ، كقوله تعالى : (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولاً مِنْ أَنْفُسِهِمْ)(آل عمران: من الآية 164) أي : من جنسهم ، وبهذا التفسير الواضح البين يسلم الإنسان من إشكالات كثيرة .

أما على القو الثاني بان المراد بقوله تعالى(من نفس واحدة) أي : آدم ، (وجعل منها زوجها) (النساء : 1) حواء ، فيكون معني الآية خلقكم من آدم وحواء .

فلما جامع حواء حملت حملا خفيفا ، فمرت به ، فلما أثقلت دعوا ـ أي:آدم وحواء ـ الله بهما (لَئِنْ آتَيْتَنَا صَالِحاً لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ * فَلَمَّا آتَاهُمَا صَالِحاً جَعَلا لَهُ شُرَكَاءَ) فأشرك آدم وحواء بالله ، لكن قالوا: أنه إشراك

طاعة لا إشــراك عبــادة (فتعــالى الله عما يشــركون) ، وهذا التفسير منطبق على المروي عن ابن عباس رضي الله عنه ، وســـنبين إن شـــاء الله تعـــالى وجه ضـــعفه وبطلانه .

وهناك قول ثـالث: أن المـراد بقوله تعـالى (من نفس واحدة) أي : آدم وحواء (فلما تغشاها) انتقل من العين إلى النـوع أي : من آدم إلى النـوع الـذي هم بنـوه ، أي : فلما تغشي الإنســان الـذي تسـلل من آدم وحـواء زوجته ... إلخ ، ولهذا قال تعالى :(فتعـالى الله عما يشـركون) بالجمع ولم يقل عما يشركان ، ونظـير ذلك في القـرآن قوله تعالى : (وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُوماً لِلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ) (الملـك:5) أي جعلنا الشهب الخارجة منها رجوما للشياطين وليست المصابيح نفسها ، وقوله تعـالى : (وَلَقَـدْ خَلَقْنَا الْأِنْسَـانَ مِنْ سُـلالَةٍ مِنْ طِينٍ*ثُمَّ جَعَلْنَـاهُ نُطْفَـةً فِي قَـرَارٍ مَكِينٍ) (المؤمنون:12-13) أي جعلناه بالنوع

قال بن حزم: " اتفقوا على تحريم كل اسم معبد لغير الله ، كعبد عمرو وعبد الكعبة وما أشبه ذلك حاشا عبدالمطلب "

وعلى هذا فأول الآية في آدم وحـواء ، ثم صـار الكلام من العين إلى النوع 0

وهــذا التفســير له وجه ، وفيه تنزيه آدم وحــواء من الشرك ، لكن فيه شيء من الركاكة لتشتت الضمائر 0

وأما قوله تعــالى (فتعــالى الله عما يشــركون) ، فجمع لأن المراد بــالمثنى اثنــان من هـذا الجنس ، فصح أن يعود الضمير إليهما مجموعاً ، كما في قوله تعالى : (وإن طائفتــان من المؤمــنين اقتتلــوا) } الحجــرات : 9 { ولم يقل : اقتتلتا ، لأن الطائفتين جماعة 0

****

قوله : " اتفقــوا " أي : أجمعــوا والإجمــاع أحد الأدلة الشرعية التي ثبتت بها الأحكـام ، والأدلة هي : الكتـاب ، والسنة والإجماع ، والقياس 0

قوله : " وما أشـــــبه ذلك " 0 مثل : عبدالحســـــين ، وعبدالرسول ، وعبدالمسيح ، وعبد علي 0

وأما قوله صلي الله عليه وسلم : (تعس عبدالـدينار ، تعس عبدالـدرهم ...)(1) الحـديث ، فهـذا وصف وليس علمـاً ، فشـبه المنهمك بمحبة هـذه الأشـياء المقـدم لها على ما يرضي الله بالعابد لها ، كقولك : عابد الـــدينار ، فهو وصف ، فلا يعارض الإجماع 0

---

(1) تقدم تخريجه (ص 724)

قوله (حاشا عبدالمطلب) حاشا الاستثنائية إذا دخلت عليها (مــا) وجب نصب ما بعــدها ، وإلا جــاز فيه النصب والجر

وبالنســبة لعبــدالمطلب مســتثنى من الإجمــاع على تحريمه ، فهو مختلف فيه ، فقـــال بعض أهل العلم : لا يمكن أن نقول بالتحريم والرسول صلي الله عليه وسلم قال :

(أنا النبي صلي الله عليه وسلم لا كذب أنا ابن عبد المطلب) (1)

فالنبي صلي الله عليه وسلم صلي الله عليه وسلم لا يفعل حراماً، فيجــوز أن يعبد للمطلب إلا إذا وجد ناسخ ، وهذا تقرير ابن حـزم رحمه الله ، ولكن الصـواب تحـريم التعبيد للمطلب ، فلا يجـــوز لأحد أن يســـمي ابنه عبد المطلب ، وأما قوله صلي الله عليه وسلم (انا ابن عبد

المطلب) ، فهو من باب الإخبار وليس من باب الإنشاء ، فـالنبي صـلي الله عليه وسـلم صـلي الله عليه وسـلم أخبر أن له جداً اسـمه عبد المطلب ، ولم يـرد عنه صـلي الله عليه وسلم أنه سـمى عبد المطلب ، أو أنه أذن لأحد صحابته بذلك ، ولا أنه أقر أحداً على تسميته عبدالمطلب ، والكلام في الحكم لا في الإخبـار ، وفـرق بين الإخبـار وبين الإنشاء والإقرار ، ولهذا قال النبي صـلي الله عليه وسلم صلي الله عليه وسلم : (إنما بنو هاشم وبنو عبد المطلب شيء واحد) (2) ، وقال صلي الله عليه وسلم (يابني عبد مناف) (3) ولا يجوز التسمي بعبد مناف

وقد قـال العلمـاء : إن حـاكي الكفر ليس بكـافر ، فالرسول صلي الله عليه وسلم يتكلم عن

وعن ابن عباس في الآية ، قـال : (لما تغشـاها آدم ، حملت ، فأتاهما إبليس ، فقـال : إني صـاحبكما الـذي أخرجتكما من الجنة ، لتطيعاني أو لأجعلن له قرني أيل ، فيخرج من بطنك ، فيشقه ، ولأفعلن ، يخوفهما ، سمياه عبد الحارث ، فأبيا أن يطيعانه ، فخرج ميتاً

شيء قد وقع وانتهى ومضى ، فالصـواب أنه لا يجـوز أن يعتبد لغـير الله مطلقـاً لا بعبد المطلب ولا غـيره ، وعليه ، فيكون التعبد لغير الله من الشرك

***

قوله : (إبليس) . على وزن إفعيل ، فقيل : من أبلس إذا يئس ، لأنه يئس من حرمة الله تعالى

قوله : (لتطيعـانني) جملة قسـمية ، أي : والله لتطيعاني .

قوله : (ايل) هو ذكر الأوعال

قوله (سـمياه عبد الحـارث) اختـار هـذا الاسم ، لأنه اسمه فأراد أن يعبدان لنفسه

قوله: (فخرج ميتــاً) لم يحصل التهديد الأول، ويجــوز أن يكــــــون من جملة : (ولأفعلن) ، ولأنه قــــــال : (ولأخرجنه ميتاً)

قوله : (شــــركاء في طاعته) أي : أطاعـــــاه فيما أمرهما به ، لا في العبــادة لكن عبــدا الولد لغــير الله ، وفرق بين الطاعة والعبادة ، فلو أن أحـداً أطـاع شخصـاً في معصــية لله لم يجعله شــريكاً مع الله في العبــادة ، لكن أطاعه في معصية الله

قوله (أشــفقا أن لا يكــون إنســاناً) أي : خــاف آدم وحواء أن يكون حيواناً أو جنياً أو غير ذلك

ثم حملت ، فأتاهما ، فـذكر لهما ، فأدركهما حب الولد ، فسـمياه عبد الحـارث ، فـذلك قوله : (جعلا له شـركاء فيما آتاهما) رواه ابن أبي حاتم (1)

وله بســند صــحيح عن قتــادة ، قــال : (شــركاء في طاعته ، ولم يكن في عبادته) (2)

____

قوله (وذكر معنـــاه عن الحسن) 0 لكن الصـــحيح أن الحسن رحمه الله قال : إن المراد بالآية غير آدم وحواء، وإن المراد بها المشركون من بــني آدم كما ذكر ذلك ابن كثــير رحمه الله في (تفســيره) وقــال : (أما نحن ، فعلى مـذهب الحسن البصـري رحمه الله في هـذا ، وأنه ليس المراد من هذا السياق آدم وحواء ، وإنما المراد من ذلك المشركون من ذريته) أ هـ

وهذه القصة باطلة من وجوه :

الوجه الأول : أنه ليس في ذلك خبر صـحيح عن النـبي صلي الله عليه وسلم صلي الله عليه وسـلم ، وهـذا من الأخبـار الـتي لا تتلقى إلا بـالوحي ، وقد قـال ابن حـزم عن هذه القصة : إنها رواية خرافة مكذوبة موضوعة

الوجه الثاني : أنه لو كانت هذه القصة في آدم وحـواء ، لكـــان حالهما إما أن يتوبا من الشـــرك أو يموتا عليه ، فـــإن قلنا : ماتا عليه ، كــان ذلك أعظم من قــول بعض الزنادقة :

إذا ماذكرنا آدماً وفعاله وتزويجه بنتيه بابنيه بالخنا

علمنا بأن الخلق من نسل فاجر وأن جميع الناس من عنصر الزنا

فمن جـوز مـوت أحد من الأنبيـاء على الشـرك فقد أعظم الفرية ، وإن كـــان تابا من الشـــرك ، فلا يليق بحكمة الله وعدله ورحمته أن يـــذكر خطأهما ولا يـــذكر توبتهما منه ، فيمتنع غاية الامتناع أن يـذكر الله الخطيئة من آدم وحواء وقد تابا ، ولم يذكر توبتهما ، والله تعـالى إذا ذكر خطيئة بعض أنبيائه ورسله ذكر تـوبتهم منها كما في قصة آدم نفسه حين أكل من الشـــجرة وزوجه وتابا من ذلك

الوجه الثـالث : أن الأنبيـاء معصـومون من الشـرك باتفاق العلماء

الوجه الرابع : أنه ثبت في حديث الشـفاعة أن النـاس يأتون إلى آدم يطلبون منه الشـفاعة ، فيعتـذر بأكله من الشـجرة (2) وهو معصـية ، ولو وقع منه الشـرك ، لكـان اعتذاره به أقوى وأولى وأحرى

الوجه الخامس : أن في هذه القصة أن الشيطان جـاء إليهما وقال : (أنا صاحبكما الـذي أخرجكما من الجنة) ، وهذا لا يقوله من يريد الإغواء ، وإنما يأتي بشيء يقـرب قبول قوله ، فإذا قال : (أنا صاحبكما الذي أخرجكما من الجنة) ، فســيعلمان علم اليقين أنه عـــدو لهما ، فلا يقبلان منه صرفاً ولا عدلاً

الوجه الســادس : أن في قوله في هـــذه القصة : (لأجعلن له قـرني إيل) : إما أن يصـدقا أن ذلك ممكن في حقه ، فهذا شرك في الربوبية لأنه لا يقدر على ذلك إلا الله ، أو لا يصـــــدقا ، فلايمكن أن يقبلا قوله وهما يعلمان أن ذلك غير ممكن في حقه

الوجه الســابع : قوله تعـــالى : (فتعـــالى الله عما يشـركون) بضـمير الجمع ، ولو كـان آدم وحـواء ، لقـال عما يشـركان فهـذه الوجـوه تـدل على أن هـذه القصة باطلة من أساســـها ، وأنه لا يجـــوز أن يعتقد في آدم

وحــواء أن يقع منهما شــرك بــأي حــال من الأحــوال ، والأنبياء مـنزهون عن الشـرك مـبرؤون منه باتفـاق أهل العلم ، وعلى هذا ، فيكون تفسـير الآية كما أسـلفنا أنها عائدة إلى بني آدم الـذي أشـركوا شـركاً حقيقيـاً ، فـإن منهم مشركاً ومنهم موحداً

***

فيه مسائل :

الأولى : تحــريم كل اسم معبد لغــير الله 0 تؤخذ من الإجماع على ذلك ، ولاإجمـاع الأصل الثـالث من الأصـول الـتي يعتمد عليها في الـدين ، والصـحيح أنه ممكن وأنه حجة إذا حصل لقوله تعـالى : (فـإن تنـازعتم في شـيء فردوه إلى الله والرسول) (النساء : 58) ، و(إن) هذه شرطية لا تدل على وقوع التنازع ، بل إن فــرض ووقع ، فـالمردّ إلى الله ورسـوله ، فعلم منه أننا إذا أجمعنا فهو حجة

لكن ادعاء الإجماع يحتـاج إلى بينة ، ولهـذا قـال شـيخ الإسلام ابن تيمية : الإجمـاع الـذي ينضـبط ما كـان عليه السلف الصالح، إذ بعدهم كثر الاختلاف وانتشـرت الأمة ، ولما قيل للإمــام أحمد : إن فلانــاً يقــول : أجمعـوا على كذلك ، أنكر ذلك وقال : وما يدريه لعلهم اختلفـوا ، فمن ادعى الإجماع ، فهو كاذب

ولعل الإمـــــام أحمد قـــــال ذلك ، لأن المعتزلة وأهل التعطيل كـانوا يتـذرعون إلى إثبـات تعطيلهم وشـبههم بالإجماع ، فيقولون : هـذا إجمـاع المحققين ، وما أشـبه ذلك

وقد سـبق أن الصـحيح أنه لا يجـوز التعبيد للمطلب ، وأن قـول الرسـول صـلي الله عليه وسـلم (أنا ابن عبد المطلب) (1) أنه من قبيل الإخبار ولي إقرار ولا إنشـاء ، والإنسـان له أن ينتسب إلى أبيه وإن كـان معبـداً لغـير الله ، وقد قال النـبي صـلي الله عليه وسـلم صـلي الله عليه وسلم (يابني عبد منـاف) (1) ، وهـذا تعبيد لغـير الله لكنه من باب الإخبار

الثانية : تفسير الآية
يعني قوله تعـالى : (فلما آتاهما صـالحاً ....) الآية ، وسبق تفسيرها
الثالثة : أن هـذا الشـرك في مجـرد تسـمية لم تقصد حقيقتها
وهــذا بنــاء على ما ذكر عن ابن عبــاس رضي الله عنهما في تفسير الآية ، والصواب : أن هـذا الشـرك حق حقيقة ، وأنه شرك من إشراك بني آدم من آدم وحــواء ، ولهـذا قـال تعـالى في الآية نفسـها : (ايشـركون ما لا يخلق شــيئاً وهم يخلقــون) ، فهــذا الشــرك الحقيقي الوقع من بني آدم
الرابعــة: أن هبة الله للرجل البنت السـوية من النعم. هذا بناء على ثبوت القصة، وأن المراد بقوله: (صالحاً) ، أي : بشراً سـوياً ، وأتى المؤلف بـالبنت دون الولد ، لأن بعض الناس يرون أن هبة البنت من النقم ، قال تعالى : (وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مســوداً وهو كظيم * يتـوارى من القـوم من سـوء ما بشر به أيمسـكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون) (النحل : 58-59)ـ ، وإلا ، فهبة الولد الذكر السوي من بـاب النعم أيضاً ، بل هو أكبر نعمة من هبة الأنـثى ، وإن كـانت هبة البنت بها أجر عظيم فيمن كفلها ورباها وقام عليها

الخامسة : ذكر السلف الفرق بين الشرك في الطاعة والشرك في العبادة
وقبل ذلك نــبين الفــرق بين الطاعة وبين العبــادة ، فالطاعة إذا كـــانت منســـوبة لله فلا فـــرق بينها وبين العبادة ، فإن عبادة الله طاعته
وأما الطاعة المنسوبة لغير الله ، فإنها غـير العبـادة ، فنحن نطيع الرسول صلي الله عليه وسلم لكن لا نعبده ، والإنسان قد يطيع ملكاً من ملوك الدنيا وهو يكرهه
فالشرك بالطاعة : أنـني أطعته لا حبـاً وتعظيمـاً وذلاً كما أحب الله وأتـــذلل له وأعظمه ، ولكن طاعته اتبـــاع لأمره فقط ، هذا هو الفرق

وبنـاء على القصـة، فـإن آدم وحـواء أطاعا الشـيطان ولم يعبداه عبادة، وهذا مبني على صحة القصة

****

باب قول الله تعالى
(وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ) (لأعراف:180)

هــذا ال يتعلق بتوحيد الأســماء والصــفات ، لأن هــذا الكتــاب جــامع لأنــواع التوحيد الثلاثة : توحيد العبــادة ، وتوحيد الربوبية ، وتوحيد الأسماء والصفات
وتوحيد الأسماء والصفات : هو إفراد الله – عز وجل – بما ثبت له من صـــفات الكمـــال على وجه الحقيقة بلا تمثيل ولا تكييف ولا تعطيل
لأنك إذا عطلت لم تثبت ، وإن مثلت لم توحد ، والتوحيد مــركب من إثبــات ونفي ، أي : إثبــات الحكم للموحد ونفيه عما عداه ، فمثلاً إذا قلت : زيد قــائم ، لم توحـده بالقيـام ، وإذا قلت : زيد غـير قـائم ، لم تثبت له القيام ، وإذا قلت : لا قائم إلا زيد ، وحدته بالقيام
وإذا قلت : لا إله إلا الله ، وحدته بالألوهية ،وإذا أثبت لله الأســماء والصــفات دون أن يماثله أحد ، فهــذا هو توحيد الأسماء والصفات ، وإن نفيتها عنه ، فهذا تعطيل ، وإن مثلت ، فهذا إشراك

****

قوله تعالى : (ولله الأسماء الحسنى)
طريق التوحيد هنا تقـديم الخــبر لأن تقـديم ما حقه التأخير يفيد الحصر ، ففي الآية توحيد الأسماء لله
وقوله : (الحسنى) مؤنث أحسن ، فهي اسم تفضيل ، ومعـنى الحسـنى ، أي : البالغة في الحسن أكمله ، لأن اسم التفضيل يدل على هذا ، والتفضيل هنا مطلق ، لأن

اسم التفضيل قد يكـون مطلقـاً مثـل:زيد الأفضل ، وقد يكون مقيداً مثل : زيد أفضل من عمرو

وهنا التفضـــيل مطلق ، لأنه قـــال : (ولله الأســـماء الحسنى)

فأســـماء الله تعـــالى بالغة في الحسن أكمله من كل وجه ، ليس فيها نقص لا فرضاً ولا احتمالاً

وما يخـــبر به عن الله أوسع مما يســـمى به الله ، لأن الله يخبر عنه بالشيء ويخـبر عنه بـالمتكلم والمريد ، مع أن الشـيء لا يتضـمن مـدحاً والمتكلم والمريد يتضـمنان مدحاً من وجه وغير مدح من وجه ، ولا يسمى الله بـذلك ، فلا يسمى بالشيء ولا بالمتكلم ولا بالمريد ، لكن يخبر بذلك عنه

وقد سبق لنا مباحث قيمة في أسماء الله تعالى :

الأول : هل أسماء الله تعالى أعلام أو أوصاف ؟

الثاني : هل أسماء الله مترادفة أو متباينة ؟

الثالث : هل أسماء الله هي الله أو غيره ؟

الرابع : أسماء الله توقيفية

الخامس : أسماء الله غير محصورة بعدد معين

السادس : أسماء الله إذا كـانت متعدية ، فإنه يجب أن تؤمن بالاسم والصفة وبالحكم الذي يسمى أحياناً بـالأثر ، وإن كـانت غـير متعدية ، فإنه يجب أن تـؤمن بالاسم والصفة

السابع : إحصاء أسماء الله معناه :

1 - الإحاطة بها لفظاً ومعنى

2 - دعاء الله بها ، لقوله تعالى:(فادعوه بها) ، وذلك بأن تجعلها وسيلة لك عند الدعاء ، فتقـول : يا ذا الجلال والإكرام ! ياحي يا قيوم ! وما أشبه ذلك

3 - أن تتعبد لله بمقتضاها ، فإذا علمت أنه رحيم تتعـرض لرحمته وإذا علمت أنه غفـور تتعـرض لمغفرته ، وإذا علمت أنه سـميع اتقيت القـوم الـذي يغضـبه ، وإذا علمت أنه بصير اجتنب الفعل الذي لا يرضاه

قوله تعـالى : (فـادعوه بها) . الـدعاء هو السـؤال ، والـدعاء قد يكـون بلسـان المقـال ، مثل : اللهم ! اغفر لي يا غفـور وهكـذا ، أو بلسـان الحـال وذلك بالتعبد له ،

ولهذا قال العلماء : إن الدعاء دعاء مسألة ودعاء عبـادة ، لأن حقيقة الأمر أن المتعبد يرجو بلسان حاله رحمة الله ويخاف عقابه

والأمر بـدعاء الله بها يتضـمن الأمر بمعرفتها ، لأنه لا يمكن دعاء الله بها إلا بعد معرفتها

وهـــذا خلافا لما قاله بعض المــــداهنين في وقتنا الحاضر : إن البحث في الأسـماء والصـفات لا فائـدة فيه ولا حاجة إليه

أيريدون أن يعبدوا شيئاً لا أسماء له ولا صفات ؟!

أم يريدون أن يداهنوا هؤلاء المحرفين حــتى لا يحصل جدل ولا مناظرة معهم ؟!

وهذا مبدأ خطير أن يقال للناس لا تبحثوا في الأسماء والصفات ، مع أن الله أمرنا بدعائه بها ، والأمر للوجـوب ، ويقتضي وجوب علمنا بأسماء الله ، ومعلـوم أيضـاً أننا لا نعلمها أســماء مجــردة عن المعــاني ، بل لا بد أن لها معـاني فلا بد أن نبحث فيها ، لأن علمها ألفاظـاً مجـردة لا فائــدة فيه ، وإن قــدر أن فيه فائــدة بالتعبد باللفظ ، فإنه لا يحصل به كمال الفائدة

أن دعاء الله بأسمائه له معنيان :

الأول:دعـاء العبـادة ، وذلك بـأن تتعبد لله بما تقتضـيه تلك الأسـماء ، ويطلق على الـدعاء عبـادة ، قـال تعـالى: (وقال ربكم ادعـوني اسـتجب لكم إن الـذين يسـتكبرون عن عبادتي)(غافر : 60) ، ولم يقل: عن دعائي ، فدل على أن الدعاء عبادة

فمثلاً : الـرحيم يـدل على الرحمة ، وحينئذ تتطلع إلى أسباب الرحمة وتفعلها

والغفور يدل على المغفـرة ، وحينئذ تتعـرض لمغفـرة الله – عز وجل – بكـــثرة التوبة والاســتغفار كـــذلك وما أشبه ذلك

والقريب : يقتضي أن تتعرض إلى القرب منه بالصلاة وغيرها ، وأقرب ما يكون العبد من ربه وهو ساجد

والســـميع : يقتضي أن تتعبد لله بمقتضى الســـمع ، بحيث لا تسمع الله قولاً يغضبه ولا يرضاه منك

والبصـــــير : يقتضي أن تتعبد لله بمقتضى ذلك البصر بحيث لا يرى منك فعلاً يكرهه منك
الثـاني : دعـاء المسـألة ، وهو أن تقـدمها بين يــدي سؤالك متوسلاً بها إلى الله تعالى
مثلاً : يا حي يا قيوم اغفر لي وارحمني ، وقال صلي الله عليه وســـلم : (فـــاغفر لي مغفـــرة من عنـــدك وارحمني إنك أنت الغفور الـرحيم) (1)ـ ، والإنسـان إذا دعا وعلل ، فقد أثـــنى على ربه بهـــذا الاسم طالبـــاً أن يكون سبباً للإجابة ، والتوسل بصفة المـدعو المحبوبة له ســبب للإجابة ، فالثنــاء على الله بأسـمائه من أســباب الإجابة

قوله تعالى : (وذروا الذين يلحدون)
(ذروا) : اتركـــوا ، (الـــذين) : مفعـــول به ، وجملة يلحدون صلة الموصول
ثم توعـدهم بقوله : (سـيجزون ما كـانوا يعملـون) ، وهو الإلحاد ، أي : سيجزون جزاءه المطابق للعمل تماماً ، ولهذا يعبر الله تعالى بالعمل عن الجزاء إشارة للعدل ، وأنه لا يجزى الإنسان إلا بقدر عمله
والمعـــنى : ذروهم ، أي : لا تســـلكوا مســـلكهم ولا طريقهم : فـإنهم على ضـلال وعـدوان ، وليس المعـنى عـدم مناصـحتهم وبيـان الحق لهم ، إذ لا يـترك الظـالم على ظلمه ، ويحتمل أن المـــراد بقوله (ذروا) تهديـــداً للملحدين
والإلحـــاد : مـــأخوذ من اللحد ، وهو الميل ، لحد وألحد بمعنى مال ، ومنه سمي الحفر بـالقبر لحـداً ، لأنه مائل إلى جهة القبلة
والإلحـاد في أســماء الله : الميل بها عما يجب فيها ، وهو أنواع :
الأول : أن ينكر شـــيئاً من الأســـماء أو مما دلت عليه من الصفات أو الأحكـام ، ووجه كونه إلحـاداً أنه مـال بها عما يجب لها ، إذ الـواجب إثباتها وإثبـات ما تتضـمنه من الصفات والأحكام

الثــاني : أن يثبت لله أســماء لم يسم الله بها نفسه ، كقول الفلاسفة في الله : إنه علة فاعلة في هذا الكـون تفعل وهذا الكون معلول لها ، وليس هناك إله وبعضــهم يسميه العقل الفعال ، فالذي يدير هذا الكــون هو العقل الفعال ، وكذلك النصارى يسمون الله أباً وهذا إلحاد

الثــالث : أن يجعلها دالة على التشــبيه فيقــول : الله سميع بصير قدير ، والإنسان سميع بصير قــدير ، اتفقت هذه الأسماء ، فيلزم أن تتفق المسميات ، ويكـون الله – سبحانه وتعالى – مماثلاً للخلق ، فيتدرج بتوافق الأسماء إلى التوافق بالصفات

ووجه الإلحاد : أن أسـماءه دالة على معـان لائقة بالله لا يمكن أن تكون مشابهة لما تدل عليه من المعـاني في المخلوق

الرابع: أن يشتق من هذه الأســماء للأصــنام، كتســمية اللات من الإله أو من الله ، والعــزى من العزيز ، ومنـــاة من المنان حتى يلقوا عليها شيئاً من الألوهية ليبرروا ما هم عليه

واعلم أن التعبــــير بنفي التمثيل أحسن من التعبــــير بنفي التشبيه ، لوجوه ثلاثة :

1 -أنه هو الــذي نفــاه الله في القــرآن،فقــال:(ليس كمثله شيء وهو السميع البصير)(الشورى:11)

2 -أنه ما من شـيئين موجـودين إلا وبينهما تشـابه من بعض الوجوه واشتراك في المعنى من بعض الوجوه

فمثلاً : الخالق والمخلوق اشتركا في معـنى الوجـود ، لكن وجود هـذا يخصه ووجـود هـذا يخصه ، وكـذلك العلم والسمع والبصر ونحوها اشـترك فيها الخـالق والمخلـوق وفي اصل المعنى ، ويتميز كل واحد منهما بما يختص به

3 - أن الناس اختلفـوا في معـنى التشـبيه حـتى جعل بعضهم إثبات الصفات تشبيهاً ، فيكون معنى بلا تشبيه ، أي : بلا إثبات صفات على اصطلاحهم

قوله تعـالى : (سـيجزون ماكـانوا يعملـون) لم يقل يجزون العقـاب إشـارة إلى أن الجـزاء من جنس العمل ، وهذا وعيد ، وهو كقوله تعالى (سـنفرغ لكم أيه الثقلان

) (الـرحمن 31)ـ ، وليس المعـنى أن الله – عز وجل – مشغول الآن وسيخلفه الفراغ فيما بعد

قوله : (يعملون) العمل يطلق على القـول والفعل ، قـال تعـالي (فمن ذكر ابن أبي حـاتم عن ابن عبـاس : (يلحـدون في أسـمائه) : (يشـركون) 0 وعنه (سـموا اللات من الإله ، والعزى من العزيز)

____

يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يــره) (الزلزلة : 7-8)ـ ، وهــذا يكــون في الأفعــال والأقوال 0

***

قــول ابن عبــاس : (يشــركون) تفســير للإلحــاد ، ويتضمن الإشراك بها في جهتين :

1 - أن يجعلوها دالة على المماثلة

2 - أو يشتقوا منها أسماء للأصنام ، كما في الرواية الثانية عن ابن عبـاس الـتي ذكرها المؤلف ، فمن جعلها دالة على المماثلة ، فقد أشــــرك لأنه جعل لله مــــثيلاً ، ومن أخذ منها أســماء لأصــنامه ، فقد أشــرك لأنه جعل مسميات هذه الأسماء مشاركة لله – عز وجل

وقوله : (وعنه) 0 أي : ابن عباس

قولـه: (سـموا اللات من الإله .....) وهـذا أحد نـوعي الإشراك بها أن يشتق منها أسماء للأصنام 0

* تنبيه :

فيه كلمة تقولها النســاء عنــدنا وهي : (وعــزالي) ، فما هو المقصود بها ؟

الجـواب : المقصـود أنها من التعزية ، أي : أنها تطلب الصبر والتقوية وليست تنـدب العـزى الـتي هي الصـنم ، لأنها قد لا تعرف أن هناك صنماً اسـمه العـزى ولا يخطر ببالها هذا ، وبعض الناس قال : يجب إنكارها ، لأن ظاهر اللفظ أنها تندب العزى ، وهـذا شـرك ، ولكن نقـول : لو كـان هـذا هو المقصـود لـوجب الإنكـار ، لكننا نعلم علم

اليقين أن هـذا غـير مقصـود ، بل يقصد بهـذا اللفظ التقوي والصبر والثبات على هذه المصيبة
قوله : (عن الأعمش : يـدخلون فيها ما ليس منها) هذا أحد أنـواع الإلحـاد ، وهو أن يسـمى الله بما لم يسم به نفسه ، ومن زاد فيها فقد ألحد ، لأن الـواجب فيها الوقوف على ما جاء به السمع

تتمة :
جـاءت النصـوص بالوعيد على الإلحـاد في آيـات الله تعـالى كما في قوله تعـالى : (إن الـذين يلحـدون في آياتنا لا يخفـون علينا) (فصـلت : 40)ـ ، فقوله : (لا يخفـون علينا) فيها تهديد ، لأن المعـنى سـنعاقبهم ، والجملة مؤكدة بأن

وآيات الله تنقسم إلى قسمين :
1 - آيات كونية ، وهي كل المخلوقات من السماوات والأرض والنجوم والجبال والشـجر والـدواب وغـير ذلك ، قال الشاعر :
فواعجباً كيف يعصى الإله أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية تدل على أنه واحد
والإلحاد في الآيات الكونية ثلاثة أنواع :
1 - اعتقاد أن أحداً سوى الله منفرد بها أو ببعضها
2 - اعتقاد أن أحداً مشارك لله فيها
3 - اعتقاد أن لله فيها معيناً في إيجادها وخلقها وتدبيرها
والـدليل قوله تعـالى : (قل ادعو الـذين زعمتم من دون الله لا يملكـون مثقـال ذرة في السـماوات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير) (سبأ : 22) ظهير ، أي معين
وكل ما يخل بتوحيد الربوبية ، فإنه داخل في الإلحـاد في الآيات الكونية
2 - آيات شرعية ، وهو ما جاء به الرسل من الوحي كالقرآن ، قال تعـالى : (بل هو آيـات بينـات في صـدور الذين أوتوا العلم) (العنكبوت : 49)

والإلحاد في الآيات الشرعية ثلاثة أنواع :
1 - تكذيبها فيما يتعلق بالأخبار
2 - مخالفتها فيما يتعلق بالأحكام
3 - التحريف في الأخبار والأحكام
والإلحاد في الآيات الكونية والشرعية حرام
ومنه ما يكون كفراً ، كتكـذيبها ، فمن كـذب شـيئاً مع اعتقاده أن الله ورسوله أخبرا به ، فهو كافر
ومنه ما يكـــون معصـــية من الكبـــائر ، كقتل النفس والزنا
ومنه ما يكـون معصـية من الصـغائر ، كـالنظر لأجنبية لشهوة
قـال الله تعـالى في الحـرم : (ومن يـرد فيه بإلحـاد بظلم نذقه من عذاب أليم) (الحج : 25) ، فسمى الله المعاصي والظلم إلحـاداً ، لأنها ميل عما يجب أن يكــون عليه الإنسـان ، إذ الـواجب عليه السـير على صـراط الله تعالى ، ومن خالف ، فقد ألحد

***

فيه مسائل :
الأولى : إثبـات الأسـماء يعـني لله تعـالى ، وتؤخذ من قوله : (ولله الأسماء) ، وهذا خبر متضــمن لمدلوله من ثبــوت الأســماء لله ، وفي الجملة حصر لتقــديم الخــبر ، والحصر باعتبار كونها حسنى لا باعتبار الأسماء
وأنكر الجهمية وغلاة المعتزلة ثبــــوت الأســــماء لله تعالى
الثانية : كونها حســنى أي : بلغت في الحسن أكمله ، لأن (حسنى) مؤنث أحسن ، وهي اسم تفضيل
الثالثة : الأمر بدعائه بها والدعاء نوعان : دعاء مسألة ، ودعاء عبادة ، وكلاهما مــأمور فيه أن يــدعى الله بهـذه الأسماء الحسنى وسبق تفصيل ذلك (1)
الرابعة : ترك من عارض من الجـاهلين الملحـدين أي ترك سبيلهم ، وليس المعنى أن لا ندعوهم ولا نبين لهم ، والآية تتضمن أيضاً التهديد
الخامسة : تفسير الإلحاد فيها وقد سبق بيان أنواعه

السادسة : وعيد من ألحد وتؤخذ من قوله تعـــــالى : (سيجزون ما كانوا يعملون)

باب لا يقال : السلام على الله

هـــذه الترجمة أتى بها المؤلف بصـــيغة النفي ، وهو محتمل للكراهة والتحـــريم ، لكن اســـتدلاله بالحـــديث يقتضي أنه للتحريم وهو كذلك

والسلام له عدة معان :

1 - التحية ، كما قال : سلم على فلان ، أي : حياه بالسلام

2 - السلامة من النقص والآفـات ، كقولنا :(الســلام عليك أيها النـــبي صـــلي الله عليه وســـلم ورحمة الله وبركاته)

3 - السلام:اسم من أسماء الله تعالى ، قال تعالى : (الملك القدوس السلام) (الحشر : 23)

قولـــه: (لا يقـــال الســـلام على الله) أي : لا تقل : السلام عليكم يا رب ، لما يلي :

أ - أن مثل هـــذا الـــدعاء يـــوهم النقص في حقه ، فتدعو الله أن يسلم نفسه من ذلك ، إذ لا يـدعى لشـيء بالسلام من شيء إلا إذا كان قابلاً أن يتصف به ، والله – سبحانه – منزه عن صفات النقص

ب - إذا دعــوت الله أن يســـلم نفسه ، فقد خـــالفت الحقيقة ، لأن الله يـدعى ولا يـدعى له ، فهو غـني عنا ، لكن يثنى عليه بصفات الكمال مثل غفور ، سميع ، عليم .....

ومناسبة البـاب لتوحيد الصـفات ظـاهرة ، لأن صـفاته عليا كاملة كما أن أســـمائه حســـنى ، والـــدليل على أن صفاته عليا قوله تعالى : (للذين لا يؤمنون بالآخرة مثل السوء ولله المثل الأعلى) (النحل : 60)

وقوله تعـــالى : (وله المثل الأعلى في الســـماوات والأرض) (الروم : 27)

والمثل الأعلى : الوصف الأكمل ، فـإذا قلنا : السـلام على الله أوهم ذلك أن الله – سبحانه – قد يلحقه النقص ، وهذا ينافي كمال صفاته

ومناسـبة هـذا البـاب لما قبله ظـاهرة ، لأن موضـوع الباب الذي قبله إثبـات الأسـماء الحسـنى لله المتضـمنة لصفاته ، وموضوع هذا الباب سلامة صفاته من كل نقص ، وهذا يتضمن كمالها ، إذ لا يتم الكمال إلا بإثبات صفات الكمـــال ونفي ما يضـــادها ، فإنك لو قلت : زيد فاضل أثبت له الفضل ، وجـــاز أن يلحقه نقص ، وإذا قلت : زيد فاضل ولم يسلك شيئاً من طرق السـفول ، فـالآن أثبت له الفض المطلق في هــذه الصــفة والــرب – ســبحانه وتعالى – يتصف بصفات الكمـال ، ولكنه إذا ذكر ما يضـاد تلك الصفة صـار ذلك أكمل ، ولهـذا أعقب المؤلف رحمه الله البـاب السـابق بهـذا البـاب إشـارة إلى أن الأسـماء الحسنى والصـفات العلى لا يلحقها نقص والسـلام إسم ثبوتي سـلبي فسـلبي : أي أنه يـراد به نفي كل نقص أو عيب يتصـوره الــذهن أو يتخيله العقل ، فلا يلحقه نقص في ذاته أو صفاته أو أفعاله أو أحكامه

وثبـوتي : أي يـراد به ثبـوت هـذا الاسم له ، والصـفة التي تضمنها وهي السلامة

***

في الصـحيح عن ابن مسـعود رضي الله عنه ، قـال : كنا إذا كنا مع النـبي صـلي الله عليه وسـلم صـلي الله عليه وســلم في الصــلاة ، قلنا : الســلام على الله من عباده ، السلام على فلان وفلان فقال النبي صـلي الله عليه وسلم صلي الله عليه وسلم : (لا تقولوا : السـلام على الله ، فإن الله هو السلام) (1)

قوله : (في الصحيح) هذا أعم من أن يكون ثابتاً في (الصحيحين) ، أو أحدهما ، أو غيرهما ، وانظر:(ص 146) بـاب تفسـير التوحيد وشـهادة أن لا إله إلا اللـه، وهـذا الحديث المذكور في (الصحيحين)

قوله : (كنا إذا كنا مع النـــبي صــلي الله عليه وســلم صلي الله عليه وسلم في الصلاة) الغـالب أن المعية مع النبي صلي الله عليه وسـلم صـلي الله عليه وسـلم في الصلاة لا تكون إلا في الفـرائض ، لأنها هي الـتي يشـرع لها صـلاة الجماعة ، ومشـروعية صـلاة الجماعة في غـير الفرائض قليلة ، كالاستسقاء

قوله : (قلنا الســـــلام على الله من عبـــــاده) أي : يطلبون السلامة لله من الآفات ، يسـألون الله أن يسـلم نفسه من الآفـــات ، أو أن اسم الســـلام على الله من عبـاده ، لأن قـول الإنسـان السـلام عليكم خـبر بمعـنى الدعاء ، وله معنيان :

1 - اسم السلام عليك ، أي : عليك بركاته باسمه

2 - السلامة من الله عليك ، فهو سلام بمعنى تسليم ، ككلام بمعنى تكليم

قوله : (الســــــــلام على فلان وفلان) أي : جبريل وميكائيل ، وكلمة فلان

يكنى بها عن الشـخص ، وهي مصـروفة ، لأنها ليست علمـاً ولا صـفة ، كصـفوان في قوله تعـالى : (كمثل صفوان عليه تراب) (البقرة :264)

وقد جاء في لفظ آخر : (السلام على جبريل وميكـال) (1) كانوا يقولون هكذا في السلام فقال النـبي صـلي الله عليه وسلم (لا تقولوا : السلام على الله ، فإن الله هو السلام)

وهذا نهي تحـريم ، والسـلام لا يحتـاج إلى سـلام ، هو نفسه – عز وجل – ســلام ســالم من كل نقص ومن كل عيب

وفيه دليل على جـــواز الســـلام على الملائكة ، لأن النـــبي صـــلي الله عليه وســـلم لم ينه عنه ، ولأنه عليه الصلاة والسـلام لما أخـبر عائشة أن جبريل يسـلم عليها قالت:(عليه السلام) (2)

فيه مسائل :

الأولى : تفسـير السـلام فبالنسـبة لكونه اسـماً من أسماء الله معناه السالم من كل نقص وعيب ، وبالنسـبة لكونه تحية له معنيان :
الأول : تقدير مضاف ، أي ، اسم السلام عليكم ، أي : اسم الله الذي هو السلام عليكم
الثـاني : أن السـلام بمعـنى التسـليم اسم مصـدر كالكلام بمعنى التكليم ، أي : تخبر خبراً يـراد به الـدعاء ، أي : أسأل الله أن يسلمك تسليماً

الثانية : أنه تحية وسبق ذلك
الثالثة : أنها لا تصلح لله وإذا كانت لا تصـلح له كـانت حراماً
الرابعة : العلة في ذلك وهي أن الله هو السـلام ، وقد سبق بيانها
الخامسة : تعليمهم التحية الـتي تصـلح لله وتؤخذ من تكملة الحديث : (فـإذا صـلى أحـدكم ، فليقل : التحيـات لله .....) ، وفيه حسن تعليم الرسـول صـلي الله عليه وسلم من وجهين :
الأول : أنه حينما نهاهم علل النهي
وفي ذلك فوائد :
1 - طمأنينة الإنسان إلى الحكم إذا قرن بالعلة
2 -بيـان سـمو الشـريعة الإسـلامية وأن أوامرها ونواهيها مقرونة بالحكمة ، لأن العلة حكمة
3 - القياس على ما شارك الحكم المعلل بتلك العلة
الثاني : أنه حين نهاهم عن ذلك بين لهم ما يبـاح لهم ، فيؤخذ منه أن المتكلم إذا ذكر ما ينهى عنه فليـذكر ما يقـوم مقامه مما هو مبـاح ، ولهـذا شـواهد كثـيرة من القرآن والسنة سبق شيء منها
ويسـتفاد من الحـديث : أنه لا يجـوز الإقـرار على المحرم ، لقوله : (لا تقولوا : السلام على الله) ، وهـذا واجب على كل مسلم ، ويجب على العلمـاء بيـان الأمـور الشرعية لئلا يستمر الناس فيما لا يجوز ويرون أنه جـائز ، قال تعالى : (وإذ أخذ الله ميثـاق الـذين أوتـوا الكتـاب لتبيننه للناس ولا تكتمونه) (آل عمران : 187)

***

باب قول : اللهم اغفر لي إن شئت

قوله : (باب قول : اللهم اغفر لي إن شئت)
عقد المؤلف هـذا البـاب لما تضـمنه هـذا الحـديث من كمال سلطان الله وكمال جوده وفضله ، ولك من صفات الكمال
قوله : (اللهم) معنـــــــاه : يا الله ، لكن لكـــــــثرة الاسـتعمال حـذفت يا النـداء وعـوض عنها الميم ، وجعل العوض في الآخر تيمناً بالابتداء بذكر الله
قوله : (اغفر لي) المغفرة : ستر الذنب مع التجــاوز عنه ، لأنها مشتقة من المغفر ، وهو ما يسـتر به الـرأس للوقاية من السهام ، وهذا لا يكون إلا بشيء ساتر واق ، ويدل له قول الله – عز وجل – للعبد المــؤمن حينما يخلو به ويقـرره بذنوبه يـوم القيامة : (قد سـترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم) (1)
قوله : (إن شـــئت) 0 أي : إن شـــئت أن تغفر لي فاغفر ، وإن شئت فلا تغفر

***

في الصحيح عن أبي هريرة ، أن رسول الله صلي الله عليه وسـلم قـال : (لا يقل أحـدكم : اللهم اغفر لي إن شئت اللهم ارحمني إن شئت ليعزم المسألة ، فإن الله لا مكره له) (1)

قوله (في الصــحيح) ســبق الكلام على مثل هــذه العبارة في كلام المؤلف ، والمراد هنا الحديث الصـحيح ، لأن الحـديث في (الصـحيحين) كليهما قوله صـلي الله عليه وسـلم : (لا يقل أحــدكم) لا : ناهية بــدليل جــزم الفعل بعدها

قوله : (اللهم اغفر لي ، اللهم أرحمـــــــــني) ففي الجملة الأولى : (اغفر لي) النجـاة من المكـروه ، وفي الثانية : (أرحمني) الوصول إلى المطلوب ، فيكون هذا الـــدعاء شـــاملاً لكل ما فيه حصـــول المطلـــوب وزوال المكروه

قوله : (ليعــزم المســألة) اللازم لام الأمر ، ومعــنى عزم المسألة : أن لا يكون في تردد بل يعزم بدون تــردد ولا تعليق و(المســـألة) : الســـؤال ، أي : ليعـــزم في سؤاله فلا يكون متردداً بقوله : إن شئت

قوله : (فإن الله لا مكره له) تعليل للنهي عن قول : (اللهم اغفر لي إن شئت ، اللهم ارحمــني إن شـئت) ، أي : لا أحد يكرهه على ما يريد فيمنعه منه ، أو ما لا يريد فيلزمه بفعله ، لأن الأمر كله لله وحده

والتحذير في التعليق من وجوه ثلاثة :

ولمســـلم : (وليعظم الرغبة ، فـــإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه) (1)

الأول : أنه يشعر بأن الله له مكره على الشــيء ، وأن وراءه من يســـتطيع أن يمنعه ، فكـــأن الـــداعي بهـــذه الكيفية يقول : أنا لا أكرهك ، إن شئت فاغفر وإن شئت فلا تغفر

الثاني : أن أقـول القائل : (إن شـئت) كأنه يـرى أن هـــذا أمر عظيم على الله فقد لا يشـــاؤه لكونه عظيمـــاً عنده ، ونظير ذلك أن تقول لشخص من الناس – والمثال للصورة بالصـورة لا للحقيقة بالحقيقة – أعطـني مليـون ريـــال إن شـــئت ، فإنك إذا قلت له ذلك ، ربما يكـــون الشــيء عظيمـــاً يتثاقله ، فقولك : إن شــئت ، لأجل أن تهـــون عليه المســـألة ، فالله – عز وجل – لا يحتـــاج أن تقول له : إن شئت ، لأنه – سبحانه وتعـالى – لا يتعاظمه

شيء أعطاه ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام: (وليعظم الرغبة ، فإن الله لا يتعاظمه شيء أعطاه)

قولـه: (وليعظم الرغبة) ، أي : ليســأل ما شــاء من قليل وكثير ولا يقل : هذا كثير لا أسأل الله إياه ، ولهـذا قـال : (فــإن الله لا يتعاظمه شــيء أعطــاه) ، أي : لا يكــون الشــيء عظيمــاً عنــده حــتى يمنعه ويبخل به – سـبحانه وتعـالى – كل شـيء يعطيه ، فإنه ليس عظيمـاً عنـــده ، فالله – عز وجل – يبعث الخلق بكلمة واحـــدة ، وهـذا أمر عظيم ، لكنه يسـير عليه ، قـال تعـالى : (قل بلى وربي لتبعثن ثم لتنـــــبئن بما علمتم وذلك على الله يسير) (التغابن : 7) وليس بعظيم ، فكل مايعطيه الله – عز وجل – لأحد من خلقه فليس بعظيم يتعاظمه ، أي : لا يكون الشيء عظيماً

عنده حتي لا يعطيه ، بل كل شيء عنده هين .

الثالث: أنه يشعر بأن الطـالب مسـتغن عن الله ، كانه يقــول : إن شــئت فأفعل ، وإن شــئت فلا تفعل فأنا لا يهمني ، ولهذا قال : (وليعظم الرغبة) أي يسأل برغبة عظيمة ، والتعليق ينـــــافي ذلك ، لأن المعلق للشـــــيء المطلــوب يشــعر تعليقه بانه مســتغن عنه ، والإنســان ينبغي أن يــدعو الله تعــالى وهو يشــعر أنه مفتقر إليه غاية الإفتقـار ، وأن الله قـادر على ان يعطيه ما سـأل ، وأن الله ليس يعظم عليه شـــيء ، بل هو هين عليه ، إذا من آداب الــدعاء أن لا يــدعو بهــذه الصــيغة ، بل يجــزم فيقول : اللهم أغفر لي ، اللهم أرحمني ، اللهم وفقني ، وما اشبه ذلك ، وهل يجزم بالإجابة ؟

الجواب : إذا كان الأمر عائـدا إلى قـدرة اللـه! فهـذا يجب أن تجزم بان الله قادر على ذلك ، قال الله تعالى : (ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ)(غافر: من الآية60)

أما من حيث دعائك أنت باعتبار ما عندك من الموانع ، او عوم توافر الأسباب فإنك قد تــتردد في الاجابة ، ومع ذلك ينبغي أن تحسن الظن بالله ، لأن الله ـــ عز وجل ـــ قـال : (ادْعُـونِي أَسْـتَجِبْ لَكُمْ) فالـذي وفقك لدعائه أولا سـيمن عليك بالاجابة آخـراً ، لا سـيما إذا أتي الإنسـان

بأســباب الإجابة وتجنب الموانع ، ومن الموانع الاعتــداء في الدعاء ، كأن يدعو بأثم أو قطيعة رحم .

ومنها أن يدعو بما لا يمكن شرعا وقدرا .

فشرعا كأن يقول : اللهم اجعلني نبيا .

وقدراً بأن يدعو الله تعالى بأن يجمع بين النقيضين ، وهـذا أمر لا يمكن ، فالاعتـداء بالـدعاء مـانع من اجابته ، وهو محرم لقوله تعالى:(ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَــدِينَ)(لأعــراف:55) وهو اشــبه ما يكــون بالاستهزاء بالله ـ سبحانه ـ

مناسبة الباب للتوحيد : من وجهين :

1. من جهة الربوبية ، فإن من أتى بما يشعر بـأن الله مكره لم يقم بتمام ربوبيته تعالى، لأن تمـام الربوبية أنه لا مكره له، بل أن لا يسأل عما يفعل، كما قـال تعـالى : (لا يسأل عما يفعل وهم يسألون) (الأنبياء :23).

وكذلك فيه من ناحية الربوبية من جهة أخرى، وهو أن الله يتعاظم الأشـياء الـتي يعطيهـا، فكـان فيه قـدح في جودة و كرمه .

2 – من ناحية العبـد، فإنه يشـعر باسـتغنائه عن ربـه، وهـذا نقص في توحيد الإنسـان، سـواء من جهة الألوهية أو الربوبية أو الأسماء والصفات، ولهـذا ذكـره المصـنف في الباب الذي يتعلق بالأسماء والصفات .

فإن قلت : ما الجواب عما ورد في دعاء الاسـتخارة: (اللهم ! إني أسـتخيرك بعلمــك، وأسـتقدرك بقــدرتك، وأسألك من فضلك العظيم، فإنك تقـدر ولا أقـدر، وتعلم ولا أعلم، وأنت علام الغيـــوب، اللهم ! إن كنت تعلم أن هــذا الأمر خــير لي في ديــني ومعاشي وعاقبة أمــري، فاقدره لي ويسـره لي ثم بـارك لي فيـه، وإن كنت تعلم أن هـذا الأمر شر لي في ديـني ومعاشي وعاقبة أمـري، فأصرفه عني و اصرفني عنه واقدر لي الخـير حيث كـان ثم أرضني به .[1] ، وكذا ما ورد في الحديث المشـهور : (اللهم ! أحيـني ما كـانت الحيـاة خـيرا لي، وتوفـني إذا كانت الوفاة خير لي [2] .

---

[1] البخاري : كتاب الدعوات / باب الدعاء عند الاستخارة .

فـالجواب : أنـني لم أعلق هـذا بالمشـيئة، ما قلت : فاقـدره لي إن شـئت، لكن لا أعلم أن هـذا الخـير لي أو شر والله يعلم، فـأقول إن كنت تعلم إن هـذا الأمر خـير فاقدره لي، فالتعليق عندي مجهول لا اعلم هل هو خـير لي أو لا؟ وكـذا بالنسـبة للحـديث الآخر ، لأن الإنسـان لا يعلم هل طول حياته خير أوشـر؟ ولهـذا كـره أهل العلم أن تقول للشخص : أطال الله بقاءك، لأن طول البقاء لا يعلم، فقد يكـون خـيرا، وقد يكـون شـرا، ولكن يقـال : أطال الله بقاءك على طاعته وما أشبه ذلك حـتى يكـون الدعاء خيرا بكل حـال، وعلى هـذا، فلا يكـون في حـديث البـاب معارضة لحـديث الاسـتخارة ولا حـديث : (اللهم أحيني ما كانت الحيـاة خـيرا لي)، لأن الـدعاء مجـزوم به وليس معلقا بالمشـيئة، والنهي إنما هو عما كـان معلقا بالمشيئة .

لكن لو قـال : اللهم اغفر إن أردت وليس إن شـئت، فـالحكم واحد لأن الإرادة هنا كونيـة، فهي بمعـنى المشيئة، فالخلاف باللفظ لا يعتبر مؤثرا بالحكم .

* * *

فيه مسائل :

الأولى : النهي عن الاسـتثناء في الـدعاء. والمـراد بالاستثناء هنا الشرط، فإن الشرط يسمى استثناء بدليل قوله صـلى الله عليه وسـلم لضـباعة بنت الزبـير (حجي واشـترطي، فـإن لك على ربك ما اسـتثنيت)[1]، ووجهه أنك إذا قلت : أكرم زيدا إن أكرمـك، فهو كقولك : أكـرم زيدا إلا ألا يكرمك، فهو بمعنى الاستنثناء في الحقيقة.

الثانية : بيان العلة في ذلك . وقد سبق أنها ثلاث علل :

أنه تشعر بأن الله له مكره، والأمر ليس كذلك .

---

(2) البخاري كتاب الدعوات / باب الدعاء بالموت والحياة، ومسلم : كتـاب الـذكر والدعاء / باب كراهة تمني الموت .

(1) البخاري : كتاب النكاح / باب الأكفاء في اليدين ، ومسلم : كتاب الحج / بـاب جواز اشتراط المحرم .

وقوله صـلى الله عليه وسـلم :" (فـإن لك على ربك ما اسـتثنيت) اخرجه النسـلئي : كتاب المناسك / باب كيف يقول إذا اشترط .

أنها تشعر بأن هـذا أمر عظيم على الله قد يثقل عليه ويعجز عنه، والأمر ليس كذلك .
أنها تشعر باستغناء الإنسان عن اللـه، وهـذا غـير لائق وليس من الأدب .
الثالثة : قوله : (ليعزم المسالة) . تفيد أنك إذا ســألت فاعزم ولا تردد .
الرابعة : إعظام الرغبة . لقوله صلى الله عليه وســلم : (وليعظم الرغبة)، أي : ليسال
الخامسة : التعليل لهذا الأمر ..
ما بدا له فلا شي عزيز أو ممتنع على الله .
الخامسة : التعليل لهـــذا الأمر . يســـتفاد من قوله : (فـــإن الله لا يتعاظمه شـــي، أو لا مكـــره لـــه) وقوله : (وليعظم الرغبـة، وفي هـذا حسن تعليم الرسـول صـلى الله عليه وسلم إذا ذكر شيئا قرنه بعلته .
وفي ذكر علة الحكم فوائد :
الأولى : بيان سـمو هـذه الشـريعة، وأنه ما من شي تحكم به إلا وله علة وحكمه .
الثانية : زيـادة طمأنينة الإنســان، لأنه إذا فهم العلة مع الحكم اطمأن، ولهذا لما سئل صلى الله عليه وســلم عن بيع الرطب بالتمر لم يقل حلال أو حـرام، بل قـال : (أينقص إذا جف؟) قالوا : نعم . فنهى عنه [2].
(والرجل الذي قال : إن امـرأتي ولـدت غلاما أسـود – لم يقل صـلى الله عليه وسـلم الولد لك – بل قـال : هل لك من إبل ؟ قال : نعم . قال : ما ألوانها؟ قـال : حمـر. قـال : هل فيها من أورق – الأورق : الأشـهب الـذي بين البياض والسـواد - ؟ قـال : نعم . قـال : من أين؟ قـال : لعله نزعة عرق [3]، قال لعل ابنك نزعة عرق ، فاطمأن ، وعرف الحكم، وأن هـذا هو الواقـع، فقـرن الحكم بالعلة يُوجب الطمأنينة ومحبة الشريعة والرغبة فيها .

---

(2) الإمام أحمد في(المسند) (1/175-176)، وابو داود : كتاب البيوع / باب في التمر بالتمر، والترمذي : كتاب البيوع / باب اشـتراء التمر بـالرطب، وابن ماجة : كتـاب التجـارات / بـاب بيع الـرطب بـالتمر، والحـاكم في (المسـتدرك) (2/38) وصححه ووافق الذهبي ، وصححه أحمد شاكر في (المسند) (1515) .

(3) البخاري : كتاب الطلاق / باب إذا عرض بنفي الولد، ومسلم : كتاب اللعان .

الثالثة : القيـــاس إذا كـــانت المســـألة في حكم من الأحكام، فليحق بها ما شاركها في العلة .

باب لا يقول : عبدي وأمتي

في الصحيح عن أبي هريرة، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قـال: (لا يقل أحـدكم : أطعم ربـك، وضـيء ربك، وليقل : سيدي ومـولاي. ولا يقل أحـدكم : عبـدي أمتي . وليقل : فتاي وفتاتي وغلامي [1]) .

هذه الترجمة تحتمل كراهة هذا القول وتحريمه، وقد اختلف العلماء في ذلك وسيأتي التفصيل فيه.

قوله : (في الصـحيح) . سـبق التنبيه على مثل هــذه العبــــارة في كلام المؤلـــــف، وهـــــذا الحـــــديث في (الصــحيحين)، أي : في الحـــديث الصـــحيح، ولعله أراد (صـحيح البخـاري) ، لأن هــذا لفظــه، أما لفظ مســلم، فيختلف .

قوله صلى الله عليه وسلم : (لا يقل) . الجملة نهي .

(عبدي)، أي : للغلام .

و(أمتي)، أي : للجارية .

والحكم في ذلك ينقسم إلى قسمين :

الأول : أن يضـيفه إلى غــيره، مثل أن يقــول : عبد فلان أو أمة فلان، فهـذا جـائز، قـال تعـالى : (وأنكحـوا الأيامى منكم والصالحين من عبـادكم وإمـائكم) (النـور : 32) وقـال النــبي صــلى الله عليه وســلم : (ليس على المسلم في عبده ولا فرسه صدقة)[2].

الثاني : أن يضيفه إلى نفسه ، وله صورتان :

الأولى : أن يكون بصيغة الخبر، مثل : أطعمت عبــدي، كسوت عبدي، أعتقت عبدي، فـإن قاله في غيبة العبد أو الأمة، فلا بـأس بـه، وإن قاله في حضـرة العبد أو الأمـة،

---

[1] البخاري : كتاب العتق / بـاب كراهة التطـاول على الرقيق ، ومسـلم كتـاب : كتاب الأدب / باب حكم إطلاق لفظ العبد والأمة .

[2] البخاري : كتاب الزكاة/ باب ليس على المسلم في عبـده صـدقة، ومسـلم : كتاب الزكاة / باب لا زكاة لمسلم في عبده وفرسه .

فإن ترتب عليه مفسدة تتعلق بالعبد أو السيد منــع، وإلا، فلا لأن قائل ذلك لا يقصد العبودية التي هي الذل، وإنما يقصد أنه مملوك .

الثانية : أن يكـون بصـيغة النـداء فيقـول السـيد : يا عبدي! هـات كـذا، فهـذا منهي عنـه، وقد اختلف العلمـاء في النهي : هل هو للكراهة أو التحـــريم ؟ والـــراجح التفصيل في ذلك، وأقل أحواله الكراهة.

قوله صلي الله عليه وسـلم :(لا يقل أحـدكم : أطعم ربك ...الخ) . أي : لا يقل أحـدكم لعبد غـيره، ويحتمل أن يشــمل قــول الســيد لعبــده حيث يضع الظــاهر موضع المضمر تعاظما .

واعلم أن إضـافة الـرب إلى غـير الله تعـالى تنقسم إلى أقسام :

القسم الأول : أن تكـــون الإضــافة إلى ضــمير المخـاطب، مثل : أطعم ربـك، وضـيء ربك ، فيكـره ذلك للنهي عنه، لأن فيه محذورين :

1. **من جهة الصــيغة، لأنه يــوهم معــنى فاســدا بالنسـبة لكلمة رب، لأن الـرب من أسـمائه سـبحانه، وهو يطعم ولا يُطعم، وإن كان بلا شك أن الــرب هنا غــير رب العـالمين الـذي يطعم ولا يطعم، ولكن من باب الدب في اللفظ.**
2. **من جهة المعنى أنه يشـعر العبد أو الأمة بالـذل، لأنه إذا كان السيد ربا كان العبد أو الأمة مربوبا .**

القسم الثاني : أن تكون الإضافة إلى ضمير الغائب، لا بــأس بــه، كقوله صــلى الله عليه وســلم في حــديث أشــراط الســاعة : (أن تلد الأمة ربهــا)[3]، وأما لفظ (ربتها)[4] ، فلا إشكال فيه لوجود تاء التأنيث فلا اشتراك مع الله في اللفظ ، لأن الله لا يقــــال له إلا رب ، وفي حديث الضالة – وهو متفق عليه – (حـتي يجـدها ربهـا)[5]

---

(3) البخاري : كتـاب الإيمـان / بـاب سـؤال جبريل النـبي صـلى الله عليه وسـلم، ومسلم : كتاب الإيمان / باب بيان الإيمان .

(4) البخاري : كتاب التفسير / باب (إن الله عنده علم الساعة)، ومسـلم : كتـاب الإيمان / باب بيان الإيمان

(5) البخاري كتاب اللقطة / باب ضالة الإبل ، ومسلم : كتاب اللقطة .

وقـــال بعض أهل العلم- وهو متفق عليه : إن حـــديث الضالة في بهيمة لا تتعبد ولا تتـذلل، فليست كالإنسـان، والصحيح عدم الفارق، لأن البهيمة تعبد الله عبدة خاصة، قـال تعـالى : (ولله يسـجد من في السـماوات ومن في الأرض والشـمس والقمر والنجـوم والجبـال والشـجر والدواب)، وقـال في النـاس : (وكثـير من النـاس) ليس جميعهم : (وكثير حق عليه العذاب) (الحج : 18) ، وعلى هذا، فيجوز أن تقول : أطعم الرقيق ربه، ونحوه ...

القسم الثالث:أن تكون الإضافة إلى ضـمير المتكلم، بان يقول العبد: هذا ربي، فهل يجوز هذا؟

قد يقـول قائل : إن هـذا جـائز، لأن هـذا من العبد لسـيده، وقد قـال تعـالى عن صـاحب يوسف : (إنه ربي أحسن مثواي) (يوسف :32)، أي : سيدي، ولأن المحذور من قـول (ربي) هو إذلال العبـد، وهـذا منتـف، لأنه هو بنفسه يقول : هذا ربي .

القسم الرابع: أن يضاف الاسم إلى الظاهر، فيقال: هذا رب الغلام، فظاهر الحديث الجواز، وهو كـذلك ما لم يوجد محـذور فيمنـع، كما لو ظن السـامع أن السـيد رب حقيقي خالق ونحو ذلك.

قوله : (وليقل : سيدي ومولاي) . المتوقع أن يقـول : وليقل سـيدك ومـولاك، لأن مقتضى الحـال أن يرشد إلى ما يكـون بـدلا عن اللفظ المنهي عنه بما يطابقـه، وهنا ورد النهي بلفظ الخطـاب، والإرشـاد بلفظ التكلم، وليقل : (سـيدي ومـولاي)، ففهم المؤلف رحمه الله – كما سـيأتي في المسـائل- أن فيه لإشـارة إلى أنه إذا كـان الغـير قد نهى أن يقـول للعبد : أطعم ربـك، فالعبد من باب أولى أن ينهي عن قـول : أطعمت ربي، وضـأت ربي، بل يقول : سيدي ومولاي .

وأما إذا قلنا بأن أطعم ربك خاص بمن يخـاطب العبد لما فيه من إذلال العبد بخلاف ما إذا قـــال هو بنفسه : أطعمت ربي، فإنه ينتفي الإذلال، فإنه يقــــال : إن الرسـول صـلى الله عليه وسـلم لما وجه الخطـاب إلى العبد نفسه ، فقال : (وليقل : سيدي ومولاي) ، أي بـدلا عن قوله : أطعمت ربي، وضأت ربي .

وقوله : (سـيدي) السـيادة في الأصل علو المنزلـة، لأنها من السؤدد والشرف والجاه وما أشبه ذلك.
والسيد يطلق على معـان ، منها : المالـك، والـزوج ، والشريف المطاع .
وسيدي هنا مضافة إلى يـاء المتكلم وليست على وجه الإطلاق .

فالسيد على وجه الإطلاق لا يقال إلا لله – عز وجل – قال صلى الله عليه وسلم(السيد الله)[1]
وأما السيد مضافة، فإنها تكون لغير الله، قال تعالى: (وألفيا سيدها لـدى البـاب) (سـورة يوسف : 25) وقـال صـلى الله عليه وسـلم : (أنا سـيد ولد آدم يـوم القيامة)[2] ، والفقهاء يقولون : إذا قال السيد لعبده، أي : سيد العبد لعبده .
- **تنبيه :**

اشـتهر بعض النـاس إطلاق السـيدة على المـرأة، فيقولـون مثلا : هـذا خـاص بالرجـال، وهـذا خـاص بالسيدات، وهذا قلب للحقائق، لأن السـادة هم الرجـال، قال تعالى : (وألفيا سيدها لدى الباب) وقـال : (الرجـال قوامون على النساء) (الأنعـام :62) ، وقـال صـلى الله عليه وسلم : (إن النسـاء عـوان عنـدكم)[3] . أي : بمنزلة السـير، وقـال في الرجل : (راع في أهله ومسـؤول عن رعيته)[4] ، فالصواب أن يقال للواحـدة امـرأة وللجماعة منهن نساء .
قوله : (ومـولاي) . أي : وليقل مـولاي، والولاية تنقسم إلى قسمين :

---

[1] الإمام أحمد في (المسند)(4/24، 35) ، والبخاري في (الأدب المفرد) (211) وابو داود : كتـاب الأدب / بـاب في كراهة التمـادح .قـال ابن حجر في الفتح (5/ 179) : رجاله ثقات ، وقد صححه غير واحد .

[2] مسلم : كتاب الفضائل / باب تفضيل النبي صلى الله عليه وسـلم على جميع الخلائق .

[3] الإمام أحمد (5/ـ 72)، والترمذي : كتاب الرضاع / باب في حق المـرأة على زوجها ، وابن ماجة : كتاب النكاح / باب حق المراة على زوجها ، 1 / 594 .

[4] البخاري : كتاب الجمعة / باب الجمعة في القرى، ومسلم : كتاب الإمارة / باب فضيلة الإمام العادل .

القسم الأول : ولاية مطلقــة، وهــذه لله – عز و جل - لا تصلح لغيره،

كالسيادة المطلقة .
وولاية الله نوعان :
النــوع الأول : عامــة، وهي الشــاملة لكل أحــد، قــال تعــالى : (ثم ردوا إلى الله مــولاهم الحق وضل عنهم ما كــانوا يفــترون) (الأنعــام : 62)ـ ، فجعل له ولاية على هؤلاء المفترين، وهذه ولاية عامة .

النوع الثاني : خاصة بـالمؤمنين، قـال تعـالى : (ذلك بأن الله مولى الذين آمنـوا وأن الكـافرين لا مـولى لهم) (محمد :11)ـ ، وهذه ولاية خاصة ، ومقتضى السـياق أن يقال: وليس مولى الكافرين، لكن قال : (لا مولى لهم)، أي : لا هو مولى للكافرين ولا أولياؤهم الذين يتخذونهم آلهة من دون الله مــــــوالي لهم لأنهم يــــــوم القيامة يتبرؤون منهم .
القسم الثاني : ولاية مقيدة مضافة، فهذه تكون لغير اللـــه، ولها في اللغة معـــان كثـــيرة، منها : الناصـــر، والمتولي للأمور، والسيد، والعتيق.
قال تعـالى : (وإن تظـاهرا عليه فـإن الله هو مـولاه وجبريل وصالح المؤمـنين) (التحـريم : 4)، وقـال صـلى الله عليه وســـلم فيما يـــروى عنه : (من كنت مـــولاه، فعليّ مــولاه)[1]، وقــال صــلى الله عليه وســلم : (إنما الــولاء لمن اعتــق)[2] . ويقــال للســلطان ولي الأمــر، والعتيق مولى فلان لمن أعتقه، وعليه يعـرف أنه لا وجه لاستنكار بعض النـاس لمن خـاطب ملكا بقوله : مـولاي، لأن المراد

بمــولاي أي متــولي أمــري، ولا شك أن رئيس الدولة يتـولى أمورهـا، كما قـال تعـالى : (يا أيها الـذين آمنـوا

([1] الإمام أحمد في (المسند) (1/84)

([2] البخاري : كتاب العتق / بـاب ما يجـوز من شـرط المكـاتب، ومسـلم : كتـاب العتق / باب إنما الولاء لمن أعتق .

أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم) (النساء :59)

قوله صلى الله عليه وسلم : (ولا يقل أحدكم عبدي وأمتي) ، هذا خطاب للسيد أن لا يقول : عبدي وأمتي لمملوكه ومملوكته، لأننا جميعا عباد الله، ونساؤنا إماء لله ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : (لا تمنعوا إماء الله مساجد الله)[3] .

فالسيد منهي أن يقول ذلك، لأنه إذا قال : عبدي وأمتي، فقد تشبه بالله – عز وجل – ولو من حيث ظاهر اللفظ، لأن الله – عز وجل – يخاطب عباده بقوله : عبدي، كما في الحديث : (عبدي استطعمتك فلم تطعمني ...)[4] وما أشبه ذلك .

وإن كان السيد يريد بقوله : (عبدي)، أي : مملوكي، فالنهي من باب التنزه عن اللفظ الذي يوهم الإشراك، وقد سبق بيان حكم ذلك[5] .

وقوله : (وأمتي) . الأمة : الأنثى من المملوكات، وتسمى الجارية .

والعلة من النهي : أن فيه إشعارا بالعبودية، وكل هذا من باب حماية التوحيد والبعد عن التشريك حتى في اللفظ، ولهذا ذهب بعض أهل العلم ومنهم شيخنا عبد الرحمن السعدي رحمه الله إلى أن النهي في الحديث ليس على سبيل التحريم، وأنه على سبيل الأدب والأفضل والأكمل، وقد سبق بيان حكم ذلك مفصلا .

قوله : (وليقل فتاي وفتاتي) .مثله جاريتي وغلامي، فلا بأس به .

وفي الحديث فوائد :

1. **حسن تعليم الرسول صلى الله عليه وسلم،حيث إنه إذا نهى عن شيء فتح للناس ما**

يباح لهم فقال : (لا يقل : عبدي وأمتي، وليقل : فتاي وفتاتي) ، وهذه كما هي طريقة القرآن أيضا، قال

---

(3) البخاري : كتاب الجمعة / باب هل على من لم يشهد الجمعة غسل ...، ومسلم : كتاب الصلاة / باب خروج النساء.

(4) مسلم : كتاب البر والصلة / باب فضل عيادة المريض .

(5) تقدم (ص924)

تعـالى : (يا أيها الـذين آمنـوا لا تقولـوا راعنا وقولـوا انظرنا) (البقرة :104) ، وهكذا ينبغي لأهل العلم وأهل الدعوة إذا سـدوا على النـاس ويسـدوا الطـرق أمـامهم، لأن في ذلك فائدتين عظيمتين :

الأولى : تسـهيل تـرك المحـرم على هـؤلاء، لأنهم إذا عرفوا أن هناك بدلا عنه هان عليهم تركه.

الثانية : بيان أن الـدين الإسـلامي فيه سـعة، وأن كل ما يحتـاج إليه النـاس، فـإن الـدين الإسـلامي يسـعه، فلا يحكم على الناس أن يتكلموا بشي أو لا يفعلـوا شـيئا إلا وفتح لهم ما يغـني عنـه، وهـذا من كمـال الشـريعة الإسلامية .

2 – أن الأمر يـأتي للإباحة ، لقوله : (وليقل : سـيدي ومولاي)، وقد قال العلماء : إن الأمر إذا أتى في مقابلة شي ممنـوع صـار للإباحة ، وهنا جـاء الأمر في مقابلة شي ممنوع، ومثله قوله تعالى : (وإذا حللتم فاصطادوا) (المائدة :2) .

* * *

فيه مسائل :

* الأولى : النهي عن قول : عبدي وأمـتي. تؤخذ من قوله : (ولا يقل أحدكم عبدي وأمتي)، وقد سـبق بيـان ذلك .

* الثانية : لا يقـول العبد : ربي، ولا يقـال له :أطعم ربك . تؤخذ من الحديث، وقد سبق بيان ذلك .

* الثالثة : تعليم الأول (وهو السـيد) قـول : فتـاي وفتاتي وغلامي .

* الرابعة : تعليم الثـاني (وهو العبـد) قـول : سـيدي ومولاي .

* الخامسة : التنبيه للمراد، وهو تحقيق التوحيد حتى في الألفاظ . وقد سبق ذلك .

وفي الباب مسـائل أخـرى لكن هـذه المسـائل هي المقصود .

* * *

باب لا يرد من سال بالله

قوله : (باب لا يرد) . (لا) نافية بـدليل رفع المضـارع بعــدها، والنفي يحتمل أن يكــون للكراهــة، وأن يكــون للتحريم .

وقوله : (من سأل بالله) . أي : من سأل غيره بالله، والسؤال بالله ينقسم إلى قسمين :

أحــدهما : السـؤال بالله بالصـيغة، مثل أن يقـول : أسألك بالله كما تقدم في حديث الثلاثة حيث قـال الملك : (أسـألك بالـذي أعطـاك الجلد الحسن واللـون الحسن بعيرا)[1] .

الثاني : السؤال بشرع الله – عز وجل -، أي : يسـأل سـؤالا يبيحه الشـرع، كسـؤال الفقـير من الصـدقة، والسؤال عن مسألة من العلم، وما شابه ذلك .

وحكم من رد من ســأل بالله الكراهة أو التحــريم حسب حال المسؤول والسائل ، وهنا عدة مسائل :

المسألة الأولى : هل يجوز للإنسان أن يسأل بالله أم لا؟

وهـذه المسـألة لو يتطـرق إليه المؤلف رحمه اللـه، فنقــول أولا : الســؤال من حيث هو مكــروه ولا ينبغي للإنســان أن يســأل أحــدا شــيئا إلا إذا دعت الحاجة إلى ذلك، ولهذا كـان مما بـايع النـبي صـلى الله عليه وسـلم أصـحابه أن يسـألوا النـاس شـيئا، حـتى إن عصا أحـدهم ليسقط منه وهو على راحلته، فلا يقـول لأحد : ناولينـه، بل ينزل ويأخذه[2] .

والمعنى يقتضيه، لأنك إذا أعـززت نفسك ولم تـذلها لسؤال الناس بقيت محترما عند النـاس، وصـار لك منعة من أن تــذل وجهك لأحــد، لأن من أذل وجهه لأحــد، فإنه ربما يحتاجه ذلك الأحد لأمر يكــره أن يعطيه إيــاه، ولكنه سأله اضطر إلى يجيبه، ولهذا روي عن النــبي صـلى الله

---

[1] تقدم تخريجه (ص877)

[2] مسلم : كتاب الزكاة / باب كراهة المسألة للناس .

عليه وسلم أنه قال (ازهد فيما عند الناس يحبك الناس)[1] ، فالسؤال أصلا مكروه أو محرم إلا لحاجة أو ضرورة .

فسؤال المال محرم، فلا يجوز أن يسال من أحد مالا إلا إذا دعت الضرورة إلى ذلك، وقال الفقهاء رحمهم الله في باب الزكاة : (إن من أبيح له أخذ شي أبيح له سؤاله)، ولكن فيما قالوه نظر،فإن الرسول صلى الله عليه وسلم حذر من السؤال ، وقال : (إن الإنسان لا يزال يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة وليس في وجهه مزعة لحم)[2]، وهذا يدل على التحريم إلا للضرورة .

وأما سؤال المعونة بالجاه أو المعونة بالبدن، فهذا مكروه، إلا إذا دعت الحاجة إلى ذلك .

وأما إجابة السائل، فهو موضوع بابنا، ولا يخلو السائل من أحد الأمرين :

الأول : أن يسأل سؤالا مجردا، كأن يقول مثلا : يا فلان ! أعطني كذا وكذا، فإن كان مما أباحه الشارع له فإنك تعطيه، كالفقير يسأل شيئا من الزكاة.

الثاني : أن يسأل بالله ، فهذا تجيبه وإن لم يكن مستحقا، لأنه سال بعظيم، فإجابته من تعظيم هذا التعظيم، لكن لو سال إثما أو كان في إجابته ضرر على المسؤول، فإنه يجاب.

مثال الأول : أن يسألك بالله نقودا ليشتري بها محرما كالخمر.

ومثال الثاني : أن يسألك بالله أن تخبره عما في سرك وما تفعله مع أهلك ، فهذا لا يجاب لأن في الأول إعانة على الإثم، وإجابته في الثاني ضرر على المسؤول .

---

[1] ابن ماجة : كتاب الزهد / باب الزهد في الدنيا .

[2] البخاري : كتاب الزكاة/ باب من سال الناس تكثرا، ومسلم : كتاب الزكاة / باب كراهة المسألة .

عن ابن عمر رضي الله عنه قـال : قـال رسـول الله صلي الله عليه وسـلم : (من سـأل بالله فـأعطوه ؛ ومن اسـتعاذ بالله ؛ فأعيـذوه ، ومن دعـاكم ؛ فـأجيبوه ، ومن صـــنع إليكم معرروفا ؛ فكـــافئوه ، فـــإن لم تجـــدوا ما تكافئوه ، فأدعوا له حتي تروا أنكم قد كافأتموه) . رواه أبو داوود والنسائي بسند صحيح (1)

---

* * *

قوله صـــلى الله عليه وســـلم : (من ســـال باللـــه) . (من) : شرطية للعموم .

قوله : (فـأعطوه) الأمر هنا للوجـوب ما لم يتضـمن السـؤال إثما أو ضـررا على المسـؤول، لأن في إعطائه إجابة لحاجته وتعظيما لله - عز وجل – الذي سال به .

ولا يشـترط أن يكـون سـؤاله بلفظ الجلالة بل بكل اسم يختص بالله، كما قال الملك الذي جـاء إلى الأبـرص والقرع والأعمى : (أسألك بالذي أعطاك كذا وكذا)[3] .

قوله : (ومن استعاذ بالله فأعيذوه) . أي قـال : أعـوذ بالله منك ، فإنه يجب عليك أن تعيـــــذه، لأنه اســــتعاذ بعظيم، ولهذا لما قـالت ابنة الجـون للرسـول صـلى الله عليه وســلم: أعــوذ بالله منــك، قــال لها : (لقد عــذت بعظيم- أو معاذ -، الحقي بأهلك[4].

لكن يستثنى من ذلك لو استعاذ من أمر واجب عليـه، فلا تعذه، مثل أن تلزمه بصلاة الجماعة، فقال أعوذ بالله منك .

وكـذلك لو ألزمته بـالإقلاع عن أمر محـرم، فاسـتعاذ بالله منـــك، فلا تعـــذه لما فيه من التعـــاون على الإثم والعـدوان، ولأن الله لا يعيذ عاصـيا، بل العاصي يسـتحق العقوبة لا الانتصار له وإعادته .

---

(1) تقدم (ص110) .

(3) تقدم (ص877) .

(4) البخاري : كتاب الطلاق / باب من طلق وهل يواجه الرجل امرأته بالطلاق .

وكـذلك من اسـتعاذ بملجأ صـحيح يقتضي الشـرع أن يعيـذه – وإن لم يقل أسـتعيذ بالله -، فإنه يجب عليك أن تعيذه كما قال أهل العلم : لو جنى أحد جناية ثم لجأ إلى الحرم، فإنه لا يقـام عليه الحد ولا القصـاص في الحـرم، ولكنه يضيق عليه، فلا يبـايع، ولا يشـترى منـه، ولا يـؤجر حتى يخرج .

قوله:(ومن دعاكم فأجيبوه). (من) : شرطية للعموم، والظاهر أن المراد بالدعوة هنا للإكرام، وليس المقصـود بالدعوة هنا النداء .

وظاهر الحديث وجـوب إجابة الـدعوة في كل دعـوة، وهو مذهب الظاهرية .

وجمهور أهل العلم : أنها مستحبة إلا دعـوة العـرس ، فإنها واجبة لقوله صـــلى الله عليه وســـلم فيهـــا:(شر الطعام طعام الوليمة، يدعى إليها من يأباها ويمنعها من يأتيها ، ومن لم يجب ، فقد عصى الله ورســـوله)[1] . وسواء قيل بالوجوب أو الاسـتحباب، فإنه يشـترط لـذلك شروط :

1. **1. أن يكون الداعي ممن لا يجب هجره أو يسن .**
2. **2. ألا يكون هنـاك منكر في مكـان الـدعوة، فـإن كـــان هنـــاك منكـــر، فـــإن أمكنة إزالتـــه، وجب عليه الحضور لسببين :**
   - **- إجابة الدعوة .**
   - **- وتغيير المنكر .**

وإن كـــان لا يمكن إزالته حـــرم عليه الحضـــور، لأن حضوره يستلزم إثمه، وما استلزم الإثم ، فهو إثم .

1. **3. أن يكون الداعي مسلما، وإلا لم تجب الإجابة، لقوله صــلى الله عليه وســلم : (حق المســلم على المسلم خمس ...) وذكر منها: (إذا دعاك فأجبــه)[1]. قالوا : وهذا مقيد للعموم الوارد .**

([1] البخاري : كتاب النكاح/ باب من ترك الدعوة فقد عصى الله ورسوله/ ومسلم : كتاب النكاح / باب الأمر بإجابة الداعي .

([3] البخاري : كتاب الجنائز / باب الأمر باتباع الجنـائز، ومسـلم : كتـاب السـلام / باب من حق المسلم للمسلم .

2. 4. أن لا يكون كسبه حـرام، لأن إجابته تسـلتزم أن تأكل طعاما حراما، وهذا لا يجـوز، وبه قـال بعض أهل العلم .

وقال آخرون : ما كان محرما لكسبه، فإنما إثمه على الكاسب لا على من أخـــذه بطريق مبـــاح من الكاســـب، بخلاف ما كـــان محرما لعينـــه، كـــالخمر والمغصـــوب ونحوهمـا، وهـذا القـول وجيه قـوي، بـدليل أن الرسـول صلى الله عليه وسلم اشتري من يهـودي طعاما لأهله[3]، واكل من الشاة التي أهدتها له اليهودية بخيبر[4]، وأجاب دعــوة اليهــودي،[5] ومن المعلــوم أن اليهــود معظمهم يأخذون الربا ويأكلون السحت، وربما يقـوي هـذا القـول قوله صـلى الله عليه وسـلم في اللحم الـذي تصـدق به على بريرة : (هو لها صدقة ولنا منها هدية) [6] .

وعلى القــول الأول، فــإن الكراهة تقــوي وتضــعف حسب كثرة المال الحرام وقلته، فكلما كان الحرام أكــثر كانت الكراهة أشد، وكلما قل كانت الكراهة أقل .

3. 5. أن لا تتضـمن الإجابة إسـقاط واجب أو مـاهو أوجب منها، فإن تضمنت ذلك حــرمت الإجابة .

4. 6. أن لا تتضـــمن ضـــررا على المجيب، مثل أن تحتــاج إجابة الــدعوة إلى سـفر أو مفرقة هله المحتاجين إلى وجوده بينهم .

مسألة : هل إجابة الدعوة حق على لله أو للآدمي؟

الجـواب : حق للآدمي، ولهـذا طلبت من الـداعي أن يقيلك فقبـــل، فلا إثم عليـــك، لكنها واجبة بـــأمر الله عز وجــــل- ، ولهـــــذا ينبغي أن تلاحظ أن إجابتك طاعة لله وقيام بحق أخيك، لكن صاحبها أن يسقطها كما أن له أن

---

(3) البخاري : كتاب البيوع / بـاب شـراء النـبي صـلى الله عليه وسـلم بالنسـيئة، ومسلم : كتاب المساقاة / باب الرهن .

(4) البخـاري : كتـاب الهبة / بـاب قبـول الهدية من المشـركين، ومسـلم : كتـاب السلام / باب السم .

(5) الإمام احمد في المسند (3/ 210، 211) .

(6) البخاري : كتاب الزكاة / باب إذا تحولت الصدقة، ومسلم : كتاب الزكاة / باب إباحة الهدية للنبي عليه الصلاة والسلام .

لا يدعوك أيضا، ولكن إذا أقالك حيـاء منه وخجلا من غـير اقتناع، فإنه لا ينبغي أن تدع الإجابة .

مسـألة : هل بطاقـات الـدعوة الـتي تـوزع كالـدعوة بالمشافهة ؟

الجواب : البطاقات ترسل إلى الناس ولا يـدري لمن ذهبت إليه، فيمكن أن نقـول : إنها تشـبه دعـوة الجفلي فلا تجب الإجابة، أما إذا علم أو غلب على الظن أن الذي أرســلت إليه مقصـــود بعينـــه، فإنه لها حكم الـــدعوة بالمشافهة .

قوله : (من صنع إليكم معروفا، فكافئوه) . المعروف : الإحسـان، فمن أحسن إليك بهدية أو غيرهـا، فكافئـه، فــإذا أحسن إليك بإنجــاز معاملة وكــان عملا زائــدا عن الواجب عليه،فكافئـه، وهـذا، كالملك أو الـرئيس ... مثلا إذا أعطـاك هديـة، فمثل هـذا يـدعي لـه، لأنك لو كافأته لرأى أن في ذلك غضا من حقه فتكون مسيئا له، والنبي صلى الله عليه وسلم أن تكافئه إحسانه .

وللمكافأة فائدتان :

1. **1. تشجيع ذوي المعروف على فعل المعروف .**
2. **2. أن الإنسان يكسر بها الذل الذي حصل له يصنع المعروف إليه ، لأن من صنع إليك**

معروفا فلا بد أن يكون في نفسك رقة له، فإذا رددت إليه معروفه زال عنك ذلك، ولهذا قـال النـبي صـلى الله عليه وسلم : (اليد العليا خير من اليد السـفلى)[7]، واليد العليا هي يد المعطي، وهذه فائـدة عظيمة لمن صـنع له معروفا، لئلا يرى لأحد عليه منة إلا الله – عز وجل -، لكن بعض الناس يكون كريما جدا، فإذا كافأته بدل هديته أكثر مما أعطيته ، فهــذا لا يريد مكافــأة ، ولكن يــدعي لــه، لقوله صـــلى الله عليه وســـلم : (فـــإن لم تجـــدوا ما تكافئونه، فادعوا لـه) وكـذلك الفقـير إذا لم يجد مكافـأة الغني فإنه يدعو له .

---

(7) البخاري : كتاب الزكاة / باب لا صدقة إلا عن ظهر غني، ومسلم كتاب الزكـاة / باب بيان أن اليد العليا خير من اليد السفلى .

ويكـون الـدعاء بعد الإهـداء مباشـرة، لأنه من بـاب المسـارعة إلى أمر الرسـول صـلى الله عليه وسـلم، ولأنه به سرور صانع المعروف .
قوله : (حـتى تـروا أنكم قد كافـأتموه) . (تـروا) ، بفتح التاء بمعنى تعلموا، وتجوز بالضم بمعـنى تظنـوا، أي : حـــتى تعلمـــوا أو يغلب على ظنكم أنكم قد كافأتموه، ثم أمسكوا .

* * *

* فيه مسائل :

* الأولى : إعـاذة من اسـتعاذ باللـه. وسـبق أن من استعاذ بالله وجبت إعاذته، إلا أن يستعيذ عن شي واجب فعلا أو تركا، فإنه لا يعاذ .
* الثانية : إعطاء من سأل بالله . وسبق التفصـيل فيه .
* الثالثة : إجابة الدعوة . وسبق كذلك التفصـيل فيها .
* الرابعة:المكافأة على الصـنيعة.أي:على صـنيعة من صنع إليك معروفا، وسبق تفصيل ذلك .
* الخامسة : أن الـدعاء مكافـأة لمن يقـدر إلا عليه . وسـبق أنه مكافـأة في ذلك ، وفيما إذا كـان الصـانع لا يكافأ مثله عادة .
* السادسة : قوله : (حـتى تـروا أنكم قد كافـأتموه) . أي : أنه لا يقصر في الـدعاء، بل يـدعوا له حـتى يعلم أو يغلب على ظنه أنه قد كافأه .
وفيه مسـائل أخـرى ، لكن ما ذكـره المؤلف هو المقصود .

* * *

باب لا يسأل بوجه الله إلا الجنة

عن جـابر ؛ قـال : قـال رسـول الله صـلي الله عليه وسلم : (لا يسأل بوجه الله إلا الجنـة) . رواه أبو داوود [1]

*** مناسبة هذا البـاب للتوحيد : أن فيه تعظيم وجه الله - عز وجل -، بحيث لا يسأل به إلا الجنة.**

*** * ***

قوله : (لا يســــأل بوجه الله إلا الجنـــــة) . اختلف في المراد بذلك على قولين :

القـــول الأول : أن المـــراد : لا تســـألوا أحـــدا من المخلـوقين بوجه اللـه، فـإذا أردت أن تسـأل أحـدا من المخلوقين، فلا تسأله بوجه الله، لأنه لا يسـأل بوجه الله إلا الجنة، والخلق لا يقـدرون على إعطـاء الجنـة، فـإذا لا يسألون بوجه الله مطلقـا، ويظهر أن المؤلف يـرى هـذا الرأي في شرح الحديث، ولذلك ذكره بعد (باب لا يرد من سأل بالله) .

القول الثاني : أنك إذا سألت الله، فإن سألت الجنة وما يستلزم دخولها، فلا حـرج أن تسـأل بوجه اللـه، وإن سالت شـيئا من أمـور الـدنيا، فلا تسـأله بوجه اللـه، لأن وجه الله أعظم من أن يسال به لشي من أمور الدنيا .

فأمور الآخرة تسأل بوجه اللـه، كقولك مثلا: أسـألك بوجهك أن تنجيـــني من النـــار، والنـــبي صـــلى الله عليه وسلم اسـتعاذ بوجه الله لما نـزل قوله تعـالى : (قل هو القـادر على أن يبعث عليكم عـذابا من فـوقكم) ، قـال : أعـــوذ بوجهـــك، (أو من تحت أرجلكم) ، قـــال : أعـــوذ بوجهـك، (أو يلبسـكم شـيعا ويـذيق بعضـكم بـأس بعض) (الأنعام :65) قال : هذه أهون أو أيسر) [2] **.**

ولو قيل : إنه يشمل المعنيين جميعا، لكان له وجه .

وقوله : (بوجه الله) . فيه إثبات الوجه لله – عز وجل - ، وهو ثابت بالقرآن والسنة وإجماع السـلف، فـالقرآن

---

[1] أبو داوود : كتاب الزكاة / باب كراهية المسالة بوجه الله

[2] البخاري : كتاب التفسير / باب (قل هو القادر ...)

في قوله تعــالى : (كل شي هالك إلا وجهــه) (القصص : 88)ـ ، وقوله تعالى : (والذين صـبروا ابتغـاء وجه ربهم) (الرعد :22) والآيات كثيرة .

والسنة كما في الحديث السابق : (أعوذ بوجهك) .

واختلف في هذا الوجه الذي أضافه الله إلى نفسه : هل هو وجه حقيقي ، أو أنه وجه يعبر به عن الشي الذي يــراد به وجهه وليس هو الوجه الحقيقي، أو أنه يعــبر به عن الجهة، أو أنه يعبر به عن الثواب؟

فيه خلاف، لكن هـدى الله الـذين آمنـوا لما اختلفـوا فيه من الحق بإذنـه، فقـالوا : إنه وجه حقيقي ، لأن الله تعـــالى قـــال : (ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكـــرام) (الرحمن : 27)ـ ، ولما أراد الله غير ذاته، قال : (تبـارك اسم ربك ذي الجلال والإكــرام) (الــرحمن :78) ف(ذي) صفة لرب وليست صفة لاسم، و(ذو) صفة لوجه وليست صفة لرب، فإذا كـان الوجه موصـوفا بـالجلال والإكـرام، فلا يمكن أن يــراد به الثـواب أو الجهة أو الـذات وحـدها، لأن الوجه غير الذات .

وقـال أهل التعطيل : أن الوجه عبـارة عن الـذات أو الجهة أو الثـــواب، قـــالوا : ولو أثبتنا لله وجها للـــزم أن يكون جسما، والأجســام متماثلـة،ويلـزم من ذلك لإثبـات المثل لله – عز وجل - ، والله تعالى يقول : (ليس كمثله شــي) (الشـورى : 11)، وإثبـات المثل تكـذيب للقـرآن، وأنتم يا أهل السنة تقولـون : إن من اعتقد أن لله مـثيلا فيما يختص به فهو كافر، فنقول لهم :

أولا : ما تعنون بالجسم الذي فررتم منـه، أتعنـون به المُركّب من عظـام وأعصـاب ولحم ودم بحيث يفتقر كل جـزء منه إلى الآخـر؟ إن أردتم ذلـك، فنحن نـوافقكم أن الله ليس على هذا الوجه ولا يمكن أن يكـون كـذلك، وإن أردتم بالجسم الـــذات الحقيقية المتصـــفة بصـــفات الكمـال، فلا محـذور في ذلـك، والله تعـالى وصف نفسه بأنه أحد صـــمد، قـــال تعـــالى : (قل هو الله أحـــد* الله الصـمد) (الإخلاص : 1-2)ـ ، قـال ابن عبـاس رضى الله عنهما: الصمد: الذي لا جوف له [2].

---

(2) ابن جرير (30/ 742) .

ثانيا : قولكم : إن الأجسام متماثلة قضـية من أكـذب القضـايا، فهل جسم الـدب مثل جسم النملـة؟ فبينهما تباين عظيم في الحجم والرقة واللين وغير ذلك .

فإذا بطلت هـذه الحجة بطلت النتيجة وهي اسـتلزام مماثلة الله لخلقه .

ونحن نشاهد البشر لا يتفقـون في الوجـوه، فلا تجد اثنين متماثلين من كل وجه ولو كانا تـوأمين، بل قـالوا : إن عروق الرجل واليد غير متماثلة من شخص إلى آخر .

ويلاحظ أن التعبـير بنفي المماثلة أول من التعبـير بنفي المشابهة، لأنه اللفظ الـذي جـاء به القـرآن، ولأنه ما من شـيئين موجـودين إلا ويتشـابهان من وجه ويفترقان من وجه آخر، فنفى مطلق المشابهة لا يصح ، وقد تقدم .

وأما حديث أبي هريرة رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسـلم قـال : (إن لله خلق آدم على صورته)[1] ،ووجه الله لا يماثل أوجه المخلـوقين، فيجـاب عنه :

بأنه لا يراد به صورة تماثل صورة الـرب – عز وجل – بإجمـاع المسـلمين والعقلاء، لأن الله – عز وجل – وسع كرسيه السماوات والأرض، والسـماوات والأرضـون كلها بالنسـبة للكرسي – موضع القـدمين – كحلقة ألقيت في فلاة من الأرض، وفضل العـرش على الكرسي كفضل الفلاة على هـذه الحلقـة، فما ظنك بـرب العـالمين؟ فلا أحد يحيط به وصـفا و لا تخيلا ، من هـذا وصـفه لا يمكن أن يكون على صورة آدم ستون ذراعا، وإنما يـراد به أحد معنيين :

الأول : أن الله خلق آدم على صـورة اختارها وجعلها أحسن صورة في الوجـه، وعلى هـذا، فلا ينبغي أن يقبح أو يضرب لأنه لما أضـافه إلى نفسه اقتضى من الإكـرام ما لا ينبغي معه أن يقبح أو أن يضرب .

---

[1] البخاري : كتاب الاستئذان / باب بدء السلام، ومسلم كتاب البر / باب النهي عن ضرب الوجه .

الثاني : أن الله خلق آدم على صورة الله - عز وجل – ولا يلزم من ذلك المماثلة بدليل قوله صلى الله عليه وسلم : (إن أول زمرة تدخل الجنة على صورة القمر ليلة البدر ثم الذين يلونهم على أضوأ كوكب في السماء)[2] ، ولا يلزم أن يكون على صورة نفس القمر، لأن القمر أكبر من أهل الجنة، وأهل الجنة يدخلونها طول أحدهم ستون ذراعا، وعرضه سبعة أذرع كما في بعض الأحاديث .

وقال بعض أهل العلم : على صورته، أي : صورة آدم، أي : أن الله خلق آدم أول مرة على هذه الصورة، وليس كبنية يتدرج في الإنشاء نطفة ثم علقة ثم مضغة .

لكن الإمام أحمد رحمه الله أنكر هذا التأويل، وقال : هذا تأويل الجهمية، ولأنه يفقد الحديث معناه، وأيضا يعارضه اللفظ الآخر المفسر للضمير وهو بلفظ : (على صورة الرحمن) .

*** * ***

*** فيه مسائل :**

- **الأولى : النهي عن أن يسأل بوجه الله غاية المطالب .**

تؤخذ من حديث الباب، وهذا الحديث ضعفه بعض أهل العلم، لكن على تقدير صحته، فإن من الأدب أن لا تسال بوجه الله إلا ما كان من أمر الآخرة : الفوز بالجنة، أو النجاة من النار .

- **الثانية : إثبات صفة الوجه . وقد سبق الكلام عليه .**

*** * ***

---

(2) البخاري كتاب بدء الحلق / باب ما جاء في صفة الجنة، ومسلم : كتاب الجنة ونعيمها / باب أول زمرة تدخل الجنة .

باب ما جاء في ال (لو)

قوله : في (اللو) .

دخلت (أل) على (لو) وهي لا تدخل إلا على الأسماء، قال ابن مالك :

بالجر والتنوين والندا وأل ومسند للاسم تمييز حصل

لأن المقصود بها اللفظ، أي : باب ما جاء في هذا اللفظ .

والمؤلف رحمه الله جعل الترجمة مفتوحة ولم يجزم بشي، لأن (لو) تستعمل على عدة أوجه:

الوجه الأول : أن تستعمل في الاعتراض على الشرع ، وهذا محرم، قال تعالى : (لو أطاعونا ما قتلوا) (آل عمران :168) في غزوة أحد حينما تخلف أثناء الطريق عبد الله بن أبي في نحو ثلث الجيش، فلما استشهد من المسلمين سبعون رجلا اعترض المنافقون على تشريع الرسول صلى الله عليه وسلم، وقالوا : لو أطاعونا ورجعوا كما رجعنا ما قتلوا، فرأينا خير من شرع محمد، وهذا محرم يصل إلى الكفر .

الثاني : أن تستعمل في الاعتراض على القدر، وهذا محرم أيضا، قال الله تعالى : (يا أيها الذين آمنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا في الأرض أو كانوا غزي لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا) (آل عمران :156) أي : لو أنهم بقوا ما قتلوا، فهم يعترضون على قدر الله .

الثالث : أن تستعمل للندم والتحسر، وهذا محرم أيضا، لأن كل شي يفتح الندم عليك فإنه منهي عنه، لأن الندم يكسب النفس حزنا وانقباضا، والله يريد من أن نكون في انشراح وانبساط، قال صلى الله عليه وسلم : (احرص على ما ينفعك واستعن بالله ولا تعجز، وإن أصابك شي، فلا تقل : لو أني فعلت كذا لكان كذا ، فإن لو تفتح عمل الشيطان)[1] .

---

(1) يأتي (ص 952) .

مثال ذلك : رجل حرص أن يشتري شيئا يظن أن فيه ربحا فخسر، فقال : لو أني ما اشــتريته ما حصل لي من خسارة، فهذا ندم وتحسر، ويقع كثيرا، وقد نهي عنه .

الرابع : أن تســـتعمل في الاحتجــاج بالقـــدر على المعصــية، كقــول المشــركين:(لو شــاء الله ما أشــركنا) (الأنعام : 148) وقــولهم:(لو شــاء الــرحمن ما عبـدناهم) (الزخرف : 20) وهذا باطل .

الخــامس : أن تســتعمل في التمــني،وحكمه حسب المتمني : إن كان خيرا فخير، وإن كان شرا فشــر، وفي الحديث عن النبي صلى الله عليه وســلم في قصة النفر الأربعة قال أحدهم : (لو أن لي مالا لعمــات بعمل فلان) فهذ تمـني خـيرا، وقـال الثـاني : (لو أن لى مـالا لعملت بعمل فلان)، فهذا تمـني شـرا . فقـال النـبي صـلى الله عليه وســلم في الأول : (فهو بنيتــه، فأجرهما ســواء)، وقال في الثاني : (فهو بنيته فوزرهما سواء)[2] .

السادس : أن تستعمل في الخبر المحض .

وهذا جائز، مثل : لو حضرت الدرس لاستفدت ، ومنه قوله صلى الله عليه وسلم : (لو اسـتقبلت من أمـري ما اســتدبرت ما ســقت الهـدى و لأحللت معكم)[3]، فــأخبر النــبي صــلى الله عليه وســلم أنه لو علم أن هــذا الأمر سيكون من الصحابة ما ساق الهدى ولأحل ،

---

(2) الإمام أحمد (4/230،231)

(3) البخاري : كتاب التمني / باب قول النبي صلى الله عليه وسلم : (لو استقبلت من أمري ما استدبرت)، ومسلم : كتاب الحج / باب بيان وجوه الإحرام .

قوله تعالى : (يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ الْأَمْرِ شَيْءٌ مَا قُتِلْنَا هَاهنا) (آل عمران: من الآية154) .

وهذا ظاهر لي : وبعضهم قال : إنه من بـاب التمـني، كأنه قال : ليتني استقبلت من أمري ما اسـتدبرت حـتى لا أسوق الهدى .

لكن الظاهر : أنه لما رأى من أصحابه، والنبي صـلى الله عليه وسلم لا يتمنى شيئا قدر الله خلافه.

وقد ذكر المؤلف في هذا البيت آيتين :

* الآية الأولى قوله تعـــالى : (يقولـــون) . الضـــمير للمنافقين .

قوله : (ما قتلنــــا) . أي : ما قتل بعضـــنا، لأنهم لم يقتلوا كلهم ، ولأن المقتول لا يقول .

قوله : (لو كان لنا من الأمر) . (لو) : شرطية، وفعل الشرط : (كان)، وجوابه : (ما قتلنا) ولم يقترن الجواب باللام، لأن الأفصح إذا كان الجواب منفيا عدم الاقتران، فقولك : لو جاء زيد ما جـاء عمـرو أفصح من قولك : لو جـــاء زيد لما جـــاء عمـــرو، وقد ورد قليلا اقترانها مع النفي ، كقول الشاعر :

لو نعطي الخيار لما افترقنا ولكن لا خيار مع الليالي

قوله : (ها هنا) . أي : في أحد .

قوله : (قل لو كنتم في بيـــوتكم لـــبرز الـــذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم) . هذا رد عليهم، فلا يمكن أن يتخلفوا عما أراد الله بهم .

وقوله : (الَّذِينَ قَالُوا لِإِخْوَانِهِمْ وَقَعَدُوا لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا) (آل عمران: من الآية168)

وقـــولهم : (لو كـــان لنا من الأمر شـــي) . هـــذا من الاعتراض على الشرع، لأنهم عتبوا على الرسول صـلى الله عليه وسلم حين خرج بدون مـــوافقتهم، ويمكن أن

يكــون اعتراضا على القــدر أيضــا، أي : لو كــان لنا من حسن التدبير والرأي شي ما خرجنا فنقتل .

قوله : (وقعــــدوا) . الــــواو إما أن تكــــون عاطفة والجملة معطوفة على (قــالوا) ، ويكــون وصف هــؤلاء بأمرين :

- بــــالاعتراض على القـــدر بقــــولهم : (لو أطاعونا ما قتلوا) .

- وبــــالجبن عن تنفيذ الشــــرع (الجهــــاد) بقــــولهم : (وقعــدوا) ، أو تكــون الــواو للحــال والجملة حالية على تقـدير (قـد) ، أي : والحـال أنهم قد قعـدوا، ففيه تـوبيخ لهم حيث قالوا مع قعودهم، ولو كان فيهم خير لخرجـــوا مع النــاس، لكن فيهم الاعــتراض على المؤمــنين وعلى قضاء الله وقدره .

قوله : (لإخوانهم) . قيل : في النسب لا في الدين، وقيل في الــدين ظــــاهرا، لأن المنــــافقين يتظــــاهرون بالإســــلام ، ولو قيل لهم : إنه شــــامل للأمــــرين، لكــــان صحيحا .

قوله : (لو أطاعونا ما قتلوا) . هذا غير صحيح ، ولهذا رد الله عليهم بقوله : (قل فادرؤوا عن أنفسكم المــوت إن كنتم صــادقين)، وإن كنتم قاعــدين، فلا تســتطيعون أيضا أن تدرؤوا عن أنفسكم الموت .

فهذه الآية والتي قبلها تدل على أن الإنسان محكوم بقدر الله كما أنه يجب أن يكون محكوما بشرع الله .

- • مناسبة الباب للتوحيد :

أن من جملة أقسم (لو) الاعتراض على القدر ، ومن اعــترض على القــدر، فإنه لم يــرض بالله ربــا، ومن لم يرض بالله ربــا، ومن لم يــرض بالله ربــا، فإنه لم يحقق توحيد الربوبية .

والــواجب أن ترضى بالله ربــا، ولا يمكن أن تســتريح إلا إذا رضــيت بالله ربا تمــام الرضــا، وكــأن لك أجنحة تميل بها حيث مال القــدر، ولهـذا قـال صـلى الله عليه وسلم : (عجبت لأمر المـؤمن إن أمـره كله خـير، وليس ذلك لأحد إلا المـؤمن : إن أصــابته ســراء شــكر، فكــان

خـيرا لـه، وإن أصـابته ضـراء صـبر، فكـان خـير له)[2]، ومهما كان، فـالأمر سـيكون على ما كـان، فلو خـرجت مثلا في سفر ثم أصبت في حادث، فلا تقل : لو أني ما خرجت في السفر ما أصبت، لأن هذا مقدر لا بد منه .

وفي الصــحيح عن أبي هريــرة رضي الله عنــه، أن رســول صــلى الله عليه وســلم قــال : (احــرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجزن، وإن أصـابك شـي، فلا تقل : لو أني فعلت كذا، لكان كـذا وكـذا، لكن قل : قـدر الله وما شاء الله فعل، فإن (لو) تفتح عمل الشيطان)[1]

****

قوله : (وفي الصـحيح) أي : (صـحيح مسـلم)، وانظر ما سبق في : بـاب تفسـير التوحيد وشـهادة أن لا إله إلا الله (146) .

والمؤلف رحمه الله حــــذف منه جملــــة، وأتى بما هو مناسب للباب، والمحذوف قوله : (المـؤمن القـوي خـير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وفي كل خير)

قوله : (القوي) . أي : في إيمانه وما يقتضيه إيمانه، ففي إيمانه، يعني : ما يحل في قلبه من اليقين الصادق الذي لا يعتريه شك، وفيما يقتضيه، يعني : العمل الصالح من الجهاد والأمر بـالمعروف والنهي عن المنكر والحـزم في العبادات وما أشبه ذلك .

وهل يدخل في ذلك قوة البدن ؟

الجواب : لا يدخل في ذلك قوة البدن إلا إذا كان في قوة بدنه ما يزيد إيمانه أو يزيد ما يقتضيه، لأن (القـوي) وصف عائد على موصوف وهو المؤمن، فالمراد : القوي في إيمانه أو ما يقتضـيه، ولا شك أن قـوة البـدن نعمـة،

---

(2) مسلم : كتاب الزهد / باب المؤمن أمره كله خير .

(1) مسلم كتاب القدر / باب في الأمر بالقوة وترك العجز

إن استعملت في الخـير فخـير، وإن اسـتعملت في الشر فشر .

قوله : (خير وأحب إلى الله) . خير في تأثيره وآثـاره فهو ينفع ويقتدي به وأحب إلى الله باعتبار الثواب .

قوله : (ومن المؤمن الضعيف) . وذلك في الإيمان أو فيما يقتضيه لا في قوة البدن .

قوله : (وفي كل خـــير) . أي : في كل من القـــوي والضـعيف خــير، وهـذا النــوع من التــذييل يســمى عند البلاغـــيين بـــالاحتراس حـــتى لا يظن أنه لا خـــير في الضعيف.

فـــإن قيل : إن الخيرية معلومة في قوله (خـــير واحب) ، لأن الأصل في اسم التفضــيل اتفــاق المفضل والمفضل عليه في أصل الوصف؟

فـالجواب : أنه قد يخـرج عن الأصـل، كما في قوله تعالى : (أصـحاب الجنة يومئذ خـير مسـتقر) (الفرقـان : 24) مع أن أهل النار لا خير في مستقرهم .

كـذلك الإنسـان إذا سـمع هـذه الجملة : (خـير وأحب) صار في نفسه انتقاص للمؤمن المفضل عليه، فإذا قيل : (وفي كل خير) رفع من شانه ، ونظـيره قوله تعـالى : (لا يســـتوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل أولئك أعظم درجة من الذين أنفقـوا من بعد وقـاتلوا وكلا وعد الله الحسنى) (الحديد : 10) .

قوله:(احرص على ما ينفعك) . الحرص : بذلك الجهد لنيل ما ينفع من أمر الدين أو الدنيا .

وأفعـال العبـاد بحسب السـبر والتقسـيم لا تخلو من أربع حالات :

1. 1. نافعة ، وهذه مأمور بها .
2. 2. ضارة وهذه محذر منها .
3. 3. فيها نفع وضرر .
4. 4. لا نفع فيها ولا ضرر ، وهـذه لا يتعلق بها أمر ولا نهي، لكن الغـالب أن لا تقع إلا وسـيلة إلى ما فيه أمر أو نهي ، فتأخذ حكم الغاية، لأن الوسائل لها أحكام المقاصد .

فـالأمر لا يخلو من نفع أو ضـرر، إما لذاته أو لغـيره، فحــديثنا العــام قد لا يكــون فيه نفع ولا ضــرر ، لكن قد يتكلم الإنسان ويتحدث لأجل إدخـال السـرور على غـيره فيكون نفعا، ولا يمكن أن تجد شيئا من الأمور والحوادث ليس فيه نفع ولا ضرر، إما ذاتي ، أو عارض إنما ذكرنـــاه لأجل تمام السبر والتقسيم .

والعاقل يشح بوقته أن يصــــرفه فيما لا نفع فيه و لا ضرر ، قال النبي صلى الله عليه وسلم : (من كان يؤمن بالله واليوم الآخر، فليقل خير أو ليصمت)[1] .

واتصـــال هــذه الجملة بما قبلها ظــاهر جــدا، لأن من القوة الحرص على ما ينفع .

و (مـــا) : اسم موصــول بفعل (ينفـــع)، والاسم الموصول يحول بصلته إلى اسم فاعل، كأنه قال: احرص على النــافع، وإنما قلت ذلك لأجل أن أقــول : إن النــبي صلى الله عليه وسلم أمرنا بالحرص على النافع، ومعناه أن نقــدم الأنفع على النـــافع، لأن الأنفع مشـــتمل على أصل النفع وعلى الزيادة، وهذه الزيــادة لا بد أن نحــرص عليهـــا، لأن الحكم إذا علق بوصف كـــان تأكد ذلك الحكم بحسب ما يشتمل عليه تأكد ذلك الوصف، فــإذا قلت : أنا أكره الفاسـقين كـان كل من كـان أشد في الفسق إليك أكره، فنقدم الأنفع على النافع لوجهين :

1. **1. أنه مشتمل على النفع وزيادة .**
2. **2. أن الحكم إذا علق بوصف كـــان تأكد ذلك الحكم بحسب تأكد ذلك الوصف وقوته .**

يؤخذ من الحديث وجود الابتعاد عن الضار، لأن الابتعاد عنه انتفاع وسلامة لقوله : (احرص على ما ينفعك)

قوله : (واستعن بالله) . الواو تقتضي الجمع فتكـون الاستعانة مقرونة بالحرص، والحرص سابق على الفعل، فلابد أن تكون الاستعانة مقارنة للفعل من أوله .

---

(1) البخاري : كتاب الأدب / باب إكرام الضيف/ ومسلم : كتاب الإيمان / باب الحث على إكرام الجار .

والاستعانة : طلب العون بلسان المقال، كقولك : (اللهم أعني، أو: لا حول ولا قوة إلا بالله) عند شروعك بالفعل .
أو بلسان الحال، وهي ان تشعر بقلبك أنك محتاج إلى ربك – عز وجل – أن يعينك على هذا الفعل، وأنه إن وكلك إلى نفسك وكلك إلى ضعف وعجز وعورة .

أو طلب العون بهما جميعا، والغالب أن من استعان بلسان المقال، فقد استعان بلسان الحال .
لو احتاج الإنسان إلى الاستعانة بالمخلوق كحمل صندوق مثلا، فهذا جائز، ولكن لا تشعر أنها كمعونة بعض أعضائك لبعض، كما لو عجزت عن حمل شي بيد واحدة، فإنك تستعين على حمله باليد الأخرى، وعلى هذا ، فالاستعانة بالمخلوق فيما يقدر عليه كالاستعانة ببعض أعضائك، فلا تنافي قوله صلى الله عليه وسلم : (استعن بالله) .
قوله : (ولا تعجزن) . فعل مضارع مبني على الفتح لاتصاله بنون التوكيد الخفيفة، و(لا) الناهية ، والمعنى : لا تفعل فعل العاجز من التكاسل وعدم الحزم والعزيمة، وليس المعنى : لا يصيبك عجز، لأن العجز عن الشي غير التعاجز، فالعجز بغير اختيار الإنسان، ولا طاقة له به، فلا يتوجه عليه نهي، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : (صل قائما، فإن لم تستطع ، فقاعدا، فإن لم تستطع، فعلى جنب)[2] .
فإذا اجتمع الحرص وعدم التكاسل،اجتمع في هذا صدق النية بالحرص والعزيمة بعد التكاسل.
لأن بعض الناس يحرص على ما ينفعه ويشرع فيه، ثم يتعاجز ويتكاسل ويدعه، وهذا خلاف ما أمر به الرسول صلى الله عليه وسلم، فما دمت عرفت أن هذا نافع، فلا تدعه، لأنك إذا عجزت نفسك خسرت العمل الذي عملت ثم عودت نفسك التكاسل والتدني من حال النشاط والقوة إلى حال العجز والكسل، وكم من إنسان بدأ العمل – لا سيما النافع – ثم أتاه الشيطان فثبطه؟

---
[2] البخاري : كتاب تقصير الصلاة / باب إذا لم يطق قاعدا صلي على جنب .

لكن إذا ظهر في أثناء العمل أنه ضـار، فيجب الرجـوع عنه، لأن الرجوع إلى الحق خير من التمــادي في الباطل .

وذكر في ترجمة الكسائي انه بدأ في طلب علم النحو ثم صعب عليه، فوجد نملة تحمل طعاما تريد أن تصعد به حائطا، كلما صعدت قليلا سقطت، وهكـذا حـتى صـعدت، فأخذت درسا من ذلك، فكابد حتى صار إماما في النحو.

قوله : (إن أصـــابك شي فلا تقل : لو أني فعلت كـــذا لكان كذا وكذا).

هــذه هي المرتبة الرابعة مما ذكر في هــذا الحــديث العظيم إذا حصل خلاف المقصود.

فالمرتبة الأولى : الحرص على ما ينفع .

والمرتبة الثانية : الاستعانة بالله .

والمرتبة الثالثة : المضي في الأمر والاســتمرار فيه وعدم التعاجز .

وهذه المراتب إليك .

المرتبة الرابعــة: إذا حصل خلاف المقصــود، فهــذه ليست إليــك، وإنما هي بقــدر اللــه، ولهــذا قــال: (وإن أصابك ...) ، ففوض الأمر لله .

قوله : (وإن أصـــابك شـــي) . أي : مما لا تحبه ولا تريده ومما يعوقك عن الوصول إلى مرامك فيما شرعت فيه من نفع .

فمن خالفه القدر ولم يـأت على مطلوبه لا يخلو من حالين :

الأول : أن يقول : لو لم أفعل ما حصل كذا .

الثاني : أن يقول : لو فعلت كذا لأمر لم يفعله لكان كذا .

مثــال الأول قــول القائل : لو لم أســافر ما فــاتني الربح .

ومثال الثاني أن يقول : لو سافرت لربحت .

وذكر النبي صلى الله عليه وسلم الثاني دون الأول، لأن الإنســـان عامل فاعـــل،فهو يقـــول : لو أني فعلت الفعل الفلاني دون هذا الفعل لحصلت مطلـوبي، بخلاف الإنسان الذي لم يفعل وكان موقفه سلبيا من الأعمال .

قوله : (كذا) . كناية عن مبهم ، وهي مفعول لفعلت .

قوله : (لكان كذا) فاعل كان، والجملة جواب لو .

قوله : (قدر الله) . خبر لمبتدأ محذوف، أي هذا قـدر الله .

وقدر بمعـنى مقـدور ، لأن الله يطلق على التقـدير الــذي هو فعل اللــه،ويطلق على المقــدور الــذي وقع بتقدير الله، وهو المراد هنا، لأن القائل يتحـدث عن شي وقع عليه، فقدر الله أي مقدوره، ولا مقـدر إلا بتقـدير ، لأن المفعول نتيجة الفعل .

والمعني إن هذا الـذي وقع قـدر الله وليس إليّ، أما الذي إليّ فقد بذلت ما أراه نافعا كما أمـرت، وهـذا فيه التسـليم التـام لقضـاء الله – عز وجل – وان الإنسـان إذا فعل ما أمر به على الوجه الشــــرعي، فإنه لا يلام على شي، ويفوض الأمر إلى الله .

قولـه: (وما شـاء الله فعـل) . جملة مصـدرة ب(مـا) الشرطية، (وشاء) : فعل الشرط ، وجوابه : (فعل)، أي : ما شــاء الله أن يفعله فعلــه، لأن الله لا راد لقضــائه ولا معقب لحكمه ، قال تعالى : (والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب) (الرعد :41)، وقد سبق ذكر قاعدة، وهي ان كل فعل لله معلق بالمشـــيئة، فإنه مقــــرون بالحكمة، وليس شي من فعله معلقا بالمشيئة المجــردة، لأن الله لا يشــرع ولا يفعل إلا الحكمــة، وبهــذا التقرير نفهم أن المشيئة يلزم منها وقـوع المشـاء، ولهـذا كـان المسلمون يقولون : ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن .

وأما الإرادة ووقوع المراد ففيه تفصيل :

فـالإرادة الشـرعية لا يلـزم منها وقـوع المـراد ، وهي التي بمعنى المحبـة، قـال تعـالى : (والله يريد أن يتـوب عليكم) (النساء :27) بمعني يجب، ولو كانت بمعنى يشاء لتاب الله علي جميع الناس .

والإرادة الكونية يلـزم منها وقـوع المـراد، كما قـال الله تعالى : (ولو شاء الله ما اقتتلـوا ولكن الله يفعل ما يريد) (البقرة :253)
قوله : (فإن لو تفتح عمل الشيطان) . (لو) : اسم إن قصد لفظها، أي ؛ فإن هذا اللفظ يفتح عمل الشيطان.
وعمله : ما يلقيه في قلب الإنســان من الحســرة والندم والحزن ، فإن الشيطان يحب ذلك ، وقال تعالى : (إنما النجـوى من الشـيطان ليحـزن الـذين آمنـوا وليس بضارهم شيئا إلا بإذن اللـه) (المجادلة :10)ـ ، حـتى في المنــام يريه أحلاما مخيفة ليعكر عليه صــفوه ويشــوش فكـره، فحينئذ لا يتفـرغ للعبـادة على ما ينبغي ، ولهـذا نهى النـبي صـلى الله عليه وسـلم عن الصـلاة تشـوش الفكـر،فقـال صـلى الله عليه وسـلم : (لا صـلاة بحضـرة طعام، ولا يدافعه الأخبثان)[1] ، إذا رضى الإنســان بالله ربـا، وقـال : هـذا قضـاء الله وقـدره، وانه لا بد أن يقـع، اطمأنت نفسه وانشرح صدره .
*** ويستفاد من الحديث :**
1. إثبات محبة الله – عز وجل -، لقوله : (خير وأحب)
2. اختلاف الناس في قـوة الإيمـان وضـعفه ، لقوله : (المــؤمن القــوي خــير وأحب إلى الله من المــؤمن الضعيف)
3. زيادة الإيمان ونقصانه، لأن القوة زيــادة والضـعف نقص، وهــذا هو القــول الصــحيح الــذي عليه عامة أهل السنة .
وقـال بعض أهل السـنة: يزيد ولا ينقص، لأن النقص لم يرد في القرآن، قـال تعـالى : (ويـزداد الـذين آمنـوا إيمانا) (المدثر:31)، وقـال تعـالى:(ويـزداد الـذين آمنـوا إيمانا مع إيمانهم) (الفتح : 4) .
والــراجح القــول الأول، لأنه من لازم ثبــوت الزيــادة ثبـوت النقص عن الزائـد، وعلى هـذا يكـون القـرآن دالا على ثبوت نقص الإيمـان بطريق اللـزوم، كما أن السـنة جـاءت به صـريحة في قوله صـلى الله عليه وسـلم : (ما

---
[1] مسلم : كتاب المساجد / باب كراهة الصلاة بحضرة العام .

رأيت من ناقصات عقل ودين أذهب للب الرجل الحازم من إحداكن)[2] ، يعني : النساء .

والإيمان يزيد بالكمية والكيفية، فزيادة الأعمال الظاهرة زيادة كمية، وزيادة الأعمال الباطنة كاليقين زيادة كيفية، ولهذا قال إبراهيم عليه السلام : (رب ارني كيف تحيي الموتى قال أو لم تؤمن قال بلى ولكن ليطمئن قلبي) (البقرة : 260) .

والإنسان إذا أخبره ثقة بخبر، ثم جاء آخر فأخبره نفس الخبر، زاد يقينه، ولهذا قال أهل العلم: إن المتواتر يفيد العلم اليقيني، وهذا دليل على تفاوت القلوب بالتصديق، وأما الأعمال، فظاهر، فمن صلى أربع ركعات أزيد ممن صلى ركعتين .

4- أن المؤمن وإن ضعف إيمانه فيه خير؛ لقوله : (وفي كل خير) .

5 – أن الشريعة جاءت بتكميل المصالح وتحقيقها ، لقوله : (احرص على ما ينفعك) ، فإذا امتثل المؤمن أمر الرسول صلى الله عليه وسلم ، فهو عبادة وإن كان ذلك النافع أمرا دنيويا .

6 – أنه لا ينبغي للعاقل أن يمضي جهده فيما لا ينفع، لقوله:(احرص على ما ينفعك) .

7- أنه ينبغي للإنسان الصبر والمصابرة، لقوله : (و لا تعجزن)

8- أن ما لا قدرة للإنسان فيه فله أن يحتج عليه بالقدر ، لقوله : (ولكن قل : قدر الله وما شاء الله فعل) ، وأما الذي يمكنك، فليس لك أن تحتج بالقدر .

وأما محاجة آدم وموسى حيث لام موسى أدم عليهما السلام ؛ وقال له : (لماذا أخرجتنا ونفسك من الجنة؟ فقال : أتلومني على شي قد كتبه الله على)[3] فهذا احتجاج بالقدر.

---

[2] البخاري : كتاب الحيض / باب ترك الحائض للصوم، ومسلم : كتاب الإيمان / باب نقصان الإيمان .

[3] البخاري : كتاب القدر / باب تحاج آدم وموسى، ومسلم : كتاب القدر / باب حجاج آدم وموسى .

فالقدرية الذين ينكرون القدر يكذبون هذا الحــديث ، لأن من عـادة أهل البـدع أن ما خـالف بـدعتهم إن أمكن تكذيبه فكذبوه، وإلا حرفوه ، ولكن هذا الحديث ثابت في الصحيحين وغيرهما .

وقـال شـيخ الإسـلام ابن تيمية : إن هـذا من بـاب الاحتجاج بالقدر على المصائب لا على المعائب، فموسى لم يحتج على آدم بالمعصية التي هي سـبب الخـروج، بل احتج بالخروج نفسه .

معناه أن فعلك صار سـببا لخروجنا ، وإلا فـإن موسى عليه الصلاة والسلام ابعد من أن يلوم أباه على ذنب تاب منه واجتباه ربه وهداه، وهذا ينطبق على الحديث .

وذهب ابن القيم رحمه الله إلى وجه آخر في تخـــريج هذا الحديث، وهو أن آدم احتج بالقدر بعد أن مضى وتاب من فعله، وليس كحال الذين يحتجون على أن يبقـوا في المعصية ويستمروا عليها، فالمشــركون لما قـالوا : (لو شـاء الله ما أشـركنا ولا آباؤنا) (الأنعـام :148) كـذبهم اللــه، لأنهم لا يحتجـون على شي مضى ويقولـون : تبنا إلى الله، ولكن يحتجـون على شي مضى ويقولـون : تبنا إلى الله، ولكن يحتجون على البقاء في الشرك .

9 – أن للشـيطان تـأثيرا على بــني آدم، لقوله : (فإن لو تفتح عمل الشيطان) ، وهذا

لاشك فيه،ولهذا قال النبي صـلى الله عليه وسـلم(إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم)[2].

فقال بعض أهل العلم : إن هذا يعني الوساوس الــتي يلقيها في القلب فتجري في العروق .

وظـاهر الحـديث : أن الشـيطان نفسه يجـري من ابن آدم مجـرى الـدم، وهـذا ليس ببعيد على قـدرة الله – عز وجل -، كما أن الروح تجري مجرى الدم، وهي جسـم، إذا قبضت تكفن وتحنط وتصعد بها الملائكة إلى السماء .

ومن نعمة الله أن للشـــيطان ما يضـــاده ، وهي لمة الملك، فإن الشيطان في قلب ابن آدم لمة وللملك لمة، ومن وفق غلبت عنـــده لمة الملك لمة الشـــيطان، فهما

---

[2] البخاري : كتاب الاعتكاف / بـاب زيـارة المـرأة زوجها في اعتكافـه، مسـلم : كتاب السلام / باب أنه يستحب لمن رؤى خاليا بامرأة .

دائما يتصــارعان نفس مطمئنة ونفس أمــارة بالســوء، وأما النفس اللوامة فهي وصف للنفسين جميعا .

10 – حسن تعليم النــبي صــلى الله عليه وســلم حين قـرن النهي عن قـول (لـو) بيـان علتـه، لتتـبين حكمة الشريعة، ويزداد المؤمن إيمانا وامتثالا .

* * *

فيه مسائل :

* الأولى : تفسير الآيتين في آل عمران . وهما :

الأولى : (الذين قالوا لإخوانهم وقعـدوا لو أطاعونا ما قتلوا).

الثانية : (يقولــون لو كــان لنا من الأمر شي ما قتلنا هاهنــا) ، أي : ما أخرجنا وما قتلنــا، ولكن الله تعــالى : أبطل ذلك بقوله : (قل لو كنتم في بيـوتكم لـبرز الـذين كتب عليهم القتل إلى مضـاجعهم) ، والآية الأخـرى : (لو أطاعونا ما قتلــوا)، فأبطل الله دعــواهم هــذه بقوله : (فادرؤوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين)، أي : إن كنتم صــادقين في البقــاء وأن عــدم الخــروج مــانع من القتل، فادرؤوا عن أنفسكم المـوت، فـإنهم لن يسـلموا من الموت، بل لابد أن يموتوا، ولكن لو أطاعوهم وتركوا الجهاد، لكانوا على ضلال مبين .

* الثانية: النهي الصريح عن قول (لو) إذا أصــابك شي . لقـول الرسـول صـلى الله عليه وسـلم : (فـإن أصـابك شي، فلا تقل : لو أني فعلت كذا لكان كذا) .

* الثالثة : تعليل المســــــألة بــــــان ذلك يفتح عمل الشـيطان. فـالنهي عن قـول (لـو) علتها أنها تفتح عمل الشيطان وهو الوسوسة، فيتحسر الإنسان بــذلك وينــدم ويحزن .

* الرابعة : الإرشاد إلى الكلام الحسـن. ويعـني قوله : (ولكن قل : قدر الله وما شاء الله فعل).

* الخامسة : الأمر بالحرص على ما ينفع مع الاستعانة بالله. لقوله صلى الله عليه وسلم : (احرص على ما ينفعك واستعن بالله) .

* السادسة : النهي عن ضد ذلك ، وهو العجز . لقوله : (ولا تعجزن)، فإن قال قائل : العجز ليس باختيار الإنسان، قد يصاب بمرض فيعجز، فكيف نهى النبي صلى الله عليه وسلم عن أمر لا قدرة للإنسان عليه؟

أجيب : بأن المقصود بالعجز هنا التهاون والكسل عن فعل الشي، لأنه هو الذي في مقدور الإنسان .

* * *

باب النهي عن سب الريح

المؤلف رحمه الله أطلق النهي ولم يفصح : هل المراد به التحريم أو الكراهة، وسيتبين إن شاء الله من الحديث .

قوله (الريح) . الهواء الذي يصرفه الله – عز وجل - ، وجمعه رياح .

وأصولها أربعة : الشمال، والجنوب ، والشرق، والغرب، وما بينهما يسمى النكباء، لأنها ناكبة عن الاستقامة في الشمال، أو الجنوب، أو الشرق، أو الغرب .

وتصريفها من آيات الله – عز و جل – فأحيانا تكون شديدة تقلع الأشجار وتهدم البيوت وتدفن الزروع ويحصل معها فيضانات عظيمة، وأحيانا تكون هادئة، وأحيانا تكون باردة، وأحيانا حارة، وأحيانا عالية، وأحيانا نازلة، كل هذا بقضاء الله وقدره، ولو أن الخلق اجتمعوا كلهم على أن يصرفوا الريح عن جهتها التي جعلها الله عليها ما استطاعوا إلى ذلك سبيلا، ولو اجتمعت جميع المكائن العالمية النفاثة لتوجد هذه الريح الشديدة ما

استطاعت إلى ذلك سبيلا، ولكن الله – عز وجل – بقدرته يصرفها كيف يشاء وعلى ما يريد ، فهل يحق للمسلم أن يسب هذه الريح ؟

الجواب : لا، لأن هذه الريح مسخرة مـدبرة، وكما أن الشمس أحيانا تضر بإحراقها بعض الأشـجار، ومع ذلك لا يجـوز لأحد أن يسـبها، فكـذلك الـريح، ولهـذا قـال : (لا تسبوا الريح) .

***

قوله : (لا تسبوا الريح) . (لا) : ناهية، والفعل مجـزوم بحذف النون، والواو فاعل، والريح مفعول به .

والسب : الشتم، والعيب، والقدح، واللعن، وما أشبه ذلـك، وإنما نهى عن سـبها، لأن سب المخلـوق سب لخالقه، فلو وجدت قصرا مبنيا وفيه عيب، فسببته، فهذا السب ينصب على من بنـاه، وكـذلك سب الـريح ، لأنها مدبرة مسخرة على ما تقتضيه حكمة الله – عز وجل - .

ولكن إذا كانت الريح مزعجة، فقد أرشد النبي صـلى الله عليه وسـلم إلى ما يقـال حينئذ في قوله : (ولكن قولوا : اللهم إنا نسألك ...الخ) .

قوله : (وخير منهـا) . أي : ما تحملـه، لأنها قد تحمل خيرا، كتلقيح الثمـار، وقد تحمل رائحة طيبة الشـم، وقد تحمل شرا، كإزالة لقاح الثمـار، وأمـراض تضر بالإنسـان والبهائم .

قوله : (وخـير ما أمـرت بـه) . مثل إثـارة السـحاب وسوقه إلى حيث شاء الله.

قوله : (ونعوذ بك) . أي : نعتصم ونلجأ .

قوله: (ومن شر هذه الريح) أي : شرها بنفسها كقلع الأشجار ، ودفن الزروع وهدم البيوت .

قوله : (ومن شر ما فيها) . أي : ما تحمله من الأشياء الضارة، كالأنتان ، والقاذورات، والأوبئة وغيرها .

قوله : (وشر ما أمرت به) . كالهلاك والتدمير، وقـال تعـالى في ريح عـاد : (تـدمر كل شي بـأمر ربهـا) (الأحقـاف :25) وتيبس الأرض من الأمطـار، ودفن

الزروع، وطمس الآثـار والطـرق، فقد تـؤمر بشر لحكمة بالغة نعجز عن إدراكها .
وقوله : (ما أمــرت بـــه) . هــذا الأمر حقيقي، أي : يأمرها الله أن تهب ويأمرها أن تتوقــــف، وكل شي من المخلوقات فيه إدراك بالنسبة إلى أمر الله ، قال تعـالى للأرض والســــــــــماء : (ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طـائعين) (فصـلت : 11)، وقـال للقلم : (اكتب . قـال : ربي ومـــاذا أكتب؟ قـــال اكتب ما هو كـــائن إلى قيـــام الساعة)[1] .

***   *   ***

فيه مسائل :
الأولى : النهي عن سب الريح الثانية : الإرشاد إلى الكلام النافع إذا رأى الإنسان ما يكره . الثالثة : الإرشـاد إلى أنها مأمورة . الرابعة : أنها قد تؤمر بخير وقد تـؤمر بشر .

فيه مسائل :
*** الأولى : النهي عن سب الـــــريح . وهـــــذا النهي للتحريم، لأن سبها سب لمن خلقها وأرسلها.**
*** الثانية : الإرشاد إلى الكلام النـافع إذا رأى الإنسـان ما يكره . أي : منهـا، وهو أن يقـول : (اللهم إني أسـألك من خيرها ...) الحـديث، مع فعل السـباب الحسـية ايضـا، كالاتقاء من شرها بالجدران أو الجبال ونحوها .**
*** الثالثة : الإرشــــاد إلى أنها مــــأمورة . لقوله : (ما أمرت به) .**
*** الرابعة : أنها قد تؤمر بخير وقد تؤمر بشر . لقوله : خير ما أمرت به، وشر ما أمرت به)**
والحاصل : أنه يجب على الإنسان أن لا يعترض على قضاء الله وقدره، وأن لا يسـبه، وأن يكـون مستسـلما

---

[1] يأتي تخريجه (ص1006) .

لأمــره الكــوني كما يجب أن يكــون مستســلما لأمــره الشرعي، لأن هذه المخلوقـات لا تملك أن تفعل شـيئا إلا بأمر الله – سبحانه وتعالى - .

* * *

باب قوله تعالى :

(يَظُنُّونَ بِاللَّهِ غَيْرَ الْحَقِّ ظَنَّ الْجَاهِلِيَّةِ يَقُولُونَ هَـلْ لَنَا مِنَ الْأَمْـرِ مِنْ شَـيْءٍ قُـلْ إِنَّ الْأَمْـرَ كُلَّهُ لِلَّهِ)(آل عمران: من الآية154) .

ذكر المؤلف في هذا الباب آيتين :

*الأولى : قوله تعالى : (يظنون) . الضـمير يعـود على المنــافقين، والأصل في الظن : أن الاحتمــال الــراجح، وقد يطلق على اليقين، كما في قوله تعــالى : (الـــذين يظنون أنهم ملاقوا ربهم) (البقرة :46) ، أي : يتيقنون، وضد الراجح المرجوح، ويسمى وهما .

قوله : (ظن الجاهليــة) . عطف بيــان لقوله : (غـــير الحق)، و(الجاهلية) : الحال الجاهلية، والمعنى : يظنــون بالله ظن الملة الجاهلية التي لا يعرف الظـان فيها قـدر وعظمته، فهو ظن باطل مبني على الجهل .

والظن بالله – عز وجل- على نوعين :

الأول : أن يظن خيرا .

الثاني : أن يظن بالله شرا .

والأول له متعلقان :

1. 1. متعلق بالنسبة لما يفعله في هذا الكـون، فهذا يجب عليك أن تحسن الظن بالله – عز

وجل- فيما يفعله –سبحانه وتعـالى – في هـذا الكـون، وأن تعتقد أن ما فعله إنما هو الحكمة بالغة قد تصل العقـــول إليها وقد لاتصل ، وبهـــذا يتـــبين عظمة الله وحكمته في تقديره، فلا يظن أن الله إذا فعل شــيئا في الكـون فعله لإرادة سـيئة ، حـتى الحـوادث والنكبـات لم يحـــدثها الله إرادة الســـوء المتعلق بفعلـــه، أما المتعلق

بغيره بـأن يحـدث ما يريد به أن يسـوء هـذا الغـير، فهـذا واقـع، كما قـال تعـالى : (قل من ذا الـذي يعصـمكم من الله إن أراد بكم ســوء أو أراد بكم رحمـــة) (الأحـــزاب : 17) .

2. 2. متعلق بالنسبة لما يفعله بـك، فهـذا يجب أن تظن بالله أحسن الظن، لكن بشرط أن يوجد لديك السبب الذي يـوجب الظن الحسـن، وهو أن تعبد الله على مقتضى شريعته مع الإخلاص، فإذا فعلت ذلك ، فعليك أن تظن أن الله يقبل منك ولا تسـيء الظن بالله بأن تعتقد أنه لن يقبل منك، وكذلك إذا تاب الإنسـان من الــذنب، فيحسن الظن بالله أنه يقبل منـــه، ولا يســيء الظن بالله بأن يعتقد أنه لا يقبل منه .

وأما إن كـان الإنسـان مفرطا في الواجبـات فـاعلا للمحرمـــات، وظن بالله ظنا حســـنا، فهـــذا هو ظن المتهاون المتهالك في الأماني الباطلة، بل هو من سـوء الظن بالله ، إذ أن حكمة الله تأبى مثل ذلك.

النوع الثاني : وهو أن يظن بالله سوء، مثل أن يظن في فعله ســـفها أو ظلما أو نحو ذلك ، فإنه من أعظم المحرمـات وأقبح الـذنوب، كما ظن هـؤلاء المنـافقون وغيرهم ممن يظن بالله غير الحق .

قوله : (يقولون هل لنا من الأمر من شي) . مرادهم بذلك أمران :

الأول : رفع اللوم عن أنفسهم .

الثاني : الاعتراض على القدر .

وقوله : (لنا) : خبر مقدم .

قوله : (من شـي) : مبتـدأ مـؤخر مرفـوع بالضـمة المقـدرة على آخـره منع من ظهورها اشـتغال المحل بحركة حرف الجر الزائد .

قوله : (إن الأمر كله لله) . أي : فـإذا كـان كـذلك، فلا وجه لاحتجاجكم على قضاء الله وقـدره، فالله – عز وجل – يفعل ما يشاء من النصر والخذلان .

قوله : (إن الأمـر)واحد الأمـور لا واحد الأوامـر، أي : الشـأن كل الشـأن الـذي يتعلق بأفعـال الله وأفعـال

المخلوقين كله لله – سبحانه، فهو الذي يقدر الذل والعز والخير والشر، لكن الشر في مفعولاته لا في فعله .
قوله : (يخفون في أنفسهم ما لا يبدون لـك) . أي : ما لا يظهرون لك، فمن شأن المنـافقين عـدم الصـراحة والصـدق، فيخفي نفسه ما لا يبديه لغـيره، لأنه يـرى من جبنه وخوفه أنه لو أخـبر بـالحق لكـان فيه هلاكـه، فهو يخفي الكفر والفسوق والعصيان .
قوله : (ما قتلناها هنا) . أي : في أُحد، والمـراد بمن (قتـل) : من استشـهد من المسـلمين في أُحـد، لأن عبد الله بن أُبي رجع بنحو ثلث الجيش في غزوة أحد ، وقال / أن محمدا يعصيني ويطيع الصغار والشبان .
قوله : (قل لو كنتم في بيـوتكم لـبرز الـذين كتب عليهم القتل إلى مضاجعهم) . هذا رد لقـولهم : لو كـان لنا من الأمر شي ما قتلناها هنا .
وهذا الاحتجاج لا حقيقة له، لأنه إذا كتب القتل على أحد ، لم ينفعه تحصـنه في بيتـه، بل لابد أن يخـرج إلى مكان موته ، والكتاب قسمان :
1. 1. كتابة شـرعية، وهـذا لا يلـزم منها وقـوع المكتوب، مثل قوله تعالى : (إن الصـلاة كـانت على المؤمـنين كتابا مؤقتـا) (النسـاء : 103) وقوله : (يا أيها الـذين آمنـوا كتب عليكم الصـيام) (البقـرة : 183) .
2. 2. كتابة كونيـة، وهـذه يلـزم منها وقـوع المكتـوب كما في هـذه الآيـة، ومثل قوله تعـالى : (ولقد كتبنا في الزبـور من بعد الـذكر أن الأرض يرثها عبادي الصـالحون) (الأنبيـاء :105)ـ ، وقوله : كتب الله لأغلبن أنا ورسلي) (المجادلة :21) .
قوله : (وليمحص ما في قلـوبكم) . أي : إذا حصل الابتلاء فقوبل بالصـبر، صـار في ذلك تمحيص لما في القلب، أي : تطهـير لله وإزالة لما يكـون قد علق به من بعض الأمور التي لا تنبغي .

وقد حصل الابتلاء والتمحيص في غـزوة أُحد بـدليل أن الصحابة لما ندبهم الرسـول [1]صـلى الله عليه وسـلم حين قيل له : (إن الناس قد جمعوا لكم فاخشـوهم) (آل عمران 172) خرجوا إلى حمـراء الأسد ولم يجـدوا غـزوا فرجعـوا، (فـانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسـهم سـوء واتبعـوا رضـوان الله والله ذو فضل عظيم) (آل عمران : 174) .

قوله : (والله عليم بذات الصدور) . جملة خبرية فيها إثبات أن الله عليم بـذات الصـدور، والمـراد بها القلـوب، كما قـال تعـالى : (فإنها لا تعمي الأبصـار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور) (الحج :146) ، فالله لا يخفى عليه شي فيعلم ما في القلب وما ليس في قلبه مـتى يكون وكيف يكون .

وقوله : (الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ) (الفتح: من الآية6) .

*** * ***

*** الآية الثانية قوله تعالى : (الظانين بالله ظن السوء) . المـراد بهم : المنـافقون والمشـركون، قـال تعـالى : (ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظـانين بالله ظن السـوء) (الفتح :6) أي : ظن العيب، وهو كقوله فيما سـبق : 0ظن الجاهليـة) (آل عمـران : 154) .**

ومنه ما نقله المؤلف عن ابن قيم رحمها الله : أنهم يظنون أن أمر الرسول صلى الله عليه وسلم سيضمحل، وأنه لا يمكن أن يعود، وما أشبه ذلك ؟

قوله : (عليهم دائرة السوء) . وأنه لا يمكن أن يعـود ، وما أشبه ذلك .

---

[1] البخاري : كتاب المغـازي / بـاب (الـذين اسـتجابوا لله والرسـول) ، ومسـلم : كتاب فضائل الصحابة / باب من فضائل طلحة والزبير .
أما خروجهم إلى حمراء الأسد فقد أخرجه ابن كثير في تفسيره (1/ـ 337). وصـححه ابن حجر في الفتح (8/ 228).

قوله : (عليهم دائـرة السـوء) . أي : أن السـوء محيط بهم جميعا من كل جـــانب كما تحيط الـــدائرة بما في جوفها، وكذلك تدور عليهم دوائر السوء، فهم وإن ظنـوا أنه تعـالى تخلى عن رسـوله وأن أمـره سيضـمحل، فـإن الواقع خلاف ظنهم ، ودائرة السوء راجعة عليهم .

قوله : (وغضب الله عليهم) الغضب من صـفات الله الفعلية الـتي تتعلق بمشـيئتة ويـترتب عليها الانتقـام، وأهل التعطيل قـالوا : إن الله لا يغضب حقيقـة: فمنهم من قال: المراد بغضبه الانتقام .

ومنهم من قال : المراد بغضبه الانتقام .

ومنهم من قال : المراد إرادة الانتقـام . قـالوا : لأن الغضب غليان دم القلب لطلب الانتقام ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : (إنه جمرة يلقيها الشـيطان في قلب ابن آدم)[1].

فيجـاب عن ذلك : بـأن هـذا هو غضب الإنسـان ، ولا يلـــــــزم من التوافق في اللفظ التوافق في المثلية والكيفية، قال تعالى : (ليس كمثله شي) (الشورى :11) ويد ل على أن الغضب ليس هو الانتقـام قوله تعـالى : (فلما آسفونا انتقمنا منهم) (الزخرف :55) ف (آسفونا) بمعـنى أغضـبونا (انتقمنا منهم)، فجعل الانتقـام مرتبا على الغضب ، فدل على أنه غيره .

قوله : (ولعنهم) . اللعن : الطـرد والإبعـاد عن رحمة الله .

قوله : (وأعد لهم جهنم) . أي هيأها لهم وجعلها سكنا لهم ومستقرا .

قوله : (وساءت مصيرا) . أي : مرجعا يصار إليه .

و(مصيرا) : تمييز ، والفاعل مستتر ، أي : ساءت النار مصيرا يصيرون إليه .

---

[1] الإمام أحمد في (المسند) (3/61) .

قال بن القيم في الآية الأولى : (فسر هذا الظن بأنه سبحانه لا ينصر رسوله، وأن أمره سيضمحل، وفسر بأن ما أصابه لم يكن بقدر الله وحكمته .

***   *   ***

قوله : (قال بن القيم) . هو محمد ابن قيم الجوزية، أحد تلاميذ شــيخ الإســلام ابن تيميه الكبــار الملازمين له رحمهما اللــه، وقد ذكــره في (زاد المعــاد) عقيب غــزوة أحد تحت بحث الحكم والغايات المحمودة التي كانت فيها .

قوله : (في الآية الأولى) . يعني قوله (يظنــون بالله غير الحق ظن الجاهلية)، فسر بأن الله لا ينصر رســوله، وأن أمره سيضمحل، أي : يزول، وفسر بأن ما أصــابه لم يكن بقدر الله وحكمته، ويؤخذ هذا التفسير من قولهم : (لو كــان لنا من الأمر شي ما قتلنا هاهنــا)، ففسر بإنكار الحكمة، وإنكــار القــدر، وإنكــار أن يتم أمر رســوله صلى الله عليه وسلم وأن يظهر الله على الدين كله .

ففسر بما يكـــــون طعنا في الربوبية وطعنا في الأسماء والصفات ، فالطعن في القــدر طعن في ربوبية الله – عز وجل – ، لأن من تمــام ربوبيته – عز وجل - أن نــؤمن بــأن كل ما جــرى في الكــون فإنه بقضــاء الله وقــدره، والطعن في الأســماء والصــفات تضــمنه الطعن في أفعاله وحكمتـــه، حيث ظننا أن الله تعـــالى لا ينصر رسوله وسوف يضمحل أمــره، لأنه إذا ظن الإنســان هــذا الظن بالله، فمعــنى ذلك إن إرســال الرســول صــلى الله عليه وســـلم عبث وســـفه، فما الفائـــدة من أن يرسل رســول ويــؤمر بالقتــال وإتلاف الأمــوال والأنفس ، ثم تكون النتيجة أن يضمحل أمره وينسى ؟ فهذا بعيد .

ولا سيما رسول الله صلى الله عليه وسلم الــذي هو خاتم النبيين، فإن الله تعالى قد أذن بأن شريعته ســوف تبقى إلى يوم القيامة .

قــال ابن القيم رحمه الله : (وهــذا هو ظن الســوء الذي ظنه المنافقون والمشركون في سورة الفتح).

وخلاصة ما ذكر ابن القيم في تفسـير ظن السـوء ثلاثة أمور :

الأول : أن يظن أن الله يـديل الباطل على الحق إدالة مستقرة يضـمحل معها الحـق، فهـذا هو ظن المشـركين والمنـافقين في سـورة الفتح، قـال تعـالى : (بل ظننتم أن لن ينقلب الرسـول والمؤمنـون إلى أهليهم ابـدا) (الفتح :12) .

الثاني : أن ينكر أن يكون ما جرى بقضاء الله وقـدره، لأنه يتضـمن أن يكـون في ملكه سـبحانه ما لا يريد ، مع أن كل ما يكون في ملكه فهو بإرادته .

الثالث : أن ينكر أن يكون قدره لحكمة بالغة يسـتحق عليه الحمـد، لأن هـذا يتضـمن أن تكـون تقديراته لعبا وسفها، ونحن نعلم علم اليقين أن الله لا يقـدر شـيئا أو يشـرعه إلا لحكمـة، قد تكـون معلومة لنا وقد تقصر عقولنا عن إدراكهـا، ولهـذا يختلف النـاس في علل الأحكـام الشـرعية اختلافا كبـيرا بحسب ما عنـدهم من معرفة حكمة الله – سبحانه وتعالى - .

ورأي الجهمية والجبرية أن الله يقدر الأشياء لمجـرد المشيئة لا لحكمة، قالوا : لأنه لا يسأل عما يفعل ، وهذا من أعظم سوء الظن بالله، لأن المخلوق إذا تصرف لغير حكمة سمي سفيها، فما بالك بالخالق الحكيم ؟

قـال تعـالى: (وما خلقنا السـماء والأرض وما بينهما باطلا ذلك ظن الـذين كفـروا) (ص :27) ، فـالظن بأنها خلقت بـاطلا لحكمة عظيمة ظن الـذين كفـروا ، وقـال تعالى : (وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين * ما خلقناهما إلا بالحق) (الدخان :38- 39) الذي هو ضد الباطل، وهؤلاء قالوا : إن الله تعالى خلقهما باطلا لغـير حكمة، قال الله : (ذلك ظن الـذين كفـروا) ، أي : الـذين يظنون أن الله خلقهما باطلا وعبثا وسفها ولعبا .

والمعتزلة على العكس من ذلك ، يقولون : لا يقدر إلا لحكمة ، ويفرضـون على الله ما يشـاؤون، وقد ذكر صـاحب (مختصر التحريـر) الفتـوحي رحمه الله : أن المسالة قولين في المذهب .

ولكن الصـواب بلا ريب أنه لا يفعل شـيئا ولا يقـدره على عبده ولا يشرع شـيئا إلا لحكمة بالغة يسـتحق عليها الحمد والشكر .

قوله : (فويل للذين كفروا من النار)(ص :27) (ويل) : مبتدأ، وساغ الابتداء بالنكرة : للتعظيم، وخبر المبتـدأ : (للذين كفروا) ، والجار والمجرور (من النار) بيان لويـل، وفي هـذا دليل على أن كلمة (ويـل) كلمة وعيد وليست كما قيل : واد في جهنم، ولهـــذا نقـــول : ويل لك من الـــبرد، ويل لك من فلان، ويقـــول المتوجع : ويلاه، وإن كـان قد يوجد واد في جهنم اسـمه ويـل، لكن ويل في مثل هذه الآية كلمة وعيد .

قوله : (وأكـــثر النـــاس) . أي : من بـــني آدم لا من المؤمـــنين يظنـــون بالله ظن السـوء، أي : العيب فيما يختص بهم ، كما إذا دعــوا الله على الوجه المشـــروع يظنـــون أن الله لا يجيبهم ، أو إذا تعبـدوا الله بمقتضى شريعته يظنون أن الله لا يقبل منهم، وهـذا ظن السـوء فيما يختص بهم .

قوله : (فيما يفعله بغيرهم) . كما إذا رأوا أن الكفار انتصـروا على المسـلمين بمعركة من المعـارك ظنـوا أن الله يديل هؤلاء الكفار على المسـلمين دائمـا، فـالواجب على المسـلم أن يحسن الظن بالله مع وجـود الأسـباب التي تقتضي ذلك .

قوله : (ولا يسلم من ذلك) . أي : من الظن السوء .

قوله : (إلا من عرف الله وأسماءه وصفاته ومـوجب حكمته وحمـده) . صـدق رحمه الله ، لا يسـلم من ظن السـوء إلا من عـرف الله – عز وجل – وماله من الحكم والأسـرار فيما يقـدره ويشـرعه، وكـذلك عـرف أسـماءه وصفاته معرفة حقة لا معرفة تحريف وتاويل .

ولهذ حجب المحرفون والمؤولون عن معرفة أسـماء الله وصـفاته، فتجد قلـوبهم مظلمة غـالب، تحـاول أن تورد الإشكالات والتشكيك والجـدل، أما من أبقى أسـماء الله وصـفاته على ما دلت عليه مثل هـذه الاعتراضـات التي تـرد على قلـوب أولئك المحـرفين ، لأن المحـرفين

إنما أتوا من جهة ظنهم بالله ظن السوء، حيث ظنــوا أن الكتــاب والســنة دل ظاهرهما على التمثيل والتشــبيه، فأخذوا يحرفون الكلم عن مواضعه وينكرون ما أثبت الله لنفسه ، ولهــذا قــال شــيخ الإســلام ابن تيمية : إن كل معطل ممثل ، وكل ممثل معطل .

أما كــون كل معطل ممثلا، فلأنه إنما عطل لكونه ظن أن دلالة الكتاب والسـنة تقتضي التمثيـل، فلما ظن هـذا الظن الســيء بنصــوص الكتــاب والســنة أخذ يحرفها ويصرفها عن ظاهرها، فمثلا أولا،وعطل ثانيا، ثم إنه إذا عطل صــفات الله تعــالى خوفا من تشــبيهه بــالموجود، فقد شبهه بالمعــدوم، وأما كونه كل ممثل معطلا ، فلأن الممثل عطل الله تعــالى من كمــال الــواجب حيث مثله بـــالمخلوق النــاقص، وعطل كل نص يـــدل على نفي مماثلة الخالق للمحلوق .

وعلى هذا ، فالذي عرف أسماء الله وصــفاته معرفة على ما جــرى عليه ســلف هــذه الأمة وأئمتها ، وعــرف موجب حكمة الله ، أي : مقتضى حكمة اللــه، لا يمكن أن يظن بالله ظن السوء .

وقوله : (مــوجب) . مــوجب، بــالفتح : هو المســبب الناتج عن الســبب بمعـنى المقتضي ، وبالكسر : الســبب الذي يقتضي الشي بمعنى المقتضي ، والمراد هنا الأول .

فالـــذي يعـــرف مـــوجب حكمة الله وما تقتضـــيه الحكمـــة،فإنه لا يمكن أن يظن بالله ظن الســـوء أبـــدا، وتلاحظ الحكمة الــتي حصــلت للمســلمين في هــزيمتهم في حــنين وفي هــزيمتهم في أُحــد، فــإن في ذلك حكما عظيمة ذكرها الله في سورة آل عمــران والتوبــة، فهــذه الحكم إذا عرفها الإنســـــان لا يمكن أن يظن بالله ظن الســوء ، وأنه أراد أن يخــذل رســوله وحزبــه، بل كل ما يجريه الله في الكون ، كمنع الإنبات والفقر، فهو لحكمة بالغة قد لا نعلمهـــا، ولا يمكن أن يظن أن الله بخل على عباده، لأنه - عز وجل – أكرم الأكرمين، وعلى هذا فقس .

قوله : (اللبيب) . على وزن فعيل، ومعناه : ذو اللب، وهو العقل .

ولو فتشت من فتشت، لرأيت عنده تعنتا على القدر ولامة له، وأنه كان ينبغي أن يكون كـذا وكـذا، فمسـتقل ومستكثر، وفتش نفسك، هل أنت سالم؟

وما تنج منها تنج من ذي عظيمة وإلا فأني لا أخالك ناجيا

قوله : (بهذا) . المشــار إليه هو الظن بالله – عز وجل - ، ليعتــني بهــذا حــتى يظن بالله ظن الحــق، فلا ظن السوء والجاهلية .

قوله : (وليتب إلى الله) . أي : يرجع إليه، لأن التوبة الرجوع من المعصية إلى الطاعة .

قوله :(وليستغفره) . أي يطلب منه المغفرة، واللام في قوله : (فليتب) وقوله : (وليستغفره) للأمر .

قوله : (تعنتا على القدر وملاء مة له) . أي : إذا قـدر الله شيئا لا يلائمه تجده يقـول : ينبغي أن ننتصـر، ينبغي أن يأتي المطر، ينبغي أن لا نصلب بــالجوائح، وأن يوسع لنا في هذا الرزق وهكذا.

قوله : (فمســتقل ومســتكثر) . (مســتقل) : مبتــدأ، وخبره محذوف .

و(مســتكثر) : مبتـدأ خـبره محـذوف، والتقـدير : فمن الناس مستقل ومنهم مستكثر، ونظير ذلك قوله تعالى : (فمنهم شـقي وسـعي) (هـود : 105) ف (سـعيد) مبتـدأ خـبره محـذوف تقـديره : ومنهم سـعيد . ولا يقـال بـأن (سـعيد) معطــوف على شــقي، لكونه يلــزم أن يكــون الوصفان لموصوف واحد ,

قوله : (وفتش نفسك : هل أنت سلم) . وهذا ينبغي أن يكـون في جميع المسـائل مما أوجبه اللـه، فتش عن نفسك : هل أنت ســالم من التقصــير فيــه؟ ومما حرمه الله عليك : هل أنت سالم من الوقوع فيه؟

قوله : (فـــإن تنج منه تنج من ذي عظيمـــة) . (تنج) الأول فعل الشـرط مجـزوم بحـذف الـواو ، (تنج) الثانية جوابه مجزوم بحذف الواو .

قوله : (من ذي عظيمة) . أي : من ذي بلية عظيمة .

قوله : (وإلا، فـإني لا إخالك ناجيـا) . التقـدير، أي : وإلا تنج من هذه البلية،فإني لا إخالك ناجيا .

ومعني إخالك : أظنك ، وهي تنصب مفعولين : الأول هنا الكاف، والثاني ناجيا .

****

فيه مسائل :

* الأولى : تفسير آية آل عمران . وهي قوله تعالى: (يظنون بالله غير الحق ظن الجاهلية ..) وقد سب، والضمير فيها للمنافقين .

* الثانية : تفسير آية الفتح . وهي قوله تعالى : (الظانين بالله ظن السوء ...)، وقد سبق، والضمير فيها للمنافقين .

* الثالثة : الإخبار بأن ذلك أنواع لا تحصر . أي : ظن السوء، والذي أخبر بذلك ابن القيم رحمه الله ، وضابط هذه الأنواع أن يظن بالله ما لا يليق به .

* الرابعة : أن لا يسلم من ذلك إلا من عرف الأسماء والصفات وعرف نفسه . أي : لا يسلم من ظن السوء بالله إلا من عرف الله وأسمائه وصفاته وموجب حكمته وحمده وعرف نفسه ففتش عنها ، والحقيقة أن الإنسان هو محل النقص والسوء، وأما الرب، فهو محل الكمال المطلق الذي لا يعتريه نقص بوجه من الوجوه .

ولا تظن بربك ظن سوء فإن الله أولى بالجميل

* مناسبة الباب للتوحيد :

إن ظن السوء ينافي كمال التوحيد، وينافي الإيمان بالأسماء والصفات، لأن الله قال في الأسماء : (ولله السماء الحسنى فادعوه بها) (الأعراف : 18) فإذا ظن بالله ظن السوء ، لم تكن الأسماء حسنى، قال في الصفات : (ولله المثل الأعلى) (النحل :60)، ، وإذا ظن بالله ظن السوء، لم يكن له المثل الأعلى .

* * *

باب ما جاء في منكري القدر

قوله : (منكري) . أصله منكـرين – جمع مـذكر سـالم – فحذفت النـون للإضـافة كما يحـدث التنـوين أيضا ، قـال الشاعر :

كأني تنوين وأنت إضافة فأين تراني لا تحل جواري

وقيل : (مكاني) بدل (جواري) .

قوله : (القدر) هو تقدير الله – عز وجل – للكائنـات، وهو سر مكتوم لا يعلمه إلا الله أو من شاء من خلقه .

قــال بعض أهل العلم : القــدر سر الله – عز وجل – في خلقـه، ولا نعلمه إلا بعد وقوعه سـواء كـان خـيرا أو شرا .

والقدر يطلق على معنيين .

الأول : التقدير، أي : إرادة الله الشي – عز وجل - .

الثاني : المُقدّر، أي : ما قدره الله – عز وجل - .

والتقدير يكون مصاحبا للفعل وسابقا له، فالمصاحب للفعل هو الذي يكون به الفعل، والسابق هو قدره الله – عز وجل – في الأزل، مثال ذلك :

خلق الجـنين في بطن الأم فيه تقـدير سـابق علمي قبل خلق السـماوات والأرض بخمسـين ألف سـنة، وفيه تقـدير مقــارن للخلق والتكـوين، وهــذا الــذي يكــون به الفعل، أي : تقدير الله لهذا الشي عند خلقه.

والإيمـان بالقـدر يتعلق بتوحيد الربوبية خصوصـا، وله تعلق بتوحيد الأسماء والصـفات، لأنه من صـفات الكمـال لله عز وجل .

والناس في القدر ثلاثة طوائف :

الأولى : الجبرية الجهميــة، ، اثبتــوا قــدر الله تعــالى وغلــوا في لإثباته حــتى ســلبوا العبد اختيــاره وقدرتــه، وقــــالوا : ليس للعبد اختيـــار ولا قـــدرة في ما يفعله أو يتركـه، فأكله وشـربه ونومه ويقظته وطاعته ومعصـيته كلها بغير اختيار منه ولا قدرة، ولا فرق بين أن ينزل من السـطح عـبر الـدرج مختـارا وبين أن يلقى من السـطح مكرها .

الطائفة الثانية : القدرية المعتزلـــة، أثبتـــوا للعبد اختيـارا وقـدره في عمله وغلـوا في ذلك حـتى نفـوا أن يكـون لله تعـالى في عمل العبد مشـيئة أو خلـق، ونفى غلاتهم علم الله به قبل وقوعـــه، فأكل العبد أو شـــربه ونومه ويقظته وطاعته ومعصـــيته كلها واقعة باختيـــاره التام وقدرته التامة وليس لله تعالى في ذلك مشـيئة ولا خلق، بل ولا علم قبل وقوعه عند غلاتهم .

استدل الأولون الجبرية :

بقوله تعـالى : (الله خـالق كل شـي) (الزمر :62)ـ ، والعبد وفعله من الأشياء، وبقوله تعـالى : (والله خلقكم وما تعملـون) (الصـافات :96)ـ ، وبقوله تعـالى : (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) (الأنفـال :17)ـ ، فنفى الله الـــرمي عن نبيه حين رمى وأثبته لنفســـه، وبقوله تعالى : (سيقول الـذين أشـركوا لو شـاء الله ما أشـركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شي) (الأنعام : 148) .

وله شبه أخرى تركناها خوف الإطالة .

والرد على شبهاتهم بما يلي :

أما قوله تعالى : (الله خالق كل شـي)، فاسـتدلالهم بها معــارض بالنصـوص الكثـيرة الـتي فيها إثبـات إرادة العبد وإضـــافة عمله إليه وإثابته عليه كرامة أو إهانـــة، وكلها من عند الله، ولو كان مجبرا عليها ما كان لإضـافة عمله إليه وإثابته عليه فائدة .

وأما قوله تعالى : (والله خلقكم وما تعملـون) ، فهو حجة عليهم ، لأنه أضـــاف العمل إليهم، وأما كـــون الله تعـــالى خالقـــه، فلأن عمل العبد حاصل بإرادته الجازمة وقدرته التامة ، والإرادة والقـــدرة مخلوقـــان لله – عز وجل -، فكان الحاصل بها مخلوقا لله .

وأما قوله تعـــــالى : (وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى) ، فهو حجة عليهم، لأن الله تعـالى أضـاف الـرمي إلى نبيه صـلى الله عليه وسـلم ، لكن الـرمي في الآية معنيان :

أحدهما : حذف المرمي، وهو فعل النبي صلى الله عليه وسلم الذي أضافه الله إليه .

الثاني : إيصال المرمي إلي أعين الكفار الـذين رمـاهم النـبي صـلى الله عليه وسـلم بـالتراب يـوم بـدر فأصاب عين كل واحد منهم، وهذا من فعل الله، إذ ليس بمقـدور النـبي صـلى الله عليه وسـلم أن يوصل الـتراب إلى عين كل واحد منهم .

وأما قوله تعالى (سيقول الذين أشركوا لو شـاء الله ما أشـركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شـي) ، فلعمر اللـه، إنه الحجة على هـؤلاء الجبرية ، فقد أبطل الله تعـالى حجة هؤلاء المشركين الذي احتجوا بالقـدر على شـركهم حين قـال في الآية نفسـها : (كـذلك كـذب الـذين من قبلهم حـتى ذاقـوا بأسـنا)، وما كـان الله ليـذيقهم بأسه وهم على حق فيما احتجوا به .

ثم نقـول : القـول بـالجبر باطل بالكتـاب والسـنة والعقل والحس وإجمـاع السـلف، ولا يقـول به من قـدّر الله حق قدره وعرف مقتضى حكمته ورحمته .

فمن أدلة الكتاب :

قوله تعـالى : (منكم من يريد الـدنيا ومنكم من يريد الآخـرة) (آل عمـران : 152) وقـال تعـالى : (يقولـون بأفواههم ما ليس في قلوبهم) (آل عمران : 167) وقال : (إنه خبير بما تفعلـون) (النمل :88)ـ ، وقـال تعـالى : (والله خبير بما تعملون) (المنـافقون :11) فـأثبت للعبد إرادة وقولا وفعلا وعملا .

ومن أدلة السنة قـول النـبي صـلى الله عليه وسـلم : (إنما الأعمال بالنيات وإنما كل امري ما نوى)[1]

وقوله : (ما نهيتكم عنه فـاجتنبوه، وما أمـرتكم بـه، فأتوا منه ما استطعتم)[2] .

ولهذا إذا أكره المرء على قول أو فعل وقلبه مطمئن بخلاف ما أكـره عليـه، لم يكن لقوله أو فعله الـذي أكـره عليه حكم فاعله اختيارا .

---

(1) تقدم (ص 625) .

(2) البخاري : كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة / باب الأقتـداء بسـنن النـبي صـلى الله عليه وسلم ، ومسلم : كتاب الفضائل / باب توقيره صلى الله عليه وسلم .

وأما إجماع السلف على بطلان القـول بـالجبر : فلم ينقل عن أحد منهم أنه قــال بـــه، بل رد من أدرك منهم بدعته موروث معلوم .
وأما دلالة العقل على بطلانه : فلأنه لو كـــان العبد مجــبر على عملــه، لكــانت عقوبة العاصي ظلما ومثوبة الطائع عبثـا، والله تعـالى مـنزه عن هـذا وهـذا، ولأنه لو كــــان العبد مجــــبرا على عمله لم تقم الحجة بإرســــال الرسل، لأن القدر باق مع إرسال الرســل، وما كـان الله ليقيم على العباد حجة انتفاء كونها حجة .
وأما دلالة الحس على بطلانه : فـإن الإنســان يـدرك الفــــرق بين ما فعله باختيـــاره، كأكله وشـــــربه وقيامه وقعوده، وبين ما فعله بغير اختياره، كارتعاشه من الــبرد والخوف ونحو ذلك .
واســتدل الطائفة الثانية (القدريــة) بقوله تعــالى : (منكم من يريد الــدنيا) (من عمل صــالحا فلنفسه ومن أســاء فعليهــا) (فصــلت : 46)ـ ، ونحوها من النصـوص القرآنية والنبوية الدالة على أن العبد إرادة، وأنه هو العامل الكاسب الراكع الساجد ونحو ذلك .
والرد عليهم من وجوه :
الأول : أن الآيات والأحاديث التي استدلوا بها نوعان :
نوع مقيد لإرادة العبد وعمله بأنه بمشيئة الله، كقوله تعالى : (لمن شاء منكم أن يستقيم* وما تشاؤون إلا إن يشاء الله رب العالمين) (التكـوير :28 –29) وقوله : (إن هذه تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سـبيلا * وما تشـاؤون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما) (الإنســان :29 –30) ،
وكقوله تعـــالى : (لو شــــاء الله ما اقتتل الـــذين من بعدهم من بعد ما جاءتهم البينــات ولكن اختلفــوا فمنهم من آمن ومنهم من كفر ولو شـــاء الله ما اقتتلــوا ولكن الله يفعل ما يريد) البقرة :253) .
والنوع الثاني : مطلق ، كقوله تعالى : (فأتوا حرثكم أني شئتم) (البقرة : 223)، وقوله : (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفــر) (الكهف :29) وقوله : (من كـان يريد

العاجلة ...) إلى قوله تعـالى (ومن أراد الآخـرة وسـعى لها سـعيها وهو مـؤمن فأولئك كـان سـعيهم مشـكور) (الإسراء 18-19)

وهذا النوع المطلق يحمل على المقيد كما هو معلـوم عند أهل العلم .

الثـاني : أن إثبـات اسـتقلال العبد بعمله مع كونه مملوكا لله تعـالى يقتضي لإثبـات شي في ملك الله لا يريده الله، وهذا نوع إشراك به، ولهذا سمي النبي صلى الله عليه وسلم : (القدرية مجوس هذه الأمة)[1] .

الثـالث أن نقـول لهم : هل تقـرون بـأن الله تعـالى عالم بما سيقع من أفعـال العبـاد؟ فسـيقول غـير الغلاة منهم : نعم، نقر بـذلك، فنقـول وهل وقع فعلهم على وفق علم الله أو على خلافـه؟ فـإن قـالوا : على وفقه ، قلنا : إذاً قد أراده، وإن قالوا : على خلافـه، فقد أنكـروا علمـه، وقد قـال الأئمة رحمهم الله في القدريـة: ناظروهم بالعلم، فإن أقـروا بـه، خُصـموا، وإن أنكـروه ، كفروا .

وهاتـان الطائفتـان – الجبرية والقدرية – ضـالتان طريق الحـق، لأنهما بين مفـرط غـال ومفـرط مقصـر، فالجبرية غلوا في إثبات القـدر وقصـروا في إرادة العبد وقدرتـه، والقدرية غلـوا في إثبـات القـدر وقصـروا في العبد وقدرته ، والقدرية غلـوا في إثبـات إرادة العبد وقدرته وقصروا في القدر .

ولهذا كان الأسعد بالـدليل والأوفق للحكمة والتعليل هم :

الطائفة الثالثة : أهل السـنة والجماعـة، والطائفة الوسط، الـذين جمعـوا بين الأدلة وسـلكوا في طـريقهم خير ملة، فآمنوا بقضـاء الله وقـدره، وبـأن للعبد اختيـارا وقـدرة، فكل ما كـان في الكـون من حركة أو سـكون أو وجود أو عدم، فإنه كائن بعلم الله تعالى ومشـيئته، وكل ما كان في الكون فمخلـوق لله تعـالى ، لا خـالق إلا الله ولا مـدبر للخلق إلا الله – عز وجل -، وآمنـوا بـأن للعبد مشيئة وقدرة ، لكن مشيئته مربوطة بمشيئة الله تعـالى

---

[1] أخرجه الإمام أحمد وأبو داود ، وهو مشهور عند أهل العلم لكن فيه ضعف .

، كما قــال تعــالى : (لمن شــاء منكم أن يســتقيم * وما تشــاؤون إلا أن يشــاء الله رب العــالمين) ، فــإذا شــاء العبد شـــيئا وفعله ، علمنا أن مشـــيئة الله تعـــالى قد سبقت تلك المشيئة .
هــؤلاء هم الــذين جمعــوا بين الــدليل المنقــول والمعقول، فأدلتهم على إثبات القـدر هي أدلة المثبـتين له من الجبريـــة، لكنهم اســـتدلوا بها على وجه العـــدل والجمع بينهما وبين الأدلة التي استدل بها نفاة القدر .
وأدلتهم على الإثبـــات مشـــيئة العبد وقدرته هي أدلة المثبتين لذلك من القدرية، لكنهم اسـتدلوا بها على وجه العـدل والجمع بينها وبين الأدلة الـتي اسـتدل بها نفـاة مشيئة العبد وقدرته .
وبهذا نعرف أن كل من الجبرية والقدرية نظروا إلى النصوص بعين الأعور الـذي لا يبصر إلا من جـانب واحـد، فهدي الله أهل السنة والجماعة لما اختلف فيه من الحق بإذنه ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم .
• • حكاية :
مما يحكى أن القاضي عبد الجبـــــار الهمـــــذاني المعتزلي دخل على الصاحب ابن عباد وكان
معتزليا ايضـــا، وكـــان عنـــده الأســـتاذ أبو إســـحاق الإسفراييني ، فقال عبد الجبار على الفور : سبحان من تنزه عن الفحشاء ! فقال أبو إسحاق فورا : سـبحان من لا يقع في ملكه إلا ما يشاء! فقال عبد الجبــار وفهم أنه قد عرف مراده : أيريد ربنا أن يعصى؟ فقال أبو إسـحاق : أيعصى ربنا قهــرا؟ فقــال له عبد الجبـــار : أرأيت أن منعني الهدى وقضى على بالردى، أحسن
إليّ أم أساء؟ فقال له أبو إسـحاق : إن كـان منعك ما هو لـــك، فقد أســاء، وإن كــان منعك ما هو له ، فيختص برحمته من يشـاء. فانصـرف الحاضـرون وهم يقولـون : والله، ليس عن هذا جواب . ا . هـ .
وقد ذكر شـــيخ الإســلام ابن تميمة رحمه الله أن أهل الســـنة والجماعة وسط بين فـــرق المبتدعة في خمسة أصول ذكرها في (العقيدة الواسطية) فلتراجع هناك .

- • مراتب القدر :

وهي أربع يجب الإيمان بها كلها :

المرتبة الأولى : العلم، وذلك بأن تـؤمن بـأن الله تعـالى على علم كل شي جملة وتفصـيلا، فعلم ما كـان وما يكـون، فكل شي معلـوم للـه، سـواء كـان دقيقا أم جليلا أو أفعال خلقه .

وأدلة ذلك من الكتـاب كثـيرة، منها : قوله تعـالى : (وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما في الـبر والبحر وما تســقط من ورقة إلا يعلمها الله ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يـابس إلا في كتـاب مـبين) (الإنعـام :59) فـالأوراق الـتي تتسـاقط ميتة أي ورقة كـانت صـغيرة أو كبـيرة في بر أو بحـر، فـإن الله تعـالى يعلمها، والورقة التي تخلق يعلمها من باب أولى .

ولا حظ سـعة علم الله – عز وجل – وإحاطتـه، فلو فـرض أنه في ليلة مظلمة ليس فيها قمر وفيها سـحاب متراكم ممطر وحبة في قاع البحر المائج العميق، فهـذه ظلمات متعـددة : ظلمة الطبقة الأرضـية، وظلمة البحـر، وظلمة السـحاب، وظلمة المطـر، وظلمة الأمـواج ، وظلمة الليل، فكل هذا داخل في قوله تعـالى : (ولا حبة في ظلمات الأرض)، ثم جاء العموم المطلق : (ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين) ، ولا كتابة إلا بعد علم .

ففي هذه الآية إثبات العلم وإثبات الكتابة .

ومنها قوله تعـالى : (ألم تعلم أن الله يعلم ما في السـماء والأرض إن ذلك في كتـاب إن ذلك في كتـاب إن ذلك على الله يسـير) (الحج :70) ففي الآية أيضا إثبـات العلم وإثبات الكتابة .

المرتبة الثانية : الكتابـة، وقد دلت عليها الآيتـان السابقتان .

المرتبة الثالثة : المشـيئة، وهي عامـة، ما من شي في السـماوات والأرض إلا وهو كـائن بـإرادة الله ومشيئته، فلا يكون في ملكه مـالا يريد أبـدا، سـواء كـان ذلك فيما يفعله بنفسه أو يفعله مخلـوق، قـال تعـالى : (إنما أمره إذا أراد شـيئا أن يقـول له كن فيكـون)(يس : 82) وقـال تعـالى : (ولو شـاء ربك ما فعلـوه) (الأنعـام :

112) وقــال تعــالى:(لو شــاء الله ما اقتتل الــذين من بعدهم .) الآية (البقرة : 253) .

المرتبة الرابعة : الخلق، فما من شي في السماوات ولا في الأرض إلا الله خالقه ومالكه ومــــــــــدبره وذو سلطانه، قال تعالى : (الله خالق كل شي) (الزمر : 62) ، وهذا العموم لا مخصص له، حتى فعل المخلوق مخلوق للــــه، لأن فعل المخلـــوق من صـــفاته، وهو وصـــفاته مخلوقان، ولأن فعله نتج عن أمرين :

1. 1. إرادة جازمة .
2. 2. قدرة تامة .

والله هو الــــذي خلق في الإنســــان الإرادة الجازمة والقـدرة، ولهـذا قيل لأعـرابي : بم عـرفت ربـك؟ قـال بنقص العزائم، وصرف الهمم .

والعبد يتعلق بفعله شيئان :

1. 1. خلق، وهذا يتعلق بالله .
2. 2. مباشرة ، وهذا يتعلق بالعبد وينسب إليه، قـال تعـالى : (جـزاء بما كـانوا يعملـون) (الواقعة : 24)، وقال تعالى (ادخلـوا الجنة بما كنتم تعملـون) (النحل :32) ولــولا نســبة الفعل إلى العبد ما كــان للثنــاء على المـؤمن المطيع وإثباته فائـدة، وكـذلك عقوبة العاصي وتوبيخه .

وأهل السنة والجماعة يؤمنـون بجميع هـذه المـراتب الأربع، وقد جمعت في بيت :

علم كتابة مولانا مشيـئتــه وخلقه وهو إيجاد وتكوين

وهناك تقديرات أخرى نسبية :

منها : تقـديري عمـري : حين يبلغ الجـنين في بطن أمه أربعة أشــهر يرسل إليه الملــك، فينفخ فيه الــروح، ويكتب رزقه وأجله وعمله وشقي أو سعيد .

ومنها : التقدير الحـولي : وهو الـذي يكـون في ليلة القدر، يكتب فيها ما يكون في السنة، قال تعالى : (فيها يفرق كل أمر حكيم) (الدخان :4) .

ومنها التقـدير اليـومي : كما ذكـره بعض أهل العلم واســتدل له بقوله تعــالى : (يســأله من في الســماوات

والأرض كل يـوم هو في شـأن) (الـرحمن : 29) فهو كل يوم يغـني فقـيرا، ويفقر غنيـا، ويوجد معـدوما ، ويعـدم موجـــودا ، ويبسط الـــرزق ويقـــدرُهُ ، وينشي الســـحاب والمطر وغير ذلك .

فـــإن قيل : هل الإيمـــان بالقـــدر ينـــافي ما علم بالضرورة من أن الإنسان يفعل الشي باختياره ؟

الجـواب : لا ينافيـه، لأن ما يفعله الإنسـان باختيـاره من قدر الله، كما قال أمـير المؤمـنين عمر بن الخطـاب رضي الله عنه لما أقبل على الشـام، وقـالوا له : إن في الشام طاعونا يفتك بالناس، فجمع الصـحابة وشـاورهم، فقال بعضهم : نرجـع. فعـزم على الرجـوع ، فجـاء أمين هذه الأمة أبو عبيـدة عـامر بن الجـراح ، فقـال : يا أمـير المؤمنين! أفرارا من قدر الله؟ فأجاب عمر نفر من قدر الله إلى قدر الله[1] .

يعني : أن مضينا في السفر بقدر اللـه، ثم ضـرب له مثلا، قــــال : أرأيت لو كـــــان لك إبل فهبطت واديا له شعبتن إحـداهما خصـبة والأخـرى جدبـة، أليس إن رعيت الخصبة فبقدر الله، وإن رعيت الجدبة فبقدر الله ؟

وقــال أيضا : أرأيت لو رعى الجدبة وتـرك الخصـبة، أكنت معجــزة؟ قــال : نعم . قــال : فسر إذن . ومعــنى معجزة : ناسبا إياه إلى العجز .

فالإنسان وإن كان يفعل، فإنما يفعل بقدر الله.

فـإن قيل : إذا تقــرر ذلــك، لــزم أن يكـون العاصي معذورا بمعصيته، لأنه عصي بقدر الله؟

أجيب : إن احتجــاج العاصي بالقــدر باطل بالشــرع والنظر .

أما بطلانه بالشرع : فقد قال الله تعالى : (سـيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشـركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شي) فهم قـالوا هـذا على سـبيل الاحتجـاج بالقـدر على معصية اللـه، فـرد الله عليهم بقوله : (كـذلك كـذب الـذين من قبلهم حـتى ذاقـوا بأسـنا)، ولو كـانت حجتهم صــحيحة ما أذاقهم الله بأسه ، وقــال تعــالى : (قل هل

---

(1) البخاري : كتاب الطب / باب ما يذكر في الطاعون، ومسلم : كتاب السـلام / باب الطاعون والطيرة .

عنـدكم من علم فتخرجـوه لنا إن تتبعـون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصـون) (الأنعـام : 148)ـ ، وهـذا دليل واضح على بطلان احتجاجهم بالقـدر على معصـية اللـه، وقـال تعالى :(رسلا مبشـرين ومنـذرين لئلا يكـون للنـاس على الله حجة بعد الرســل)(النســاء :156) فابطل الله الحجة على النــاس بإرســال الرســل، ولو كـان القــدر حجة ما انتفت بإرسال الرسل، لأن القـدر بـاق حـتى مع إرسـال الرســل، وهـذا يـدل على بطلان احتجــاج العاصي على معصيته بقدر الله.

وأما بطلانه بـالنظر ، فنقـول : لو فـرض أنه نشر في جريـدة ما عن وظيفة مرتبه كـذا وكـذا، ووظيفة أخـرى أقل منهــا، فإنك ســوف تطلب الأعلى ، فــإن لم يكن ، طلبت الأخــرى، فــإذا لم يحصل له شي منهـــا، طلبت الأخــرى، فــإذا لم يحصل منها ، فإنه يلــوم نفسه على تفريطه بعدم المسارعة إليها من أول الناس .

وعنـدنا وظـائف دينية الصـلوات الخمس كفـارة لما بينها ، وهي كنهر على بــاب أحــدنا يغتسل منه كل يــوم خمس مــرات ، وصـــلاة الجماعة أفضل من صـــلاة الفذ بسبع وعشرين درجة، فلماذا تترك هذه الوظــائف وتحتج بالقدر وتذهب إلى الوظـائف الدنيوية الرفيعـة، فكيف لا تحتج بالقدر فيما يتعلق بأمور الدنيا وتحتج به فيما يتعلق بأمور الآخرة؟

مثـال آخـر:رجل قـال : عسى ربي أن يرزقـني بولد صالح عـالم عابـد، وهو لم يـتزوج، فنقـول : تـزوج حـتى يأتيك . فقال : لا. فلا يمكن أن يأتيه الولد، لكن إذا تزوج ، فإن الله بمشيئتة قد يرزقه الولد المطلوب .

وكذلك من يسال الله الفوز بالجنة والنجاة من النار، ولا يعمل لذلك، فلا يمكن أن ينجو من النار ويفوز بالجنة لأنه لم يعمل لذلك .

فبطل الاحتجــاج بالقــدر على معاصي الله بــالأثر و النظر ، ولهـذا قـال النـبي صـلى الله عليه وسـلم كلمة جامعة مانعة نافعة : (ما منكم من أحد إلا وقد كتب مقعده من الجنة ومقعده من النار).قالوا:يا رسول اللـه! أفلا نـدع العمل ونتكـل؟ قـال : (اعملـوا، فكل ميسر لما

خلق له) [1] ، فالنبي صلى الله عليه وسلم أعطانا كلمة واحـدة ، فقـال : (اعملـوا ...)، وهـذا فعل أمـر، (فكل ميسر لما خلق له) .

وللإيمان بالقدر فوائد عظيمة، منها :

1 – أنه من تمام توحيد الربوبية .

2– أنه يوجب صدق الاعتمـاد على الله – عز وجل - ، لأنك إذا علمت أن كل شي بقضـــاء الله وقـــدره صدق اعتمادك على الله .

2 2 – أنه يوجب للقلب الطمأنينة، إذا علمت أن ما أصـــابك لم يكن ليخطئك وما أخطـــأك لم يكن ليصـيبك، اطمـأننت بما يصـيبك بعد فعل الأسـباب النافعة .

3 3 – منع إعجــاب المــرء بعمله إذا عمل عملا يشكر عليه، لأن الله هو الـذي من عليه وقـدره لـه، قال تعـالى : (ما أصـاب من مصـيبة في الأرض ولا في أنفســكم إلا في كتــاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير* كيلا تأسـوا على ما فـاتكم ولا تفرحـوا بما آتـاكم) (الحديد : 22-23)ـ ، أي : فـرح بطر وإعجاب بالنفس.

4 4 – عـدم حزنه على ما أصـابه ، لأنه من ربـه، فهو صادر عن رحمة وحكمة .

5 5 – أن الإنســان يفعل الأســباب، لأنه يــؤمن بحكمة الله – عز وجل – وأنه لا يقـــدر الأشـــياء إلا مربوطة بأسبابها .

وقال بن عمر : (والذي نفس ابن عمر بيده، لو كان لأحدهم مثل أحد ذهبا، ثم أنفقه في سبيل اللـه، ما قبله الله منه، حتى يؤمن

---

(1) البخـاري : كتـاب التفسـير / بـاب (فأما من أعطى وأتقى) ، ومسـلم : كتـاب القدر / باب كيفية خلق الآدمي في بطن أمه .

*   *   *

قوله : (والــذي نفس ابن عمر بيــده) .الصــيغة هنا قسم ، جوابه : جملة (لو كان لأحـدهم مثل أُحد ذهبـا، ثم أنفقه في ســبيل اللــه، ما قبله الله منه حــتى يــؤمن بالقدر) .

وابن عمر – رضى الله عنه وعن أبيه – ذكر حكمهم بالنســبة لقبــول عملهم ولم يقل هم كفــار، لكن حكمه بــأن إنفــاقهم في ســبيل الله لا يقبل يســتلزم الحكم بكفرهم، وإنما قال ابن عمر ذلك جوابا على ما نقل إليه من أن أناسا من البصــرة يقولـون : إن الله – عز وجل – لم يقـدر فعل العبد وإن الأمر أنـف، وأنه لا يعلم بأفعـال العبد حــتى يعلمها وتقع منه ، وانه لا يعلم بأفعــال العبد حتى يعملها وتقع منه،

بالقـدر، ثم اسـتدل بقـول النـبي صـلى الله عليه وسلم : (الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته، وكتبه، ورسله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خيره وشره[1]

فـــابن عمر حكم بكفـــرهم اللازم من قوله : (ما قبله حـتى يـؤمن بالقـدر) ، والـذي لا تقبل منه النفقـات هو الكـــــافر، لقوله تعـــــالى : (وما منعهم أن تقبل منهم نفقاتهم إلا أنهم كفـروا بالله وبرسـوله) (التوبة :54)ـ ، ثم استدل ابن عمر بقول النبي صـلى الله عليه وسـلم : (الإيمـان : أن تـؤمن باللــه، وملائكتــه، وكتبــه، ورســله، واليــوم الآخــر، وتــؤمن بالقــدر خــيره وشــره) فتــؤمن بالجميع، فإن كفرت بواحد من هذه الستة ، فـأنت كـافر بــالجميع لأن الإيمــان كل لا يتجــزأ، كما قــال تعــالى : (ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخــذوا بين ذلك سبيلا أولئك هم الكافرون حقـا) (النسـاء :150-151) .

---

[1] مسلم : كتاب الإيمان / باب بيان الإيمان والإسلام .

وجه استدلال ابن عمر : أن النبي صلى الله عليه وسلم جعل الإيمان مبنيا على هذه الأركان الستة، وإذا فات ركن من الأركان، سقط البنيان، فإذا أنكر الإنسان شيئا واحدا من هذه الأركان الستة، صار كافرا، وإذا كان كافرا ، فإن الله لا يقبل منه .

قوله : (أن تؤمن بالله) . والإيمان بالله – عز وجل – يتضمن أربعة أمور :

1 1 – الإيمان بوجوده .

2 2 – وبربوبيته .

3 3 – وبألوهيته .

4 4 – وبأسمائه وصفاته .

فمن أنكر وجود الله ، فليس بمؤمن، ومن أقر بوجوده وأنه رب كل شي، لكنه أنكر أسماءه وصفاته، أو أن يكون مختصا بها، فهو غير مؤمن بالله .

قوله : ((وملائكته) . والإيمان بالملائكة يتضمن أربعة أمور :

1 1 الإيمان بوجودهم .

2 2 الإيمان باسم من علمنا اسمه منهم .

3 3 الإيمان بأفعالهم .

4 4 الأيمان بصفاتهم .

فممن علمنا صفاته جبريل عليه السلام ، علمناه على خلقته التي خلق عليها له ستمائة جناح ، وقد سد الأفق، كما أخبرنا بذلك الرسول صلى الله عليه وسلم، وهذا يدل على عظمته، وأنه كبير جدا، فهو فوق ما نتصور، ومع ذلك يأتي بصورة بشر، فأتى مرة بصورة دحية الكلبي ، وأتى مرة بصورة رجل شديد سواد الشعر شديد بياض الثياب لا يرى عليه أثر سفر ولا يعرفه من الصحابة أحد، فجلس إلى النبي صلى الله عليه وسلم جلسة المتعلم المتأدب[1].

قوله : (وكتبه) . أي : الكتب التي أنزلها على رسله . والإيمان بالكتب يتضمن ما يلي :

1 1 الإيمان بأنها حق من عند الله .

2 2 تصديق أخبارها .

([1] تقدم (ص 977) .

3 3 التزام أحكامها ما لم تنسخ، وعلى هذا، فلا يلزمنا أن تلتزم بأحكـام الكتب السـابقة، لأنها كلها منسوخة بالقرآن، إلا ما أقره القرآن .

وكــذلك لا يلزمنا العمل بما نسخ في القــرآن، لأن القرآن فيه أشياء منسوخة .

4 4 – الإيمــان بما علمنــاه معينا منهــا، مثل التــوراة، والأنجيــل، والقــرآن، والزبــور، وصـحف إبراهيم وموسى .

5 5 - الإيمان بـأن كل رسـول أرسـله الله معه كتـاب ، كما قـال الله تعـالى: (لقد أرسـلنا رسـلنا بالبينات وأنزلنا معهم الكتاب) (الحديد :25) وقـال عيسى (إني عبد الله آتاني الكتاب) (مريم : 30) ، وقـال عن يحي (يا يحي خذ الكتـاب بقـوة) (مـريم 12) .

- • تنبيه :

الكتب التي بأيدي اليهود والنصارى اليــوم قد دخلها التحريف والكتمـان، فلا يوثق بهـا، والمـراد بما سـبق الإيمان بأصل الكتب .

قوله : (ورســله) . هم الــذين أوحى الله إليهم وأرسلهم إلى الخلق ليبلغوا شريعة الله.

والإيمان بالرسل يتضمن ما يلي :

1 – أن نؤمن بأنهم حق صادقون مصدقون .

2– أن نــؤمن بما صح عنهم من الأخبــار، وبما ثبت عنهم من الأحكام، ما لم تنسخ .

2 1 – أن نؤمن بأعيـان من علمنا أعيـانهم، وما لم نعلمه،فنؤمن بهم على سبيل الإجمال

، ونعلم أنه ما من أمة إلا خلا فيها نـــذير، وأن الله – سبحانه وتعالى – أرسل لكل أمة رسـولا تقـوم به الحجة عليهم، كما قــال تعـالى: (رسلا مبشــرين ومنــذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل) (النساء : 165) .

والبشر إذا لم يأتهم رسـول يـبين لهم فهم معـذرون، لأنهم يقولون : يا ربنا! ما أرسلت إلينا رسـولا، كما قـال تعـالى : (ولو أنا أهلكنــاهم بعـذاب من قبله لقـالوا ربنا

لــولا أرســلت إلينا رســولا فنتبع آياتك من قبل أن نــذل ونخــزى) (طه : 134) فلا بد من رســول يهــدي به الله الخلق.
فــإن قيل : قوله تعــالى : (على فــترة من الرســل) (المائدة :119) يدل على أنه فيه فترة ليس فيها رسول، فهل قامت عليه الحجة؟
الجــواب : إن الفــترة بين عيسى ومحمد عليهما الصــلاة و الســلام طويلة ، وقد قــامت عليه الحجــة، لأن فيها بقايــا، كما جــاء في الحــديث الصــحيح الــذي رواه مســـلم في (صـــحيحه) : (إن الله نظر إلى أهل الأرض، فمقتهم عــربهم وعجمهم ، إلا بقايا من أهل الكتــاب[1]، وكما قــال تعــالى : (فلو لا كــان من القــرون من قبلكم أولو بقية ينهــون عن الفســاد في الأرض إلا قليلا ممن أنجينا منهم) (هود : 116)
قوله:(واليوم الآخر) . أي : اليوم النهائي الأبدي الذي لا يوم بعده، وهو يوم القيامة الكبرى .
قال شيخ الإســلام ابن تيمية رحمه الله : يــدخل في الإيمان باليوم الآخر الإيمان بكل ما أخبر به النــبي صــلى الله عليه وســـلم مما يكـــون بعد المـــوت، ذكر هـــذا في (العقيدة الواسطية) ، وهو كتاب مختصر، لكنه مبارك من أفيد ما كتب في بابه .
وعلى هــذا، فالإيمــان بفتنة القــبر وعذابه ونعيمه من الإيمان باليوم الآخر.
والإيمان بالنفخ في الصور وقيام الناس من قبــورهم لــرب العــالمين حفــاة عــراة من الإيمــان بــاليوم الآخــر، والإيمـــان بـــالموازين والصـــحف والصـــراط والحـــوض والشفاعة والجنة وما فيه من النعيم والنار وما فيها من العذاب الأليم ، كل هذا من الإيمان باليوم الآخر .
ومنه ما هو معلـــوم بـــالقرآن، ومنه ما هو معلـــوم بالســنة بــالتواتر وبالآحــاد فكل ما صــحت به الأخبــار عن رسول الله صــلى الله عليه وســلم من أمر اليــوم الآخــر، فإنه يجب علينا أن نؤمن به

---

(1) مسلم : كتاب الجنة / باب الصفات التي يعرف بها في الدنيا أهل الجنة .

قوله : (تؤمن بالقـدر خـيره وشـره) . هنا أعـاد الفعل ولم يكتف بواو العطف، لأن الإيمـان بالقـدر مهم، فكأنه مستقل برأسه .

والإيمان بالقدر : هو أن تؤمن بتقدير الله – عز وجل – للأشـياء كلهـا، سـواء ما يتعلق بفعله أو ما يتعلق بفعل غيره، وأن الله – عز وجل – قـدرها وكتبها عنـده قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، ومعلوم أنه لا كتابة إلا بعد علم، فـالعلم سـابق على الكتابـة، ثم أنه ليس كل معلــوم الله – ســبحانه وتعــالى – مكتوبــا، لأن الــذي كتب إلى يــوم القيامــة، وهنــاك أشــياء بعد يــوم القيامة كثيرة أكثر مما في الـدنيا هي معلومة عند الله – عز وجل - ، لكنه لم يرد في الكتاب والسنة أنه مكتوبة .

وهذا القدر، قـال بعض العلمـاء : إنه سر من أسـرار اللـه، وهو كـذلك لم يطلع عليه أحـدا، ولا ملكا مقربا ولا نبيا مرسـلا، إلا ما أوحـاه الله – عز وجل – إلى رسـله أو وقع فعلم به الناس، وإلا ، فإنه سر مكتوم، قال تعالى : (وما تدري نفس مـاذا تكسب غـدا) الآية (لقمـان :34)ـ ، وإذا قلنا : إنه سر مكتــوم، فــإن القــول يقطع احتجــاج العاصي بالقــدر على معصــيته، لأننا نقــول لهــذا الــذي عصى الله – عز وجل – وقال هـذا مقـدر عليّ : ما الـذي علمك أنه مقدر عليك حتى أقـدمت، أفلا كـان الأجـدر بك أن تقدر أن الله تعالى قد كتب لك السعادة وتعمل بعمل أهل السعادة لأنك لا تستطيع أن تعلم أن الله كتب عليك الشقاء إلا بعد وقوعه منك ؟

قال تعالى : (فلما زاغوا أزاغ الله قلوبهم) (الصف : 5) فالقول بأن القدر سر من أسرار الله مكتــوم لا يطلع عليه إلا بعد وقـوع المقـدور تطمئن له النفس، وينشـرح له الصدر ، وتنقطع به حجة البطالين .

وقوله : (خيره وشره) . الخير : ما يلائم العبد، والشر : ما لا يلائمه .

ومعلوم أن المقدورات خـير وشـر، فالطاعـات خـير، والمعاصي شر، والغنى خير ، والفقر شر، والصحة خـير، والمرض شر ، وهكذا .

وإذا كان القدر من الله، فكيف يقال : الإيمان بالقدر خيره وشره والشر لا ينسب إلى الله؟

فـالجواب : أن الشر لا ينسب إلى اللـه، قـال النـبي صلى الله عليه وسـلم : (والشر ليس إليك)[1] فلا ينسب إليه الشر لا فعلا ولا تقـــــــديرا ولا حكما بل الشر في مفعــولات الله لا في فعلــه، ففعله كله خـــير وحكمــة، فتقدير الله لهذه الشـرور له حكمة عظيمـة، وتأمل قوله تعالى : (ظهر الفساد في الـبر والبحر بما كسـبت أيـدي الناس ليذيقهم بعض الذي عملوا لعلهم يرجعون) (الروم : 41)ـ ، تجد أن هذا الفساد الـذي ظهر في الـبر والبحر كان لما يرجي به من العاقبة الحميدة، وهى الرجـوع إلى الله – عز وجل - ، ويظهر الفــرق بين الفعل والمفعـول في المثال التالي : ولدك حينما يشتكي ويحتــاج إلى كي تكويه بالنــار، فــالكي شــر، لكن الفعل خـــير، لأنك تريد مصلحته، ثم إن ما يقدره الله لا يكون شرا محضا بل في محله وزمانه فقط ، فـــإذا أخذ الله الظـــالم أخذ عزيز مقتدر ، صار ذلك شرا بالنسبة له، وقد يكون خيرا له من وجه آخر، أما لغيره ممن يتعظ بما صـنع الله بـه، فيكـون خيرا، قال تعالى : في القرية التي اعتـدت في السـبت : (فجعلناها نكـــالا لما بين يــــديها وما خلفها وموعظة للمتقين) (البقرة : 65) .

وكذا إذا استمرت النعم على الإنسان حمله ذلك على الأشر والبطر، بل إذا استمرت الحسـنات ولم تحصل منه ســـيئة تكسر من حـــدة نفســـه، فقد يغفل عن التوبة وينساها ويغتر بنفسه ويعجب بعمله .

وكم من إنسـان أذنب ذنبا ثم تـذكر واسـتغفر وصـار بعد التوبة خيرا منه قبلها، لأنه كلما تذكر معصـيته هـانت عليه نفسه وحد من عليائهـــا، فهـــذا آدم عليه الصـــلاة والسلام لم يحصل له الاجتباء والتوبة والهداية إلا بعد أن أكل من الشـجرة وحصل منه النـدم، وقـال : (ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا وترحمنا لنكونن من الخاســرين)

---

(1) مسلم كتاب صلاة المسافرين / باب الدعاء في صلاة الليل .

(الأعراف :23) فقال تعالى : (ثم اجتبـاه ربه فتـاب عليه وهدى) (طه 122) .

والثلاثة الـذين تخلفـوا عن غـزوة تبـوك فخلفـوا مـاذا كانت حالتهم بعد المعصية الـتى أصـابتهم، حـتى ضـاقت عليهم الأرض بما رحبت، وضاقت عليهم أنفسهم ، وصار ينكرهم الناس حتى أقاربهم – صار قريبه يشـاهده وكأنه أجنبي منه، ومن شدة ما في نفسه تنكـرت نفسه عليـه، فبعد هذا الضـيق العظيم صـار لهم بعد التوبة فـرح ليس له نظير أبدا، وصارت حالهم أيضا بعد أن تاب الله عليهم أكمل من قبل، وصـار ذكـرهم بعد التوبة أكـبر من قبـل، فقد ذكروا بأعيانهم، قـال تعـالى : (وعلى الثلاثة الـذين خلفوا حتى إذا ضـاقت عليهم الأرض بما رحبت وضـاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم) (التوبة :118)، فهـــذه آيـــات عظيمة تتلى في محـــاريب المســـلمين ومنابرهم إلى يوم القيامة ويتقرب العبد إلى ربه بقراءة خبرهم واستماعه ، وهذا شي عظيم .

وسواء كان ذلك في الأمـور الشـرعية أو في الأمـور الكونيـة، ولكن ها هنا أمر يجب معرفتـه، وهو أن الخيرية والشـرية ليست باعتبـار قضـاء الله - سـبحانه وتعـالى- ، فقضاء الله تعالى كله خير ، حتى ما يقضـيه الله من شر هو في الواقع خير ، وإنما الشر في المقضي ، أما قضاء الله نفسه،فهو خير، والدليل قول النبي صــلى الله عليه وسلم:(الخير بيديك، والشر ليس إليك[1]، ولم يقل الشر بيـــديك، فلا ينسب الشر إلى الله أبـــدا، فضلا على أن يكون بيديه، فلا ينسب الشر إلى الله لا إرادة ولا قضاء ، فالله لا يريد بقضـــاء الشر شـــرا، لكن الشر يكـــون في المقضـي، وقد يلائم الإنسـان وقد لا يلائمـه، وقد يكـون طاعة وقد يكون معصية، فهذا في المقضـــي، ومع ذلك ، فهو وإن كان شرا في محله فهو خير في محل آخـر، ولا يمكن أن يكون شرا محضا، حتى المقضي وإن كان شـــرا ليس محضا ، بل هو شر من وجه خـــير من وجـــه، أو شر من في محل خير في محل آخر .

---

(1) تقدم (ص 1002) .

ولنضرب لذلك مثلا : الجدب والفقر شر، لكنهما خـير باعتبار ما ينتج عنهمـا، قـال تعـالى : (ظهر الفسـاد في البر والبحر بما كسبت أيدي النـاس ليـذيقهم بعض الـذي عملوا لعلهم يرجعون)(الروم :41) ، والرجوع إلى الله – عز وجل –

من معصــيته إلى طاعته لا شك أنه خــير وينتج خــيرا كثـيرا، فـألم الفقر وألم الجـدب وألم المـرض وألم فقد الأنفس كله ينقلب إلى لذة إذا كان يعقبه الصلاح، ولهـذا قـال : (لعلهم يرحمـون) ، وكم من أنـاس طغـوا بكـثرة المال وزادوا ونسوا الله واشتغلوا بالمال ، فـإذا أُصـيبوا بفقر، رجعوا إلى الله، وعرفوا أنهم ضالون ، فهذا الشر صار خير باعتبار آخر .

كذلك قطع يد السارق لا شك أنه شر عليـه، لكنه خـير بالنسبة له وبالنسبة لغيره، أما بالنسبة لـه، فلأن قطعها يسقط عنه العقوبة في الآخرة وعـذاب الـدنيا أهـون من عذاب الآخرة، وهو أيضا خير في غير السـارق، فـإن فيه ردعا لمن أراد أن يسرق، وفيه أيضا حفظ للأمـوال ، لأن السـارق إذا عـرف أنه سـرق سـتقطع يـده، امتنع من السرقة، فصار في ذلك حفظ لأموال الناس، ولهذا قـال بعض الزنادقة :

يد بخمس مئين عسجدا وديت   ما بالها قطعت في ربع دينار

تناقض ما لنا إلا السكوت له   ونستجير بمولانا من النـــار

لكنه أجيب في الرد عليه ردا مفحما، فقيل فيه :

قل للمعري عار أيما عاري   جهل الفتى وهو من ثوب التقى عاري

يد بخمس مئين عسجدا وديت   لكـنها قطعــت في ربـع دينــار

حماية النفس أغلاها وأرخصها   حماية المال فافهم حكمة الباري

* * * *

وعن عبادة بن الصامت، أنه قال لأبنه: يـابني! إنك لن تجد طعم الإيمـــان حـــتى تعلم أن ما أصـــابك لم يكن ليخطئك، وما أخطـأك لم يكن ليصـيبك،، سـمعت رسـول الله صلى الله عليه وسـلم يقـول : (إن أول ما خلق الله القلم، فقال له : اكتب. فقال : ربّ ! وماذا أكتب؟ قال : اكتب مقــادير كل شي حــتى تقــوم السـاعة) يا بــني! سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول من مـات على غير هذا، فليس مني [1].

*** قوله في حديث عبادة : (أنه قال لابنه : يا بـني! ...) الخ .**

أفاد حديث عبادة بن الصامت رضى الله عنه أنه ينبغي للأب أن يســدي النصـــائح لأبنائه ولأهلـــه، وأن يختـــار العبارات الرقيقة التي تلين القلب، حيث قال : (يا بــني) وفي هذا التعبير من اللطافة وجذب القلب ما هو ظــاهر .

قوله : (لن تجد طعم الإيمان) . هذا يفيد أن للإيمـان طعما كما جـاءت به السـنة، وطعم الإيمـان ليس كطعم الأشياء المحسوسـة، فطعم الأشـياء المحسوسة إذا أتى بعــده طعــام آخر أزالها ، لكن طعم الإيمــان يبقى مــدة طويلة ،حــتى إن الإنســان يبقى مــدة طويلــة، حــتى إن الإنســان أحيانا يفعل عبــادة في صــفاء وحضــور قلب وخشوع لله – عز وجل -، فتجده يتطعم بتلك العبادة مدة طويلـــة، فالإيمـــان له حلاوة وله طعم لا يدركه إلا من أسبغ الله عليه نعمته بهذه الحلاوة وهذا الطعم .

قوله : (حـتى نعلم أن ما أصـابك لم يكن ليخطئـك) . قد تقـول : ما أصـابني لم يكن ليخطئـني، هـذا تحصـيل حاصل، لأن الذي أصاب الإنسان أصـابه، فلا بد أن نعـرف معـــنى هـــذه العبـــارة، فتحمل هـــذه العبـــارة على أحد المعنيين أو عليهما جميعا :

الأول : أن المعنى (ما أصابك) ، أي : ما قدر الله أن يصــيبك، فعــبر عن التقــدير بالإصــابة، لأن ما قــدر الله

---

[1] الإمام أحمد في (المسند) (5/317)، والترمذي (2156) .

سوف يقع، فما قدر الله أن يصيبك لم يكن ليخطئك مهما عملت من أسباب .

الثاني : ما أصابك ، فلا تفكر أن يكون مخطئا لك،فلا تقل : لو أني فعلت كذا ما حصل كذا، لأن الذي أصابك الآن لا يمكن أن يخطئك، فكل التقديرات التي تقدرها وتقول : لو أني فعلت ما حصل كذا هي تقديرات يائسة، لا تؤثر شيئا، وأيا كان، فالمعنى صحيح على الوجهين، فما قدره الله أن يصيب العبد فلا بد أن يصيبه ولا يمكن أن يخطئه، وما وقع مصيبا للإنسان ، فإنه لن يمنعه شي ، فإذا آمنت هذا الإيمان ذقت حلاوة الأيمان، لأنك تطمئن وتعلم أن الأمر لابد أن يقع على ما وقع عليه ، ولا يمكن أن يتغير أبدا .

مثال ذلك : رجل خرج بأولاده للنزهة، فدبّ بعض الأولاد إلى بركة عميقة، فسقط ،فغرق، فمات، فلا يقول : لو أنني ما خرجت لما مات الولد، بل لابد أن تجري الأمور على ما جرت عليه، ولا يمكن أن تتغير، فما أصابك لم يكن ليخطئك، فحينئذ يطمئن الإنسان ويرضى، ويعرف أنه لا مفر، وأن كل التقديرات والتخيلات التي تقع في ذهنه كلها من الشيطان، فلا تقل : لو أني فعلت كذا لكان كذا، فإن (لو) تفتح عمل الشيطان، وحينئذ يرضى ويسلم، وقد أشار الله إلى هذا المعنى في قوله : (ما أصاب من مصيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأها إن ذلك على الله يسير * لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما أتاكم والله لا يحب كل مختال فخور) (الحديد :22-23) .

فأنت إذا علمت هذا العلم وتيقنته بقلبك، ذقت حلاوة الإيمان، واطمأننت، واستقر قلبك، وعرفت أن الأمر جار على ما هو عليه لا يمكن أن يتغير، ولهذا كثيرا ما يجد الإنسان أن الأمور سارت ليصل إلى هذه المصيبة، فتجده يعمل أعمالا لم يكن من عادته أن يعملها حتى يصل إلى ما أراد الله – عز وجل – مما يدل على أن الأمور بقضاء الله وقدره .

قوله : (وما أخطأك ما كان ليصيبك) . نقول فيه مثل الأول ، يعـني : ما قـدر أن يخطئك فلن يصـيبك، فلو أن أحدا سمع بموسم تجارة في بلد ما وسـافر بأمواله لهـذا الموسم، فلما وصل وجد أن الموسم قد فات، نقول له : ما أخطــأك من هــذا الــربح الــذي كنت تعد له لم يكن ليصــيبك ، لأن مهما كــان ومهما عملت ، أو تقــول : لم يكن ليصيبك، لأن الأمر لابد أن يجري على ما قضــاه الله وقدره، وأنت جـرب نفسك تجد أنك إذا حصـلت على هـذا اليقين ذقت حلاوة الإيمان .

ثم استدل لما يقول بقوله :(سمعت رسول الله صلى الله عليه وســلم يقــول) : إن أول ما خلق الله القلم) . القلم بالرفع ، وروي بالنصب .

وأما على رواية النصب، فيكون المعنى : أن الله أمر القلم أن يكتب عند أول خلقه، يعني، : خلقه ثم أمره أن يكتب، وعلى هــذا المعــنى لا إشــكال فيــه، لكن على المعــنى الأول الــذي هو الرفع : هل المــراد أن أول المخلوقات كلها هو القلم؟

الجواب : لا ، لأننا لو قلنا : إن القلم أول المخلوقات، وإنه أمر بالكتابة عنـدما خلـق، لكنا نعلم ابتـداء خلق الله للأشــياء ، وأن أول بــدء الخلق الله كــان قبل خلق السـماوات والأرض بخمسـين ألف سـنة، ونحن نعلم أن الله – عز وجل - ، خلق أشـياء قبل هـذه المـدة بأزمنة لا يعلمها إلا الله – عز وجل – لم يــزل ولا يــزال خالقــا، وعلى هـذا يكـون : إن أول ما خلق الله القلم يحتـاج إلى تأويل ليطــابق ما علم بالضــرورة من أن الله تعــالى له مخلوقات قبل هذا الزمن.

قال أهل العلم : وتأويله : أن أول ما خلق الله القلم بالنســبة لما نشـاهده فقط من مخلوقـات ، كالسـماوات والأرض ... فهي أولية نســبية، وقد قــال ابن القيم في نونيته :

والناس مختلفون في القلم كتب القضــاء به من الديّان

هل كان قبل العرش أو هو بعده قولان عند أبي العلا الهمذاني

والحق أن الشرع قبل لأنه   قبل الكتابة
كان ذا أركان

قوله : (فقـال له :اكتب) . القائل هو الله – عز وجل – يخاطب القلم ، والقلم جماد، لكن كل جمـاد أمـام الله مـدرك وعاقل ومريـد، والـدليل على هـذا قوله تعـالى : (قل أئنكم لتكفـــرون بالـــذي خلق الأرض في يـــومين وتجعلـــون له أنـــدادا ذلك رب العـــالمين * وجعل فيها رواسي من فوقها وبــارك فيها وقــدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين* ثم استوى إلى الســماء وهي دخان فقـال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرهـا) ، أي : لابد أن تنقادا لأمر الله طوعا أو كرها، فكان الجـواب : (قالتا أتينا طـائعين) (فصـلت الآية 9-11)ـ ، فقد خـاطب الله الســماوات والأرض وأجابتا ودل قوله : (طــائعين) على أن لها إرادة وأنها تطيع، فكل شي أمام الله، فهو مدرك مريد ويجيب ويمتثل .

قوله : (قــال : ربي ومــاذا أكتب ؟) . (مــاذا) : اسم استفهام مفعول مقدم ، و(اكتب) : فعل مضارع مرفـوع بالضــمة الظــاهرة ، هــذا إذا ألغيت (ذا) ، أما إذا لم تلغ ، فنقول : (ما) اسم استفهام مبتـدأ، و(ذا) خـبره، أي : ما الذي أكتب؟ والعائد على الموصول محذوف تقــديره : ما الذي أكتبه؟

وفي هــذا دليل على أن الأمر الجمل لا حـــرج على المأمور في طلب استبانته، وعلى هذا ، فإننا نقول : إذا كـان الأمر مجملا، فـإن طلب اسـتبانته لا يكـون معصـية، فــالقلم لا شك أنه ممتثل لأمر الله – ســبحانه وتعــالى - ،ومع ذلك قال : (رب وماذا أكتب؟) قال : اكتب مقادير كل شي حتى تقوم الساعة، فكتب المقادير .

فإن قيل : هل القلم يعلم الغيب؟

فالجواب : لا ، لكن الله أمــره ، ولا بد أن يمتثل لأمر اللـه، فكتب هـذا القلم الـذي يعتـبر جمـادا بالنسـبة إلى مفهومنا، كتب كل شي أمــره الله أن يكتبــه، لأن الله إذا أراد شيئا قال له : كن، فيكون على حسب مراد الله .

و(كل) : من صـيغ العمـوم، فتعم كل شي مما يتعلق بفعل الله أو بفعل المخلوقين.

قوله : (حتى تقوم الساعة) . الساعة هي القيامة، وأطلق عليه لفظ الساعة، لأن كل شي عظيم من الدواهي له ساعة ، يعني : الساعة لمعهودة التي تذهل الناس وتحيق بهم وتغشاهم حين تقوم، وذلك عند النفخ في الصور .

قوله : (فليس مني) . تبرأ الرسول صلى الله عليه وسلم لأنه كافر، والرسول صلى الله عليه وسلم بري من كل كافر .

ويستفاد من هذا الحديث :

1 – ملاطفة الأبناء بالموعظة، وتؤخذ من قوله (يا بني) .

2- أنه ينبغي أن يلقن الأبناء الأحكام بأدلتها،وذلك أنه لم يقل : إن الله كتب ... وسكت، ولكنه اسند إلى الرسول صلى الله عليه وسلم، فمثلا : إذا أردت أن تقول لأبنك : سم الله على الأكل، واحمد الله إذا فرغت ،فإنك إذا قلت ذلك يحصل به لمقصود، ولكن إذا قلت سم الله على الأكل واحمد الله إذا فرغت لأن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بالتسمية عند الأكل، وقال : (إن الله ليرضى عن العبد يأكل الأكلة ويحمده عليها) [2]، ويشرب الشربة ويحمده عليها، إذا فعلت ذلك استفدت بفائدتين : -

الأولى : أن تعود ابنك على اتباع الأدلة.

الثانية : أن تربيه على محبة الله والرسول صلى الله عليه وسلم ، وان الرسول صلى الله عليه وسلم هو الإمام المتبع الذي يجب الأخذ بتوجيهاته ، وهذه في الحقيقة كثيرا ما يغفل عنها، فأكثر الناس يوجه ابنه إلى الأحكام فقط، لكنه لا يربط هذه التوجيهات بالمصدر الذي هو الكتاب والسنة .

---

(2) مسلم كتاب الذكر والدعاء / باب استحباب حمد الله بعد الأكل والشرب .

وفي رواية لأحمد : إن أول ما خلق الله تعـالى القلم، فقـال لـه: اكتب، فجـرى في تلك السـاعة بما هو كائن إلى يوم القيامة[1] .

***   *   ***

قوله : (وفي رواية لأحمد : إن أول ما خلق الله القلم ، فقال له : اكتب ...) .

هذه الرواية تفيد أمرا زائدا على ما سبق، وهو قوله : (فجـــرى في تلك الســـاعة)، فإنه صـــريح في أن القلم امتثل ، والحـــديث الأول ليس فيه أنه كتب إلا عن طريق اللـزوم بأنه سـيكتب امتثـالا لأمر الله تعـالى ، فيسـتفاد منه ما سـبق من كتابة الله – سـبحانه وتعـالى – كل شي إلى قيام الساعة، وهـذا مـذكور في القـرآن الكـريم في قوله تعـــالى : (ألم تعلم أن الله يعلم ما في الســــماء والأرض إن ذلك على الله يســير) (الحج : 70) ، وقــال تعــــالى : (ما أصـــــاب من مصـــــيبة في الأرض ولا في أنفسكم إلا في كتاب من قبل أن نبرأهــا) ، أي : قبل أن نبرأ الخليقة، (إن ذلك على الله يسير)(الحديد :22)

قوله : (إلى يــوم القيامــة) . هو يــوم البعث، وســمي يوم القيامة ، لقيام أمور ثلاثة فيه :

الأول : قيام الناس من قبورهم لرب العـالمين، كما قــال تعــالى (ليــوم عظيم * يــوم يقــوم النــاس لــرب العالمين) (المطففين : 5-6) .

الثاني : قيام الأشهاد الذين يشـهدون للرسل وعلى الأمم ، لقوله تعالى : (إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد) (غافر : 51)

الثالث : قيام العدل، لقوله تعالى : (ونضع الموازيين القسط ليوم القيامة) (الأنبياء : 47) .

***   *   ***

---

[1] الإمام أحمد في (المسند) (5/317) .

وفي رواية لابن وهب : قــال رســول الله صــلى الله عليه وسلم : (فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشــره، أحرقه الله بالنار)[1]

قوله : (وفي رواية لابن وهب) . ظــاهره أن هــذا في حديث عبادة، وابن وهب أحد حفاظ الحديث .

قوله : (فمن لم يؤمن بالقدر خيره وشره أحرقه الله بالنار) . وهذا دليل على أن الإيمـان بالقـدر واجب لا يتم الإيمان إلا به، وأما من لم يؤمن به، فإنه يحرق بالنار .

وقوله : (أحرقه الله بالنار) بعد قوله (فمن لم يؤمن) يدل على أن من أنكر أو شك فإنه يحرق بالنار، لأن لدينا ثلاث مقامات :

الأول : الإيمان والجزم بمراتبه الأربع .

الثاني : إنكار ذلك .

وهذان واضحان، لأن الأول إيمان والثاني كفر .

الثالث : الشك والتردد .

وهــذا يلحق بــالكفر، ولهــذا قــال : (فمن لم يــؤمن)، ودخل هذا النفي من أنكر وشك .

وفي قوله : (أحرقه الله بالنــار) دليل على أن عــذاب النــار محــرق، وأن أهلها ليس كما زعم بعض أهل البــدع يتكيفون لها حتى لا يحسون بــألم، بل هم يحســون بــألم وتحرق أجسامهم، وقد ثبت في حـديث الشـفاعة أن الله يخرج من النار من كان من المؤمنين حــتى صــاروا حمما[2]، يعــني : فحما أســود،وقد دل عليه القــرآن في قوله تعالى: (وذوقوا عذاب الحريق) (الحج :22) ، وفي قوله تعــالى:(كلما نضــجت جلــودهم بــدلناهم جلــودا غيرها ليــذوقوا العــذاب) (النســاء : 56) . قوله : (في نفسي شــيء من القــدر) . لم يفصح عن هــذا الشــي، لكن لعله لما حــدثت بدعة القــدر، وهي أول البــدع صــار النــاس يتشــككون فيه ويتكلمــون فيها . وإلا ، فــإن النــاس قبل حدوث هذه البدعة كانوا على الحق، ولا سيما رسول الله

---

[1] ابن وهب في القدر(26) .

[2] البخاري : كتاب الرقاق / باب صفة الجنة والنار، ومسلم : كتاب الإيمان / باب معرفة طريق الرؤية .

صلى الله عليه وسلم خرج على أصحابه ذات يوم وهم يتكلمون في القدر، فغضب النبي عليه الصلاة والسلام من ذلك، وأمرهم أن لا يتنازعوا وأن لا يختلفوا، فكف الناس عن هذا [1]، حتى قامت بدعة القدرية وحصل ما حصل من الشُّبه، فلهذا يقول ابن الديلمي : (في نفسي شي من القدر ...) .

قوله : (فحدثني بشي لعل الله أن يذهبه من قلبي) . أي : يذهب هذا الشي، وهكذا يجب على الإنسان إذا أصيب بمرض أن يذهب إلى أطباء ذلك المرض، وأطباء مرض القلوب هم العلماء، ولا سيما مثل الصحابة رضى الله عنهم ، كأُبيّ بن كعب، فلكل داء طبيب.

قوله : (لو أنفقت مثل أحد ذهبا ما قبله الله منك حتى تؤمن بالقدر) . هذا يدل على أن من لم يؤمن بالقدر فهو كافر، لأن الذي لا تقبل منهم النفقات هم الكفار، وسبق نحوه عن ابن عمر رضى الله عنهما .

قوله : (حتى تؤمن بالقدر وتعلم أن ما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك) . قد سبق الكلام على هذه الجملة .

قوله : (لو مت) . (مُت) بالضم، لأنها من مات يموت، وفيه لغة أخرى بالكسر (مِت)، كما في قوله تعالى : (ولإن مِتم أو قتلتم) (آل عمران : 158) في إحدى القراءتين، وهي على هذه القراءة من مات لم يميت بالياء .

قوله : (على غير هذا، لكنت من أهل النار) . جزم أُبَيّ بن كعب رضى الله عنه بأنه إذا مات على غير هذا كان من أهل النار، لأن من أنكر القدر فهو كافر، والكافر يكون من أهل النار الذين هم أهلها المخلدون فيها .

وهل هذا الدواء يفيد ؟

الجواب : نعم يفيد،وكل مؤمن بالله إذا علم أن منتهى من لم يؤمن بالقدر هو هذا ، فلا بد أن يرتدع،

---

(1) الإمام أحمد في (المسند) (2/ 178)، وصححه أحمد شاكر (6668) .

ولابد أن يؤمن بالقدر على ما جـاء في كتـاب الله وسـنة رسوله صلى الله عليه وسلم .

وقوله:(فأتيت عبد الله بن مسعود وحذيفة بن اليمـان وزيد بن ثـابت، فكلهم حـدثني بمثل ذلـك) . المشـار إليه الإيمـان بالقـدر، وأن يعلم الإنسـان أن ما أصـابه لم يكن ليخطئه وما أخطـأه لم يكن ليصـيبه، وهـؤلاء هم العلمـاء الأجلاء كلهم من أهل القرآن .

فـأُبَيّ بن كعب من أهل القـرآن ومن كتبة القـرآن، حتى أن الرسـول صـلى الله عليه وسـلم دعـاه ذات يـوم وقرأ عليه سـورة : (لم يكن ...) البينـة، وقـال : (إن الله أمرني أن أقرأها عليك) ، فقال : يا رسول الله ! سماني الله لك. قال : (نعم) . فبكى رضى الله عنه بكاء فرح أن الله – عز وجل – سماه باسـمه لنبيه ، وأمر نبيه أن يقـرأ عليه هذه السورة [1].

وأما عبد الله بن مسعود ،فقد قال النـبي صـلى الله عليه وسلم : (من سره أن يقـرأ القـرآن غضا كما أنـزل، فليقرأه على قراءة ابن أم عبد)[2] .

وأما زيد بن ثـابت، فهو أحد كتـاب القـرآن في عهد أبي بكر رضي الله عنه [3].

وحذيفة بن اليمان صاحب السر الـذي اسر إليه النـبي صلى اله عليه وسلم.بأسماء المنافقين[4] .

والحاصل أن هـذا البـاب يـدل على وجـوب الإيمـان بالقدر والقدر بمراتبه الأربع .

مسألة : الإيمان بالقدر هل هو بتوحيد الربوبيـة، أو الألوهية، أو بالأسماء والصفات؟

---

1) البخـاري : كتـاب التفسـير / بـاب تفسـير سـورة (لم يكن)، ومسـلم : كتـاب فضائل الصحابة / باب من فضائل أُبيّ .

2) الإمـام أحمد في (المسـند) (1/26)، والحـاكم صـححه ، ووافقه الـذهبي (3/ 295) .

(3) البخاري : كتاب فضائل القرآن / باب جمع القرآن .

(4) البخاري : كتاب فضائل الصحابة / باب مناقب عمار وحذيفة .

(5) تقدم (ص 985)

البخاري : كتاب فضائل القرآن / باب جمع القرآن .

البخاري : كتاب فضائل الصحابة / باب مناقب عمار وحذيفة .

الجواب : تعلقه بالربوبية أكـثر من تعلقه بالأسـماء والصفات ، ثم تعلقه بالأسماء والصـفات أكـثر من تعلقه بالألوهيـــة، وتعلقه بالألوهية أيضا ظـــاهر، لأن الألوهية بالنسـبة لله يسـمى توحيد الألوهيـة، وبالنسـبة للعبد يسـمى توحيد العبـادة، والعبـادة فعل العبـد، فلها تعلق بالقدر،فالإيمان بالقدر له مساس بأقسام التوحيد الثلاثة .

مسالة : هل أختلف الناس في القدر؟

الجـواب : نعم ، اختلفـوا فيه على ثلاث فـرق ، وقد سبق [5].

* * *

فيه مسائل :

*** الأولى : بيـان فـرض الإيمـان بالقـدر. دليله قولـه: (الإيمـان : أن تـؤمن باللـه، وملائكتـه، وكتبـه، ورسـله، واليوم الآخر، وتؤمن بالقدر خير وشره) .**

*** الثانية : بيان كيفية الإيمـان . أي : بالقـدر، وهو أن تؤمن بأن ما أصابك لم يكن ليخطئك،وما أخطـأك لم يكن ليصيبك .**

ولم يتكلم المؤلف عن مـــراتب القـــدر، لأنه لم يـــذكرها، ونحن ذكرناها وأنها أربع مـــراتب جمعت اختصارا في بيت واحد،وهو قوله :

علم كتابة مولانا مشيئته وخلقه وهو إيجاد وتكوين

والإيمـان بهـذه المـراتب داخل في كيفية الإيمـان بالقدر .

*** الثالثة : إحبـــاط عمل من لم يـــؤمن به . تؤخذ من قول ابن عمر : (لو كان لأحدهم مثل أحد ذهبا ثم أنفقه في ســبيل الله ما قبله منه حـتى يؤمن بالقـدر) ، ويتفـرع منه ما ذكرنـاه سـابقا بأنه يـدل على أن من لم يـؤمن بالقـدر فهو كـافر، لأن الكـافر هو الذي لا يقبل منه العمل .**

---

(5) تقدم (ص 985)

***الرابعة : الإخبـار أن أحـدا لا يجد طعم الإيمـان حـتى يــؤمن به . أي : بالقــدر، وهو كــذلك، لقــول عبــادة بن الصامت لابنه : يابني ! إنك لن تجد طعم الإيمان ... الخ**

وقد سـبق الإيمـان بالقـدر يـوجب طمأنينة بما قضـاه الله – عز وجل – ويســتريح ، لأنه علم أن هــذا الأمر لابد أن يقع على حسب المقـدور، لا يتخلف أبــدا، (ولا تقل : لو أني فعلت كـــــذا لكــــــان كـــــذا، لأن لو تفتح عمل الشيطان[1]، ولا ترفع شيئا وقع مهما قلت .

*** الخامسة : ذكر أول ما خلق اللـــــه. ظـــــاهر كلام المؤلف : الميل إلى أن القلم أول**

مخلوقات الله، ولكن الصـحيح خلافـه، وأن القلم ليس أول مخلوقــات اللــه، لأنه ثبت في (صــحيح البخــاري) : (كـان الله ولم يكن شي قبلـه، وكـان عرشه على المـاء، ثم خلق السماوات والأرض وكتب في الـذكر مقــادير كل شي)[2]، وهذا واضح في الترتيب، ولهذا كان الصواب بلا شك أن خلق القلم بعد خلق العــرش، وســبق لنا تخــريج الروايتين، وأنه على الرواية الـتي ظاهرها أن القلم أول ما خلق بالنسبة لم يتعلق بهذا العلم المشـاهد، فهو قبل السماوات والأرض ، فتكون أوليته نسبية .

*** السادسة : أنه جرى بالمقـادير في تلك السـاعة إلى يوم قيام الساعة. لقوله في الحديث :**

(فجـــرى في تلك الســـاعة بما هو كـــائن إلى يـــوم القيامة)

وفيه أيضا من الفوائد توجيه خطـاب الله إلى الجمـاد، وأن يعقل أمر اللـــه، لأن الله وجه الخطـــاب إلى القلم ففهم واســتجاب، لكنه ســأل في الأول وقــال : (مــاذا أكتب ؟) .

*** الســـابعة : براءته صـــلى الله عليه وســـلم بمن لم يؤمن به. لقوله : (من مات على غير**

هذا، فليس مني) ، والعلة وهـذه الـبراءة مطلقـة، لأن من لم يؤمن بالقدر فهو كافر كفرا مخرجا عن الملة .

---

[1] تقدم (ص 1006)

[2] البخاري : كتاب التوحيد / باب وكان عرشه على الماء .

*** الثامنة : عـادة السـلف في إزالة الشـبهة بسـؤال العلماء . لأن ابن الديلمي : يقول :**

(فـأتيت عبد الله بن مسـعود وحذيفة بن اليمـان وزيد بن ثابت، بعد أن أتى أُبيّ بن كعب، فدل هذا على أن من عادة السلف السؤال عما يشتبه عليهم .

وفيه أيضا مسالة ثانية، وهي جـواز سـؤال أكـثر من عالم لتتبع الرخص، فهذا لا يجـوز كما نص على ذلك أهل العلم، وهـذا من شـأن اليهـود، فـاليهود لما كـان في التوراة أن الزاني يرجم إذا كان محصنا وكـثر الـزنى في أشرافهم ، غيروا هذا الحـد، ولما قـدم النـبي صـلى الله عليه وسلم المدينة وزنى رجل بامرأة قالوا : اذهبوا إلى هذا الرجل لعلكم تجدون عنده شيئا آخر، لأجل أن يتتبعوا الرخص .

*** التاسعة : أن العلماء أجـابوه بما يزيل شـبهته، وذلك أنهم نسبوا الكلام إلى رسول الله**

صـلى الله عليه وسـلم فقط . لقـول بن الـديلمي : (كلهم حدثني بمثل ذلك عن النبي صلى الله عليه وسـلم)، وهـذا مزيل للشـبهة، فـإذا نسب الأمر إلى الله ورسوله، وزالت الشبهة تمامـا، لكن تـزول عن المـؤمن، أما غـير المـؤمن، فلا تنفعـه، فالله – عز وجل – يقـول : (وما تغني الآيات والنـذر عن قـوم لا يؤمنـون) (يـونس : 101) وقـال : (إن الـذين حقت عليهم كلمة ربك لا يؤمنـون ولو جـاءتهم كل آية حـتى يـروا العـذاب الأليم) (يونس :96-97) لكن المؤمن هو الذي تـزول شـبهته بما جاء عن الله ورسوله، كما قال تعالى : (وما كان لمـؤمن أو مؤمنة إذا قضى الله ورسـوله أمـرا أن يكـون لهم الخـيرة من أمـرهم) (الأحـزاب : 36)، ولهـذا ما قـالت عائشة للمـرأة : (كـان يصـيبنا ذلك – تعـني الحيض -، فنـؤمر بقضـاء الصـوم، ولا نـؤمر بقضـاء الصـلاة)[3] لم تذهب تعلل، ولكن لا حـرج على الإنسـان أن يـذكر الحكم بعلته لمن لم يؤمن لعله يؤمن، لهذا يذكر الله – عز وجل – إحياء الموتى ويذكر الأدلة العقلية والحسية على ذلـك،

---

(3) البخاري كتاب الحيض / باب لا تقضي الحائض الصلاة، ومسلم : كتاب الحيض/ باب وجود قضاء الصوم على الحائض .

فقـال في أدلة العقل : (هو الـذي يبـدأ الخلق ثم يعيـده وهو أهــون عليــه) (الــروم : 27) فهــذه دلالة عقليــة، فالعقل يؤمن إيمانا كاملا بأن من قدر على الابتـداء فهو قادر على الإعادة من باب أولى . وذكر أدلة حسـية منها قوله تعــالى (ومن آياته أنك تــرى الأرض خاشــعة فــإذا أنزلنا عليها الـمـاء اهـتزت وربت إن الـذي أحياها لمحي المــوتى) (فصــلت :39) فــإذا لا مــانع أن تــأتي بالأدلة العقلية أو الحســـــية من أجل أن تقنع الخصم وتُطمئن الموافق .

وفيه دليل رابع، وهو دليل الفطرة، فلا مانع أيضا أن تأتي به للاستدلال على ما تقول من الحق لتلـزم الخصم به وتطمئن الموافــق، وما زال العلمــاء يســلكون هــذا المســلك، وقد مر علينا قصة أبي المعـالي الجويـني مع الهمـداني، حيث أن أبا المعـالي الجويـني - غفر الله لنا وله – كـان يقــرر نفي اسـتواء الله على عرشـه، فقـال الهمداني : _ دعنا من ذكر العـرش، فما تقـول في هـذه الضرورة التي نجدها في قلوبنا : ما قال عـارف قط : يا الله! إلا وجد من قلبه ضرورة بطلب العلـو) . فصـرخ أبو المعالي ولطم على رأسه ، وقال : حيرني الهمداني .

فإذا الأدلة سمعية وعقلية وفطرية وحسية .

وأشدها إقناعا للمؤمن هو الدليل السمعي، لأنه يقف عنــده ويعلم أن كل ما خــالف دلالة الســمع فهو باطــل، وإن ظنه صاحبه حقا .

*****

باب ما جاء في المصورين

وعن أبي هريرة رضى الله عنه، قال : قال رسول الله صــلى الله عليه وســلم : قــال تعــالى : ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا ذرة، أو ليخلقوا حبة، أو ليخلقوا شعيرة .[1]

---

[1] البخاري : كتاب اللباس/ باب نقض الصور، وسلم : كتاب اللباس والزينة / باب تحريم تصوير صور الحيوان .

قوله : (بــاب ما جــاء في المصــورين) . يعــني : من الوعيد الشديد .

ومناسبة هـذا البـاب للتوحيـد: أن في التصـوير خلقا وإبداعا يكون به من المصور مشـاركا لله تعـالى في ذلك الخلق والإبداع .

قوله في الحـــديث : (ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي) . ينتهي سند هذا الحـديث إلى الله – عز وجل – ويسمى حديثا قدسـيا،وسـبق الكلام عليه في بـاب فضل التوحيد وما يكفر الذنوب (ص 69)

قوله (ومن أظلم) . (من) : اسم استفهام والمراد به النفي، أي لا أحد أظلم ، وإذا جــــاء النفي بصـــــيغة الاســتفهام كـــان أبلغ من النفي المحض، لأنه يكـــون مشربا معنى التحدي والتعجيز .

فإن قيل : كيف يجمع هذا الحديث وبين قوله تعالى : (ومن أظلم ممن منع مســاجد اللــه) (البقــرة : 114)، وقوله : (ومن أظلم ممن افترى على الله كذبا) (الأنعـام :21)

وغير ذلك من النصوص؟

فالجواب من وجهين :

الأول : أن المعــنى أنه مشــتركة في الأظلمية ، أي أنها في مستوى واحد في كونها في قمة الظلم .

الثاني : أن الأظلمية نسبية، أي لا أحد أظلم من هذا نوع هـذا العمل لا في كل شـي، فيقـال مثلا : من أظلم في مشابهة أحد في صــنعه ممن ذهب يخلق كخلق اللــه، ومن أظلم في مشـابهة أحد في صــنعه ممن ذهب يخلق كخلق اللـــه، ومن أظلم في منع حق ممن منع مســـاجد الله، ومن أظلم في افتراء الكذب ممن افــترى على الله كذبا .

قوله : (يخلق) . حال من فاعل ذهب، أي : ممن ذهب خالقا .

والخلق في اللغة : التقدير، قال الشاعر :

ولأنت تفري ما خلقت وبعض الناس يخلق ثم لا يفري

تفري، أي : تفعل، ما خلقت ، أي : ما قدرت .

ويطلق الخلق على الفعل بعد التقـــدير، وهـــذا هو الغـالب، والخلق بالنسـبة للإنسـان يكـون بعد تأمل ونظر وتقـدير، أما بالنسـبة للخـالق ، فإنه لا يحتـاج إلى تأمل ونظر لكمـال علمه ، فـالخلق بالنسـبة للمصـور يكـون بمعنى الصنع بعد النظر والتأمل .

قوله : (يخلق كخلقي) . فيه جـواز إطلاق الخلق على غـير الله ، وقد سـبق الكلام على هـذا والجـواب عنه في أول الكتاب .

قوله : (فليخلقـوا ذرة) . اللام للأمـر، والمـراد به التحـدى والتعجـيز ، وهـذا من بـاب التحـدي في الأمـور الكونية ، وقوله تعالى : (فليأتوا بحديث مثلـه) (الطـور : 34) من باب التحدي في الأمور الشرعية .

والـذرة : واحـدة الـذر، وهي النمل الصـغار، وأما من قـال : بـأن الـذرة هي ما تتكـون منه القنبلة الذرية فقد أخطأ، لأن النبي صلى الله عليه وسلم يخـاطب الصـحابة بلغة العـــرب وهو لا يعرفـــون القنبلة الذرية ، وذكر الله الذرة لأن فيها روحا، وهي من أصغر الحيوانات .

قوله : (أو ليخلقـوا حبـة) . (أو) للتنويع ، أي : انتقل من التحدي بخلق الحيوان ذي الروح إلى خلق الحبة التي هي أصل الزرع من الشعير وغيره وليس لها روح .

قوله : (أو ليخلقوا شعيرة) . يحتمل أن المراد شجرة الشعير، فيكون في الأول ذكر التحدي بأصل الزرع وهي الحبة، ويحتمل أن المـراد الحبة من الشـعير ويكـون هـذا من بـاب ذكر الخـاص بعد العـام ، لأن حبة الشـعير أخص من الحب .

أو تكون (أو) شكا من الراوي .

فالله تحدى الخلق إلى يوم القيامة أن يخلقوا ذرة أو يخلقوا حبة شعير .

فإن قيل : يوجد رز أمريكي مصنوع .

أجيب: إن هذا المصنوع لا ينبت كالطبيعي، ولعل هذا السر في قوله : (أو ليخلقـــوا حبـــة) ، ثم قـــال : (أو ليخلقـــوا شـــعيرة) ، لأن الحبة إذا غرست في الأرض فلقها اللـه، قـال تعـالى : (إن الله فـالق الحب والنـوى)

(الأنعام : 95) ، وقال تعالى : (إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو اجتمعوا له) أي : اجتمعوا لخلقه متعاونين عليه وقد هيؤوا كل ما عنـدهم ، (وإن يسـلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه ضعف الطـالب والمطلـوب) (الحج : 73)

قال العلمـاء : لو أن الـذباب وقع على هـذه الأصـنام فامتص شيئا من طيبها ما استطاعوا أن يستنقذوه منـه، فيكون الـذباب غالبا لهـا، (ضـعف الطـالب) ، أي : العبد والمعبود، (والمطلوب) ، أي : الذباب .

ويستفاد من هذا الحديث ، وهو ما ساقه المؤلف من أجله : تحـريم التصـوير، لأن المصـور ذهب يخلق كخلق الله ليكون مضاهيا لله في صنعه، والتصوير له أحوال :

الحـال الأولى : أن يصـور الإنسـان ما له ظل كما يقولـون، أي : ماله جسم على هيكل إنسـان أو بعـير أو أسد أو ما أشـبهها ، فهـذا أجمع العلمـاء فيما أعلم على تحريمه، فـإن قلت : إذا صـور الإنسـان لا مضـاهاة لخلق اللـه، ولكن صـور عبثا ، يعـني صـنع من الطين أو من الخشب أو من الأحجـار شـيئا على صـورة حيـوان وليس قصـده أن يضـاهي خلق اللـه، بل قصد العبث أو وضـعه لصبي ليهدئه به، فهل يدخل في هذا الحديث؟

فـالجواب : نعم ، يـدخل في هـذا الحـديث، لأنه خلق كخلق الله، ولأن المضاهاة لا يشـترط فيه القصـد، وهـذا هو سر المسـألة، فمـتى حصـلت المضـاهاة ثبت حكمهـا، ولهذا لو أن إنسانا لبس لبسا يختص بالكفار ثم قال : أنا لا أقصد التشبه بهم، نقول : التشبه منك حاصل أردته أم لم ترده، وكذلك لو أن أحدا تشـبه بـامرأة في لباسـها أو في شـعرها أو ما أشـبه ذلك وقـال : ما أردت التشـبه ، قلنا له : قد حصل التشبه ، سواء أردته أم لم ترده .

الحـال الثـاني: أن يصـور صـورة ليس لها جسم بل بالتلوين والتخطيط، فهذا محـرم لعمـوم الحـديث، ويـدل عليه حـديث النُّمرقُة حين أقبل النـبي صـلى الله عليه وسـلم إلى بيته ، فلما أراد أن يـدخل رأى نمرقة فيها تصـاوير، فوقف وتـأثر، وعـرفت الكراهة في وجهه ، فقالت عائشة رضي الله عنها : ما أذنبت يا رسول اللـه؟

فقـال : إن أصـحاب هـذه الصـور يعـذبون يـوم القيامـة، يقال لهم : أحيوا ما خلقتم [1]، فالصور بالتلوين كالصور بالتجسـيم، وقوله في (صـحيح البخـاري) : (إلا رقما في ثوب[2] ، إن صـحت الرواية هـذه، فـالمراد بالاسـتثناء ما يحل تصويره من الأشجار ونحوها .

الحال الثالثة : أن تلتقط الصور التقاطا بأشعة معينة بدون تعـديل أو تحسـين من الملتقـط، فهـذا محل خلاف بين العلماء المعاصرين :

فالقول الأول : أنه تصـوير ، وإذا كـان كـذلك، فـإن حركة هذا الفاعل للآلة يعد تصويرا، وإذ لولا تحريكه إياها ما انطبعت هــذه الصــورة على أن هــذه الورقــة، ونحن متفقــون على أن هــذه صــورة، فحركته تعتــبر تصــوير، فيكون داخلا في العموم .

القول الثاني : أنها ليست بتصوير، لأن التصوير فعل المصـــور، وهـــذا الرجل ما صـــورها في الحقيقة وإنما التقطها بالآلة ، والتصوير من صنع الله.

ويوضح ذلك لو أدخلت كتابا في آلة التصوير، ثم خرج من هـذه الآلـة، فـإن رسم الحـروف من الكـاتب الأول لا من المحـرك، بـدليل انه قد يشـغلها شـخص أي لا يعـرف الكتابة إطلاقا أو أعمى في ظلمة، وهـذا القـول أقـرب، لأن المصور بهـذه الطريقة لا يعتـبر مبـدعا ولا مخططا ، ولكن يبقي النظر : هل يحل هذا الفعل أو لا ؟

والجواب : إذا كان لغرض محرم صار حراما، وإذا كان لغرض مباح صار مباحا لأن الوسائل له أحكـام المقاصد ، وعلى هــذا ، فلو أن شخصا صــور أنســانا لما يســمونه بالذكرى، سواء كانت هذه الـذكرى للتمتع بـالنظر إليه أو التلــذذ به أو من أجل الحنــان والشــوق إليه ،فــإن ذلك محرم و لا يجوز لما فيه من اقتناء الصور، لأنه لا شك أن هذه صورة ولا أحد ينكر ذلك

وإذا كان لغرض مباح كما يوجد في التابعية والرخصة والجــواز وما أشــبهه، فهــذا يكــون مباحــا، فــإذا ذهب

---

(1) البخاري : كتاب اللباس / باب من كره القعود على الصـور ، ومسـلم : كتـاب اللباس / باب تحريم تصوير صور الحيوان .

(2) جزء من الحديث السابق .

الإنسان الـذي يحتـاج إلى رخصة إلي هـذا المصـور الـذي تخرج منه الصورة فورية بدون عمل لا تحميض ولا غيره، وقال: صورني فصوره، فإن هذا المصـور لا نقـول : إنه داخل في الحـديث، أي حـديث الوعيد على التصـوير، أما إذا قال : صورني لغـرض آخر غـير مبـاح ، صـار من بـاب الإعانة على الإثم والعدوان .

الحال الرابع : أن يكون التصوير لما لا روح فيه، وهذا على نوعين :

النوع الأول : أن يكـون مما يصـنعه الآدمي ، فهـذا لا بـأس به بالاتفـاق ، لأنه إذا جـاز الأصل جـازت الصـورة ، مثل أن يصـور الإنسـان سـيارته، فهـذا يجـوز، لأنه صـنع الأصل جائز، فالصورة التي هي فرع من باب أولى .

النوع الثاني : ما لا يصنعه الآدمي ، وإنما يخلقه الله، فهذا نوعان: نـوع نـام ، ونـوع غـير نـام، فغـير النـامي ، كالجبـال، والأوديـة، والبحـار، والأنهـار، فهـذه لا بـأس بتصويرها بالاتفـاق، أما النـوع الـذي ينمو ، فـاختلف في ذلك أهل العلم، فجمهـور أهل العلم على جـواز تصـويره لما سيأتي في الأحاديث.

وذهب بعض أهل العلم من السـلف والخلف إلى منع تصـويره، واسـتدل بـأن هـذا من خلق الله – عز وجل - ، والحـــديث عـــام : (ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي)، لأن الله – عز وجل – تحـدى هـؤلاء بـأن يخلقـوا حبة أو يخلقوا شعيرة، والحبة أو الشعيرة ليس فيه روح، لكن لا شك أنها نامية، وعلى هذا ، فيكون تصويرها حرامـا، وقد ذهب إلى هـــذا مجاهد رحمة الله – أعلم التـــابعين بالتفسـير -، وقـال : (إنه يحـرم على الإنسـان أن يصـور الأشـجار، لكن جمهـور أهل العلم على الجـواز، وهـذا الحـديث هل يؤيد رأي الجمهـور أو يؤيد رأي مجاهد ومن قال بقوله؟

الجواب : يؤيد رأي مجاهد ومن قال بقوله أمران :

أولا : العمـــوم في قوله : (ومن أظلم النـــاس ممن ذهب يخلق كخلقي) .

ثانيا : قوله : (أو ليخلقـوا حبة أو ليخلقـوا شـعيرة)، وهـذه ليست ذات روح، فظـاهر الحـديث هـذا مع مجاهد

ومن يـرى رأيـه، ولكن الجمهـور أجـابوا عنه بالأحـاديث التاليـة، وهي أن قوله : (أحيـوا ما خلقتم) [2]، وقوله : (كلف أن ينفخ بها الروح)[3] يـدل على أن المـراد تصـوير ما فيه روح، وأما قولـــــه:(أو ليخلقـــــوا حبة أو حبة أو ليخلقوا شـعيرة) ، فـذكر على سـبيل التحـدي ، أي : أن أولئك المصورين عاجزون حتى عن خلق ما لا روح فيه .

***   *   ***

ولهما عن عائشة رضي الله عنهـا، أن الرسـول صـلى الله عليه وسلم قـال : (أشـدُّ النـاس عـذابا يـوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله .[1])

قوله (أشــد) . كلمة اشد اسم تفضــيل بمعــنى أعظم وأقوى .

قوله : (الناس) للعموم، والمراد الذين يعذبون .

وقوله : (عـذابا) . تميـيز مـبين للمـراد بالأشد ، لأن التمييز كما قال ابن مالك :

اسم بمعنى من بين نكرة ينصب تمييزا بما قد فسره

والعـذاب يطلق على العقـاب ويطلق على ما يـؤلم ويـؤذي وإن لم يكن عقابـا، فمن الأول قوله تعـالى : (أدخلــوا آل فرعــون أشد العــذاب) (غــافر:46) أي : العقوبة والنكال، لأنه يدخل النار والعياذ باللـه، كما قـال تعالى : (يقدم قومه يوم القيامة فأوردهم النار) (هود : 98)ومن الثــاني قــول النــبي عليه الصــلاة والســلام :

---

[2] تقدم (ص 1023) .

[3] البخاري : كتاب اللباس / باب من صور صورة ...، ومسـلم : كتـاب اللبـاس / باب تحريم تصوير صورة حيوان .

[1] البخاري كتاب اللباس / باب ما وطي من التصاوير، ومسلم : كتاب اللبـاس / باب تحريم تصوير صورة الحيوان

(السـفر قطعة من العـذاب)[2] ، وقوله (الميت يعـذب بالنياحة عليه)[3] .

قوله : (يـوم القيامـة) , هو اليـوم الـذي يبعث فيه الناس، وسبق وجه تسميته بذلك .

قوله : (أشد) مبتدأ، والذين يضاهئون خـبره، ومعـنى يضاهئون، أي : يشابهون .

(بخلق الله) ، أي : بمخلوقات الله - سبحانه وتعالى - .

والـذين يضـاهئون بخلق الله هم المصـورون، فهم يضاهئون بخلق الله سواء كانت هذه المضاهاة جسمية أو وصفية، فالجسمية أن يصنع صورة بجسـمها، والوصـفية أن يصـنع صـورة ملونـة، لأن التلـوين والتخطيط باليد وصف للخلق ، وإن كـان الإنسـان ما خلق الورقة ولا صـنعها لكن وضع فيها هـذا التلـوين الـذي يكـون وصـفا لخلق الله – عز وجل - .

هذا الحديث يدل على أن المصـورين يعـذبون، وأنهم أشد النـاس عـذابا، وأن الحكمة من ذلك مضـاهاتهم خلق الله - عز وجل – وليست الحكمة كما يدعيه كثـير من الناس أنهم يصنعونها لتعبد من دون الله، فذلك شي آخر ، فمن صنع شـيئا ليعبد من دون اللـه، فإنه حـتى ولو لم يصور كما لو أتى بخشبة وقـال اعبـدوها ، فقد دخل في التحريم، لقوله تعالى (ولا تعاونوا على الإثم والعـدوان) (المائدة :2) ، لأنه أعان على الإثم والعدوان .

قوله : (يضـاهئون) . هل الفعل يشـعر بالنية بمعـنى أنه لابد أن يقصد المضاهاة، أو نقول : المضاهاة حاصـلة سواء كانت بنية أو بغير نية؟

الجواب الثاني: لأن المضاهاة حصـلت سـواء نـوي أم لم ينو لأن العلة هي المشـابهة، وليست العلة قصد المشـابهة، فلو جـاء رجل وقـال : أنا لا أريد أن أضـاهي خلق الله ، أنا أصور هذا

---

[2] البخـاري : كتـاب العمـرة/ بـاب السـفر قطعة من العـذاب، ومسـلم : كتـاب الإمارة / باب السفر قطعة من العذاب .

[3] البخاري : كتاب الجنائز / باب ما يكره من النياحة على الميت، ومسلم : كتاب الجنائز / باب الميت يعذب ببكاء أهله عليه . (5)

للذكرى مثلا وما أشـبه ذلك ، نقـول : هـذا حـرام، لأنه متى حصـلت المشـابهة ثبت الحكم ، لأن الحكم يـدور مع علته كما قلنا فيمن لبس لباسا خاصا بالكفار : إنه يحـرم عليه هـذا اللبـاس، ولو قـال : إنه لم يقصد المشـابهة ، نقـول : لكن حصل التشـبه ، فـالحكم المقـرون بعلة لا يشترط فيه القصد، فمتى وجدت العلة ثبت الحكم .

يستفاد من الحديث :

1 – تحريم التصـوير ، وأنه من كبـائر، لثبـوت الوعيد عليه، وأن الحكمة من تحريمه المضاهاة بخلق الله – عز وجل - .

2- وجوب احـترام جـانب الربوبيـة، وأن لا يطمع أحد في أن يخلق كخلق الله- عز وجل- ، لقوله : (يضـاهئون بخلق الله) ، ومن أجل هذا حـرم الكـبر، لأن فيه منازعة للرب – سبحانه وتعالى - وحـرم التعـاظم على الخلق ، لأن فيه منازعة للـرب سـبحانه وتعـالى - ، وكـذلك هـذا الذي يصنع ما يصـنع فيضـاهي خلق الله فيه منازعة لله عز وجل – في ربوبيته في أفعاله ومخلوقاته ومصنوعاته ، فيستفاد من هذا الحـديث وجـوب احـترام جانب الربوبية .

قوله:(أشد النـاس عـذابا) . فيه إشـكال ، لأن فيهم من هو اشد من المصورين ذنبـا، كالمشـركين والكفـار، فيلزم أن يكونوا أشد عذابا ، وقد أجيب عن ذلك بوجـوه :

الأول: أن الحـديث على تقـدير (من) أي: من أشد النـاس عـذابا بـدليل أن جـاء ما يؤيـده بلفظ : (إن أشد الناس عذابا) .

الثاني : أن الأشدية لا تعني أن غيرهم لا يشـاركهم بل يشاركهم غـيرهم، قـال تعـالى:(أدخلـوا آل فرعـون أشد العـذاب) (غـافر : 46)ـ ، لكن يشـكل على هـذا أن المصـور فاعل كبـير فقـط، فكيف يسـوى مع من هو خارج عن الإسلام ومستكبر؟

الثالث : أن الأشدية نسبية، يعني أن الـذين يصـنعون الأشياء ويبدعونها أشـدهم عـذابا الـذين يضـاهئون بخلق الله، وهذا أقرب .

الرابع : أن هــذا بــاب الوعيد الــذي يطلق لتنفــير النفـوس عنــه، ولم أر من قــال بهـذا، ولو قيل بهــذا، لسلمنا من هـذه الإيـرادات، وعلى كل حـال ليس لنا أن نقول إلا كما قال النبي صـلى الله عليه وسـلم : (أشد الناس عذابا يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله) .

ولهما عن ابن عباس : سـمعت رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم يقـول : (كل مصـور في النـار يجعل له بكل صورة صورها نفس يعذب بها في جهنم . [1]

***   *   ***

قوله : (ولهما) . أي : للبخاري ومسلم .

قوله (كل مصور في النار) . (كل) : من أعظم ألفاظ العموم، وأصلها من الإكليل، وهو ما يحيط بالشـي، ومنه الكلالة في الميراث للحواشي التي تحيط بالإنسان .

فيشمل من صور الإنسان أو الحيـوان أو الأشـجار أو البحار، لكن قوله : (يجعل له بكل صورة صورها نفس) . الحديث في (مسلم) وليس في (الصحيحين)، لكنه بلفظ (يجعـل) بالبنــاء للفاعــل، وهــذا تكـون (نفس) بالنصــب، وتمامه : (فتعذبه في جهنم) .

ولهما عنه مرفوعا :(من صور صـورة في الـدنيا، كلف أن ينفخ فيها الروح، وليس بنافخ) .[1]

قوله : (يعــذب بهــا) . كيفية التعــذيب ســتأتي في الحديث الذي بعـده أنه يكلف أن ينفخ فيها الــروح وليس بنافخ .

وقوله : (كل مصور في النار) . أي : كائن في النار .

---

(1) مسلم كتاب اللباس / باب تحريم صور الحيوان .

(1) تقدم تخريجه ص 1029 .

وهذه الكينونة عند المعتزلة والخـوارج كينونة خلـود، لأن فاعل الكبيرة عندهم مخلد في النار، وعند المرجئـة، أن المراد بالمصور الكافر، لأن المـؤمن عنـدهم لا يـدخل النار أبدا، وعند أهل السنة والجماعة أنه مستحق لـدخول النــار وقد يـــدخلها وقد لا يـــدخلها ، وإن دخلها لم يخلد فيها .

قوله : (وليس بنــافخ) . أي : كلف بــأمر لا يتمكن منه زيادة في تعذيبه ، وعـذب بهـذا بما كـان في الـدنيا يـراه راحة له، إما باكتساب ، أو إرضاء صاحب ،أو إيداع صنعة .

* * *

ولمســلم عن أبي الهيــاج، قــال : قــال لي علي. (ألا أبعثك على ما بعثــني عليه رســول الله صــلى الله عليه وسلم : أن لا تدع صورة، إلا طمستها، ولا قــبرا مشـرفا، إلا سويته)[1] .

قوله : (عن أبي الهياج) . هو من التابعين .

قوله : (قال لي علي) . هو علي بن أبي طالب رضي الله عنه .

قوله : (ألا أبعثــك) . البعث : الإرســال بــأمر مهم ، كالدعوة إلى الله ، قـال تعـالى : (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا) (النحل :36) .

قوله : (على ما بعثني) . يحتمل أن تكـون (على) على ظاهرها للاســـتعلاء، لأن المبعـــوث يمشي على ما بعث عليـــه، كأنه طريق لـــه، وهـــذا هو الأولى، لأن ما وافق ظـاهر اللفظ من المعـاني فهو أولى بالاعتبـار، ويحتمل أن (على) بمعنى الباء، أي : بما بعثني عليه .

وقد بعث النبي صلى الله عيه وسـلم عليا إلى اليمن بعد قسـمة غنـائم حـنين ، وقـدم على النـبي صـلى الله عليه وسلم وهو في مكة في حجة الوداع [2].

---

(1) مسلم : كتاب الجنائز / باب الأمر بتسوية القبر .

وقوله : (أن لا تــدع) . (أن) : مصــدرية ، (لا) نافيــة، (تدع) : منصـوب بـأن المصـدرية وهي بـدل بعض من كل من (ما) في قوله (على ما بعثني) لأن النــبي صــلى الله عليه وسلم بعث علي بن أبي طالب بأكثر من ذلــك، لكن هذا مما بعثه النبي صلى الله عليه وسلم .

قوله : (صورة) . نكرة في سياق النفي فتعمم .

وجمهــور أهل العلم : أن المحــرم هو صــور الحيــوان فقــط، لما ورد في الســنن من حـديث جبريل أن النــبي صـــلى الله عليه وســـلم قـــال (فمر بـــرأس التمثـــال يقطع،فيصير كهيئة الشجرة [2]) وسبق بيان ذلك قريبا .

قوله : (إلا طمســتها) . إن كــانت ملونة فطمســها بوضع لــون آخر يزيل معالمهــا، وإن كــانت تمثــالا فإنه يقطع رأسه، كما في حـديث جبريل الســابق، وإن كـانت محفـــورة فيحفر على وجهه حـــتى لا تتـــبين معالمـــه، فالطمس يختلف ، وظاهر الحـديث سـواء كـانت تعبد من دون الله أم لا .

قوله : (ولا قبرا مشرفا) : عاليا .

قوله : (إلا سويته) . له معنيان :

الأول : أي سويته بما حوله من القبور .

الثاني : جعلته حسنا على ما تقتضيه الشـريعة، قـال تعالى : (الذي خلق فسوى)(الأعلى :2) أي : سوى خلقه أحسن ما يكون، وهذا أحسن، والمعنيان متقاربان .

والإشراف له وجوه :

الأول : أن يكــون مشــرفا بكــبر الأعلام الــتي توضع عليه، وتسمى عند الناس (نصائل) أو (نصائب) ، ونصائب أصح لغة من نصائل .

الثاني : أن يبــنى عليــه، هــذا من كبــائر الــذنوب، لأن النـــبي صـــلى الله عليه وســـلم: (لعن المتخـــذين عليه المساجد والسرج)[3].

---

2) البخاري : كتاب المغازي / بــاب بعث على بن أبي طــالب وخالد بن الوليد إلى اليمن ، ومسلم: كتاب الحج / باب بيان وجوه الإحرام .

[2] الإمام أحمد في (المسند) (2/ 305) .

[3] تقدم تخريجه (ص 424) .

الثـالث : أن تشـرف بـالتلوين، وذلك بـأن توضع على أعلامها ألوان مزخرفة.
الرابع : أن يرفع تراب القبر عما حوله ليكون ظاهرا .
فكل شي مشرف ، ظاهر على غيره متمـيز عن غـيره يجب أن يسـوى بغـيره، لئلا يـؤدي ذلك إلى الغلو في القبور والشرك .
ومناسبة ذكر القبر المشرف مع الصور :
أن كلا منهما قد يتخذ وسيلة إلى الشرك، فـإن أصل الشرك في قوم نوح أنهم صـوروا رجـال صـالحين، فلما طال عليهم الأمد عبـدوها، وكـذلك القبـور المشـرفة قد يزداد فيها الغلو حتى تجعل أوثانا تعبد دون الله، وهذا ما وقع في بعض البلاد الإسلامية، وقد أطال الشـارح رحمه الله في هـذا البـاب في البنـاء على القبـور، وذلك لأن فتنتها في البلاد الإسـلامية قديمة وباقيـة، ما عـدا بلادنا ولله الحمـد، فإنها سـالمة من ذلك ، نسـأل الله أن يـديم عليها، وأن يحمي بلاد المسلمين من شرها .
عقوبة المصور ما يلي :
1- 1- أنه أشد النـاس عـذابا أو من أشـدهم عذابا يوم القيامة .
2- 2- أن الله يجعل له في كل صـورة نفسا يعذب بها في نار جهنم .
3- 3- أنه يكلف أن ينفخ فيها الـروح وليس بنافخ .
4- 4- أنه في النار .
5- 5- أنه ملعون، كما في الحديث أبي جحيفة في (البخاري) وغيره .
فائدتان :
الأولى : (كلف أن ينفخ فيها الـروح وليس بنـافخ) يقتضي أن المراد التصـوير تصـوير الجسم كـاملا، وعلى هذا، فلو صور الرأس وحده بلا جسم أو الجسم وحـده بلا رأس، فالظـاهر الجـواز، ويؤيـده ما سـبق في الحـديث : (مر براس التمثال فليقطـع) ، ولم يقل : فليكسـر، لكن تصوير الـرأس وحـده عنـدي فيه تـردد، أما بقية الجسم بلا رأس، فهو كالشجرة لا تردد فيه عندي .

الثانية : تؤخذ من حــديث على رضى الله عنــه، وهو قوله : (أن لا تدع صورة إلا طمستها) أنه لا يجـوز اقتنـاء الصور ، وهـذا محل لا تفصـيل، فـإن اقتنـاء الصـور على أقسام :

القسم الأول : أن يقتنيها لتعظيم المصور، لكونه ذا سـلطان أو جـاه أو علم أو عبـادة أو أبــوّة أو نحو ذلــك، فهــذا حــرام بلا شــك، ولا تــدخل الملائكة بيتا فيه هــذه الصـورة، لأن تعظيم ذوي السـلطة باقتنـاء صـورهم ثلم في جانب الألوهية .

القسم الثاني : اقتناء الصور للتمتع بالنظر إليها أو التلذذ بها، فهـذا حـرام أيضـا، لما فيه من الفتنة المؤدية إلى سفاسف الأخلاق .

القسم الثالث : أن يقتنيها للــذكرى حنانا وتلطفا ، :الذين يصورون صغار أولادهم لتذكرهم حال الكبر، فهذا أيضا حــرام للحــوق الوعيد به في قوله صــلى الله عليه وسلم (إن الملائكة لا تدخل بيتا في صورة[1]).

القسم الرابع : أن يقتني الصور لا رغبة فيها إطلاقا ، ولكنها تــأتي تبعا لغيرهــا، كــالتي تكــون في المجلات والصـحف لا يقصـدها المقتـني، وإنما يقصد ما في هـذه المجلات والصــحف من الأخبــار والبحــوث العلمية ونحو ذلك، والظاهر أن هـذا لا بـاس بـه، لأن الصـور فيها غـير مقصــودة، لكن إن أمكن طمســها بلا حــرج ولا مشــقة، فهي أولى .

القسم الخـامس : أن يقتــني الصـور على وجه تكـون فيه مهانة ملقـاة في الزبــل، أو مفترشــة، أو موطــوءة، فهـذا لا بـأس به عند جمهـور العلمـاء، وهل يلحق بـذلك لبــاس ما فيه صــورة لأن في ذلك امتهانا للصــورة ولا سيما إن كانت الملابس داخلية ؟

الجواب : نقول : لا يلحق بذلك ، بل لبس ما فيه صور محرم على الصغار والكبار، ولا يلحق بالمفروش ونحــوه، لظهـور الفـرق بينهمـا، وقد صـرح الفقهـاء رحمهم الله

([1] البخاري : كتاب اللباس/ باب من كره القعود على الصور/ ومسلم : كتاب اللباس / تحريم تصوير الحيوان .

بتحريم لباس ما فيه صورة ، سواء كان قميصا أو سروالا أم عمامة أم غيرها .
وقد ظهر أخيرا ما يسمى بالحفائظ، وهي خرقة تلف على الفــرجين للأطفـال والحــائض لئلا يتســرب النجس إلى الجسم أو الملابس ، فهل تلحق بما يبس ويمتهن ؟
هي إلى الثـاني أقــرب، لكن لما كـان امتهانا خفيا وليس كالمفترش والموطوء صار اسـتحباب التحـرز منها أولى .
القسم السادس : أن يلجأ إلى اقتنائها إلجاء، كالصور الــتي تكــون في بطاقة إثبــات الشخصــية والشــهادات والدراهم فلا إثم فيه لعدم إمكان التحرز منه ، وقد قــال تعــالى : (ما جعل عليكم في الــدين من حــرج) (الحج : 78) .

* * *

فيه مسائل :
* الأولى : التغليظ الشـديد على المصـورين. تؤخذ من قوله : (أشد الناس عذابا ...) .
* الثانية : التنبيه على العلة، وهي ترك الأدب مع الله، تؤخذ من قوله : (ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي) .فمن ذهب يخلق كخلق الله، فهو مسيء للأدب مع الله – عز وجل – لمحاولته أن يخلق مثل خلق الله تعالى، كما أن من ضاده في شرعه فقد أساء الأدب معه .
* الثالثة : التنبيه على قدرته وعجـــــــــزهم، لقوله : (فليخلقـوا ذرة أو شـعيرة) . لأن الله خلق أكـبر من ذلك وهم عجزوا من خلق الذرة أو الشعيرة .
* الرابعة : التصريح بأنهم أشد النـاس عـذابا . لقوله : (أشد الناس عذابا ...) الحديث .
* الخامسة : أن يخلق بعدد كل صـورة نفسا يعـذب بها المصــــور في جهنم . لقوله : (يجعل له بكل صــــورة يصورها نفس يعذب بها في جهنم) .
* السادســـة: أن يكلف أن ينفخ فيه الـــروح. لقوله : (كلف أن ينفخ فيها الروح وليس بنـافخ)، وهـذا نـوع من التعذيب من اشق العقوبات .

*** السابعة : الأمر بطمسها إذا وجدت . لقوله : (لا تدع صورة إلا طمستها) .**
تؤخذ من الحـــــديث الســــابق أيضا : الجمع بين فتنة التماثيل وفتنة القبـــور.لقوله : (أن لا تـــدع صـــورة ألا طمستها، ولا قبرا مشرفا إلا سويته)، لأن في كل منهما وسيلة إلي الشرك .
ويؤخذ أيضا : إثبات العذاب يـوم القيامـة، وأن الجـزاء من جنس العمل، لأنه يجعل له بكل صـورة صـورها نفس فتعذبه في جهنم .
ويؤخذ منه : وقـــوع تكليف في الآخـــرة بما لا يطـــاق على وجه العقوبة .

*** * ***

الحلف : هو اليمين أو القسـم، وهو تأكيد الشي بـذكر معظم بصيغة مخصوصة بأحد حروف القسم، وهي البـاء، والواو، والتاء .
- **ومناسبة الباب لكتاب التوحيد :**

أن كـــثرة الحلف بالله يـــدل على أنه ليس في قلب الحـــالف من تعظيم الله ما يقتضي هيبة الحلف باللـــه، وتعظيم الله تعالى من تمام التوحيد .

باب ما جاء في كثرة الحلف

وقول الله تعالي :(وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ)(المائدة: من الآية89)

*** * ***

قوله تعـالى : (واحفظـوا أيمـانكم) . هـذه الآية ذكرها الله في ســـياق كفــــارة اليمين ،وكل يمين لها ابتـــداء وانتهـاء ووسـط، فالابتـداء الحلـف، والانتهـاء الكفـارة، والوسط الحنث، وهو أن يفعل ما حلف على تركـــــه، أو يترك ما حلف على فعلـه، وعلى هـذا كل يمين على شي ماض فلا حنث فيه، ومـالا حنث فيه كفـارة فيـه، لكن إن

كان صادقا، فقد بر، وإلا ، فهو آثم، لأن الكفارة لا تكون إلا على شي مستقبل .

وهل يجوز أن يحلف على ما في ظنه؟

الجواب : نعم ، ولذلك أدلة كثيرة، منها قول المجامع في نهـار رمضـان لرسـول الله صـلى الله عليه وسـلم : (والله، ما بين لابتيها أهل بيت أفقر مني.

لكن إن حلفت على مستقبل بنـاء على غلبة الظن ولم يحصـــل، فقيل : تلزمك كفـــارة، وقيل : لا تلزمك كفــارة، وقيل : لا تلزمــك، وهو الصـحيح، كما لو حلفت على ماض .

مثاله : فلو قلت : والله،، ليقـدمن زيد غـدا. بنـاء على ظنــك، فلم يقــدم، فالصـحيح أنه لا كفـارة عليــك، لأنك حلفت على ما في قلبك وهو حاصـــل، كأنك تقـــول : والله، إن هذا هو ظني، لكن هل يجوز لك أن تحلف على ما في ظنك؟ سبق ذلك تقريبا .

إذن قوله : (واحفظـوا أيمــانكم) بعد أن ذكر اليمين والكفـــارة والحنث، فما المــــراد بحفظ اليمين: هل هو الابتداء أو الانتهاء أو الوسط؟ أي : هل المـراد لا تكـثروا الحلف بالله؟ أو المراد : إذا حلفتم فلا تحنثوا؟ أو المـراد : إذا حلفتم فحنثتم فلا تتركوا الكفارة؟

الجواب : المراد كله ، فتشمل أحوال اليمين الثلاثـة، ولهـذا جـاء المؤلف بها في هـذا البـاب، لأن من معـنى حفظ اليمين عـدم كـثرة الحـل، وإليك قاعـدة مهمة في هذا، وهي أن النص من قرآن أو سنة إذا كان يحتمل عدة معـاني لا ينـافي بعضـها بعضا ولا مـرجح لأحـدها، وجب حمله على المعاني كلها .

والمــراد بعــدم كــثرة الحلف : ما كــان معقــودا و مقصـودا، أما ما يجـرى على اللســان بلا قصـد، مثل : لا والله، وبلى والله، في عـرض الحـديث، فلا مؤاخـذة فيه لقوله تعــالى : (لا يؤاخــذكم الله بــاللغو في أيمــانكم) (المائدة :89) .

وكــذلك من حفظ اليمين عــدم الحنث فيهــا، وهــذا تفصــيل، لأن النــبي صــلى الله عليه وســلم قــال لعبد الرحمن بن سمرة: (إذا حلفت على يمين، فــرأيت غيرها

خــيرا منــه، فكفر عن يمينــك، وائت الــذي هو خــير)[1]، فحفظ اليمين إلى الحنث أن لا يحنث إلا إذا كـان خـيرا ، وإلا ، فالأحسن حفظ اليمين وعد الحنث .

مثـــال ذلك : رجل قـــال : لا أكلم فلانا . وهو من المؤمنين الذين يحرم هجـرهم، فهـذا يجب أن يحنث في يمينه ويكلمه وعليه الكفارة .

مثـال آخر : رجل قـال: والله لأعينن فلانا على شي محــرم . فهــذا يجب الحنث فيه والكفــارة، و لا يعينــه، لقوله تعــالى : (ولا تعـــاونوا على الإثم والعـــدوان) . (المائدة :2) .

وإذا كـــان الأمر متســـاويا والحنث وعدمه ســـواء في الإثم ، فالأفضل حفظ اليمين .

كـذلك من حفظ اليمين إخـراج الكفـارة بعد الحنث، والكفـــارة واجبة فـــورا، لأن الأصل في الواجبـــات هو الفورية، وهو قيام بما تقتضيه اليمين .

والكفـارة : إطعـام عشــرة مســاكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم ، أو تحرير رقبة، وهذا على سـبيل التخيـير، فمن لم يجـد، فصـيام ثلاثة أيـام ، وفي قراءة ابن مسعود متتابعة .

فحفظ اليمين له ثلاث معاني :

1- حفظها ابتداء، وذلك بعدم كثرة الحلف، وليعلم أن كثرة الحلف تضعف الثقة بالشخص وتوجب الشك في أخباره .
2- حفظها وسطا، وذلك بعـدم الحنث فيهـا، إلا ما استثنى كما سبق.
3- حفظها انتهاء، في إحراج الكفارة بعد الحنث .

ويمكن أن يضـاف معـنى رابع ، وهو أن لا يحلف بغـير الله، لأن الرسول صـلى الله عليه وسـلم سـمي القسم بغير الله حلفا .

---

(1) البخاري : كتاب الإيمـان / بـاب الكفـارة قبل الحنث وبعـده، ومسـلم : كتـاب الإيمان / باب ندب من حلف يمينا فرأى خيرا منها أن يأتي الذي هو خير .

وعن ابي هريرة رضي الله عنه؛ قال: سـمعت رسـول الله صــلي الله عليه وســلم يقــول: (الحلف منفقة للسلعة ، ممحقة للكسب). أخرجاه [1]

قوله : (الحلف) . المراد به الحلف الكـاذب، كما بينته رواية أحمد : (اليمين الكاذبــة) [2]، أما الصــادقة، فليس فيها عقوبة، لكن لا يكثر منها كما سبق .

قوله : (منفقة للسلعة) . أي : ترويج للسلعة، مأخوذ من النفـــاق وهو مضي الشي ونفـــاذه، والحلف على السلعة قد يكـون خلفا على ذاتها أو نوعها أو وصـفها أو قيمتها .

الـــذات : كـــأن يحلف بأنها من المصـــنع الفلاني المشهور بالجودة وليست منه .

النوع : كأن يحلف أنه من الحديد ، وهي من الخشب .

الصفة : كأن يحلف أنها طيبة ، وهي رديئة .

القيمة : كأن يحلف أن قيمتها بعشرة، وهي بثمانية .

قوله : (ممحقة للكســب) . أي : متلفة لــه، والإتلاف يشــمل الإتلاف الحسي بــأن يســلط الله عليه على ماله شـــيئا يتلفه من حريق أو نهب أو مـــرض يلحق صـــاحب المـال فيتلفه في العلاج، والإتلاف المعنـوي بـأن يـنزع الله البركة من ماله فلا ينتفع به دينا ولا دنيـــا، وكم من إنســان عنــده مــال قليل ، لكن نفعه الله به ونفع غــيره ومن وراءه، و كم من إنسان عنــده أمــوال لكن لم ينتفع بها صار – والعياذ بالله-

بخيل يعيش عيشة الفقـراء وهو غـني ، لأن البركة قد محقت .

---

(1) البخاري : كتاب البيوع / باب يمحق الله الربا ، ومسلم كتاب المساقاة / بـاب النهي عن الحلف في البيع .

(2) الإمام احمد في (المسند) (2/235،243،413) .

وعن سلمان ؛ أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : (ثلاث لا يكلمهم الله ولا يزكيهم ولهم عذاب أليم : أشيمط زان ، وعائل مسيكبر ورجل جعل الله بضاعته لا يشتري غلا بيمينه ولا يبيع إلا بيمينه)[1]. رواه الطبراني بسند صحيح .

---

* * *

قوله : (ثلاثة) . مبتدأ، وسوغ الابتداء بها أنها أفادت التقسيم .

قوله : (لا يكلمهم الله) . التكليم : هو إسماع القول، وأما ما يقدره الإنسان في نفسه ، فلا يسمي كلاما على سبيل الإطلاق، وإن كان يسمى قولا بالتقييد بالنفس، كقوله تعالى : (ويقولون في أنفسهم لو لا يعذبنا الله) (المجادلة : 8) وقال عمر رضي الله عنه – في قصة السقيفة - : (زورت في نفسي كلاما) [2]، أي قدرته .

فالكلام عند الإطلاق لا يكون إلا بحرف وصوت مسموع .

واختلف الناس في كلام الله إلى ثمانية أقوال كما ذكره ابن القيم في (الصواعق المرسلة) .

لكن إذا رجعنا إلى كتاب الله وسنة رسوله ، وأخذنا منها عقيدتنا صافية، وقطعنا النظر عن هذه المجادلات لأنه ما أوتى الجدل قوم إلا ضلوا ، علمنا أن كلام الله حقيقي يسمع، ولكن الصوت ليس كأصوات المخلوقين، أما ما يسمع من كلام الله، فلا شك أنه بحروف لا تشبه الحروف التي يتكلم بها المخاطب لم يفهم كلامه أبدا، فالحروف التي تسمع هي حروف اللغة التي يخاطب الله بها من يخاطبه، والله – عز وجل يخاطب كل أحد بلغته .

ونفي الكلام هنا دليل على إثبات أصله، لأن لما نفاه عن قوم دل على ثبوته لغيرهم .

وبهذه الطريقة استدل بعض أهل العلم على إثبات رؤية الله يوم القيامة للمؤمنين بقوله تعالى : (كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون) (المطففين : 15) .فما

---

[1] الطبراني في الكبير (6111) والصغير (821) .

[2] البخاري : كتاب المحاربين / باب رجم الحبلى من الزنا إذا أحصنت .

حجب الفجــار عن رؤيته إلا ورآه الأبــرار ، إذ لو امتنعت الرؤية مطلقا لكان الفجار والأبرار سواء فيها، كذلك هنا لو انتفى كلام الله - له عز وجل – عن كل أحد ، فلا وجه للتخصيص بنفي الكلام عن هؤلاء .

ولا يلــزم من كلامه – ســبحانه – أن يكــون له آلة كالآدمي، كاللسان، والأسـنان، والحلـق، وما أشـبه ذلـك، كما لا يلزم من سماع الله أن يكون له أذن، فالأرض مثلا تسمع وتحـدث وليس لها لسـان ولا آذان ، قـال تعـالى : (يومئذ تحـدث أخبارهـا* بـأن ربك أوحى لهـا) (الزلزلة : 4،5) وكذا الجلد ينطق يوم القيامة ، قال تعـالى : (حـتى إذا ما جاؤوها شهد عليهم سمعهم وأبصـارهم وجلـودهم بما كانوا يعملون) (فصـلت :20) وكـذا الأيـدي والأرجل ، قــال تعــالى : (يــوم تشــهد عليهم ألســنتهم وأيــديهم وأرجلهم بما كــانوا يعملــون) (النــور : 24) فالأيــدي والأرجل والأيـدي والألسن والجلـود والسـمع والأبصـار ليس لها لسان ولا شفتان، وهذا هو المعلوم لنا .

فــإن قيل : (إن الله يكلم من هو أعظم منهم جرما وهم أهل النار؟

فــالجواب : أن المـراد بنفي الكلام هنا كلام الرضا ، أما كلام الغضب والتوبيخ، فإن هـذا الحـديث لا يـدل على نفيه .

قوله : (ولا يـــزكيهم) . التزكية : بمعـــنى التوثيق والتعــديل، فيــوم القيامة لا يــوثقهم، ولا يعــدلهم ، ولا يشــهد عليهم بالإيمــان ، لما فعلــوه من هــذه الأفعــال الخبيثة.

قوله : (ولهم عــذاب أليم) . (عــذاب) : عقوبــة، و(أليم) ، أي : شديد موجع مؤلم .

وقوله : (أشـيمط) . هو الـذي اختلط سـواد شـعره ببياضه لكبر سنه، وكبير السن قد بـردت شـهوته، وليس فيه ما يــدعوه إلى الــزنى ، لكن زنى مما دل على خبث إرادته، ولأنه عادة قد بلغ اشده واستوى وعرف الحكمـة، وملكه عقله أكثر من هـواه، فـالزنى منه غـريب، إذ ليس عن شهوة ملحة، ولكن عن سوء نية وقصد وضعف إيمان باللـه، فصـار السـبب المقتضي لزنـاه ضـعيفا، والحكمة

التي نالها ببلوغ الأشد كبيرة، وكأن تقادم سـنه يسـتلزم أن يغلب جانب العقـل، لكنه خـالف مقتضى ذلـك، ولهـذا صغره تحقيرا لشانه ، فقال : (أشيمط) تصغير أشمط .

قوله (زان) صفة لأشيمط ، وهو مرفوع بضمة مقـدرة على اليـاء المحذوفـة، والحركة الـتي تـدل على النـون ليست حركة إعراب .

والزنى فعل الفاحشة في قبل أو دبـر، وقد نهى الله عنه وبين أنه فاحشة، فقـال : (ولا تقربـوا الزنا إنه كـان فاحشة وساء سبيلا) (الإسراء : 32)

قوله : (عائل مستكبر) . أي : فقير، قال تعالى : (ووجدك عائلا فـأغنى) (الضـحى :8)، فالمقابلة هنا في قوله : (فأغنى) بينت أن المعنى عائلا : فقيرا .

والاستكبار : الترفع والتعاظم ، وهو نوعان :

- استكبار عن الحق بأن يرده أو يترفع عن القيام به .

- واستكبار على الخلق باحتقارهم و اسـتذلالهم ، كما قال النبي صلى الله عليه وسلم (الكبر بطر الحق وغمط الناس)[1] .

فـالفقير داعي الاسـتكبار عنـده ضـعيف، فيكـون اسـتكباره دليلا على ضـعف إيمانه وخبث طويتـه، ولـذلك كانت عقوبته أشد .

قوله : (ورجل جعل الله بضاعته، لا يشتري إلا بيمينه ، ولا يبيع إلا بيمينه) .

أي : جعل الحلف بالله بضاعة له، وإنما سـاغ التأويل هنـا، لأن النـبي صـلى الله عليه وسـلم هو الـذي فسـره بـذلك،حيث قـال : (لا يشـتري إلا بيمينه ...)، وإذا كـان المتكلم هو الـذي أخـرج كلامه عن ظـاهره، فهو أعلم بمـراده، وهـذا كما في الحـديث القدسي : (عبـدي اسـتطعمتك فلم تطعمـني ، استسـقيتك فلم تسـقيني) فبينه الله – عز وجل – بقوله : (عبـدي فلان جـاع فلم تطعمه، استسـقاك فلم تسـقه)[2] . فقوله : (لا يشـتري إلا بيمينه، ولا يبيع إلا بيمينه) استئنافية تفسيرية، لقوله

---

(1) مسلم : كتاب الإيمان / باب تحريم الكبر .

(2) تقدم (ص 930) .

: (جعل الله بضـاعته)، ومعناها : أنه كلما اشـترى حلف ، وكلما بـاع حلف طلبا للكسب ، واسـتحق هـذه العقوبـة، لأنه إن كـان صـادقا ، فكـثرة إيمانه تشـعر باسـتخفافه واسـتهانته بـاليمين ومخالفته قوله تعـالى : (واحفظـوا أيمانكم) .

وإن كان كاذبا جمع بين أربعة أمور محذورة :

1- اســـتهانته بـــاليمين ومخالفته أمر الله بحفظ اليمين .

2- كذبه .

3- أكله المال بالباطل .

4-4- أن يمينه غموس، وقد ثبت عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال : (من حلف على يمين هو فيها فاجر يقتطع بها مال أمري مسـلم لقي الله وهو عليه غضبان)[3] .

وكل ما في هذا الحـديث يجب الحـذر منه والبعد عنـه، لأن هذا ما يريده النبي صلى الله عليه وسلم من الإخبار بـــه، وإلا، فما الفائــــدة من ســــماعنا له إذا لم تظهر مقتضـيات النصـوص على معتقـداتنا وأقوالنا وأفعالنـا؟ فنحن والجاهل سـواء، بل نحن أعظم ، ولـذلك ينبغي أن تمر علينا بلا فائــدة فنعــرف معناها فقــط، بل يجب أن نعـــرف معناها ونعمل بمقتضــــاها، ثم يجب علينا أيضا بوصــفنا ممن آتــاهم الله العلم أن نُحــذر النــاس منها لنكـون وارثين للرسـول صـلى الله عليه وسـلم، فـالنبي صلى الله عليه وسلم كان عالما عـاملا داعيـا، أما طـالب العلم، فإنه ليس وارثا للرســول عليه الصــلاة والســلام حتى يقوم بما قام به العمل من العمل والــدعوة، فعلينا أن نحــذر إخواننا المســلمين من هـذا العمل الكثـير بين الناس، وهو جعل الله بضاعة لهم، لا يبيعون إلا بأيمانهم ولا يشترون إلا بأيمانهم .

*** مناســبة الحــديث للبــاب:أن من الله بضــاعته، فــإن الغالب أنه يكثر الحلف بالله – عز وجل - .**

---

(3) البخـاري : كتـاب الإيمـان / بـاب قوله تعـالى (إن الـذين يشـترون بعهد الله وأيمـانهم ثمنا قليلا) ،ومسـلم : كتـاب اللإيمـان بـاب وعيد من اقتطع حق مسـلم بيمين فاجرة .

* * *

وفي الصحيح عن عمر ابن حصين رضي الله عنه قـال : قال رسـول الله صـلى الله عليه سـلم :" (خـير أمـتي قـرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم) قال عمـران : فلا أدري أذكر بعد قرنه مــرتين أو ثلاثا ؟) ثم ان بعــدكم قوم يشـهدون ولا يستشـهدون ويخونـون ولا يؤتمنـون ، وينذرون ولا يوفون ويظهر فيهم السمن [1]

قوله : (وفي الصـحيح) . أي : (الصـحيحين) ، وانظر كلامنا : (ص 146) في باب تفسير التوحيد وشهادة أن لا إله إلا الله .

قوله : (خير أمتي قرني) . (خير) : مبتدأ، و(قرني) : خبر .

وفي لفظ لهما : (خيركم قرني) ، (خيركم قرني)[2]، وفي الحـديث ابن مسـعود عند البخـاري : (خـير النـاس قـرني) وهـذا هو المـراد، إذ المـراد بالخيرية هنا الخيرية المضـافة إلى النـاس عموما وليس للأمة فقـط، ولهـذا ثبت عنه صــلى الله عليه وســلم ، أنه قــال : (بعثت من خير قرون بني آدم)[3] .

وعليه فالخيرية في القـــرن الأول خيرية عامة على جميع الناس وليس على هذه الأمة فقط .

وأما قوله (خــير أمــتي) . فإنه يقــال : إن الخيرية إذا كانت مضافة إلى عموم الناس دخل فيها هذه الأمة، لكن إذا خصصنا بهذه الأمة خرج بقية الناس ، والأخذ بالعموم الـداخل فيه الخـاص أولى، وقد يقـال : إن معـنى واحـد، فإن هذه الأمة خير الأمم، فإذا كان الصحابة خـير قرونها لزم أن يكونوا خير الناس .

---

[1] البخاري كتاب فضائل الصـحابة / بـاب فضـائل اصـحاب النـبي صـلى الله عليه وسلم ومسلم : كتاب فضائل الصحابة باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم .

(2) تقدم تخريجه في الحديث قبله .

[2] البخاري : كتاب المناقب / باب صفة النبي صلى اله عليه وسلم .

والقـــرن مـــأخوذ من الاقـــتران،والمـــراد:الطائفة المقتنون بشي من الأشياء،كالملة،أوما أشبه ذلك.

فمن العلماء من عرفه : بالطائفة كما سـبق، ومنهم من عرفه بالزمن، وهؤلاء اختلفوا فيه على أقوال :

فمنهم من حده بـأربعين، ومنهم من حـده بثمـانين، ومنهم من حـده بمائـة، ومنهم من حـده بمئة وعشـرين سنة.

فعلى الأول يكون معنى : (خير أمـتي قـرني) : خـير أمتي الصحابة، سواء بلغوا مئة سنة أم لا، والمعروف أن آخر من مات من الصحابة مـات سـنة مائة وعشر أو مائة وعشرين، فهذه المدة زائـدة على المائـة، وإذا اعتبرناها من البعثة تكـون مائة وثلاثا و ثلاثين سـنة، لأن التقـويم مبتدأ من الهجرة، والهجـرة كـانت بعد البعثة بثلاث عشر سـنة، وهـذا القـرن الأول ، أما التـابعون ، فـإن آخـرهم مـات سـنة مائة وثمـانين ، فيكـون بينهم وبين الصـحابة ستون سنة، وأما تابعوا التابعون ،فإن آخرهم مـات سـنة مائتين وعشرين، وهذا منتهى القرن الثالث .

فقرن الصحابة إن ابتدأته من البعثة صار ثلاثا وثلاثين ومائة سنة ، وإن ابتدأته من الهجرة صـار عشـرين ومائة سنة .

وقرن التابعين ستون سنة .

وقرن تابعي التابعين أربعون سنة .

وقـال شـيخ الإسـلام ابن تميمة : إن القـرن معتـبر بمعظم الناس، فإذا كان معظم الناس الصحابة، فـالقرن قـــرنهم ، وإذا كـــان معظم النـــاس التـــابعين ، فـــالقرن قرنهم ، وهكذا .

قوله : (أمتي) المراد أمة الإجابة، لأن أمة الدعوة إذا لم يؤمنوا فليس فيهم خير .

قوله : (فلا أدري أذكر بعد قرنه مـرتين أو ثلاثـا) . إذا كـان عمـران لا يـدري، فالأصل أنه ذكر مـرتين ، فتكـون القرون المفضلة ثلاثة، وهذا هو المشهور .

قوله : (ثم إن بعدكم قوم) . وفي رواية البخاري : ثم إن بعـدكم قومـا) بنصب (قومـا)، وهـذا لا إشـكال فيـه،

ولكن في هــذه الرواية برفع (قــوم) فيه إشــكال، لأن (قوم) اسم إن، وقد اختلف العلماء في هذا :
فقيل على لغة ربيعة : الـــذين لا يقفـــون على المنصــوب بــالألف ، فلم يثبت الكتــاب الألف فصــارت (قوم) .
وهذا جواب ليس بسـديد ، لأن الرواية ليست مكتوبة فقـــط، بل تقـــرأ باللفظ عند أخذ التلاميذ الرواية من المشايخ، ولأن هذا ليس محل وقف .
وقيل : إن (إن) اسمها ضمير الشأن محذوف ، إلحاقا لها بـإن المخففـة، لأن (إن) تعمل بضـمير الشـأن، قـال الشاعر :
وإن مالك كانت كرام
المعادن
فإن المشددة هنا حملت على إن المخففة، فاسـمها ضمير الشأن محذوف،وعليه يكون (بعدكم) : خبر مقدم ، و(قوم) : مبتدأ مؤخر ، والجملة خبر (إن) .

وقيل (إن) هنا بمعـنى نعم، فيكـون المعـنى : ثم نعم بعدكم قوم، وهذا فيه تكلف .
والظاهر : القول الثاني إن صحت الرواية.
قوله : (يشـهدون) . أي : يخـبرون عما علمـوه مما شـاهدوه أو سـمعوه أو لمسـوه أو شـموه، لأن الشـهادة إخبــار الإنســان بما يعلم ، قــال تعـالى : (إلا من شــهد بالحق وهم يعلمون) (الزخرف :86) ولا يشترط أن تكون بلفظ أشـهد على الصـحيح ، وقد قيل للإمـام أحمد : إن فلانا يقـول : (إن العشـرة في الجنة ولا يقـول أشـهد) فقال : إن قاله فقد شهد .
قوله : (ولا يستشـهدون) . اختلف العلمـاء في معـنى ذلك :
فقيل : (لا يستشـهدون)، أي : لا يطلب منهم تحمل الشـهادة فيكـون المـراد الـذين يشـهدون بغـير علم الله فهم شهداء زور .

وقيل : لا يطلب منهم أداء الشـهادة، فيكـون المـراد أداء الشـهادة قبل أن يـدعى لأدائهـا، فيكـون ذلك دليلا لتسرعهم في أداء الشهادة وعدم اهتمامهم بها .

ولكن هذا القول يشكل عليه حديث زيد بن خالد الذي رواه مسلم أن النـبي صـلى الله عليه وسـلم قـال : (ألا أخـبركم بخـير الشـهداء : الـذي يـأتي بالشـهادة قبل أن يسـألها)[1] .، فهـذا تـرغيب في أداء الشـهادة قبل أن يسـألها بـدليل قوله : (ألا أخـبركم بخـير الشـهداء)، وظـاهره : أنه معـارض لحـديث عمـران، فجمع بعض العلماء بينهما بـأن المـراد بحـديث زيد من يشـهد بحق لا يعلمه المشهود له .

وجمع بعض العلماء بأن المراد بحديث زيـد: من يشـهد بشي من حقوق الله تعالى ، لأن حقوق الله تعـالى ليس لها مطالب، فيؤدي الشهادة من غير أن يسـألها، فيكـون المـراد بهم رجـال الأمر بـالمعروف والنهي عن المنكر ونحوهم .

وجمع بعضـهم بـأن المـراد بحـديث زيد بن خالد أنه كناية عن السـرعة بـأداء الشـهادة، فكـان لشـدة إسـراع بـأداء الشـهادة، فكـان لشـدة إسـراعه يؤديها قبل أن يسألها .

وبعض العلمـاء رجح حـديث عمـران ، لأنه في (الصحيحين) على حديث زيد بن خالد، لأنه في (مسلم) .

ولكن إذا أمكن الجمع، فلا يجوز الترجيح لأن مقتضاه إلغاء أحد النصين، والجمع هنا ممكن كما تقدم .

قوله : (يخونـون ولا يؤتمنـون) . هـذا هو الوصف الثـاني لهم ، أي : أنهم أهل خيانة وليس أهل أمانة ، فلا يأتمنهم النـاس، وليس المعـنى أن تقع منهم الخيانة بعد الائتمان حتى يقال: لماذا لم يقل : يؤتمنـون ويخونـون؟ فكأن الخيانة طبيعة لهم ، فلخيانتهم لا يؤتمنون .

الخيانة : الغدر والخداع في موضع الائتمان، وهي من الصفات المذمومة بكل حال .

---

(1) مسلم كتاب الأقضية / باب خير الشهود .

وأما المكر والخديعــة، فهي مذمومة في حــال دون حال، فقد تكون محمودة إذا كانت في مقاتلة عـدو مـاكر خـادع لـدلالتها على القـوة والإيقـاع بالعـدو من حيث لا يشـعر، ولهـذا يوصف الله – سـبحانه وتعـالى – بـالمكر والخداع في الحال التي يكون فيها مـدحا، قـال تعـالى : (ويمكـرون ويمكر الله والله خـير المـاكرين) (الأنفـال : 30) وقال تعالى : (يخادعون الله وهو خادعهم)(النساء : 142)

وأما الخيانة فلا يوصف الله بها أبــــــدا، لأنها ذم بكل حال، ولهذا كان قول العامة: خـان الله من خـان حرامـا، لأنهم وصـــفوا الله بما لا يصح أن يوصف به ، قـــال الله تعـــالى : (وإن يريـــدوا خيانتك فقد خـــانوا الله من قبل فأمكن منهم) (الأنفال 71) ولم يقل : فخانهم .

قوله : (ولا يؤتمنون) . أي : ليسـوا أهلا للأمانـة، فلا يؤتمنـــــون على الــــدماء ولا على الأمـــــوال، ولا على الأعــراض، ولا أي شي ، والظــاهر أن هــذا في القــرن الرابع، فما بالك بالقرن الخامس عشر؟ وفي حديث آخر (ويفشو بينهم الكذب)

قوله (وينذرون ولا يوفون) . هذا الوصف الثـالث لهم . النذر : إلزام الإنسان نفسه بالشي، وقد يكون للآدمي، وهذا بمعنى العهد الذي يوقعه الإنسان بينه وبين غــيره، وقد يكــون لله ، كنــذر العبــادة يجب الوفــاء به ، فهم ينــذرون لله ولا يوفــون له ، ويعاهــدون المخلــوق ولا يوفون له، وهذا من صفات النفاق .

قوله : (ويظهر فيهم الســمن) . هــذا هو الوصف الرابع لهم ، كثرة الشحم واللحم، وهذا الحـديث مشـكل، لأن ظهـور السـمن ليس باختيـار الإنسـان فكيف يكـون صفة ذم ؟

قـال أهل العلم : المـراد أن هـؤلاء يعتنـون بأسـباب السمن من المطاعم والمشارب والـترف، فيكـون همهم إصلاح أبدانهم وتسمينها .

أما السمن الذي لا اختيار للإنسان فيه، فلا يذم عليه، كما لا يذم الإنسان على كونه طـويلا أو قصـيرا أو أسـود أو أبيض ، لكن يذم على شي يكون هو السبب فيه .

وفيه عن ابن مسعود ؛ أن النبي صلي الله عليه وسلم قـال : (خـير أمـتي قـرني ثم الـذين يلـونهم ثم الـذين يلونهم ثم يجيءقوم تسبق الشهادة أحدهم يمينه ويمينه شهادته)

قوله : (وفيه) . أي : (في الصحيح) وقد سـبق الكلام على مثل هــذه العبــارة من المؤلف رحمه اللــه. انظر : (ص146) في باب تفسـير التوحيد وشـهادة أن لا إله إلا الله.

قوله : (خــير النــاس) دليل على قرنه خــير النــاس، فصــاحبته صــلى الله عليه وســلم أفضل من الحــواريين الـذين هم أنصـار عيسى ، وأفضل من النقبـاء السـبعين الذين اختارهم موسى صلي الله عليه وسلم .

قوله: (ثم يجي قوم) . أي : بعد القرون الثلاثة .

قوله: (تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته) . يحتمل ذلك وجهين :

الأول: أنه لقلة الثقة بهم لا يشـــهدون إلا بيمين ، فتارة تسبق الشهادة وتارة تسبق اليمين .

الثاني: أنه كناية عن كـون هـؤلاء لا يبـالون بالشـهادة ولا بــاليمين، حــتى تكــون الشــهادة واليمين في حقهم كأنهم متسابقتان .

والمعنيان لا يتنافيان، فيحمل عليهما الحديث جميعا.

وقوله: (ثم يجي قوم) يدل على أنه ليس كل أصحاب القرن على هذا الوصف، لأنه لم يقل : ثم يكون النــاس، الفرق واضح .

وهذه الأفضلية أفضلية من حيث العموم والجنس، لا من حيث الأفــــراد، فلا يعـــني أنه لا يوجد في تــــابعي التابعين من هو أفضل التابعين، أو لا يوجد في التــابعين من هو أعلم من بعض الصــحابة، أما فضل الصــحبة، فلا

يناله أحد غير الصحابة ولا أحد يسبقهم فيه، وأما العلم والعبادة، فقد يكون فيمن بعد الصحابة من أكثر من بعضهم علما وعبادة .

***تنبيه :**

ساق المؤلف رحمه الله الحديث في بعض النسخ بتكرار قوله : (ثم الذين يلونهم) ثلاث مرات، وهو في (الصحيحين) بتكرارها مرتين .

قال ابراهيم : كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد ونحن صغار[1]

*** * ***

قوله : (وقال إبراهيم) . هو إبراهيم النخعي، من التابعين ومن فقهائهم .

قوله : (كانوا يضربوننا على الشهادة ونحن صغار) في نسخة : (على الشهادة والعهد)، والظاهر أن الذي يضربهم ولي أمرهم .

قوله : (على الشهادة) أي : يضربوننا عليها إن شهدنا زورا، أو إذا شهدنا ولم نقم بأدائها، ويحتمل أن المراد بذلك ضربهم على المبادرة بالشهادة والعهد، وبه فسر ابن عبد البر .

قوله : (والعهد) . أي : إذا تعاهدوا يضربونهم على الوفاء بالعهد.

قوله : (ونحن صغار) الجملة حالية، وإنما يضربونهم وهم صغار للتأديب .

ويستفاد من كلام إبراهيم أن الصبي تقبل منه الشهادة، لأن قوله : (ونحن صغار)،أي : لم يبلغوا، وهذا محل خلاف بين أهل العلم .

---

(1) البخاري: كتاب الشهادات / باب لا يشهد على جور ، ومسلم: كتاب فضاءل الصحابة / باب فضل الصحابة ثم الذين يلونهم .

فقـال بعضـهم : شـهادة الصـغار بعضـهم على بعض مقبولة تحملا وأداء ، لأن البالغ يندر أن يوجد بين الصغار .

وقــال بعضــهم : تقبل شــهادة الصــغار بعضــهم على بعض إن شـــهدوا في الحـــال، لأنه بعد التفـــرق يحتمل النسيان أو التلقين، ولا يسع العمل إلا بهذا، وإلا لضاعت حقوق كثيرة بين الصبيان .

ويســتفاد من هــذا الأثر جــواز ضــرب الصــبي على الأخلاق إذا لم يتأدب إلا بالضرب .

***   *   ***

فيه مسائل :

*** الأولى : الوصـــية بحفظ الأيمـــان . تؤخذ من قوله تعالى : (واحفظوا أيمانكم) والأمر وصية .**

*** الثانية : الإخبار بــأن الحلف منفقة للســلعة ممحقة للبركـة. تؤخذ من قوله صـلى الله عليه وسـلم : (الحلف منفقة للسلعة ...) إلخ .**

*** الثالثة : الوعيد الشــديد لمن لا يــبيع ولا يشــتري إلا بيمينه . تؤخذ من قوله صـــلى الله عليه وســـلم(ورجل جعل الله بضـــاعته، ولا يشـــتري إلا بيمينه ...) إلخ في ضمن الثلاثة الذين لا يكلمهم الله ولا يزيكيهم .**

*** الرابعة : التنبيه على أن الـــــــــذنب يعظم مع قلة الــداعي . تؤخذ من حــديث ســلمان، حيث ذكر الأشــيمط الـــزاني والعائل المســتكبر، وغلظ في عقـــوبتهم ، لأن الداعي إلى فعل المعصية المذكورة ضعيف عندها .**

*** الخامسة : ذم الـــذين يحلفـــون و لا يســـتحلفون . لقوله صلى الله عليه وسلم : (ورجل جعل الله بضــاعته، ولا يشتري إلا بيمينه ...)**

ولكن هذا ليس على إطلاقه، بل النبي صلى الله عليه وسـلم حلف ولم يسـتحلف في مواضع عديـدة، بل أمـره الله – ســـبحانه وتعـــالى أن يحلف في ثلاثة مواضع من القرآن بدون أن يستحلف

وفي قوله : (ويستنبؤنك أحق هو قل إي وربي) (يونس :53) .
وفي قوله : (زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا قل بلى وربي لتبعثن) (التغابن : 7) .
وفي قوله : (وقالوا الذين كفروا أن لا تأتينا الساعة قل بلى وربي لتأتينكم) (سبأ :3)
وعليه، فإن الحلف إذا دعت الحاجة إليه أو اقتضته المصلحة، فإنه جائز، بل يكون مندوبا
إليه، كحلف النبي صلى الله عليه وسلم في قصة المخزومية، حيث قال : (وإيم الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها)[1]، فقد وقع موقعا عظيما من هؤلاء القوم الذين أهمهم شأن المخزومية وممن يأتي بعدهم .
* السادسة : ثناؤه صلى الله عليه وسلم على القرون الثلاثة أو الأربعة وذكر ما يحدث بعدهم تؤخذ من قوله صلى الله عليه وسلم : (خير الناس قرني ...) ،وقوله : (أو الأربعة) بناء على ثبوت ذكر الرابع ، وأكثر الروايات وأثبتها على حذفه .
وقوله : (ذكر ما يحدث) . لو جعلت هذه المسألة مستقلة، لكان أبين وأوضح ، لأن الأخبار عن شي مستقبل ووقوعه كما أخبر دليل على رسالته صلى الله عليه وسلم .

* السابعة : ذم الذين يشهدون ولا يستشهدون. تؤخذ من حديث عمران، وكذا ذم الذين يخونون ولا يؤتمنون، وينذرون ولا يوفون، والذين يتعاطون أسباب السمن ويغفلون عن سمن القلب بالإيمان والعلم .
* الثامنة: كون السلف يضربون الصغار على الشهادة والعهد. تؤخذ من قول إبراهيم النخعي: (كانوا يضربوننا على الشهادة والعهد)، فيؤخذ منه تعظيم شأن العهد والشهادة وضرب الصغار على ذلك، ويؤخذ منه أيضا عناية السلف بتربية أولادهم ، وأن منهجهم الضرب على

---

(1) البخاري : كتاب الحدود / باب كراهة الشفاعة في الحد ، ومسلم : كتاب الحدود / باب قطع السارق الشريف .

تحقيق ذلك اســتنادا إلى إرشــاد نــبيهم صــلى الله عليه وســـلم ، حيث أمر بضـــرب من بلغ عشر ســـنين على الصلاة، لكن يشترط لجواز الضرب :

الأول : أن يكون الصغير قابلا للتأديب، فلا يضرب من لا يعرف المراد بالضرب.

الثاني : أن يكون التأديب ممن له ولاية عليه .

الثـالث : أن لا يسـرف في ذلك كمية أو كيفية أو نوعا أو موضوعا أو غير ذلك .

الرابع : أن يقع من الصغير ما يستحق التأديب عليه .

الخـامس : أن يقصد تأديبه لا الانتقـام لنفسـه، فـإن قصد الانتقام، لم يكن مؤدبا بل منتصر .

* * *

باب ما جاء في ذمة الله ةذمة نبيه صلي الله عيليه وسلم

وقوله تعالي:(وَأَوْفُوا بِعَهْدِ اللَّهِ إِذَا عَاهَدْتُمْ وَلا تَنْقُضُوا الْأَيْمَانَ بَعْدَ تَوْكِيدِهَا)(النحل:من الآية91)

قوله : (ذمة الله وذمة نبيه) .

الذمة : العهد ، وسمي بذلك، لأنه يلتزم به كما يلتزم صاحب الدين بدينه في ذمته .

والله له عهد على عبـاده : أن يعبـدوه ولا يشـركوا به شيئا .

وللعباد عهد على الله وهو : أن لا يعذب من لا يشـــرك به شـيئا، وقـال الله تعـالى : (ولقد أخذ الله ميثـاق بـني إســـرائيل وبعثنا منهم اثـــني عشر نقيبا وقـــال الله إني معكم لئن أقمتم الصـــلاة وآتيتم الزكـــاة وآمنتم برســـلي وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضا حسـنا)، فهـذا عهد الله عليهم ، ثم قـــال : (لأكفـــرن عنكم ســـيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجـري من تحتها الأنهـار) (المائـدة: 12)ـ ، وهـذا عهدهم على الله.

وقال تعالى : (وأفوا بعهدي أوف بعهـدكم) (البقـرة : 40) وللنبي صلى الله عليه وسـلم عهد على الأمـة، وهو أن يتبعـوه في شـريعته ولا يبتـدعوا فيهـا، وللأمة عليه عهد وهو أن يبلغهم ولا يكتمهم شيئا .

وقد أخبر النبي صلى الله عليه وسـلم أنه ما من نـبي إلا كان حقا عليه أن يدل أمته على ما هو خير. [1].

والمــراد بالعهد هنا : ما يكــون بين المتعاقــدين في العهود كما كان بين النـبي صـلى الله عليه وسـلم وأهل مكة في صلح الحديبية .

قوله تعالى : (وأوفـوا) . أمر من الربـاعي من أوفى يوفي ، والإيفاء إعطاء الشي تامـا، ومنه إيفـاء المكيـال والميزان .

قوله : (بعهد الله) . يصلح أن يكون من بـاب إضـافة المصدر إلى فاعله أو إلى مفعوله، أي : بعهدكم اللـه، أو بعهد الله إيـــاكم ، لأن الفعل إذا كـــان على وزن فاعل اقتضى المشاركة من الجانبين غالبـا، مثل : قاتل ودافع .

قوله : (إذا عاهـدتم) . فائـدتها التوكيد والتنبيه على وجـوب الوفـاء، أي : إذا صـدر منكم العهـد، فإنه لا يليق منكم أن تدعوا الوفـاء، ثم أكد ذلك بقوله : (ولا تنقضـوا الإيمـــان) . نقض الشي هو حل إحكامـــه، وشـــبه العهد بالعقدة، لأنه عقد بين المتعاهدين .

قوله : (بعد توكيـدها) . توكيد الشي بمعـنى تثبيتـه، والتوكيد مصـدر وكّـد، يقـال : وكّد الأمر وأكـده تأكيـدا وتوكيدا/ والواو أفصح من الهمزة .

قولـــه:(وقد جعلتم الله لكم كفيلا) . الجملة حالية فائدتها قوة التوبيخ على نقض العهد واليمين .

ووجه جعل الله له كفيلا : أن الإنسـان إذا عاهد غـيره قال : أعاهدك بالله، أي جعل الله كفيلا .

قوله : (إن الله يعلم ما تفعلـــون). حتم الله الآية بالعلم تهديدا عن نقض العهد، لأن الإنسـان إذا علم بـأن الله يعلم كل ما يفعله ، فإنه لا ينقض العهد.

---

[1] مسلم : كتاب الأمارة / باب وجوب الوفاء ببيعه الخلفاء .

ومناسبة الآية للترجمة واضحة جدا، لأن الله قال : (أوفوا بعهد الله)، وقال : (وقد جعلتم الله عليكم كفيلا) . والعهد : الذمة .

وعن بريدة ؛ قال : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا امر أميرا على جيش أو سرية أوصاه بتقوي الله ؛ وبمن معه من المسلمين خيرا فقال :

---

* مناسبة الباب للتوحيد : أن عدم الوفاء بعهد الله تنقص له، وهذا مخل بالتوحيد .
قوله : (إذا أمر) أي : جعله أمير،والأمير في صدر الإسلام يتولى التنفيذ والحكم والفتوى و الإمامة .
قوله : (أو سرية) . هذه ليست للشك، بل للتنويع، فإن الجيش ما زاد على أربع مائة رجل والسرية ما دون ذلك .
والسرايا ثلاثة أقسام :
أ - قسم ينفذ من البلد، وهذا ظاهر، ويقسم غنمه كقسمة ما غنم الجيش .
ب - قسم ينفذ في ابتداء سفر الجهاد، وذلك بأن يخرج الجيش بكامله ثم يبعث سرية تكون أمامهم .
ج - قسم ينفذ في الرجعة، وذلك بعد رجوع الجيش .
وقد فرق العلماء بينهما من حيث الغنيمة، فالسرية الابتداء الربع بعد الخمس، لأن الجيش وراءها، فهو ردء لها وسيلحق بها، ولسرية الرجعة الثلث بعد الخمس، لأن الجيش قد ذهب عنها، فالخطر عليها أشد .
وهذا الذي تعطاه السريتان راجع إلى اجتهاد الإمام : إن شاء أعطى وإن شاء منع حسبما تقتضيه المصلحة .
قوله : (أوصاه) . الوصية : العهد بالشي إلى غيره على وجه الاهتمام به .

قوله : (بتقوى الله) . التقوى : هي امتثال أوامر الله، واجتناب نواهيه على علم وبصيرة، وهي مأخوذة من

الوقاية، وهي اتخاذ وقاية من عذاب الله ، وذلك لا يكـون إلا بفعل الأوامر واجتناب النواهي .

وقال بعضهم :

خل الذنوب صغيرها وكبــيرها ذاك التــقى

واعمل كماش فوق أرض الشوك يحذر ما يرى

لا تحقرن صــغيرة إن الجـبال من الحـصـى

وهذه التعريفات كلها تؤدي معنى واحدا .

وكانت الوصية بالتقوى لأمير الجيش، لأن الغـالب أن الأمير يكون معه ترفُّع يخشى منه أن يجانب الصواب من أجله، ولأن تقواه سبب لتقوى من تحت ولايته .

قوله : (وبمن معه من المسلمين خيرا) . أي : أوصاه أن يعمل بمن معه من المسـلمين خـيرا لإي أمـور الـدنيا والآخرة، فيسـلك بهم الأسـهل، ويطلب لهم الأخصب إذا كــانوا على إبل أو خيــل، فيمنع عنهم الظلم ويــأمرهم بــالمعروف، وينهــاهم عن المنكــر، وغــير ذلك مما فيه خيرهم في الدنيا والآخرة .

ويســتفاد من هــذا الحــديث : أنه يجب أن على من تولى أمـرا من أمـور المسـلمين أن يسـلك بهم الأخـير ، بخلاف عمل الإنسان بنفسه ، فإنه لا يلزم إلا بالواجب .

قوله : (اغزوا باسم الله) . يحتمل أنه أراد أن يعلمهم أن يكونــوا دائما مســتعينين باللــه، ويحتمل أنه أراد أن يفتح الغزو باسم الله .

((اغزوا باسم الله في سبيل الله قاتلوا من كفر الله))

أغزوا ولا تغلـوا ، ولا تغـدروا ، ولا تمثلـوا ، ولا تقتلـوا وليدا .

والأول أظهـــر، والثـــاني أيضا محتمـــل، لأنه بعث الجيوش من الأمور ذات البال، وكل أمر لا يبدأ فيه باسم الله، فهو أبتر .
قوله : (في سبيل الله) . متعلق ب(اغزوا) وهو تنبيه الرســـول صـــلى الله عليه وســـلم على حسن النية و القصد، لأن الغزاة لهم أغراض، ولكن الغزو النافع الــذي تحصل به إحدى الحسنيين ما
كان خالصا لله . وذلك بأن يقاتل لتكون كلمة الله هي العليا لا لحمية أو شجاعة أو ليرى مكانه أو لطلب دنيا .
فـــإذا قاتل لأجل الـــوطن : فمن قاتل لأنه وطن لإسلامي تجب حمايته وحماية المسلمين فيـه، فهـذه نية إســلامية صـحيحة ، وإن كــان للقومية أو الوطنية فقط فهو حمية وليس في سبيل الله.
قوله : (في سبيل الله) . تشمل النية والعمل، فالنية ســـبقت، والعمل : أن يكـــون الغـــزو في إطـــار دينه وشريعته، فيكون حسبما رسمه الشارع .
قوله : (قـاتلوا من كفر باللـه) . (قـاتلوا) : فعل أمر وهو للوجــوب، أي : يجب علينا أن نقاتل من كفر باللــه، قــال تعــالى : (يا أيها النــبي جاهد الكفــار والمنــافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير) (التحــريم : 9) . وقــال تعــالى : (يا أيها الــذين آمنــوا قــاتلوا الــذين يلـــونكم من الكفـــار) (التوبة :123) فـــإذا قاتلنا الـــذين يلوننـــا، فأســـلموا، نقاتل من وراءهم، وهكـــذا إلى أن نخلص إلى مشارق الأرض ومغاربها .
(ومن) : اسم موصـــول، وصـــلته (كفـــر)، واسم الموصـــول وصـــلته يفيد العليـــة، أي : لكفـــره، فنحن لا نقاتل النـــاس عصـــبية أو قومية أو وطنية ، نقـــاتلهم لكفرهم لمصلحتهم وهي إنقاذهم من النار .
والكفر مداره على أمرين : الجحود ، والاستكبار .
أي : الاستكبار عن طاعته، أو الجحود لما يجب قبوله وتصديق .
قوله : (اغزو) . تأكيد، وأتى بها ثانية كأنه يقـول : لا تحقروا الغزو واغزوا بجد .

قوله : (لا تغلوا) . الغلول : أن يكتم شيئا من الغنيمة فيختص به، وهو من كبـائر الـذنوب، قـال تعـالى : (ومن يغلل يأت بما غل يوم القيامـة) (آل عمـران : 161)، أي معـذبا بـه، فهو يعـذب بما غل يـوم القيامة ويعــزر في الدنيا، قال أهل العلم : يعزر الغال بإحراق رحله كلـه، إلا المصـحف لحرمتـه، والسـلاح لفائدتـه، وما فيه من روح، ولأنه لا يجوزه تعذيبه بالنار .

قوله ولا(تغدروا) . الغدر : الخيانة، وهذا هو الشـاهد من الحديث، وهذا إذا عاهدنا، فإنه يحرم الغدر، أما الغـدر بلا عهد ، فلنا ذلك لأن الحــرب خدعــة، وقد ذكر أن على بن أبي طـــــــالب رضى الله عنه خــــــــرج إليه رجل من المشركين ليبارزه ، فلما أقبل الرجل على على صـاح به على : ما خـرجت لأبـارز رجلين. فـالتفت المشـرك يظن أنه جاء أحد من أصحابه ليســاعده، فقتله علي رضى الله عنه .

وليعلم لنا مع المشركين ثلاث حالات .

الحال الأولى : أن لا يكون بيننا و بينهم عهد ، فيجب أن قتـالهم بعد دعـوتهم إلى الإسـلام وإبـائهم عنه وعن بذل الجزية، بشرط قدرتنا على ذلك .

الحـال الثانية : أن يكـون بيننا وبينهم عهد محفـوظ يسـتقيمون فيـه، فهنا يجب الوفـاء لهم بعـدهم ، لقوله تعالى : (فما استقاموا لكم فاستقيموا لهم إن الله يحب المتقين) (التوبة : 7) وقوله تعـــالى : (فـــأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم) (الأنفال :58) .

الحــال الثالثة : أن يكــون بيننا وبينهم عهد نخــاف خيانتهم فيـه، فهنا يجب أن ننبذ إليه العهد ونخـبرهم أنه لا عهد بيننا وبينهم ، لقوله تعـــالى : (وإما تخـــافن من قـــوم من خيانة فانبذ إليهم على ســـواء إن الله لا يحب الخائنين) (الأنفال :58) .

قوله : (و لا تمثلوا) . التمثيل : التشـويه بقطع بعض الأعضاء، كالأنف واللسـان وغيرهما ، وذلك عند أسـرهم، لأنه لا حاجة إليـه، لأنه انتقـام في غـير محلـه، واختلف العلماء على فيما لو كانوا يفعلون بنا ذلك :

فقيل : لا يمثل للعمـوم ، والنـبي لم يسـتثن شـيئا، ولأننا إذا مثلنا بواحد منهم، فقد يكون لا يرضى بما فعله قومه، فكيف نمثل به؟

وقيل : نمثل بهم كما مثلـوا بنـا، لأن هـذا العمـوم مقابل بعمـوم آخـر، وهو قوله تعـالى : (فمن اعتـدى عليكم فاعتـدوا عليه بمثل ما اعتـدى عليكم) (البقـرة : 194) . وإذا لم نمثل بهم مع أنهم يمثلـون بنـا، فقد يفسر هـذا بأنه ضـعف ، وإذا مثلنا بهم في مثل هـذه الحال ، عرفوا أن عندنا قوة ولم يعودوا للتمثيل بنا ثانية .

والظاهر القول الثاني .

فـإن قيل : قد نمثل بواحد لم يمثل بنا ولا يرضى بالتمثيل؟

فيقـال : إن الأمة الواحـدة فعل الواحد منها كفعل الجميع، ولهذا كـان الله – عز وجـل- يخـاطب اليهـود في عهد موسى ، قـال تعـالى : (وإذا قتلتم نفسا فـادارأتم فيها) (البقرة : 72) ، وقال تعالى : (وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور) (البقرة :93) ، وما أشبه ذلك .

وإذا لقيت عـدوك من المشـركين، فـادعهم إلى ثلاث خصـال (أو خلال) فـأيتهن ما اجـابوك ، فاقبل منهم ، وكف عنهم .

قوله : (ولا تقتلوا وليدا) . أي : لا تقتلوا صغيرا، لأنه لا يقاتل، ولأنه ربما يسلم .

وورد في أحاديث أخرى : أنه لا يقتل راهب ولا شيخ فان ولا امرأة [1]، إلا أن يقاتلوا ، أو يحرضوا على القتال ، أو يكون لهم رأي في الحرب، كما قتل دريد بن الصّـمة في غزوة ثقيف مع كبره وعماه [2].

---

(1) أب داود : كتاب الجهاد / باب دعاء المشركين .

(2) البخاري : كتب المغازي / باب غزوة أوطاس .

واســـتدل بهذ الحـــديث أن القتـــال ليس لأجل أن يســـلموا، ولكنه لحماية الإســـلام ، بـــدليل أننا لا نقتل هـؤلاء، ولو كـان من أجل ذلك لقتلنـاهم إذا لم يسـلموا، ورجح شـيخ الإسـلام هـذا القـول ، وله رسـالة في ذلك اسمها (قتال الكفار) .

قوله : (وإذا لقيت عدوك) . أي قابلته أو وجدته، وبدأ بذكر العداوة تهييجا لقتـالهم، لأنك إذا علمت أنهم أعـداء لك، فـإن ذلك يـدعوك إلى قتـالهم، ولهـذا قـال تعـالى : (ياأيها الـذين آمنـوا لا تتخـذوا عـدوي وعـدوكم أوليـاء) (الممتحنة: 1) وهـذا أبلغ وأعم من قوله في آية أخـرى : (ولا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء) (المائدة :51) ، لكن خص في هـــذه الآية بـــاليهود والنصـــارى، لأن المقـــام يقتضيه .

والعدو ضد الولي ، والولي من يتولى أمـورك ويعتـني بك بالنصر والـدفاع وغـير ذلـك، والعـدو يخـذلك ويبتعد عنك، ويعتدي عليك ما أمكنه .

قوله : (من المشركين) . يدخل فيه كل الكفار، حتى اليهود والنصارى .

قوله : (فـأيتهن ما أجـابوك) . (أيتهن) : اسم شـرط مبتدأ، (ما) : زائـدة، وهي تـزاد بالشـرط تأكيـدا للعمـوم، كقوله تعـالى : (أيا ما تـدعوا فله الأسـماء الحسـنى) (الإسـراء :110) والكـاف مفعـول بـه، والعائد إلى اسم الشـرط محـذوف ، والتقـدير : فـأيتهن ما أجـابوك إليـه، فاقبل منهم وكف عنهم ، فلا تقاتلهم .

قوله : (ثم ادعهم) . (ثم) : زائدة ، كما في رواية أبي داود ، ولأنه ليس لها معـــنى، ويمكن أن يقـــال : أنها ليست من كلام الرسول صلى الله عليه وسلم . ، بل من كلام الراوي على تقدير : ثم قال ادعهم .

قوله : (إلى الإسلام) . أي : المتضـمن للإيمـان، لأنه إذا أفرد شـمل الإيمـان، وإذا اجتمعا ، افترقـا، كما فـرق النبي صلى الله عليه وسلم بينهما في حديث جبريل .

والإيمـان عند أهل السـنة تـدخل فيه الأعمـال، قـال صـلى الله عليه وسـلم : (الإيمـان بضع وسـبعون شـعبة،

أعلاها قــول : لا إله إلا اللــه، وأدناها : إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة [3]من
الإيمــان، فــإن أجــابوا الإســلام ، فهــذا ما يريـــده المسـلمون، فلا يحل لنا أن نقـاتلهم، ولهـذا قـال النـبي صلى الله عليه وسلم : (فاقبل منهم) .
قوله : (ثم ادعهم إلى التحـــــول من دارهم إلى دار المهـاجرين) . هـذه الجملة تشـير إلى أن الـذين قوتلـوا أهل بادية ، فــإذا أســلموا، طلب منهم أن يتحولــوا إلى ديــار المهــاجرين ليتعلمــوا دين اللــه، لأن الإنســان في باديته بعيد عن العلم، كما قــال تعــالى : (الأعــراب أشد كفرا ونفاقا وأجدر أن لا يعلموا حدود ما أنــزل الله على رسوله) (التوبة : 97) ، وهذا أصل في توطين البوادي .
قوله : (إلى دار المهــاجرين) , يحتمل أن المــراد بها العين، أي: المدينة النبويـــة، ويحتمل أن المـــراد بها الجنس،أي : الدار الـتي تصـلح أن يهـاجر إليها لكونها بلد إسلام، سواء كانت مدينة أو غيرها .
ويقوى الاحتمال الثاني – وهو أن المراد بها الجنس – أنه لو كـان المـراد المدينـة، لكـان الرسـول عليه الصـلاة والســلام يعــبر عنها باســمها ولا يــأتي بالوصف العــام، ويقوى الاحتمال الأول : أن دار المهاجرين هي المدينــة، والظاهر الاحتمال الثاني .
قوله : (فـــإن لهم ما للمهــاجرين وعليهم ما على المهــاجرين) . هــذا تمــام العــدل، ولا يقــال : إن الحق لصاحب البلد الأصــلي ، فلهم ما للمهـاجرين من الغنيمة والفي، وعليهم ما عليهم من الجهاد والنصرة .
قوله : (ولا يكون لهم في الغنيمة والفيء شي إلا أن يجاهدوا مع المسـلمين)" . يعـني إذا لم يتحولـوا إلى دار المهاجرين، فليس لهم في الغنيمة والفيء شي .
والغنيمة : ما أخذ من أموال الكفار بقتال أو ما ألحق به .
والفيء: ما يصــرف لــبيت المــال ، كخمس خمس الغنيمة، والجزية، والخراج ، وغيرها .

---
(3) البخاري : كتاب الإيمان / باب أمور الإيمان ، ومسـلم : كتـاب الإيمـان / بـاب بيان عدد شعب الإيمان .

قوله : (إلا أن يجاهـدوا مع المسـلمين) . يفيد أنهم جاهدوا مع المسـلمين اسـتحقوا من الغنيمة ما يسـتحقه غيرهم .

وأما الفيء : ، فاختلف أهل العلم في ذلك:

فعند الإمام أحمد : لهم حق في الفيء مطلقا، ولهم حق في الغنيمة إن جاهدوا .

وقيل : لا حق لهم في الفيء، إنما الفيء يكون لأهل البلدان بدليل الاستثناء، فهو عائد على الغنيمـة، إذ ليس من في البلد مسـتعدا للجهـاد ويتعلم الـدين وينشـره كأعرابي عند إبله .

فإذا أسلموا ، فلهم ثلاث مراتب :

1. 1. التحول إلى دار المهـاجرين،وحينئذ يكـون لهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين
2. 2. البقـاء في أمـاكنهم مع الجهـاد، فلهم ما للمجاهدين من الغنيمة، وفي الفيء الخلاف .
3. 3. البقاء في أماكنهم مع ترك الجهاد، فليس لهم من الغنيمة والفيء شي .

قوله : (فـإن هم أبـوا فأسـالهم الجزية ، فـإن هم اجابوك فأقبل منهم وكف عنهم)

قوله : (فـإن هم أبـوا).(هم)عند البصـريين : توكيد للفاعل المحذوف مع فعل الشرط، والتقدير : فـإن أبـوا هم ، وعند الكوفيين : مبتدأ خبره الجملة بعده .

والقاعدة عنـدنا إذا اختلف النحويـون في مسـألة : أن نتبع الأسهل ، والأسهل هنا إعراب الكوفيين .

قوله : (فاسـألهم الجزيـة) . سـؤال عطـاء لا سـؤال استفهام ، والفرق بين سؤال العطاء وسؤال الاستفهام : أن سـؤال الاسـتفهام يتعـدى إلى المفعـول الثـاني ب(عن)، قـال الله تعـالى : (يسـألونك عن السـاعة أيـان مرساها) . وقد يكون المفعول الثاني جملة اسـتفهامية، كقوله تعالى : (يسـألونك مـاذا أحل الله لهم) (المائـدة : 4) .

وأما سؤال الإعطـاء، فيتعـدى إليه بنفسـه، كقولك : سألت زيدا كتابا .

والجزية : فعلة من جــزى يجــزي ، وظــاهر فيها أنه مكافأة على شي، وهي عبارة عن مـال مـدفوع من غـير المسلم عوضا عن حمايته وإقامته بدارنا .

والــذمي معصــوم ماله ودمه وذريته مقابل الجزيــة، قال تعالى : (حتى يعطـوا الجزية عن يد وهم صـاغرون) (التوبة : 29)ـ ، أي : يســلموها بأيــديهم ، لا يقبل أن يرسل بها خادمه أو أبنه، بل يأتي بها هو.

وقيل : (عن يــد) : عن قــوة منكم، والصــحيح أنها شاملة المعنيين .

وقيل : (عن يد) : أن يعطيك إياه فتأخذها بقوة بــأن تجر يده حتى يتبين له قوتك، وهذا لا حاجة إليه .

قوله : (وهم صاغرون) . أي : يجب أن يتصـفوا بالـذل والهوان عند

فـإن هم ابـوا فاسـتعن بالله وقـاتلهم ، وإذا حاصـرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة اصحابك فـإنكم إن تخفـروا ذممكم وذمة أصـحابكم اهون من ان تخفروا ذمة الله وذمة نبيه

إعطائها ، فلا يعطوها بأبهة وترفع مع خــدم ومــوكب ونحو ذلـك، وجعل بعض العلمـاء من صـغارهم أن يطـال وقوفهم عند تسلمها منهم .

قوله (فاستعن بالله وقاتلهم) . بدأ النبي صلى الله عليه وسـلم بطلب العـون من اللـه، لأنه إذا لم يعنك في جهاد أعدائه، فإنك مخذول، والجملة جواب الشرط .

قوله : (وإذا حاصرت أهل الحصن). الحصر : التضييق، أي : طــوقتهم وضــيقت عليهم بحيث لا يحرجــون من حصنهم ولا يدخل عليه أحد .

والحصن : كل ما يتحصن به من قصــور أو أحــواش وغيرها .
قوله : (فــأرادوك) . أي : طلبــوك، وضــمن الإرادة معنى الطلب، وإلا فإن الأصل أن تتعدى ب(من)، فيقـال أرادوا منك .
قوله : (فلا تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيـه) . الذمة : العهد، فإذا قال أهل الحصن المحاصـرون: نريد أن نـنزل على عهد الله ورســوله، فإنه لا يجــوز أن يــنزلهم على عهد الله ورسوله، فعل النبي صلى الله عليه وسلم ذلك بقوله : (فإنكم أن تخفروا ذممكم وذمة أصـحابكم أهـون ...)
قوله : (أن تخفــروا) بضم التــاء وكسر الفــاء : من أخفر الربـاعي ، أي : غـدر، وأما خفر يخفر الثلاثي فهي بمعنى أحار، والمتعين الأول .

وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله ؛ فلا تـــــنزلهم على حكم الله ولكن أنــــزلهم على حكمك ، فإنك لا تــــدري أتصــــيب فيهم حكم الله ام لا) رواه مسلم [1]

وقوله : (أن تخفـروا) . (أن) بفتح الهمـزة مصـدرية بــدليل رفع (أهــون) على أنها خـــبر، وأن ما دخلت عليه محلها من الإعــراب النصب على أنها بــدل اشــتمال من اســم(إن) ، والتقـدير : فـإن إخفـارهم ذممكم ، والبـدل يصح أن يحل محل المبدل منه، ولهذا قدرتها بما سبق .
قوله : (أهــون من أن تخفــروا ذمة الله وذمة نبيــه) . لأن الغــدر بذمة الله وذمة نبيه أعظم ، وقوله : (أهــون) من بـاب اسم التفضـيل الـذي ليس في المفضل ولا في المفضل عليه شي من هذا المعـنى، لأن قوله : (أهـون) يقتضي اشتراك المفضل والمفضل عليه بالهون، والأمر ليس كذلك، لأن إخفار الـذمم سـواء كـان لذمة الله وذمة

(1) مسلم : كتاب الجهاد / باب تأمير الإمام والأمراء .

رســـــوله أو ذمة المجاهـــــدين، كله ليس بهين ، بل هو صعب، لكن الهون هنا نسبي وليس على حقيقته .

فهنا أرادوا أن يـــنزلوا على العهد بـــدون أن يحكم عليهم بشي، بل يعاهدون على حماية أموالهم وأنفسهم ونسائهم وذريتهم فنعطيهم ذلك .

قوله : (وإذا حاصـرت) . أي : ضـربت حصـارا يمنعهم من الخــروج من مكــانهم . (أهل الحصــن) : أهل البلد أو مكان يتحصنون به .

(فأرادوك) : طلبوا منك .

(حكم اللـــه)، أي : شــــرع الله . قوله : (ولكن الله أنــزلهم على حكمــك) . فـإذا أرادوا أن يـنزلوا على حكم الله، فإنهم لا يجـابون، فإننا لا نـدري أنصـيب فيهم حكم الله أم لا ؟

ولهذ قال : (أنزلهم على حكمــك) ، ولم يقل : وحكم أصـحابك كما قــال في الذمــة، لأن الحكم في الجيش أو السرية للأمير، وأما الذمة والعهد، فهي من الجميــع، فلا يحل لواحد من الجيش أن ينقض العهد .

وقوله : (لا تــدري) . أي : لا تعلم (أتصــيب فيهم حكم الله أم لا) ، وذلك لأن الإنســـــــان قد يخطيء حكم الله تعالى .

وهذه مسالة اختلف فيها العلماء :

فقيل : إن أهل الحصن لا ينزلون على حكم الله،لأن قائد الجيش وإن اجتهد، فإنه لايـدري أيصـيب فيهم حكم الله أم لا؟ فليس كل مجتهد مصيبا .

وقيل : بل يـنزلون على حكم الله أم لا؟ والنهي عن ذلك خاص في عهد النـبي صـلى الله عليه وسـلم فقـط، لأنه العهد الذي يمكن أن يتغـير فيه الحكم، إذ من الجـائز بعد مضي هـــذا الجيش أن يتغـــير فيه الحكم، إذ ا كـــان كذلك، فلا تـنزلهم على حكم اللـه، لأنك لا تـدري أتصـيب الحكم الجديد أو لا تصيبه.

أما بعد انقطــاع الــوحي ، فيــنزلون على حكم اللــه، واجتهادنا في إصابة حكم الله يعتـبر صـوابا إذا لم يتـبين خطؤه، لأن الله لا يكلف نفسا إلا وسعها، وقال تعــالى :

(فاتقوا الله ما استطعتم) (التغـابن :16) وهـذا اصح ، نه يحكم المجتهد بإصابته الحكم ظاهرا شـرعا وإن كـان قد يخطي ، وإن حصل الاحـتراز بـأن يقـول : ننزلك على ما نفهم من حكم الله ورســـوله، فهو أولى، لأنك إذا قلت على ما نفهم صار الأمر واضحا أن هـذا حكم الله بحسب فهمنا، لا بحسب الواقع فيما اتضح خلافه .

واخترنا هذه العبارة، لأنه قد يتغير الاجتهـاد ، ويـأتي أمــير آخر فيحــارب هــؤلاء أو غــيرهم ثم يتغــير الحكم، فيقول الكفار : إن أحكام المسلمين متناقضة .

ويستفاد من هذا الحديث ما يلي :

1- 1- تحريم التمثيـل، والغلـول، والغـدر، وقتل الوليد، وقد سبق الكلام عليه .

2 - يشرع للإمام بعث الجيوش والسرايا .

3 - لا يجــوز القتــال قبل الــدعوة، لأنه جعل القتال آخر مرحلة . وأما ما ورد في

(الصحيح) أن النـبي صـلى الله عليه وسـلم أغـار على بــني المصـطلق وهم غـارون، فقد أجيب : أن هـؤلاء قد بلغتهم الدعوة، ودعوة من بلغتهم الدعوة سنة لا واجبـة، ويرجع فيه للمصلحة .

4- جــواز أخذ الدية من غــير اليهــود والنصــارى والمجوس، لأن أهل الكتاب نص

القرآن على أخذها منهم، والمجوس وردت به الســنة، وأما ماعدا هؤلاء فاختلف أهل العلم :

فقيل : لا تأخذ من غـــير هـــؤلاء، وقيل : لا تؤخذ من مشركي العرب، لأن فيها إذلالا .

والصــحيح أنها تؤخذ من جميع الكفــار ، لعمــوم قوله صــــلى الله عليه وســـــلم : (من كفر با لله ولم يقل : اليهود والنصاري)

5- الإشـارة إلى القتـال ليس لإكـراه النـاس على أن يدخلوا في الإسلام، ولو كان كذلك

ما شــرعت الجزيــة، لأنه على هــذا التقــدير يجب أن يدخلوا في الدين أو يقاتلوا، وهذا هو الراجح الذي يؤيـده القــرآن والســنة، وأما قوله صــلى الله عليه وســلم :

(أمرت أن أُقاتل الناس..)[1] الحديث، فهو عام مخصـوص بأدلة الجزية .

6- عظم العهود، ولا سيما إذا كانت عهدا لله ورسـوله .

7- جواز نزول أهل الحصن على حكم أمير الجيش .

8- أنه لا يجوز أن يـنزلهم على حكم الله أما في عهد رسول الله أو مطلقا حسب الخلاف السابق .

9- أن المجتهد قد يصـيب وقد يخطي، لقوله : (فإنك لا تـدري أتصـيب فيهم حكم الله أم لا)، وقـال النـبي : صـلى الله عليه وسـلم : (إذا حكم الحـاكم، فاجتهد ، فأصـاب، فله أجـران، وأن أخطأ ، فله أجر واحـد)[2]، وعليه، فهل نقول : إن المجتهد مصيب ولو أخطأ؟

الجواب : قيل : كل مجتهد مصيب .

وقيل : ليس كل مجتهد مصيبا .

وقيل : كل مجتهد مصـيب في الفـروع دون الأصـول، حذرا من أن نصوب أهل البدع في باب الأصول .

على أن شـيخ الإسـلام ابن تيمية وابن القيم أنكـرا تقسـيم الـدين إلى أصـول وفـروع، وقـالا : إن هـذا التقسيم محدث بعد عصر الصـحابة، ولهـذا نجد القـائلين بهـذا التقسـيم يلحقـون شـيئا من أكـبر أصـول الـدين بـالفروع، مثل الصـلاة، وهي ركن من أركـان الإسـلام ، ويخرجـون أشـياء في العقيـدة اختلف فيها السـلف، يقولـون : أنها من الفـروع ، لأنها ليست من العقيـدة ولكن فـروع من فروعهـا، ونحن نقـول : إن أردتم بالأصول ما كان عقيدة، فكل الدين أصول، لأن العبـادات المالية أو البدنية لا يمكن أن تتعبد لله بها إلا أن تعتقد أنها مشروعة، فهذه عقيـدة سـابقة على العمـل، ولو لم تعتقد أنها مشروعة، فهـذه عقيـدة سـابقة على العمل ، ولو لم تعتقد ذلك لم يصح تعبدك لله بها .

---

[1] البخاري : كتاب الإيمان / باب (فإن تـابوا وأقـاموا لصـلاة)، ومسـلم : كتـاب : الإيمان باب الأمر بقتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله .

[2] البخاري : كتاب الاعتصام /باب أجر الحاكم إذا اجتهد، ومسلم : كتاب الأقضية / باب بيان أجر الحاكم إذا اجتهد .

والصحيح أن باب الاجتهاد مفتوح فيما سمى بالأصول أو الفـــروع ، لكن ما خـــرج عن منهج الســـلف، فليس بمقبول مطلقا .

10- أن باب الاجتهاد بـاق، لقوله : (لا تـدري أتصـيب فيهم حكم الله أم لا؟) وبهذا يتبن ضعف قول من قـال : إن باب الاجتهاد قد انسد، والواجب التقليد للأئمة، وهــذا يـــترتب عليه الإعـــراض عن الكتـــاب والســـنة إلى آراء الرجال، وهـذا خطـأ، بل الـواجب على من تمكن من أخذ الحكم على الكتـاب والسـنة أن يأخـذه منهمـا،لكن كـثرة السنن وتفرقها لا ينبغي للإنسـان أن يحكم بشي بمجـرد أن يسمع حديثا في هذا الحكم حتى يثبت، لأن هذا الحكم قد يكــون منســوخا أو مقيــدا أو عاما وأنت تظنه بخلاف ذلك.

وأما أن نقـــول : لا تنظر في القـــرآن والســـنة لأنك لست أهلا للاجتهاد، فهذا غـير صـحيح ، ثم إنه على قولنا : إن بـاب الاجتهـاد مفتـوح، لا يجـوز أبـدا أن تحتقر آراء العلمـاء السـابقين، أو أن تـنزل من قـدرهم ، لأن أولئك تعبوا واجتهدوا وليس بمعصومين، فكونك تقـدح فيهم أو تأخذ المسائل التي يلقونها على أنها نكت تعرضـها أمـام الناس ليسخروا بهم، فهذا أيضا لا يجوز، وإذا كـانت غيبة الإنسـان العـادي محرمـة، فكيف بغيبة أهل العلم الـذين أفنـوا أعمـارهم في اسـتخراج المسـائل من أدلتها ، ثم يأتي في آخر الزمـان من يقـول : إن هـؤلاء لا يعرفـون، وهـؤلاء يفرضـون المحـال ويقولـون : كـذا وكـذا، مع أن أهل العلم فيما يفرضـــونه من المســـائل النـــادرة قد لا يقصـدون الوقـوع ، لكن يقصـدون تمـرين الطـالب على تطبيق المسائل على قواعدها وأصولها؟

11 – فيه إثبات حكم لله – عز وجل- ، وحكم الله ينقسم إلى قسمين :

أ – حكم كوني، وهو ما يتعلق بالكون، ولا يمكن لأحد أن يخلفه، ومنه قوله تعالى (فلن أبرح الأرض حـتى يأذن لي أبي أو يحكم الله لي) (يوسف :80) .

ب – حكم شـرعي ، وهو ما يتعلق بالشـرع والعبادة، وهذا من النـاس من يأخذ به ومنهم من لا يأخذ

بــــه، ومنه قوله تعـــالى : (ذلكم حكم الله يحكم بينكم) (الممتحنة :10) .

*   *   *

* فيه مسائل :

*الأولى : الفــــــــــرق بين ذمة الله وذمة نبيه وذمة المسلمين . لو قال الفــرق بين ذمة الله وذمة نبيه وبين ذمة المسلمين، لكان أوضح، لأنك عندما تقرأ كلامه تظن أن الفروق بين الثلاثة كلها ، وليس كذلك، فــإن ذمة الله وذمة نبيه واحـــــدة، وإنما الفــــــرق بينهما وبين ذمة المسلمين .

والفــــرق أن جعل ذمة الله وذمة نبيه للمحاصـــــرين محرمـــة، وجعل ذمة المحاصــرين – بكسر الصـــاد – ذمة جائزة .

* الثانية :الإرشـــاد إلى أقل الأمــرين خطــرا.لقوله : (ولكن اجعل ذمتك وذمة أصـحابك ...)إلخ، وهـذه قاعــدة مهمـــــة، وتقـــــال على وجه آخر وهو : ارتكـــــاب أدنى المفســـدتين لـــدفع أعلاهما إذا كـــان لابد من ارتكـــاب إحداهما، وقد دل عليها الشرع، قـال تعـالى: (ولا تسـبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عــدوا بغــير علم) (الأنعام : 108)ـ ، فسب آلهة المشركين مطلـوب ، لكن إذا تضـــمن سب الله – عز وجل – صـــار منهيا عنـــه، لأنه مفسـدة سب الله أعظم من مفسـدة السـكوت عن سب آلهتهم، وإن كـان في السـكوت شي من المفسـدة، لكن نســـكت لئلا نقع في مفســـدة أعظم، وأيضا العقل دل عليها .

وفيها قاعدة مقابلة،وهي ترك أدنى المصــلحتين لنيل أعلاهما، إذا كـان لا بد من تـرك إحـداهما ، فـإذا اجتمعت مصلحتان لا يمكن الأخذ بهما جميعـا، فخذ بأعلاهمـا، وإذا اجتمعت مفسدتان لا يمكن تركهما ، فخذ بأدناهما .

* الثالثة : قوله : (اغــزو بسم الله في ســبيل اللــه) . يستفاد منها وجوب الغــزو مع الاســتعانة بالله والإخلاص والتمشي على شرعه .

*الرابعة : قوله : (قاتلوا من كفر بالله) . يستفاد منها وجــوب قتــال الكفــر، وأن علة قتــالهم الكفــر، وليس المعنى أنه لا يقاتل إلا من كفر، بل الكفر سبب للقتال، فمن منع الزكـــاة يقاتـــل، وإذا تـــرك أهل بلد صـــلاة عيد

قوتلوا، وكذا الأذان والإقامة، مع أنهم لا يكفـرون بـذلك .

وإذا اقتتلت طائفتان وأبت إحداهما أن تفيء إلى أمر الله، قوتلت، فالقتال له أسباب متعددة غير الكفر .

* الخامسة : قوله : (اســتعن بالله وقــاتلهم) . يفيد وجوب الاستعانة باللـه، وأن لا يعتمد الإنسـان على حوله وقوته .

* السادسة : الفرق بين حكم الله وحكم العلماء. وفيه فرقان :

1- أن حكم الله مصــيب بلا شــك، وحكم العلماء قد يصيب وقد لا يصيب .

2- تنزيل أهل الحصن على حكم الله ممنوع، إما في عهد رسول الله صلى الله عليه وسـلم فقط أو مطلقا ، وأما على حكم العلمـاء ونحوه ، فهو جائز .

* فائدة :

لا ينبغي أن يقال لمفت : ما حكم الإسلام في كذا، أو ما رأي الإسلام في كذا، فإنه قد يخطيء فلا يصيب حكم الإسـلام ، ولا يقـول مفت : حكم الإسـلام كـذا، لأنه قد يخطي، ولكن يقيد ، فيقول : حكم الإسلام فيما أرى كذا وكـذا إلا فيما هو نص واضح وصـريح ، فلا بـأس، مثل أن يقال : ما حكم الإسـلام في أكل الميتـة؟ فيقـول : حكم الإسلام في أكل الميتة أنه حرام .

* السابعة : في كون الصحابي يحكم عند الحاجة بحكم لا يـــدري أيوافق حكم الله أم لا؟ وهـــذا ليس خاصا بالصحابة ، بل حتى من بعدهم، فإن له أن يحكم بما يرى أنه حكم الله عند الحاجة.

***

باب ما جاء في الأقسام على الله

الإقسام : مصدر أقسم يُقسم إذا حلف .

والحلف له عدة اسماء، وهي : يمين، وآليـة، وحلـف، وقسـم، وكلها بمعـنى واحـد، قـال تعـالى : (فلا أقسم بمواقع النجوم) (الواقعة :75)ـ ، وقال : (للـذين يؤلـون من نسائهم) (البقرة : 226)، أي: يحلفون، وقال تعالى: (ولا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم) (البقـرة : 225)ـ ، وقال تعالى : (يحلفون بالله لكم ليرضـوكم)(التوبـة:62) وقال تعالى: (وأقسموا بالله جهد أيمانهم)(النور:53).

واختلف أهل العلم في (لا) في قوله (لا أقسم) .

فقيل : أنها نافية على الأصل، وأن معنى الكلام : لا أقسم بهذا الشي على المُقسم بــه، لأن الأمر أوضح من أن يحتاج إلى قسم، وهـذا فيه تكلـف، لأن من قـرأ الآية عرف أن مدلولها الإثبات لا النفي .

وقيل : إن (لا) زائدة، والتقدير اقسم .

وقيل : إن (لا) للتنبيه، وهذا بمعنى الثاني، لأنها من حيث الإعراب زائدة .

وقيل إنها نافية لشي مقدر، أي:لا صحة لما تزعمون من انتفاء البعث، وهذا في قوله تعالى : (لا أقسم بيــوم القيامــة) فيه شي من التكلــف، والصــواب أنها زائــدة للتنبيه .

والإقسام على الله: أن تحلف على الله أن يفعل، أو تحلف عليه أن لا يفعــل، مثل : واللــه، ليفعلن كــذا، أو والله، لا يفعل الله كذا .

والقسم على الله ينقسم إلى أقسام :

الأول : أن يقسم على ما أخــبر به ورســوله من نفي وإثبات، فهذا لا بأس به، وهـذا دليل على يقينه بما أخـبر الله به رسوله، مثل : والله، ليشفعن الله نبيه في الخلق يوم القيامة، ومثل : والله، لا يغفر الله لمن أشرك به .

الثاني : أن يقسم على ربه لقوة رجائه وحسن الظن بربه، فهذا جائز لإقرار النبي صلى الله عليه وســلم ذلك في قصة الربيّع بنت النضر عمة أنس بن مالك رضى الله عنهما (حينما كسـرت ثنية جارية من الأنصـار، فـاحتكموا

إلى النبي صلى الله عليه وسلم، فـأمر النـبي صـلى الله عليه وسـلم بالقصـاص، فعرضـوا عليهم الصـلح، فـأبوا، فقام أنس بن النضر، فقال : أتكسر ثنية الربيع؟ والله يا رســول الله لا تكسر ســنية الربيــع. وهو لا يريد به رد الحكم الشرعي ، فقال الرسول صلى الله عليه وسـلم : (يا أنس! كتاب الله القصاص)، يعني السن بالسـن. قـال واللـه، لا تكسر ثنية الربيـع)، وغرضه بـذلك أنه لقـوة ما عنـده من التصـميم على أن لا تكسر ولو بـذل كل غـال ورخيص أقسم على ذلك .

فلما عرفوا أنه مصمم ألقى الله في قلـوب الأنصـار العفو فعفوا، فقـال النـبي صـلى الله عليه وسـلم : (إن من عباد الله من لو أقسم على الله لأبره)[1]، فهو لقوة رجائه بالله وحسن ظنه أقسم على الله أن لا تكسر ثنية الربيع، فألقى الله العفو في قلوب هؤلاء الذين صـمموا أمـام الرسـول صـلى الله عليه وسـلم على القصـاص، فعفوا وأخذوا الأرش.

فثنــاء الرســول صــلى الله عليه وســلم شــهادة بــأن الرجل من عبـاد اللـه، وأن الله أبر قسـمه ولين له هـذه القلــوب، وكيف لا وهو الــذي قــال : بأنه يجد ريح الجنة دون أحــد، ولما استشــهد وجد به بضع وثمــانون ما بين ضربة بسيف أو طعنة برمح، ولم يعرفه إلا أخته ببنانه[2]، وهي الربيع هذه، رضى الله عن الجميع وعنا معهم .

ويدل أيضا لهذا القسم قوله صلى الله عليه وسلم : (و رب أشـــعث مـــدفوع بـــالأبواب لو أقسم على الله لأبره)[3] .

القسم الثــالث : أن يكــون الحامل له هو الإعجــاب بـــالنفس، وتحجر فضل الله – عز وجل – ســوء الظن به تعالى، فهذا محرم، وهو وشيك بأن يحبط الله عمل هـذا

([1] البخاري : كتاب الصلح / باب الصلح في الدية، ومسلم : كتاب القسامة / باب لإثبات القصاص في الأسنان .

(1) مسلم كتاب البر والصلة باب النهي عن تقنيط الإنسان رحمة الله

[2] البخاري : كتاب الجهاد / باب قله تعالى : (من المؤمنين رجال صدقوا) ، ومسلم : كتاب الإمارة / باب ثبوت الجنة للشهيد .

([3] مسلم : كتاب البر والصلة / باب فضل الضعفاء .

المُقسم، وهذا القسم هو الذي ساق المؤلف الحديث من أجله .
*** مناسبة الترجمة لكتاب التوحيد : أن تألى على الله - عز وجل - ، فقد أساء الأدب معه وتحجر فضله وأساء الظن به، وكل هذا ينافي كمال التوحيد، وربما ينافي أصل التوحيد، ، فالتألي على من هو عظيم يعتبر تنقصا في حقه .**

عن جندب بن عبد الله رضي الله عنه ؛ قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (قال رجل والله لا يغفر الله لفلان ؛ فقال الله عز وجل ، من ذا الذي يتألي علي أن لا اغفر لفلان ؟ إني قد غفرت له واحبطت عملك) . رواه مسلم (1)

*** * ***

قوله: (قال رجل) . يحتمل أن يكون الرجل الذي ذكر في حديث أبي هريرة الآتي أو غيره .

قوله : (والله يغفر لفلان) . هذا يدل على اليأس من روح الله، واحتقار عباد الله عند هذا القائل، وإعجابه بنفسه .
والمغفرة: ستر الذنوب والتجاوز عنه، مأخوذة من المغفر الذي يغطي به الرأس عند الحرب، وفيه وقاية وستر .
قوله : (من ذا الذي يتألي على أن لا أغفر لفلان) . (من) : اسم استفهام مبتدأ، (ذا) ملغاة، (الذي) : اسم موصول خبر مبتدأ، يتألى : يحلف، أي : من ذا الذي يتحجر فضلي ونعمتي أن لا أغفر لمن أساء من عبادي، والاستفهام، للإنكار.
والحديث ورد مبسوطا في حديث أبي هريرة[1] أن هذا الرجل كان عابدا وله صاحب مسرف على نفسه، وكان يراه على المعصية، فيقول : أقصر. فوجده يوما

---

(1) يأتي (ص 1090) .

على ذنب، فقال أقصر. خلـني وربي، أبُعث عليّ رقيبـا؟ فقال : والله، لا يغفر الله لك .
وهذا يدل على أن المسـرف عنـده حسن الظن بالله ورجاء له، ولعله كان بفعل الذنب ويتـوب فيما بينه وبين ربه، لأنه قـال : خلـني وربي ، والإنسـان إذا فعل الـذنب ثم تاب توبة نصوحا ثم غلبته عليه نفسه مرة أخرى، فإن توبته الأولى صحيحة، فإذا تاب ثانية فتوبته صـحيحة، لأن من شروط التوبة أن يعزم أن لا يعود، وليس من شروط التوبة أن لا يعود .
وهـذا الرجل الـذي قد غفر الله لـه، إما أن يكـون قد وجدت منه أسباب المغفرة بالتوبـة، أو أن ذنبه هـذا كـان دون الشـــرك فتفضل الله عليه فغفر لـــه، أما لو كـــان شركا ومات بدون توبة، فإنه لا يغفر له، لأن الله يقول : (إن الله لا يغفر أن يشرك به) (النساء:116) .
قوله : (وأحبطت عملك) . ظاهر الإضافة في الحديث : أن الله أحبط عمله كله ، لأن المفـــرد المضـــاف إلى الأصل فيه أن يكون عاما .
ووجه إحبـاط الله عمله على سـبيل العمـوم – حسب فهمنا والعلم عند الله – أن هـــذا الرجل كـــان يتعبد لله وفي نفسه إعجـــاب بعملـــه، وإدلال بما عمل على الله كأنه يمن على الله بعملـه، وحينئذ يفتقد ركنا عظيما من أركان العبادة، لأن العبادة مبنية على الذل والخضوع، فلا بد أن تكون عبدا لله- عز وجل – بما تعبـدك به وبما بلغك من كلامه، وكثـير من الـذين يتعبـدون لله بما تعبـدهم به قد لا يتعبدون بوحيـه، قد يصـعب عليهم أن يرجعـوا على رأيهم إذا تـبين لهم الخطأ من كتـاب الله وسـنة رسـوله صـلى الله عليه وسـلم ويحرفـون النصـوص من أجلـه، والواجب أن تكـون لله عبـدا فيما بلغك من وحيـه، بحيث تخضع له خضوعا كاملا حتى تحقق العبودية .
ويحتمل معـنى (أحبطت عملـك) ، أي : عملك الـذي كنت تفتخر به على هذا الرجـل، وهـذا أهـون، لأن العمل إذا حصلت فيه إساءة بطل وحده دون غـيره، لكن ظـاهر حديث أبي هريـرة يمنع هـذا الاحتمـال، حيث جـاء فيه أن الله تعالى قال : أذهبوا به إلى النار .

ونظير هذا مما يحتمل العموم والخصوص قوله صلى الله عليه وسـلم : في حـديث بهز بن حكيم عن أبيه عن جـده فيمن منع الزكـاة:(فإنا آخـذوها وشـطر ماله عزمه من عزمات ربنا)[1] .

فقوله (وشـطر مالـه) هل المـراد جميع مالـه، أو ماله الذي منع زكاته؟
يحتمل الأمـرين، فمثلا: إذا كـان عنـده عشـرون من الإبل، فزكاتهما أربع شـياه، فمنع الزكـاة، أو كـان عنـده أموال أخـرى من بقر وغنم ونقـود نأخذ نصف جميع ذلك مع الزكاة؟
اختلف في ذلك :
فقيل : نأخذ نصف ماله الذي وقعت فيه المخالفة .
وقيل : نأخذ نصف جميع المال .
والراجح أنه راجع إلى الإمام حسب المصـلحة ، فـإن كان أخذُ نصف المال الذي حصلت فيه المخالفة .

و في حـديث أبي هريـرة أن القائل رجل عابد . قـال أبو هريرة : ((تكلم بكلمة أوبقت دنياه وآخرته)) (1)

*** * ***

قوله : (تكلم بكلمة) . يعني قوله : واللـه، لا يغفر الله لك .

قوله : (أوبقت) . أي : أهلكت، ومنه حديث : (اجتنبوا السبع الموبقات)[2]، أي المهلكات .

---

[1] الإمام أحمد في (المسند) (5/ 2 ،4) ، وأبو داود : كتاب الزكاة / باب زكاة السائمة، والنسائي : كتاب الزكـاة / بـاب عقوبة مـانع الزكـاة / بـاب عقوبة مـانع الزكاة، والحاكم (1/555) – صححه على شرطهما ووافقه الذهبي .

1) الإمام أحمد في المسند (2/323) ، وأبو داوود كتاب الأدب / باب في النهي عن البغي

(2) تقدم (ص497) .

قوله : (دنيـــاه وآخرتـــه) . لأن من حبط عملـــه، فقد خسر الدنيا والآخرة.

أما كونها أوبقت آخرته، فالأمر ظاهر، لأنه من أهل النـــار والعيـــاذ باللـــه، وأما كونها أوبقت دنيـــاه، فلأن دنيا الإنســـان حقيقة هي ما اكتسب فيها عملا صـــالحا، وإلا ، فهي خسارة، قـــال تعـــالى : (والعصـــر* إن الإنســـان لفي خسر* إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وتواصـــوا بـــالحق وتواصوا بالصبر)(العصر: 1-3) وقال : (قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفســـهم وأهليهم يـــوم القيامة ألا ذلك هو الخسران المبين) (الزمر :15)ـ ، فمن لم يوفق للإيمـــان والعمل الصـــالح ، فقد خسر دنيـــاه حقيقـــة، لأن مآلها للفنـــاء، وكل شي فـــان فكأنه لم يوجـــد، واعتـــبر هـــذا بما حصل لك مما ســـبق من عمـــرك تجـــده مر عليك وكأنه لم يكن، وهـــذا من حكمة الله – عز وجل – لئلا يـــركبن إلى الدنيا .

وقوله : (قال أبو هريرة) . يعـــني في الحـــديث الـــذي أشار إليه المؤلف رحمه الله .

* * *

*** فيه مسائل :**

*** الأولى : التحـذير من التـألى على الله . لقوله :(من ذا الـــذي يتـــالى على أن لا أغفر لفلان)، وكونه أحبط عمله بذلك.**

*** الثانية: كون النار أقرب إلى أحدنا من شراك نعله.**

*** الثالثة : أن الجنة مثل ذلك.**

هاتان المسـألتان ذكرهما المؤلف تؤخـذان من حبـوط عمل المتألي والمغفرة للمسـرف على نفسـه، ثم أشـار إلى حديث رواه البخاري عن ابن مسعود رضى الله عنه : أن النبي صـلى الله عليه وسـلم : قـال الجنة أقـرب إلى أحــدكم من شــراك نعلــه، والنــار مثل ذلــك) ويقصد بها تقريب الجنة أو النار، والشراك : سير النعل الـذي يكـون بين الأبهام والأصابع .

*** الرابعة : فيه شـــــــــاهد لقوله : (إن الرجل ليتكلم بالكلمة ...) إلى آخــره. يشــير المؤلف إلى حــديث : (إن الرجل ليتكلم بالكلمة ما يــرى أن تبلغ حيث بلغت يهــوى بها في النار سبعين خريفا)[1]، أو(أبعد مما بين المشرق والمغرب)[2]،**

وهذا فيه الحذر من مزلة اللسان، فقد يسـبب الهلاك، ولهذا قال النبي صلى الله عليه وسلم : (من يضــمن لي ما بين لحييه وبين رجليه أضمن له الجنة)[3]، وقال لمعاذ كف عليك هذا – يعني لسانه-) قلت : يارسـول اللـه! وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ قال : (ثكلتك أمك يا معــاذّ وهل يكب النــاس في النــار على وجــوههم – أو قــال : على مناخرهم – إلا حصائد ألسنتهم ؟). [4]

---

[1] أخرجه أحمد في (المسند) (2/ 297،355) ، والترمذي : كتاب الزهد / باب فيمن تكلم بكلمة ليضحك بها الناس (7/76) – وقال (حسن غريب) .

[2] البخاري : كتـاب الرقـاق /بـاب حفظ اللسـان، ومسـلم : كتـاب الزهد / بـاب التكلم بكلمة يهوى بها في النـار، ولفظه عند مسـلم. (إن العبد ليتكلم بالكلمة ما يتبين ما فيها يهوى بها في النار أبعد ما بين المشرق والمغرب)

3) البخاري : كتاب الرقاق / باب حفظ اللسان .

4) الإمام في (المسند)(5/231) ، والترمذي : كتاب الإيمـان / بـاب ما جـاء في حرم الصلاة .

ولا سيما إذا كانت هذه الزلة ممن يقتدي به، كما يحدث من دعاة الضلال والعياذ بالله، فإن عليه وزره ووزر من تبعه إلى يوم القيامة .

*** الخامسة : أن الرجل قد يغفر له بسبب هو من أكره الأمور إليه. فإنه قد غفر له بسبب هذا التأنيب، وهذه لم تظهر لي من الحديث ولعلها تؤخذ من قوله : (قد غفرت له).**

ولا شك أن الإنسان قد يغفر له بشي هو من أكره الأمور إليه، مثل الجهاد في سبيل الله، قال تعالى : (كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم) (البقرة : 216) .

***   *   ***

باب لا يستشفع بالله على خلقه

عن جبير بن مطعم رضي الله عنه قال : جـاء أعـرابي إلى النبي صلي الله عليه وسـلم فقـال : يا رسـوا الله ! نهطت الأنفس ، وجاع العيال ، وهلكت

____

استشفع بالشي، أي : جعله شافعا له، والشـفاعة في الأصل : جعل الفـرد شـفعا، وهي التوسط ، للغـير بجلب منفعة له أو دفع مضرة عنه.

- **مناسبة الباب للتوحيد :**

أن الاستشفاع بالله على خلقه تنقص لله – عز وجل-، لأنه جعل مرتبة الله أدنى من مرتبة المشفوع إليه، إذ لو كان أعلى مرتبة ما احتاج أن يشفع عنده، بل يأمره أمـرا والله – عز وجل – لا يشفع لأحد من خلقه إلى أحــد، لأنه أجل وأعظم من أن يكون شافعا، ولهذا أنكر النبي صـلى الله عليه وســلم ذلك على الأعــرابي، وهــذا وجه وضع هذا الباب في كتاب التوحيد .

قوله : (أعرابي) . واحد الأعراب، وهم سكان البادية، والغالب على الأعراب الجفاء، لأنهم أحـرى أن لا يعلمـوا حدود ما أنزل الله .

قوله : (نهكت الأنفس) . (نهكت)، أي : ضعفت .

قوله : (جـاع العيـال وهلكت الأمـوال)، أي : من قلة المطر و الخصب، فضـعف الأنفس بسـبب ضـعف القـوة النفســية والمعنوية الــتي تحصل فيها إذا لم يكن هنــاك خصب، وجاع العيال لقلة العيش، وهلكت الأمـوال ، لأنها لم تجد ما ترعاه .

الأمـــوال ، فاستسق لنا ربك ، فإنا نستشـــفع با الله عليك ، وبك على الله فقال النبي صلي الله عليه وســلم : (سبحان الله سبحان الله) فما زال يسـبح حـتي عـرف ذلك في وجوه أصـحابه ، ثم قـال: (ويحك أتـدري ما الله !) إن شـــان الله اعظم من ذلك إنه لا يستشـــفع با لله

على أحد من خلقه ....)) وذكر الحـــــديث . رواه أبو داوود [1]

قوله : (فاســتق لنا ربــك) . أي : اطلب من الله أن يسقينا، وهـذا لا بـأس بـه، لأن طلب الـدعاء ممن تـرجى أجابته من وسائل إجابة الدعاء .

قوله : (نستشــفع بالله علي) : أي : نجعله واســطة بيننا وبينك لتـدعو الله لنـا، وهـذا يقتضي أن جعل مرتبة الله في مرتبة أدنى من مرتبة الرســول صــلى الله عليه وســلم . قوله : (ونستشــفع بك على اللــه) أي : نطلب منك أن تكون شافعا لنا عند اللـه، فتـدعو الله لنـا، وهـذا صحيح .

قوله : (سبحان الله، سـبحان اللـه) . قاله رسـول الله صلى الله عليه وسلم استعظاما لهذا القول، وإنكارا لــه، وتنزيها لله – عز وجل – عما لا يليق به من جعله شــافعا بين الخلق وبين الرسول صلى الله عليه وسلم .

و(ســبحان) : اسم مصــدر منصــوب على أنه مفعــول مطلق من سبح يسبح تسبيحا، وإذا جـاءت الكلمة بمعـنى المصــدر وليس فيها حروفــه، فهي اسم مصــدر، مثل : كلام اسم مصـدر كلم والمصـدر تكليم، ومثل سـلام اسم المصدر سلم والمصدر تسليم .

(وسبحان) : مفعول مطلـق، وهو لازم النصب وحـذف العامل أيضا، فلا يأتي مع الفعل، فلا تقول : سبحت الله سبحانا إلا نادرا في الشعر ونحوه.

والتســـبيح: تنزيه الله عما لا يليق به من نقص، أو عيب، أم مماثلة للمخلوق، أو ما أشبه ذلك .

وإن شئت أدخل مماثلة المخلوق مع النقص والعيب، لأن مماثلة النـــاقص نقص، بل مقارنة الكامل بالنـــاقص تجعله ناقصا ، كما قال الشاعر :

ألم تر أن السيف ينقص قدره إذا قيل إن السيف أمضى من العصا

---

[1] أبو داوود : كتاب السنة / باب في الجهمية وابن خزيمة في التوحيد ، (147) وابن ابي عاصم في السنة (575) وصححه العلامة ابن القيم في تهـذيب السـنن (7/96) .

قوله : (فما زال). إذا دخلت (مـــا) على زال الــــذي مضـارعها يــزال، صــار النفي ثابتا مفيـدا للاسـتمرار ، كقوله تعـالى : (ولا يزالـون مختلفين إلا من رحم ربـك) (هود :118-119) .

وجملة (يسبح) : خبر زال .

قوله : (حـتى عـرف ذلك في وجـوه أصـحابه) . أي : عرف أثره في وجوه أصحابه، وأنهم تأسـوا بـذلك، لأنهم عرفوا أنه صـلى الله عليه وسـلم لا يسـبح في مثل هـذا الموضع ولا يكرره إلا لأمر عظيم، ووجه التسـبيح هنا أن الرجل ذكر جملة فيها شي من النقص لله تعالى، فسـبح النــبي صــلى الله عليه وســلم ربه تنزيها له عما توهمه هذه الكلمة، ولهذا كـان الرسـول صـلى الله عليه وسـلم وأصحابه في السـفر إذا هبطـوا واديا سـبحوا، تنزيها لله تعـالى عن السـفول الـذي كـان من صـفاتهم، وإذا علـوا نشــزا كــبروا، تعظيما لله – عز وجل –[1] وأن الله تعـالى هو الذي له الكبرياء في السماوات والأرض .

قوله : (ويحــك) . ويح : منصـــوب بعامل محــــذوف، تقديره ألزمك الله ويحك.

وتــارة تضــاف، فيقــال : ويحــك، وتــارة تقطع عن الإضافة، فيقال : ويحا لـك، وتـارة ترفع على أنه مبتـدأ، فيقال : ويحه أو ويح له .

وهي وويل وويس كلها متقربة في المعنى .

ولكن بعض علمـاء اللغة قـال : إن ويح كلمة تــرحم، وويل كلمة وعيد.

فمعنى ويحك : إني أترحم لك وأحن عليك .

ومنهم من قال : كل هذه الكلمات تدل على التحـذير .

فعلى معنى أن ويح بمعنى الترحم يكون قوله صـلى الله عليه وسلم لهذا الرجل ترحما لهذا الرجل الذي تكلم بهذا الكلام ، كأنه يعرف قدر الله.

قوله : (أتدري ما الله) . المـراد بالاسـتفهام التعظيم، أي : شـأن الله عظيم، ويحتمل أن المعـنى : لا تـدري ما

---

[1] البخاري : كتاب الجهاد / باب التسبيح إذا هبط واديا .

الله، بل أنت جاهل به، فيكون المراد بالاستفهام النفي .

وقوله : (ما الله) . جملة استفهامية معلق ل(تدري) عن العمل، لأن درى تنصب مفعولين، لكنها تعلق بالاستفهام عن العمل وتكون الجملة في محل نصب سدت مسد مفعولي تدرى .

قوله : (إن شاء الله أعظم من ذلك) . أي : إن أمر الله وعظمته أعظم مما تصورت حيث جئت بهذا الفظ .

قوله: (إنه لا تستطيع بالله على أحد) أي : لا يطلب منه أن يكون شفيعا إلى أحد، وذلك لكمال عظمته وكبريائه، وهذا الحديث فيه ضعف، ولكن معناه صحيح، وأنه لا يجوز لأحد أن يقول : نستشفع بالله عليك .

فإن قيل : أليس قد قال النبي صلى الله عليه وسلم : (من سأل بالله فأعطوه)[2]، وهذا دليل على جواز السؤال بالله جائزا لم يكن إعطاء السائل واجبا؟

والجواب أن يقال : إن السؤال بالله لا يقتضي أن تكون مرتبة المؤول به أدنى من مرتبة المسؤول بخلاف الاستشفاع ، بل يدل على أن مرتبة المسؤول به عظيمة، بحيث إذا سئل به أعطي .

على أن بعض العلماء قال : (من سألكم بالله)، أي : من سألكم سؤالا بمقتضى شريعة الله فأعطوه، وليس المعنى من قال : أسألك بالله .

والمعنى الأول أصح، وقد ورد مثله في قول الملك: (أسألك بالذي أعطاك اللون الحسن)[3] .

*   *   *

---

[2] تقدم (ص 935) .

[3] تقدم تخريجه ص877) .

* فيه مسائل :

* الأولى : إنكاره على من قال (نستشفع بالله عليك) تؤخذ من قوله : (سـبحان الله أتـدري ما اللـه)، وقوله : (إنه لا يستشفع بالله على أحد من خلقه) .

* الثانية : تغيره تغـيرا عـرف في وجـوه أصـحابه من هذه الكلمة. تؤخذ من قوله : (فما زال يسبح حتى عـرف ذلك في وجـوه أصـحابه) ، وكونه يكـرر سـبحان الله هـذا يدل على أنه تغير حتى عرف في وجوه أصحابه من هـذه الكلمـة، وهـذا يـدل على أن هـذه الكلمة كلمة عظيمة منكرة.

* الثالثة : أن لم ينكر عليه قوله : (نستشـفع بك على الله) . لأنه قال : لا يستشفع بالله على أحد، فـأنكر عليه ذلك، وسكت عن قولـه: (نستشـفع بك على اللـه)، وهـذا يـدل على جـواز ذلك ، وهنا قاعـدة هي : (إذا جـاء في النصوص ذكر أشياء، فأنكر بعضـها وسـكت عن بعض، دل على أن ما لم ينكر فهو حـق، مثـال ذلك قوله تعـالى : (وإذا فعلا فاحشة قـالوا وجـدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء) (الأعراف: 28) ، فأنكر قولهم : (والله أمرنا بها)، وسكت عن قولهم : (وجـدنا عليها آباءنـا) فـدل على أنها حـق، ومثلها عـدد أصـحاب الكهـف، حيث قـال عن قـول : (ثلاثة رابعهم كلبهم ويقولون خمسة سادسهم كلبهم رجما بـالغيب)، وسـكت عن قول سبعة وثامنهم كلبهم) (الكهف :22) .

* الرابعة التنبيه على تفسير(سبحان الله) . لأن قوله : (إن شـاء الله أعظم) دليل على أنه مـنزه عما ينـافي تلك العظمة .

* الخامسة : أن المسلمين يسألونه الاستسقاء . وهذا في حال حياتـه، أما بعد وفاته فلم يكونـوا يفعلونـه، لأنه صـلى الله عليه وسـلم انقطع عمله بنفسه وعبادتـه، ولهذا لما حصل الجـدب في عهد عمر بن الخطـاب رضى الله عنه استسـقى بالعبـاس، فقـال : (اللهم كنا نتوسل إليك بنبينا فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا). وتوسـلهم بـالنبي صـلى الله عليه وسـلم كـان بطلبهم

الدعاء منه، ولهذا جاء في بعض الروايـات : أن عمر كـان يأمر العباس فيقوم فيدعو .

وبهــذا نعــرف أن القصة المروية عن الرجل العتــبي الذي كان جالسا عند قـبر النـبي صـلى الله عليه وسـلم، فجـاء أعـرابي ، فقـال : السـلام عليكم يا رسـول الله سمعت الله يقول :(و لو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جـاؤوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابا رحيما) (النسـاء :64)ـ ، وإني قد جئت مسـتغفرا لـذنبي مستشفعا بك إلى ربي ، ثم أنشأ يقول :

يا خير من دفنت بالقاع أعظمه
فطاب من طيبهن القاع والأكمُ
نفسي الفداء لقبر أنت ساكنه فيه
العفاف وفيه الجود والكرم

ثم انصـرف، قـال العتـبي : فغلبتـني عيـني، فـرأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم، فقال : ياعتبى ، بشر الأعرابي أن الله قد غفر له .

فهذه الرواية باطلة لا صحة لها، لأن صاحبها مجهـول، وكذلك من رواها مجهولون، ولا يمكن أن تصـح، لأن الآية : (ولو أنهم إذ ظلمــوا) ولم يقل إذا ظلمــوا، و (إذا) لما مضى بخلاف (إذا) والصــــحابة رضى الله عنهم لما لحق بهم الجــدب في زمن عمر بن الخطــاب لم يستســـقوا بالرسول صلى الله عليه وسلم، وإنما استسقوا بالعباس بن عبد المطلب بدعائه وهو حاضر فيهم[1] .

ومن فوائد الحديث :

1- أنه ينبغي أن يقــدم الإنســان عند الطلب الأوصــاف الــتي تســتلزم العطف عليه ، لقوله : (نهكت الأنفس) .

2- الــترحم على المــذنب إذا قلنا : إن (ويح) للترحم .

---

[1] البخاري : كتاب الاستسقاء / باب سؤال الناس الإمام الاستسقاء .

باب ما جاء في حماية النبي صلى الله عليه وسلم حمي التوحيد

وسدة طرق الشرك

عن عبد الله بن الشـــخير رضي الله عنه ؛ قـــال : (انطلقت في وفد من بني عامر إلى رسـول الله صـلى الله عليه وسلم فقلنا : أنت سيدنا فقـال : (السـيد الله تبارك وتعـالي) قلنا : وأفضـلنا فضلا ؛ وأعظمنا طـولا ؛ فقال : (قولوا بقولكم أو بعض قـولكم ، ولا يسـتجرينكم الشيطان). رواه أبو داوود بسند جيد.[1]

---

* مناسبة الباب للتوحيد :

لم تكلم المؤلف رحمه الله فيما مضى من كتابة عن إثبات التوحيد ، وعلى ذكر ما ينافيه أو ينافي كماله، ذكر ما يحمي هذا التوحيد، وأن الواجب سد طرق الشرك .

* **

قوله : (انطلقت في وفد بني عامر) . الظاهر أن هذا الوفد قدم على النـبي صـلى الله عليه وسـلم في العـام التاسع ، لأن الوفود كثرت في ذلك العام، ولذلك يسـمى عام الوفود.

قوله : (أنت سيدنا) . السـيد : ذو السـؤدد والشـرف، والسؤدد معناه : العظمة وما أشبهه .

وســيد : صــفة مشــبهة على وزن فيعل ، لأن اليــاء الأولى زائدة .

---

(1) تقدم تخريجه (ص 928)

قوله : (السيد الله) . لم يقل صلى الله عليه وسلم : سيدكم كما هو المتوقع، حيث إنه ورد على قولهم سيدنا لوجهين :

الوجه الأول : إرادة العموم المستفاد من (أل)، لأن (أل) للعموم ، والمعنى : أن الذي له السيادة المطلقة هو الله – عز و جل – ولكن السيد المضاف يكون سيدا باعتبار المضاف إليه، مثل : سيد فلان، سيد البشر، وما أشبه ذلك .

الوجه الثاني : لئلا يتوهم أنه من جنس المضاف إليه ، لأن السيد كل شي من جنسه .

والسيد من أسماء الله تعالى ، وهي من معاني الصمد، كما فسر ابن عباس الصمد بأنه الكامل في علمه وحلمه وسؤدده[2] وما أشبه ذلك .

ولم ينههم صلى الله عليه وسلم عن قولهم : (أنت سيدنا) ، بل أذن لهم بذلك ، فقال : قولوا بقولكم أو بعض قولكم، لكن نهاهم أن يستجريهم الشيطان فيترقوا من السيادة الخاصة إلى السيادة العامة المطلقة . لأن سيدنا سيادة خاصة مضافة، و(السيد) سيادة عامة مطلقة غير مضافة .

قوله : (تبارك) . قال العلماء : معنى تبارك ، أي : كثرت بركاته وخيراته، ولهذا يقولون إن هذا لا يوصف به إلا الله، فلا يقال : تبارك فلان، لأن هذا الوصف خاص بالله .

وقول العامة:(أنت تباركت علينا) لا يريدون بهذا ما يريدونه بالنسبة إلى الله – عز وجل -، وإنما يريدون أصابنا بركة مجئيك ، والبركة يصح إضافتها إلى الإنسان إذا كان أهلا لذلك، فقال أسيد بن حضير حين نزلت آية التيمم بسبب عقد عائشة الذي ضاع منها : (ما هذه بأول بركتكم يا آل أبي بكر[3] .

قوله : (وأفضلنا) . أي : فضلك أفضل من فضلنا .

---

(2) ابن كثير في (التفسير) (4/540) .

(3) البخاري : كتاب التيمم ، ومسلم : كتاب الحيض / باب التيمم .

قوله : (وأعظمنا طولا) . أي : أعظمنا شرفا و غـنى ،والطول : الغنى ، قال تعالى : (ومن لم يســتطع منكم طولا أن ينكح المحصـنات) (النسـاء :25) ويكـون بمعـنى العظمة، قال تعالى : (غافر الـذنب وقابل التـوب شـديد العقاب ذي الطول) (غافر : 3) أي : ذي العظمة والغـنى .

قوله : (قولــوا بقــولكم أو بعض قــولكم) . الأمر للإباحة والأذن كما سبق .

وقوله : (قولوا بقولكم) : يعني قولهم أنت سـيدنا ، أو أنت أفضلنا، وما أشبه ذلك .

وقوله : (أو بعض قولكم) يحتمل أن تكـون شـكا من الراوي ، وأن يكون من لفظ الحـديث، أي اقتصـروا على بعضه .

قوله : (ولا يستجرينكم الشيطان) . استجراه بمعنى : جذبه وجعله يجـري معـه، أي : لا يسـتميلنكم الشـيطان ويجذبنكم إلى أن تقولـوا قـولا منكـرا، فأرشـدهم صـلى الله عليه وسـلم إلى ما ينبغ أن يفعل ونهـاهم عن الأمر الــذي لا ينبغي أن يفعــل، حماية للتوحيد من النقص أو النقض .

وقال في النهاية: (لا يستجرينكم الشيطان) ، أي : لا يستغلبنكم فيتخذكم جريا ، أي : رسولا ووكيلا.

وعلى التفسيرين ، فمراد النبي صلى الله عليه وسلم حماية التوحيد وسد كل طريق يوصل إلى الشـــــــرك، والحماية من المنكر تعظم كلما كان المنكر أعظم وأكـبر أو كان الداعي إليه في النفوس أشد . ولهذا تجد أن باب الشـرك حمـاه النـبي عليه الصـلاة والسـلام حماية بالغة حـــتى سد كل طريق يمكن أن يكـــون ذريعة إليـــه، لأنه أعظم الـــذنوب، وأيضا بـــاب الزنا حمي حماية عظيمـــة، حـــتى منعت المـــرأة من التـــبرج وكشف الوجه وخلوتها بالرجل بلا محـرم وما أشـبه ذلك ، لئلا يكـون ذلك ذريعة إلى الزنا، لأن النفوس تطلبه، وفي باب الربا أيضا حمي الربا حماية عظيمة، حتى أن الرجل ليعطي الرجل صـاعا طيبا من الـبر بصـاعين قيمتها واحـدة، ويكـون ذلك رب محرم، مع أنه ليس فيه ظلم .

فالشـرك قد يكـون من الأمـور الـتي لا تـدعوا إليه النفوس كثيرا لكنه أعظم من الظلم، فالشيطان يحـرص أن يوصل ابن آدم إلى الشرك بكل وسيلة، فحماه النـبي صلى الله عليه وسلم حماية تامة محكمة، حتى لا يـدخل الإنسـان فيه من حيث لا يشـعر، وهـذا هو معـنى البـاب الذي ذكره المؤلف .

- **تنبيه :**

جرى شرح هذا الحديث على أن النبي صلى الله عليه وسلم نهاهم عن قول سـيدنا : فحـاولوا الجمع بين هـذا الحديث وبين قوله صلى الله عليه وسـلم : (أنا سـيد ولد آدم[1]، وقوله : (قومـــوا إلى ســـيدكم)[2]، وقوله في الرقيق : (وليقل سيدي ومـولاي)[3] بواحد من ثلاثة أوجه :

---

(1) تقدم تخريجه (ص928)

(2) البخاري : كتاب المغازي / باب مرجع النبي صل الله عليه وسلم من الأحزاب .

( ) تقدم تخريجه (ص924) .

(4) الإمـام أحمد في (المسـند) (5/346)، وأبو داود : كتـاب الأدب / بـاب لا يقـول الملوك ربي وربتي .

الأول : أن النهي على سبيل الكراهة والأدب، والإباحة على سبيل الجواز

الثاني:أن النهي حيث يخشى منه المفسدة،وهي التدرج إلى الغلو والإباحة إذا لم يكن هناك محذور .

الثالث : أن النهي بالخطاب، أي : أن تخاطب الغير بقولك : أنت سيدي أو سيدنا، بخلاف الغائب، لأن المخاطب ربما يكون في نفسه عجب وغلو وترفع، ثم إن فيه شيئا آخر، وهو خضوع هذا المتسيد له وإذلال نفسه له بخلاف ما إذا جاء من الغير، مثل : (قوموا إلى سيدكم) ، أو على سبيل الغيبة، كقول العبد: قال سيدي ونحو ذلك، لكن هذا يرد عليه إباحته صلى الله عليه وسلم للرقيق أن يقول لمالكه : سيدي .

والذي يظهر لي أن لا تعارض أصلا، لأن النبي صلى الله عليه وسلم أذن لهم أن يقولوا بقولهم ، لكن نهاهم أن يستجريه الشطان بالغلو مثل (السيد)لأن السيد المطلق هو الله تعالى ، وعلى هذا فيجوز أن يقال : سيدنا وسيد بني فلان ونحوه، ولكن بشرط أن يكون الموجه إليه السيادة أهلا لذلك، أما إذا لم يكن أهلا كما لو كان فاسقا أو زنديقا، فلا يقال له ذلك حتى ولو فرض أنه أعلى منه مرتبة أو جاها، وقد جاء في الحديث : لا تقولوا للمنافق سيد، فإنه إن يكن سيد فقد أسخطتم ربكم عز وجل)[4]، فإذا كان أهلا لذلك وليس هناك محذور فلا باس به، وأما أن يخشى المحذور أو كان غير أهل، فلا يجوز .

والمحذور : هو الخشية من الغلو فيه .

قوله : (قالوا : يا رسول الله) هذا النداء موافق لقوله تعالى : (ولا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا) (النور : 63) أي لا تنادوه كما ينادي بعضكم بعض ، فتقولوا : يا محمد ! ولكن قولوا : يا رسول الله ! أو يا نبي الله!

وفي الآية معنى آخر : أي إذا دعاكم الرسول ، فلا تجعلوا دعاءه إياكم كدعاء بعضكم بعضا إن شئتم أجبتم

(

وإن شـــئتم أبيتم، فهو كقوله : (يا أيها الـــذين آمنـــوا استجيبوا لله والرسول إذا دعاكم لما يحييكم) (الأنفـال : 24) وعلى المعـــنى الأول تكـــون (دعـــاء) مضـــافة إلى المفعول، وعلى الثاني تكون مضافة إلى الفاعل.

قوله : (يا خيرنـا) . هـذا صـحيح ، فهو خـيركم نسـبا ، ومقاما، وحالا.

قوله : (وابن خيرنا) . أي : في النسب لا في المقام والحال .

وكذلك يقال في قوله : (وابن سيدنا) .

قوله : (قولوا بقولكم) . سبق القول فيه .

قوله لا يستهوينكم الشـيطان) . أي : لا يسـتميلنكم الشـــيطان فتهـــووه وتتبعـــوا طرقه حـــتى تبلغـــوا الغلو ونظيره قوله تعـالى : (كالـذي اسـتهوته الشـياطين في الأرض خيران) (الأنعام :71)

قوله : 0أنا محمد عبد الله ورســوله) . محمد اســمه العلم، وعبد الله ورسوله وصفان له .

وهـــذان الوصـــفان أحسن وأبلغ وصف يتصف به الرسول صلى الله عليه وسلم ، ولذلك وصفه الله تعالى : (تبارك الذي نـزل الفرقـان على عبـده) (الفرقـان :1) ووصفه بها في مقـام الإسـراء، قـال تعـالى : (سـبحان الـــذي أســـرى بعبـــده ليلا) (الإســـراء :1) قـــال تعـــالى : (فـأوحى إلى عبـده ما أوحى) (النجم :10) ووصـفه في نقام الدفاع عنه والتحدي ، قال تعـالى : (وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا) (البقرة :23) .

وكـذلك بالنسـبة للأنبيـاء ، كقوله تعـالى : (ذرية من حملنا مع نوح إنه كـان عبد شـكورا) (الإسـراء :3) وهـذه العبودية خاصة، وهي أعلى أنواع الخاصة .

والعبودية لله من أجل أوصاف الإنسان، لأن الإنسان إما أن يعبد الله أو الشـــيطان، قـــال تعـــالى : (ألم أعهد إليكم يا بـــني آدم أن لا تعبـــدوا الشـــيطان إنه لكم عـــدو مبين* وأن اعبدوني هذا صـراط مسـتقيم) (يس : 60 – 61) قال ابن القيم :

هربوا من الرق الذي خلقوا له فبلوا برق النفس والشيطان

وقال الشاعر :

لا تدعني إلا بيا عبدها فإنه أشرف أسمائي

قوله : (ورسوله) . أي : المرسل من عنده إلى جميع الناس، كما قال تعالى : (قل يا أيها النـاس إني رسـول الله إليكم جميعـا) الأعـراف :158) . ورسـول الله صـلى الله عليه وسلم في قمة الطبقات الصالحة، قال تعالى : (ومن يطع الله والرســول فأولئك في قمة الطبقــات الصالحة، قال تعالى : (ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الــذين أنعم الله عليهم من النبــيين والصــديقين والشـهداء والصـالحين وحسن أولئك رفيقـا) (النسـاء : 69) والنبيون فيهم الرسول صـلى الله عليه وسـلم ، بل هو أفضلهم ،ومن عبارة المؤلف رحمه الله في الرسول صلى الله عليه وسلم : (عبد لا يعبد ، ورسول لا يكذب)

وقد تطرف في الرسول صلى الله عليه طائفتان :

- طائفة غلت فيه حــتى عبدتــه،وأعدته للســراء والضراء، وصارت تعبده وتدعوه من دون الله .

- وطائفة كذبته، وزعمت أنه كـذاب، سـاحر ، وشـاعر، مجنون ، كاهن، ونحو ذلك.

وفي قوله : (عبد الله ورسوله) رد على الطائفتين .

في قوله تعالى : (ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي) . (ما) نافية و(إن) وما دخلت عليه تأويل مصدر مفعول أحب ، أي : ما أحب رفعتكم إيـاي فـوق منزلـتي، لا في الألفاظ، ولا في الألقاب، ولا في الأحوال .

قوله (التي أنزلني اللـه) . يسـتفاد منه أن الله تعـالى هو الذي يجعل الفضل في عبادة ، و ينزلهم منازلهم .

*** مناسبة الباب لكتاب التوحيد :**

أن التوحيد يجب أن يحمى من كل وجه حــــتى في الألفاظ، ليكون خالصا من كل شائبة .

*** * ***

فيه مسائل :

*** الأولى : تحـذير النـاس من الغلو . تؤخذ من قوله : (ولا يستجرينكم الشيطان) ووجه : أن الرسول جعل هذا من استجراء الشيطان، والإنسان يجب عليه أن يحذر كل ما كان من طرق الشيطان .**

*** الثانية ما ينبغي أن يقول من قيل له : (أنت سيدنا) . وتؤخذ من قوله : (السـيد اللـه) فينبغي أن يقـول من قيل له ذلك : (السيد الله) .**

*** الثالثة : قوله : (لا يسـتجرينكم الشـيطان) مع أنهم لم يقولـوا إلا الحـق. ظـاهر كلام المؤلف أن هـذا من استجراء الشيطان، فهذه الكلمة يحتمل أن معناها أن ما قلتم من أستجراء الشيطان .**

ويحتمل أن المعنى : قولوا بهـذا القـول، ولكن إيـاكم أن تغلوا، فإن هذا من اسـتجراء الشـيطان، وهـذا ظـاهر الحديث كما سبق .

*** الرابعة : قوله : (ما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي) . أي : إني أكـره أن ترفعـوني فـوق منزلـتي) أي : إني أكـره أن ترفعـوني فـوق منزلـتي ، وهي العبودية والرسالة، ففيها تواضعه صلى الله عليه وسلم .**

*** * ***

باب ما جاء في قوله تعالى :

(وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَـتُهُ يَـوْمَ الْقِيَامَةِ)(الزمر: من الآية67)

قوله : (وما قـدروا) . الضـمير يعـود على المشـركين، و(قـدروا) : عظمـوا، أي : ما عظمـوا الله حق تعظيمه حيث أشركوا به ما كان من مخلوقاته .

قوله : (والأرض جميعا قبضته يوم القيامـة) . يحتمل أن تكون الواو للحـال، أي : ما قـدروا الله حق قـدره في هذه الحال .

ويحتمل أن تكون للاستئناف ، لبيان عظمة الله – عز وجل - ، وهذا أقوى ، لأنه يعم هذه الحال وغيرها .
والقبضة : هي ما يقبض باليـــد، وليس المــــراد بها الملك كما قيل، نعم، لو قال : الأرض في قبضـته، لكـان تفسيرها بالملك محتملا .
قولـه(جميعـا) . حـال من الأرض ، فيشـمل بحارها وأنهارها وأشـجارها وكل ما فيهـا، الأرض جميعا قبضـته يوم القيامة، والسماوات على عظمها وسعتها مطويـات بيمينه، قال الله – عز وجـل: (يـوم نطـوي السـماء كطي السـجل للكتب كما بـــدأنا أول خلق نعيـــده) (الأنبيـــاء : 104) .
قوله: (سبحانه وتعالى) . هذا تنزيه له عن كل نقص وعيب، ومما يـــنزه عنه هـــذه الأنـــداد، ولهـــذا قـــال : (وتعالى)، أي : ترفع .
قوله:(عما يشركون).أي : عن كل شرك يشركون بـــه، سواء جعلوا الخالق كالمخلوق أو العكس .

عن ابن مسـعود رضي الله عنه قـال : (جـاء حـبر من الأحبار إلى رسول الله صـلى الله عليه وسـلم فقـال: يا محمد ! إنا نجد ان الله يجعل الســـــماوات على إصـــــبع، والأرضين على إصبع ، والشجر على أصبع ، والثري على أصبع

____

قوله (حــبر) . الحــبر هو العـالم الكثـير العلم، والحـبر يشـابه البحر في اشـتقاق الحـروف، ولهـذا كـان العـالم أحيانا يسمى بالحبر و أحيانا بالبحر .
قوله : (إنا نجد) أي : في التوراة.
قوله : (فضحك النبي صـلى الله عليه وسـلم) . ولـولا ما بعدها لاحتملت أن تكون إنكارا، لأن من حدثك بحــديث لا تطمئن إليه ضحكت منـه، لكنه قـال : (تصـديقا لقـول الحبر) فكانت إقرارا لا غـير، ويـدل ذلك قوله : ثم قـرأ : (وما قدروا الله حق قـدره ...)الآيـة، فهـذا يـدل على أنه صــلى الله عليه وســلم أقــره واستشــهد لقوله بآية من كتـاب اللـه، فضـحكة واستشـهاده تقرير لقـول الحـبر،

وسـبب الضـحك هو سـروره، حيث جـاء في القـرآن ما يصدق ما وجده هذا الحـبر في كتبـه، لأنه لا شك أنه جـاء ما يصدق القـرآن، فـإن الرسـول صـلى الله عليه وسـلم سـوف يسر بـه، وإن كـان الرسـول يعلم علم اليقين أن القـرآن من عند اللـه، لكن تضـافر البينـات مما يقـوي الشي، أرأيت أسـامة بن زيد وأبـوه زيد بن الحارثـة؟ هل كان عند النبي صلى الله عليه وسلم شك في أن أسـامة ابنٌ لزيد ؟

الجـواب : ليس عنـده شك في ذلـك، ولما مر بهما مجـزز المـدلجي – وهو من أهل القيافة – وقد تغطيا بقطيفة لم يبد منهما إلا أقدامهما ، فنظر إلى أقدامهما ، فقال : إن هـذه الأقـدام بعضـها من بعض، فسر النـبي صلى الله عليه وسلم سرورا

وسائر الخلق على أصبع ، فيقول : أنا الملك ، فضحك النبي صلى الله عليه وسلم حتي بدت نواجـذه ؛ تصديقا لقول الحبر ، ثم قـرأ (مَا قَـدَرُوا اللَّهَ حَـقَّ قَـدْرِهِ وَالْأَرْضُ جَمِيعـاً قَبْضَـتُهُ يَـوْمَ الْقِيَامَـةِ)(الزمـر: من الآية67) الآية متفق عليه (1)

عظيما حتى دخل على عائشة مسـرورا تـبرق أسـارير وجهه ،

وقـال : (ألم تـرى أنه مجـزرا المـدلجي دخل فـرأى أسامة وزيدا وعليهما قطيفة، قد غطيا رؤوسهما وبـدت أقـدامهما، فقـال : أن هـذه الأقـدام بعضـها من بعض[2]، فـالمهم أن الرسـول صـلى الله عليه وسـلم دخل تـبرق أسـارير وجهـه، لأن في ذلك تأييـدا للحـق، وكـان المشـركون يقـدحون في أسـامة بن زيد وأبيه لاختلاف

---

(1) البخاري كتـاب التوحيد بـاب قوله تعـالى (لما خلقت بيـدي) ومسـلم كتـاب : المنافقين/ باب صفة القيامة

(2) البخاري : كتاب الفرائض / باب العمل بإلحاق القائف الولد .

ألوانهما ، فكـان أسـامة أسـود شـديد السـواد وأبـوه زيد شديد البياض، لكن الأمر ليس كما قالوا، بل هم كــاذبون في ذلك، واختلاف اللون لا يوجب شـبهة إلا لـذي هـوى ، فلعل المخالف في اللون نزعة عرق .

قوله : (أصـبع) . واحـدة الأصـابع، وهي مثلثة الأول والثـالث، ففيها تسع لغـات ، والعشر أصـبوع، وفي هـذا يقول الناظم :

وهمز أنملة ثلث وثالثة التسع في أصبع واختم بأصبوع

قوله : (أنا الملــك) . هــذه الجملة تفيد الحصــر، لأنها اسـمية معرفة الجــزئين، ففي ذلك اليــوم لا ملك لأحد ، قـال تعـالى : (يـوم هم بـارزون لا يخفى على الله منهم شـيء لمن الملك اليـوم لله الواحد القهـار) (غـافر :16) وكان النـاس الملـوك منهم والمملوكـون على حد سـواء يحشرون حفاة عراة غرلا ، وبهذا يظهر ملكوت الله – عز وجل – في ذلك اليوم ظهورا بينا ، لأنه سبحانه 0 ينــادي : لمن الملك اليـوم، فلا يجيب أحد ، فيجيب نفسه : (الله الواحد القهار) .

وقوله : (الملــك) . أي : ذو الســلطان، وليس مجــرد المتصــرف، بل هو المتصــرف، بل هو المتصــرف فيما يملك على وجه الســلطة والعلــو، وأما (المالــك) فــدون ذلك،ولهذا يمتدح نفسه تعالى بأنه الملك، وقوله تعالى : (مالك يــوم الــدين) (الفتحة :4) فيها قراءتــان : (ملــك، ومالك) ، ليتبن بذلك أنه ملك مالك .

فملك الله تعالى متضمن لكمال السـلطان والتـدابير والملـك، بخلاف غـيره، فـإن من ملـوك الـدنيا من يكـون ملكا لا يملك التصرف، ومنهم المالك وليس بملك .

وقوله : (حتى بدت نواجذه) . أي : ظهرت ، ونواجذ : جمع ناجذ، وهو أقصى الأضراس .

وهذا الضحك من النبي صلى الله عليه وسـلم تقرير لقول الحـبر، ولهـذا قـال ابن مسـعود : (تصـديقا لقـول الحبر) ولو كان منكرا ما ضـحك الرسـول صـلى الله عليه وسلم ولا استشـهد بالآيـة، ولقـال له : كـذبت كما كـذب الذين ادعوا أن الذي يزني لا يرجم، ولكنه ضحك تصديقا

لقــول الحــبر ســرورا بــأن ما ذكــره موافق لما جــاء به القرآن الذي أوحى إلى محمد صلى الله عليه وسلم .

قوله : ثم قــرأ (وما قــدروا الله حق قــدره والأرض جميعا في قبضته...)الآية .

هذا معنى الآية التي لا تحتمل غـيره،وأن السـماوات مطويات كطي السجل للكتب بيمينه، أي : تبارك وتعـالى ، لأن ذلك تفسيره صلى الله عليه وسـلم، وتفسـيره في الدرجة الثانية من حيث الـــترتيب، لكنه كـــالقرآن في الدرجة الأولى من حيث القبول والحجة .

وأما تفســير أهل التحريف ، فيقــول بعضــهم : (قبضـته)، أي : في قبضـته وملكه وتصـرفه، وهو خطـأ، لأن الملك والتصرف كائن يوم القيامة وقبله .

قـول بعضـهم : (السـماوات مطويـات) ، أي : تالفة وهالكة، كما تقول انطوى ذكر فلان، أي : زال ذكره .

و(بيمينـه) ، أي : بقسـمه، لأن الله تعـالى : (كل من عليها فـــان* ويبقى وجه ربـــك) (الـــرحمن : 26-27) فجعلــوا المــراد بــاليمين القسم ... إلى غـــير ذلك من التحريفـات الـتي يلجأ إليها أهل التحريـف، وهـذا لظنهم الفاسد باللـه، حيث زعمـوا أن إثبـات مثل هـذه الصـفات يستلزم التمثيـل، فصـاروا ينكـرون ما أثبته الله لنفسـه، وما أثبته رسوله وسلف الأمة بشبهات يدعونها حججا .

فيقال لهم : هل أنتم أعلم بالله من الله؟

إن قالوا : نعم، كفروا، وإن قـالوا لا، خُصـموا، وقلنا لهم : إن الله بين ذلك ابلغ بيان بأن الأرض جميعا قبضته يوم القيامة، والرسول صلى الله عليه وسـلم أقر الحـبر على ما ذكر فيما يطـــابق الآيـــة، وهل أنتم أنصح من الرسول صلى الله عليه وسلم لعباد اللـه؟ فسـيقولون : لا .

فإذا كان كلامه تعالى أفصح الكلام ، واصدقه، وأبينه، وأعلم بما يقـول ، لـزم علينا أن نقـول مثل ما قـال عن نفسه، ولسنا بمذنبين، بل الـذنب على من صـرف كلامه عن حقيقته التي أراده الله بها .

*** ومن فوائد الحديث : إثبات الأصــابع لله – عز وجل – لإقراره صلى الله عليه وسلم هذا الحبر على ما قال .**

والإصبع إصبع حقيقي يليق بالله – عز وجل - ، كاليد، وليس المـراد بقوله (على إصـبع) سـهولة التصـرف في السـماوات والأرض، كما يقوله أهل التحريـف، بل هـذا خطأ مخالف لظـاهر اللفظ و التقسـيم، ولأنه صـلى الله عليه وسـلم أثبت ذلك بـإقراره، ولقوله صـلى الله عليه وسـلم : (إن قلـوب بـني آدم بين أصـبعين من أصـابع الرحمن)[1].

وقوله : (بين أصبعين) لا يلزم من البينة المماسة، ألا تـرى قوله تعـالى : (والسـحاب المسـخر بين السـماء والأرض)(البقـرة:164) والسـحاب لا يمس الأرض ولا السماء وهو بينهما، ونقول: عنـيزة بين الـزلفي والـرس ، ولا يلزم أن تكـون متصـلة بهما ، وتقـول : شـعبان بين ذي القعدة وجمادى، ولا يلزم أن يكون مواليا لـه، فتـبين أن البينة لا تسلتزم الاتصال في الزمن أو المكـان، وكما ثبت عنه صلى الله عليه وسلم: أن الله – سبحانه وتعالى – يكـون قبل وجه المصـلي [2]ولا يلـزم من المقابلة أن يكون بينه وبين الجدار أو السترة التي يصلي عليها، فهو قبل وجهه وإن كان على عرشـه، ومثـال ذلـك: الشـمس حين تكون في الأفق عند الشـروق أو الغـروب، فـإن من الممكن أن تكون وجهك وهي في العلو .

فتبين بهذا أن هؤلاء المحرفين على ضـلال، وأن من قال : إن طريقتهم أعلم وأحكم ، فقد ضل .

ومن المشهور عندهم قولهم : طريقة السـلف أسـلم وطريقة الخلف أعلم وأحكم، وهـذا القـول على ما فيه من التناقض قد يوصل إلى الكفر، فهو :

أولا : فيه تناقض، لأنهم قالوا : طريق السلف أسلم ، ولا يعقل أن تكون الطريقة أسلم وغيرها أعلم و أحكم ، لأن الأسلم يستلزم أن يكـون أعلم وأحكم ، فلا سـلامة إلا بعلم بأسباب السلامة وحكمة في سلوك هذه الأسباب .

ثانيا : أين العلم والحكمة من التحريف والتعطيل ؟

---

[1] مسلم كتاب القدر/ باب تصريف الله تعالى القلوب كيف يشاء .

[2] البخاري : كتاب الصلاة/ باب حك الـبزاق باليد في المسـجد، ومسـلم : كتـاب الزهد .

ثالثا : يلزم منه أن يكون هؤلاء الخـالفون أعلم بالله من رسوله صـلى الله عليه وسـلم وأصـحابه، لأن طريقة السلف هي طريقة النبي صلى الله عليه وسلم .

رابعا : أنه قد تصل الكفر، لأنها تستلزم تجهيل النبي صـــلى الله عليه وســلم وتســفيهه، فتجهيله ضد العلم، وتسفيهه ضد الحكمة، وهذا خطر عظيم .

فهذه العبارة باطلة حتى وإن أرادوا بها معنى صحيحا ، لأن هـؤلاء بحثـوا وتعمقـوا وخاضـوا في أشـياء كـان السلف لم يتكلموا فيها، فإن خوضـهم في هـذه الأشـياء هو الذي ضـرهم وأوصـلهم إلى الحـيرة والشـك، وصـدق النـــبي صـــلى الله عليه وســـلم حين قـــال : (هلك المتنطعون)[3]، فلو أنهم بقوا على ما كان عليه السـلف الصالح ولم يتنطعوا، لما وصلوا إلى هـذا الشك والحـيرة والتحريف، حتى إن بعض أئمة أهل الكلام كان يتمـنى أن يموت على عقيدة أمه العجوز التي لا تعرف هذا الضلال، ويقول بعضهم : ها أنا أموت على عقيدة عجائز نيسابور .

وهذا من شدة ما وجدوا من الشك والقلق والحـيرة، ولا ظن أن العقيــدة الفاســدة يمكن أن يعيش الإنســان عليها أبــدا، لا يمكن أن يعيش الإنســان إلا على عقيــدة سليمة، وإلا ابتلى بالشك والقلق والحيرة، وقال بعضهم : أكــثر النــاس شــكا عند المــوت أهل الكلام، وما بالك – والعيــاذ بالله – بالشك عند المــوت، يختم للإنســان بضد الإيمان .

لكن لو أخذنا العقيدة من كتاب الله وسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم بسـهولة وبما جـرى عليه السـلف، نقـول كما قـال الـراوي وهو من علمـائهم ورؤسـائهم : رأيت أقرب الطـرق طريقة القـرآن: أقـرأ في الإثبـات : (الرحمن على العرش استوى) (طه :5) ، يعني : فأثبت في النفي : (ليس كمثله شــــي) (الشـــورى: 11) (ولا يحيطون به علما) (طه 110) ، ومن جرب مثل تجربـتي عرف مثل معرفتي،لأنه أقر قبل هـذا الكلام، فقـال:لقد تأملت الطـرق الكلامية والمنـاهج الفلسـفية، فما رايتها

---

(3) مسلم : كتاب العلم : هلك المتنطعون .

تــروي غليلا ولا تشــفي عليلا، ووجــدت أقــرب الطــرق طريقة القرآن .

والحاصل أن هــؤلاء المنكــرين لما جــاء في الكتــاب والسـنة من صـفات الله – عز و جل – اعتمـادا على هـذا الظن الفاسد أنها تقتضي التمثيل قد ضلوا ضلالا مبينــا، فالصـحابة رضى الله عنهم هل ناقشـوا الرسـول صـلى الله عليه وسـلم في هـذا ؟ والـذي نكـاد نشـهد به إن لم نشـهد به إنه حين يمر عليهم مثل هـذا الحـديث يقبلونه على حقيقته، لكن يعلمون أن الله لا مثل له : فيجمعـون بين الإثبات وبين النفي .

إذا موقفنا من هذا الحـديث الـذي فيه الأصـابع لله – عز وجل – نقر به ونقبلـــه، وأن لا نقتصر على مجـــرد إمــراره بــدون معــنى فنكــون بمنزلة الأمــيين الــذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني، بل نقـرؤه ونقـول : المـراد به أصبع حقيقي يجعل الله عليه هذه الأشياء الكبيرة، ولكن لا يجوز أبدا أن نتخيل بأفهامنا أو أن نقول بألسنتنا : إنه مثل أصابعنا ، بل نقول : المـراد به أصـبع حقيقي يجعل الله عليه هـذه الأشـياء الكبـيرة، ولكن لا يجـوز أبـدا أن نتخيل بأفهامنا أو نقول بألسنتنا : إنه مثل أصــابعنا ، بل نقـول الله أعلم بكيفية هـذه الأصـابع ، فكما أننا لا نعلم ذاته المقدســة، فكـــذلك لا نعلم كيفية صـــلاته، بل نكل علمها إلى الله – سبحانه وتعالى -.

قوله وفي رواية لمســلم : (والجبــال والشــجر على أصبع ثم يهزهم فيقول أنا الملك أنا الله)(1)

* * *

قوله (ثم يهزهن) . أي هزا حقيقيا، ليبين للعباد في ذلك الموقف العظيم عظمته وقدرتــه، وكــان الرســول صـلى الله عليه وسـلم يقـرا هـذه الآية ويقبض أصـابعه ويبسطها ، فصار المنبر يتحـرك ويهـتز[2] لأنه صـلى الله

(1) مسلم كتاب صفات المنافقين / باب صفة القيامة

عليه وسلم كان يتكلم بهذا الكلام وقلبه مملــوء بتعظيم الله تعالى .

فإن قلت هل نفعل أيدينا كما فعل النـبي صـلى الله عليه وسلم؟

فـالجواب : إن هـذا يختلف بحسب ما يـترتب عليـه، فليس كل من شـاهد أو سـمع يتقبل ذهنه ذلك بغـير أن يشـعر بالتمثيل ، فينبغي أن نكف لأن هـذا ليس بــواجب حـتى نقـول : يجب علينا ان نبلغ كما بلغ الرسـول صـلى الله عليه وسـلم بــالقول والفعــل، أما إذا كنا نتكلم مع طلبة علم أو مع إنسان مكابر ينفي هـذا ويريد أن يحـول المعــــنى إلى غـــير الحقيقة ، فحينئذ نفعل كما فعل الرسول صلى الله عليه وسلم .

فلو قال قائل:إن الله سميع بصير، لكن قـال:سـميع بلا سـمع وبصـير بلا بصـر، مع أن الرسـول عليه الصـلاة والسلام حين قرأ قوله تعالى: (إن الله يأمركم أن تـؤدوا الأمانــات إلى أهلها وإذا حكمتم بين النــاس أن تحكمــوا بالعدل إن الله نعما يعظكم به إن الله كان سميعا بصيرا) (النســاء : 58) وضع إبهامه على أذنه والــتى تليها على عينه وأبو هريرة حين حدث به كذلك[3] ، فهـذا الإنسـان الـذي يقـول : إن الله سـميع بلا سـمع وبصـير بلا بصر نقول له هكذا .

وكـــذلك الـــذي ينكر حقيقة اليد ويقـــول : إن الله لا يقبض السـماوات بيمينـه، وأن معـنى قبضـته، أي : في تصرفه، فهذا نقول له كما فعل الرسول صـلى الله عليه وسلم .

فالمقام ليس بالأمر السهل، بل هو أمر صعب دقيق للغايــة، فإنه يخشى من أن يقع أحد في المحــذور كــان بإمكانك أن تمسك عنه، وهذا هو فعل الرسول صلى الله عليه وسلم في جميع تصرفاته إذا تأملتهـا، حـتى الأمـور العملية قد يؤجلها إذا خــــاف من فتنة أو من شي أشد

---

(2) أحرجه الإمام أحمد ومسلم بمعناه .

(3) أبو داود : كتاب السنة/ باب في الجهمية، والحاكم (1/35)ـ – وقـال (صـحيح – ولم يخرجاه) .

ضررا، كما أخر بناء الكعبة على قواعد إبـراهيم خوفا من أن يكون فتنة لقريش الذين أسلموا حديثا [2].

قولـه: (والمـاء والـثرى على إصـبع) . هـذا لا ينـافي قوله (الأرضـين على إصـبع)، لأنه يقـال (المـاء والـثرى على إصبع) أي : الأرض كلها على إصـبع، ويـراد بالإصـبع الجنس،وإلا لتنــاقض مع معــنى الحــديث الــذي قبلــه: (الشـجر على إصـبع، والمـاء على إصـبع، والـثرى على إصبع)، إذ النكـرة إذا كـررت بلفظ النكـرة، فالثـاني غـير الأول غالبــا، وإذا كــررت بلفظ المعرفــة، فالثــاني هو الأول غالبــا، فيقــال : المــاء والــثرى كناية على الأرض كلها، أو أن الماء والثرى على إصبع وسكت عن الباقي ، إما اختصار أو اقتصار .

ولمســــــلم عن ابن عمر مرفوعا : (يطــــــوي الله السـموات يـوم القيامة ، ثم ياخـذهن بيـده اليمـني ، ثم يقـول : أنا الملك ، أين الجبـارون ؟ أين المتكـبرون ؟ ثم يطوي الأرضين السبع ، ثم ياخـذهن بشـماله ثم يقـول : أنا الملك ، اين الجبارون ؟ أين المتكبرون) [1]

---

*   *   *

قوله : (ولمســلم عن ابن عمر مرفوعا : (يطـوي الله السـماوات ...). سـبق معـنى هـذا الحـديث، وأن المـراد بالطي الطي الحقيقي .

قوله : (ثم يقول : أنا الملـك). يقـول ذلك ثنـاء على نفسه – ســبحانه وتعــالى وتنبيها على عظمته الكاملة وعلى ملكه الكامــــل، وهو الســـــلطان، فهو مالك ذو ســلطان، وهــذه الجملة كلا جزأيها معرفــة، وإذا كــان المبتدأ والخبر كلاهما معرفة، فإن ذلك من طرق الحصر،

---

(1) البخاري كتاب التفسير / باب(وما قدروا الله حق قدره)

(2) البخاري : كتب الحج / باب فضل مكة وبنياتها ، ومسلم : كتـاب الحج بـاب نقض الكعبة .

(1) مسلم كتاب صفات المنافقين / باب صفة القيامة

أي : أنا الــذي لي الملكية المطلقة والســلطان التــام لا ينازعني فيهما أحد.

قوله : (أين الجبارون؟). الاستفهام للتحدي، فيقــول : أين الملوك الذين كانوا في الدنيا لهم السلطة والتجبر والتكبر على عباد الله؟ وفي ذلك الوقت يحشرون أمثال الذر يطأهم الناس بأقدامهم .

قوله : (يطــوي الأرضــين الســبع). أشــار الله في القرآن إلى أن الأرضين سبع، ولم يرد العـدد صـريحا في القرآن، قال تعالى : (الله الذي خلق سـبع سـموات ومن الأرض مثلهن)(الطلاق : 12) ، والمماثلة هنا لا تصح إلا في العدد، لأن الكيفية تتعذر المماثلة فيها، وأما الســنة، فقد صرحت بعدة أحاديث بأنه سبع .

قوله : (ثم يأخـذهن بشـماله) . كلمـة(شـمال) اختلف فيها الـــرواة، فمنهم من أثبتها ، ومنهم من أســـقطها، وقد حكموا على من أثبتها بالشـذوذ ، لأنه خـالف ثقـتين في روايتها عن بن عمر . .

ومنهم من قــال : إن ناقلها ثقـــة، ولكنه قالها من تصرف.

وأصل هذه التخطئة هو ما ثبت في (صحيح مسـلم) : أن الرسول صـلى الله عليه وسـلم قـال : (المقسـطون على منابر من نـور على يمين الـرحمن وكلتا يديه يمين)[2]، وهذا يقتضي أنه ليس هناك يد يمين ويد شمال .

ولكن إذا كانت لفظة (شمال) محفوظة، فهي عندي لا تنــافي(كلتا يديه يمين)لأن المعــنى أن اليد الأخــرى ليست كيد الشــمال بالنســبة للمخلــوق ناقصة عن اليد اليمــنى، فقــال : (كلتا يديه يمين) أي ليست فيه نقص، ويؤيد هـذا في قوله في حـديث آدم :(اخـترت يمين ربي وكلتا يديه يمين مباركة)[3] فلما كان الوهم يذهب إلى أن إثبات الشمال، يعني : النقص في هذه اليد دون الأخرى، قـــــال : (كلتا يديه يمين) ، ويؤيـــــده أيضا قوله : (المقسـطون على منـابر من نـور على يمين الـرحمن)،

---

[2] (2) مسلم : كتاب الإمارة باب فضيلة الإمام العدل .

[3] 3) الترمذي : كتاب التفسير باب ألمر بالكتابة والشهود .

فــإن المقصــود بيــان فضل مــرتبتهم ، وانهم على يمين الرحمن – سبحانه - .

وعلى كل ، فــإن يديه – ســبحانه – اثنتــان بلا شك ، وكل واحـــدة غـــير الأخـــرى، وإذا وصـــفنا اليد الأخـــرى بالشـمال، فليس المـراد أنها أقل قـوة من اليد اليمـنى، بل كلتا يديه يمين .

والواجب علينا أن نقول : إن ثبت عن الرسول صلى الله عليه وسلم ، فنحن نؤمن بها، ولا منافـاة بينها وبين قوله : (كلتا يديه يمين) كما ســـــبق، وإن لم تثبت، فلن نقول بها .

وروي عن ابن عبـاس ؛ قـال : (ما السـماوات السـبع والأرضـــون الســـبع في كف الـــرحمن إلا كخردلة في يد أحدكم) [1]

****

قوله : (في كف الرحمن) هكذا ساقه المؤلف، والــذي في ابن جرير(في يد الله)، ففيما سـاقه المؤلف لإثبـات الكف لله تعـــالى، إن كـــان الســـياق محفوظا وإلا ففيه إثبات اليد. أما الكف فقد ثبت في أحاديث أخرى صـحيحة . قوله : (إلا كخردلة) . هي حبة نبات صغيرة جدا، يضـرب بها المثل في الصـغر والقلـة، وهـذا يـدل على عظمته – ســـبحانه - ، وأنه - ســـبحانه – لا يحيط به شـــي، والأمر أعظم من هـــذا التمثيل التقريـــبي، لأنه تعـــالى لا تدركه الأبصار ، ولا تحيط به الأفهام .

وقـــال ابن جرير : حـــدثني يـــونس ، اخبرنا ابن وهب : قال : قال ابن زيد : حدثني أبي ؛ قال : قال رسول الله صـــلي الله عليه وســـلم : (ما الســـماوات الســـبع في الكرسي إلا كدراهم سبعة ألقيت في ترس .)

---

(1) ابن جرير (24/25)

قال : وقال أبو ذر رضي الله عنه سـمعت رسـول الله صلي الله عليه وسلم يقـول : (ما الكرسي في العـرش إلا كحلقة من حديد ألقيت بين ظهــــري فلاة من الأرض)[(1)]

****

قوله : (قال بن جريـر) . هو المفسر المشـهور رحمه اللـه، وله تفسـير أثـرى يعتمد فيه على الآثـار، لكن آفته أنه لم يمحص هذه الآثـار، وأتى بالصـحيح والضـعيف وما دون الضـعيف موكـولا إلى القـاري، وربما كـان يريد أن يرجع إليه مرة ثانية ويمحصه، ولكنه لم يتيسر ذلك .

قوله : (ما السماوات السبع في الكرسي إلا كدارهم سـبعة ألقيت في تـرس) . الكرسي : موضع قـدمي الله تعالى، هكذا قال بن عباس رضى الله عنهما، والدراهم : جمع درهم ، وهو النقد من الفضــة، والــترس : شي من جلد أو خشب يحمل عند القتال يتقي به السيف والــرمح ونحوهما .

قوله : (ما الكرسي في العرش) . أي : بالنسـبة إليـه، والعرش هو المخلوق العظيم الذي استوى عليه الرحمن، ولا يقــدر قــدره إلا الله – عز وجل - ، والمــراد بالحلقة حلقة الــدرع، وهي صــغيرة وليست بشي بالنســبة إلى فلاة الأرض .

وهــذا الحــديث يــدل على عظمته عز وجل ، فيكــون مناسبا لتفسير الآية التي جعلها المؤلف ترجمة للباب .

وعن ابن مسـعود قـال : (بين السـماء الـدنيا والـتي تليها خمسمائة عام ، وبين كل سـماء وسـماء خمسـمائة عام ، وبين السـماء السـابعة والكرسي خمسـمائة عـام ، وبين الكرسي والمــاء خمس مئة عــام ، والعــرش فــوق

---

(1) ابن جرير الطبري في التفسير (5794) والبيهقي في الأسماء والصفات (510) وقال أبن حجر : (صححه ابن حبان وله شاهد عن مجاهد أخرجه سعيد بن منصور بسند صحيح) الفتح (13/ 410).

الماء ، والله فوق العرش ، لا يخفي عليه شيء من أعمالكم) . أخرجه ابن مهدي

---

* * *

قوله : (وعن ابن مسعود) . هذا الحديث موقوف على ابن مسعود، لكنه من الأشياء التي لا مجال للرأي فيها ، فيكون له حكم الرفع، لأن ابن مسعود رضى الله عنه لم يعرف بالأخذ عن الإسرائيلات .

قوله (بين السماء الدنيا والتي تليها خمسمائة عام) . وعلى هذا تكون المسافة بين السماء الدنيا والماء أربعة آلاف سنة، وفي حديث آخر: (إن كثف كل سماء خمسمائة عام))[3] ، وعلى هذا يكون بين السماء الدنيا والماء سبعة آلاف وخمسمائة ، وإن صح الحديث، فمعناه أن علو الله 0 عز وجل – بعيد جدا.

فإن قيل : يرد على هذا ما ذكره المعاصرون اليوم من أن بيننا وبين بعض النجوم والمجرات مسافات عظيمة؟

يقال في الجواب : إنه إذا صحت الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فإنا نضرب بما عارضها عرض الحيط، لكن إذا قدر أننا رأينا الشي بأعيننا، وأدركنا بأبصارنا وحواسنا، ففي هذه الحال يجب أن نسلك أحد الأمرين :

الأول : محاولة الجمع بين النص والواقع إن أمكن الجمع بينهما بأي طريق من طرق الجمع .

الثاني : إن لم يمكن الجمع تبين ضعف الحديث، لأنه لا يمكن للأحاديث الصحيحة أن تخالف شيئا حسيا واقعا أبدا، كما قال شيخ الإسلام في كتابه (العقل والنقل) : (لا يمكن للدليلين القطعيين أن يتعارضا أبدا، لأن تعارضهما يقتضي إما رفع النقيضين أو جمع النقيضين، وهذا مستحيل، فإن ظن التعارض بينهما، فإما أن لا يكون تعارض ويكون الخطأ من الفهم، وأما أن يكون أحدهما ظنيا والآخر قطعيا) .

(

فـإذا جـاء الأمر الواقع الـذي لا إشـكال فيه مخالفا لظـاهر شي من الكتـاب أو السـنة، فـإن ظـاهر الكتـاب يؤول حتى يكون مطابقا للواقع ، مثال ذلك قوله تعـالى : (تبارك الذي جعل في السماء

بروجا وجعل فيها سـراجا وقمـرا منـيرا) (الفرقـان : 61)وقال تعالى : (وجعل القمر فيهن نورا) (نوح : 16) ، أي في السماوات .

والآية الثانية أشد إشـكالا من الآية الأولى ، لأن الآية الأولى يمكن أن نقول : المراد بالسماء العلو، ولكن الآية الثانية هي المشكلة جدا ، والمعلوم بالحس المشـاهد أن القمر ليس في الســـماء نفســـها، بل هو في فلك بين السماء والأرض .

والجـواب أن يقـال : إن كـان القـرآن يـدل على أن القمر مرصع في الســـــماء كما يرصع المســـــمار في الخشـبة دلاله قطعية ، فـإن قـولهم : إننا وصـلنا القمر ليس صحيحا ، بل وصلوا جرما في الجو ظنوه القمر .

لكن القــرآن ليس صــريحا في ذلــك، وليست دلالته قطعية في أن القمر مرصع في السـماء، فآية الفرقـان قــال الله فيها : (تبــارك الــذي جعل في الســماء بروجا وجعل فيه سراجا وقمرا منير)، فيمكن أن يكـون المـراد بالسماء العلـو، كقوله تعـالى : (والسـحاب المسـخر بين السـماء والأرض) (البقــرة : 164)، وهــذا التأويل للآية قريب .

وأما قوله : (وجعل القمر فيهن نـــورا)، فيمكن فيه التأويل أيضا بــأن يقــال : المــراد لقوله : (فيهن) : في جهتين، وجهة السماوات العلــو، وحينئذ يمكن الجمع بين الآيات والواقع .

قوله : (والله فوق العرش) . هذا نص صريح بإثبـات علو الله تعالى علوا ذاتيا وعلو الله ينقسم إلى قســمين :

أ – علو الصفة ، وهذا لا ينكره أحد ينتسب للإسلام، والمراد به كمال صفات اللـه، كما قـال تعـالى:(للـذين لا يؤمنـــون بـــالآخرة مثل الســـوء ولله المثل الأعلى وهو العزيز الحكيم)(النحل:60)

ب – علو الـذات ، وهـذا أنكـره بعض المنتسـبين للإسـلام فيقولـون : كل العلو الـوارد المضـاف إلى الله المراد به علو الصفة، فيقولون في قوله صلى الله عليه وسلم : (والله فوق العرش)، أي : في القوة والسـيطرة والسلطان وليس فوقه بذاته .

ولا شك أن هـــذا تحريف في النصـــوص وتعطيل الصفات.

والذين أنكروا علو الله بذاته انقسموا إلى قسمين :

أ – من قـال : إن الله بذاته في كل مكـان، وهـذا لاشك ضلال مقتض للكفر.

ب – من قـــال : إنه لا فـــوق ولا تحت ولا يمين ولا شـمال ولا متصل بـالخلق ولا منفصل عن الخلـق، وهـذا إنكار محض لوجـود الله والعيـاذ بالله ، ولهـذا قـال بعض العلماء : لو قيل لنا صفوا العدم، ما وجـدنا أبلغ من هـذا الوصف .

ففروا من شي دلت عليه النصـوص والعقـول والفطر إلى شي تنكره النصوص والعقول والفطر.

قوله : (لا يحفى عليه شي من أعمــالكم) . يشــمل أعمال القلوب وأعمال الجوارح المرئي منه والمســموع، وذلك لعموم علم وسعته، وإنما أتى بـذلك بعد ذكر علـوه ليبين أن علوه لا يمنع علمه بأعمالنا، وهو إشارة واضحة إلى علو ذاته تبارك وتعالى .

وعن العبـــاس بن عند المطلب رضي الله عنه قـــال : قال رسـول الله صـلى الله عليه وسـلم:(هل تـدرون كم بين السـماء والأرض ؟ قلنا : الله ورسـوله أعلم . قـال : بينهما مسيرة خمسمائة عـام ومن كل سـماء إلى سـماء مسيرة

***   *   ***

قوله : (العباس) . يقال العباس، وعبـاس، و(أل) هنا لا تفيد التعريــف، لأن عبــاس معرفة لكونه علمــا، لكنها للمح الأصـــل، كما يقـــال : الفضل لفضـــله، والعبـــاس لعبوسه على الأعداء ، قال ابن مالك :

وبعض الأعلام عليه دخلا للمح ما قد كان عنده نُقلا

وقوله : (هل تدرون) . (هـل) : اسـتفهامية يـراد بها أمران :

أ – التشويق لما سيذكر .

ب – التنبيه إلى ما سـيلقيه عليهم ، وهـذا قوله تعالى : (هل أتاك حديث الغاشية) (الغاشـية : 1)ـ ، هـذا تنبيه وتشويق إلى شي من آيات الله الكونية .

وقوله تعــالى : (هل أدلكم على تجــارة تنجيكم من عذاب أليم) (الصف : 10)، هذا تنبيه و تشويق على شي من آيات الله الشرعية وهو الإيمان والعمل الصالح.

وقوله : (قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا) (الكهف : 103) تنبيه وتحذير .

وقوله : (هل أنــبئكم بشر من ذلك مثوبة عند اللــه) (المائدة :6) تنبيه وتحذير .

واختلاف هذه المعاني بحسب القرائن والسياق، وإلا فالأصل في الاستفهام أنه طلب العلم بالشي.

خمسـمائة سـنة ، وكثف كل سـماء مسـيرة خمسـمائة سنة ، وبين السماء السابعة

قوله : (كم) . استفهامية .

قوله : (قلنا : الله ورسـوله أعلم) . جـاء بـالعطف بالواو، لأن علم الرسول من علم اللـه، فهو الـذي يعلمه بما لا يدركه البشر .

وكذلك في المسائل الشـرعية يقـال : الله ورسـوله أعلم، لأنه صـــلى الله عليه وســـلم أعلم الخلق بشـــرع اللـه،وما قاله صـلى الله عليه وسـلم في الشـرع فهو كقـول الله وليس هـذا كقوله : (ما شـاء الله وشـئت)[2]، لأن هـذا في بـاب القـدر والمشـيئة، ولا يمكن أن يجعل الرسـول صـلى الله عليه وسـلم مشـاركا في ذلـك، بل يقال : ما شاء الله، ثم يعطف ب(ثم) والضـابط في ذلك أن الأمـــور الشـــرعية يصح فيها العطف بـــالواو، وأما الكونية ، فلا .

ومن هنا نعـــرف خطأ وجهل من يكتب على بعض الأعمال : (وقل أعملوا فسـيرى الله عملكم ورسـوله؟) (التوبة : 105) بعد موت الرسول صـلى الله عليه وسـلم وتعذر رؤيته، فالله يرى، ولكن رسوله لا يـرى، فلا تجـوز كتابته لأن كـــذب عليه صـــلى الله عليه وســـلم. قوله : (خمسمائة سنة) . اليـوم الثانية في خمسـمائة مكسـورة والألف لا ينطق بها .

قوله : (وبين السـماء السـابعة والعـرش بحـرا بين أسفله وأعلاه كما بين السـماء والأرض) وذلك خمسـمائة سنة.

قوله : (والله تعالى فوق ذلك) . هذا دليل على العلو العظيم لله عز وجل – وأنه- سـبحانه – فـوق كل شي ولا يحيط به شي من مخلوقاته ، لا الســماوات ولا غيرهـــا، وعليه ، فأنه – ســـبحانه – لا يوصف بأنه في جهة تحيط بـه، لأن ما فـوق السـماوات والعـرش عـدم، ليس هنـاك شي حتى يقال : لإن الله أحاط به شي من مخلوقاته.

ولهذا جاء في بعض كتب أهل الكلام يقولون : لا يجوز أن يوصف الله بأنه في جهة مطلقا، وينكـرون العلو ظنا منهم في إثبات الجهة يستلزم الحصر.

---

(2) تقدم (45) .

وليس كـذلك ، لأننا نعلم أن ما فـوق العـرش عـدم لا مخلوقـــات فيـــه، ما ثم إلا اللـــه، ولا يحيط به شي من مخلوقاته أبدا .

فالجهة إثباتها لله فيه تفصـيل، أما إطلاق لفظها نفيا وإثباتا فلا نقول به، لأنه لم يرد أن الله في جهة، ولا أنه ليس في جهــة، لكن نفصل ، فنقــول : إن الله في جهة العلو، لأن الرسول صلى الله عليه وسـلم قـال للجاريـة: (أين اللـه؟) وأين يسـتفهم بها عن المكـان، فقـالت في السماء.

فأثبت ذلك، وأقرها النبي صلى الله عليه وسلم،وقال : (أعتقها، فإنها مؤمنة)[2].

وأهل التحريف يقولـون : (أين) بمعـنى (من) ، أي : من اللـه؟ قـالت في السـماء، أي : هو من في السـماء، وينكرون العلو .

وقد رد عليهم ابن القيم رحمه الله في كتبه ومنها (النونيـة) ، وقـال لهم : اللغة العربية لا تـأتي فيهـا(أين) بمعنى (من)، وفرق بين (أين) و(من) .

فالجهة لله ليست جهة سفل، وذلك لوجـوب العلو له فطــرة وعقلا وســمعا، وليست جهة علو تحيط بــه، لأنه تعـــالى وسع كرســـيه الســـماوات والأرض، وهو موضع قدميه، فكيف يحيط به تعال شي من مخلوقاته؟!

فهو في جهة علو لا تحيط بـه، و لا يمكن أن يقـال : إن شيئا يحيط به، لأننا نقول : إن ما فـوق العـرش عـدم ليس ثم إلا الله – سـبحانه – ولهـذا قـال : (والله تعـالى فوق ذلك) .

قوله : (وليس يخفى عليه شي من أعمـال بـني آدم) . وقوله : (أعمال) إن قرنت بالأقوال صار المـراد بها : أعمال الجـوارح، والأقـوال للسـان، وإن أفـردت شـملت أعمال الجوارح وأقـوال اللسـان وأعمـال القلـوب، وهي هنا مفـــردة، فتشـــمل كل ما يتعلق باللســـان والقلب والجــوارح ، بل أبلغ من ذلك أنه لا يخفي عليه شــيئا من أعمال بني آدم في المستقبل، فهو يعلم ما]يكون فضلا

---

(2) مسلم : كتاب المساجد / باب تحريم الكلام في الصلاة .

عما كان، قال تعـالى: (يعلم ما بين أيــديهم وما خلفهم) (طه :110) ، أي : ما يستقبلونه وما مضى عليهم، ولما قال فرعون لموسى : (فما بال القــرون الأولى) ، أي : ما ِشأنها؟ (علمها عند ربي في كتـاب) ، أي : محفوظـة، (لا يضل ربي) : لا يجهل، (ولا ينسى) (طه : 52،51) : لا يذهل عما مضى – سبحانه وتعالى .

والنـبي صـلى الله عليه وسـلم صـدر هـذا الأمر بهل الدالة على التشــويق والتنبيه من أجل أن يثبت عقيـــدة عظيمة، وهو أنه تعالى فـوق كل شي بذاتـه، وأنه محيط بكل شي علمـــــــا، لقوله : (وليس يخفى عليه شي من أعمــال بــني آدم) ، فــإذا علمنا ذلــك، أوجب لنا تعظيمه والحذر من مخالفته، لأنه فوقنا ، فهو عال علينا، وأمــره محيط بنا.

وفي الحـــديث صـــفتان لله : ثبوتيـــة، وهي العلو المستفاد من قوله: (والله فوق ذلك) .

وسلبية المستفادة من قوله : (ليس يخفى عليه شي من أعمـــال بـــني آدم) ، ولا يوجد في صـــفات الله – عز وجل – صفة سلبية محضة، بل صفاته السـلبية الـتي هي النفي متضـمنة لثبـوت ضـدها على وجه الكمـال، فينفى عنه الخفـاء لكمـال علمــه، وينفى عنه اللغــوب لكمــال قوته، وينفى عنه العجز لكمال قدرته، وما أشبه ذلك .

فإذا نفى الله عن نفسه شيئا من الصفات، فـالمراد انتفاء تلك الصفة عنه لكمال ضدها، كما قال تعـالى : (لا تأخـذه سـنة ولا نـوم) (البقـرة :255) السـنة : النعـاس، والنوم: الإغفاء العميق، وذلك لكمال حياته وقيوميتــه، إذ لو كان ناقص الحياة لاحتاج إلى النوم ، ولو نـام ما كـان قيوما على خلقه، لأنه حين ينام لا يكون هناك من يقـوم عليهم ، ولهذا كان أهل الجنة لا ينـامون لكامل حيـاتهم، ولأن النـــوم في الجنة يـــذهب عليهم وقتا بلا فـــرح ولا سـرور ولا لـذة، لأن السـرور فيها دائم ، ولأن النـوم هو الوفاة الصغرى، والجنة لا موت فيها .

وليس في صفات الله نفي محض، لأن النفي المحض عـدم لا ثنـاء فيه ولا كمـال، بل هو لا شــي، ولأن النفي

أحيانا يرد لكون المحل غير قابل له، مثل قولك : الجــدار لا يظلم .

وقد يكون نفي الذم ذما، كما في قول :

قبيلة لا يغدرون بذمة ولا يظلمون الناس حبة خردل

فنفي الغــدر عنهم والظلم ليس مــدحا، بل ذم ينــبي عن عجزهم وضعفهم .

وقال آخر :

لكن قومي وإن كانوا ذوي عــدد ليسوا من الشر في شي وإن هانا

يجزون من ظلم أهل الظلم مغفرة ومن إساءة أهل السوء إحسانا

كأن ربك لم يخـلق لخـشــيته سواهم من جميع الناس إنسانا

فليت لي بهمو قوما إذا ركــبوا شنوا لا غارة ركبانا وفرسانا

فنفي أن يكون يد في الشر ، بين أن ذلك لعجزهم عن الانتصـار لأنفسـهم، وتمـنى أن يكـون له قـوم خـير منهم وأقوى .

*   *   *

فيه مسائل :

*** الأولى : تفســـير قوله تعــــالى : (والأرض جميعا قبضته يوم القيامة) . وقد تقدم من حـديث ابن مسـعود، حيث أقر النبي صلى الله عليه وسلم الحـبر على أن الله يجعل السماوات على إصبع ... إلخ .**

*** الثانية : أن هــذه العلــوم وأمثالها باقية عند اليهــود الـذين في زمنه صـلى الله عليه وسـلم لم ينكرونها ولم يتأولوها . كأنه يقـــول : أن اليهـــود خـــير من أولئك**

المحرفين لها، لأنهم لم يكذبوها ولم يتأولها، وجاء قــوم من هذه الأمة، فقالوا : ليس لله أصـابع، وإن المـراد بها القدرة، فكأنه يقول : اليهود خير منهم في هذا وأعــرف بالله .

* الثالثة : أن الحــبر لما ذكر للنــبي صــلى الله عليه وسـلم صـدقة، ونـزل القـرآن بتقرير ذلـك. ظـاهر كلام المؤلف بقوله : (ونـــزل القـــرآن) أنه بعد كلام الحـــبر، وليس كذلك، لأنه في حديث ابن مسعود قـال : ثم قـرأ قوله : (وما قـدروا الله حق قـدره) ، وهـذا يـدل على أن الآية نـزلت من قبـل، لكن مـراد المؤلف أن القـرآن قد نزل بتقرير ذلك .

* الرابعة : وقوع الضحك من الرسـول صـلى الله عليه وسلم لما ذكر الحبر هذا العلم العظيم .

ففيه دليل على جـواز الضـحك في تقرير الأشـياء،لأن الضحك يدل على الرضا وعدم الكراهة .

* الخامسة : التصـريح بـذكر اليـدين ، وأن السـماوات في اليد اليمنى والأرضين في الأخرى . وقد ثبتت اليدان لله تعالى بالكتاب والسنة وإجماع السلف .

وقوله : (في الأخرى) لا يعـني أنه ينفي ذكر الشـمال لما ذكره في المسألة التالية، وهي :

* السادسة : التصريح بتسـميتها الشـمال . وقد سـبق الكلام على ذلك .

* السابعة : ذكر الجبارين والمتكبرين عند ذلــك. ووجه ذكرهم أنه إذا كان لهم تجبر وتكبر الآن، فليقوموا بــذلك .

* الثامنة : قوله : (كخردلة في كف أحـــدهم) . يعـــني بذلك قوله في الحديث (ما السماوات السبع والأرضــون الســبع في كف الــرحمن إلا كخردلة في كف أحــدهم)، هكذا قال المؤلف

رحمه الله (في كف أحـــدهم)، وقد ســـاق الأثر بقوله (كخردلة في يد أحـــــــدكم) ، وانظر (ص 376) وكلامنا على الأثر هناك .

*** التاسعة : عظم الكرسي بالنسبة إلى السماء . حيث ذكر أنها بالنســبة للكرسي كــدراهم ســبعة ألقيت في ترس .**

*** العاشرة : عظم العرش بالنســبة إلى الكرسي . لأنه جعل الكرسي كحلقة ألقيت في فلاة من الأرض بالنسبة للعرش .**

*** الحادية عشر : أن العرش غير الكرسي والماء . ولم أر من قال : (إن العرش هو الماء لكن هناك من قال إن العرش هو الكرسي، لحديث : (إن الله يضع كرسـيه يـوم القيامة)[1] وظنوا أن هذا الكرسي هو العرش .**

وكذلك زعم بعض الناس إن الكرسي هو العلم، فقالوا في قوله تعالى : (وسع كرسيه السـماوات والأرض)، أي : علمه .

والصواب : أن الكرسي موضع القـدمين، والعـرش هو الذي استوى عليه الرحمن – سبحانه - ، والعلم صفة في العالم يدرك بها المعلوم .

*** الثانية عشـرة : كم بين كل سـماء إلى سـماء . وهو الخمسمائة عام**

*** الثالثة عشرة : كم بين السـماء السـابعة والكرسي . وهو الخمسمائة عام .**

*** الرابعة عشـــــرة : كم بين الكرسي والمـــــاء. وهو الخمسمائة عام .**

*** الخامسة عشـــرة : أن العـــرش فـــوق المـــاء . وهي ظاهرة .**

*** السادسة عشـــرة : أن الله فـــوق العـــرش . وهي ظاهرة .**

*** الســـابعة عشـــرة : كم بين الســـماء والأرض . وهو خمسمائة عام .**

*** الثامنة عشرة : كثف كل سماء خمسمائة سنة .**

*** التاسعة عشرة : أن البحر الذي فوق السـماوات بين أسـفله وأعلاه خمسـمائة سـنة . وقد سـبق الكلام على جميع هذه المسائل بأدلتها .**

ويستفاد من أحاديث الباب :

---

(1) الحاكم في ((المستدرك)) (2/396) .

1. أن الله لا يخفى عليه شي من أعمـال بـني آدم .
2. التحذير من مخالفة الله – عز وجل - .

والله اعلم ، والحمد لله رب العـــالمين، وصـــلى الله وســلم على نبينا محمد ، وأســال الله أن يختم لنا ولكم بالتوحيد ، آمين .